ميخائيل شولوخوف

الدون الهادئ

رواية فى اربعة مجلدات

المجلد الاول

دار «رادوغا» . موسكو

ترجمة : علي الشوك
امجد حسين
غانم حمدون
مراجعة : غالب طعمة فرمان

M. Шолохов
ТИХИЙ ДОН
Роман в четырех книгах
Книга 1
На арабском языке

©حقوق المراجعة والمقدمة والتعليقات والرسوم محفوظة لدار «رادوغا» ١٩٩٠
طبع فى الاتحاد السوفيتى

ISBN 5-05-002868-X
ISBN 5-05-002869-8

Ш 4702010201-464 / 031 (01)-90 071-90

كتاب عن الثورة والانسان

قبل عدة اعوام احتفلت الصحافة الادبية بمناسبة رائعة ، وهى مرور خمسين عاما على ظهور رواية شولوخوف «الدون الهادئ» .

هل كان فى مقدور سيرافيموفيتش اقدم الكتاب السوفييتيين وصاحب الرواية الشهيرة «السيل الحديدى» أن يعرف أنه ، فى حينه ، اى قبل نصف قرن كان ذا نبوّة بشكل ما ؟ فقد قرأ لتوه مخطوطة المؤلف الشاب من قرية الدون البعيدة «فيشينسكايا» فى قلب روسيا . كانت المخطوطة قد وصلت الى مجلة «اوكتوبر» التى كان سيرافيموفيتش آنذاك يرأس تحريرها . وكان سيرافيموفيتش قبل سنتين من هذا التاريخ قد شخص فى مقدمة كتاب شولوخوف الاول ، وهو مجموعة قصص ، الخصائص الفنية لهذه الموهبة الشابة . وتقرر البدء بنشر الرواية ابتداء من سنة ١٩٢٨ الجديدة . فى عشية ذلك استقبل الكاتب الشيخ فى بيته زملاءه الاجانب هنرى باربوس ، ومارتين اندرسون نيكسه ، وبيلا ايليش . وانزل من الرف اضبارة ضخمة من الاوراق المطبوعة على الالة الكاتبة ، ووزنها فى يده ، وقال وفى صوته نبرة انتصار :

— اصدقائى الاعزاء ! ارجو أن تتذكروا العنوان : «الدون الهادئ» وتتذكروا اسم المؤلف ميخائيل شولوخوف . . . وهذه كلمتى لكم : عن قريب سيكون هذا العمل مشهورا فى روسيا كلها ، وبعد سنتين او ثلاث فى العالم أجمع . . .

وهذا ما حصل بالفعل . فى نهاية ١٩٢٨ ، بعد أن نشر

المجلد الاول من «الدون الهادئ» فى مجلة «أكتوبر» صدر فى مجلة «رومان ــ غازيتا» * بعدد نسخ ضخم بالنسبة لذلك العهد ، ثم فى طبعة «الجديد فى الادب البروليتارى» . ونوهت بالكتاب جميع صحف ومجلات البلاد تقريبا (ومما تجدر الاشارة اليه أن التنويه لم يأت من قبل النقاد المحترفين وحدهم ، بل ومن عدد كبير من «القراء البسطاء» حيث اعرب عمال ومستخدمون فى مكتبات ومراسلون ريفيون فى القرى عن انطباعاتهم عما قرأوه) وقبل أن ينقضى عامان ترجم المجلد الاول من الرواية الفرنسيون والالمان والسويديون والاسبان ، والتشيكيون ، والهولنديون الى لغاتهم ، وصدر «الدون الهادئ» فى النمسا ، وفى المستعمرات الفرنسية ، ومن بعد ذلك فى اليابان ، وانجلترا ، والصين ، وبولونيا ، والولايات المتحدة الامريكية . . .

كان ميخائيل شولوخوف عندما صدر المجلد الاول فى الثالثة والعشرين لا غير . الا أنه كان يملك حياة تكفى لاكثر من شخص ، اذاجاز القول ، فقد كان معلما فى مدرسة للفلاحين القليلى التعليم ، كاتبا مسجلا فى مكتب التخزين ، وكان يعرف فخارة الاجر والشحن والتفريغ . وقد عمل فى فصيلة تموين ، وهو فى سن الخامسة عشرة ، فكان لذلك أعمق الاثر فى ذاكرة الكاتب المقبل اذ شارك فى مصادرة الحبوب من الكولاك ، الحبوب الضرورية لروسيا الجائعة .

ولم ينس شولوخوف استجواب ماخنو** نفسه له ، عندما

---

* مجلة مخصصة للرواية تصدر حتى الان . **المترجم** .

** ماخنو ــ ناستور ماخنو هو رئيس العصابات الفوضوية المعادية للثورة فى اوكرانيا ما بين ١٩١٨ ــ ١٩٢٠ .

لم ينج من الاعدام رميا بالرصاص «الا لصغر سنه» ولا المعركة التى شارك فيها ضد زمرة فومين ، والتى ينسبها شولوخوف فيما بعد لبطله غريغورى ميليخوف . بل على العكس جعل الحماس الكاتب الشاب يتوغل أعمق فاعمق فى تتبع واستقصاء جذور الظواهر والمصائر التى كان شاهدا عليها . وفى الوقت الذى صدرت فيه المجموعتان القصصيتان «قصص الدون» و«السهب اللازوردى» كانت قد نضجت وسجلت على الورق شخصيات المرحلة الشعبية التراجيدية والعظيمة : «الدون الهادئ» .

وصار ظهور المجلد الاول من «الدون الهادئ» فى عام ١٩٢٨ حدثا كبيرا للادب السوفييتى الفتى بأسره . وحين قرأ مكسيم غوركى «الدون الهادئ» قال عن مؤلفه : «انه يكتب كقوزاقى عاشق للدون ، ولحياة القوزاق ، وللطبيعة . . .»

فى رواية شولوخوف بالذات أنفتح اقليم الدون على الادب العالمى بشكل حقيقى . واصبحت منطقة الدون جزءا لا يمكن فصله عن اسم شولوخوف ، مثلما لا يمكن فصل الدنيبر عن غوغول ، منطقة ريازين عن يسينين ، والفولغا عن غوركى .

فى السنوات الاولى من السلطة السوفييتية ، كان ذكر الدون ، وقوزاق الدون يستحضر فى اذهان جمهور القراء أعلى درجات القلاقل والبلبلة .

ماذا كانوا يعرفون عن القوزاق ؟ انهم ، من ناحية ، احفاد اولئك الاحرار الجريئين الذين استطاعوا حتى فى القرن الخامس عشر أن يثبتوا حقوقهم فى الحرية ، ويحصلوا على غايتهم فى الواقع المريع لدولة الاقنان الروسية ، اولئك العبيد الهاربون ، المتمردون تحت رايتى ستيبان رازين ويميليان بوغاتشيف . . . ومن الناحية الاخرى ، «القوزاق» شىء يُعاب ويخوَّف به الناس . انهم

اولئك الذين كانوا يجلدون الطلبة بالسياط فى العهد القيصرى ويفرقون مظاهرات الاول من ايار ، والذين اغرقوا بالدم ثورة ١٩٠٥ الشعبية . . .

ولكن القوزاق ايضا هم جيش الخيالة الاول الاسطورى ، مجد ودرع السلطة السوفييتية الفتية ! وبودونى نفسه ، قائد جيش الخيالة الاول من القرية القوزاقية كوزيورين . . . فاى ناس هم ، هؤلاء القوزاق على كل حال ، من هم فى واقع الحال ؟

الرواية تجيب عن هذا السؤال ايضا . لقد جعل شولوخوف القارئ احد المقيمين القدامى فى كوخ قوزاقى ، واجلسه مع ارباب البيت على مائدة واحدة ، واخذه الى الحقل للم التبن فى اكداس ، والى صيد السمك ، والى درس الحبوب . ولم يُرِه فقط القوزاقى على صهوة حصانه ، والرمح فى يده ، والجزمة الطويلة فى ساقيه ، فقط ، بل والقوزاقى فى حذائه اللبادى والمحش فى يديه ، أو الطفل على ركبتيه ، او مع محبوبته يغازلها عند السياج . . . وشولوخوف يتحدث عن الحياة الصعبة والمتناقضة . وقد رسم اخلاق ناس لطفاء وافظاظ ، أباة ومتشربكين بايديهم وارجلهم فى الانحيازات الطبقية فى الكثير من النواحى . ذلك شعب كادح ، مجتمع كادح ، يعرف مثل اى مجتمع طبقى ، الانقسام الاجتماعى الداخلى ، والتناقضات الطبقية ، وما هو عامل على التطور التاريخى النشيط والسير نحو الكمال .

«الدون الهادئ» ذو قيمة هائلة للمؤرخ والمختص بالاقتصاد السياسى ، والفيلسوف ، والعالم الاجتماعى . ومع ذلك فان كشف الفنان الكبير للنفس الانسانية هو أعلى من كل الحقائق الاخرى . ان المعرفة بالخلق القوزاقى ، والعادات ، والقوة الحيانية ، والمطامح الرفيعة لهؤلاء ليس بمجموعهم فقط ، بل ولكل شخص على

انفراد ، هى وحدها تتيح لنا أن نفهم فهما كاملا لماذا كان من الممكن أن ينشأ ، تحت سقف بيت واحد ، اشخاص متباينون ، مثل بيتر ميليخوف ، وغريغورى ميليخوف ، ومثل ميتكا الجزار وناتاليا الطاهرة النفس من آل كورشونوف .

يقص «الدون الهادئ» بلغة الفن عن انتصار الثورة الاشتراكية فى روسيا بموثوقية ثابتة .

و«الدون الهادئ» من ناحية الشكل الفنى غالبا ما يصنَّف كملحمة شعبية . ومن هذا الارتفاع يجب ان يُفهم كل شىء فى هذا العمل . ومن ضمنه المجلد الاول من الكتاب . ان حوادثه «محلية» وبعيدة عن ثورة ١٩١٧ التى كانت موضوع اهتمام المؤلف الرئيسى .

. . . الشاب القروى الفتى غريشا ميليخوف ينام فى الفجر . وقد رمى ذراعه بحرية وبكل طولها ، ويراجع احلامه الفتوية .

فى الامكان أن تمعن فيه العين من غير عجالة وتميزه كما هو : جميلا جماله الخاص ، نافر الخصلات ، احدب الانف ، ذا وجنتين حادتين ، وبشرة سمراء متوردة مشدودة . كم كان هذا الشاب من قرية تاتارسكى فى تلك اللحظة فتيا ، مفتوحا لكل مسرات الحياة !

وأيامه قائمة على الفرح خلية ، بسيطة . وهاهم فتيان القرية ينظمون السباقات ، وغريشا بالطبع ، شديد الولع بلعب الخيول . ثم جاء أوان حش المروج ، ويتهيأ الى العمل بحذق . ان ذلك يريحه . وبصره يلتقط أرض المرج الملونة بتنورات النساء القشيبة ، والمروحة الشفافة التى تكونها اشعة الشمس الغاربة وراء الجبال البعيدة . ومحشه يقطع الاعشاب بتنغيم ، تاركا أثرا متماوجا ينساب بنعومة وراءه . . .

تبدو هذه الفصول من النظرة الاولى غير المتمعنة كثيرا «لاتقول شيئا مهما» وكأنها تخطيطات حياتية لمختلف وجوه المعيشة . نسمع نوادر الشاب المرح البسيطة تبدو على كثير من السذاجة . ونحس كيف يبرد الندى الاقدام الحافية . وكل ذلك يبدو ابسط من البسيط . وحتى ما حدث لغريغورى مع اكسينيا ، لا يحمل بعد ما يعكر كثيرا مجرى الايام الهادئ السمح ، الخالى من الاحداث من الناحية الاجتماعية . . .

ولكن فى غضون ذلك هناك قصة تروى عن الشعب ، عن المجتمع ، عن الفرد . وبدأت ترتسم ، بالفعل ، لوحة عريضة عن عالم القوزاق الخلقى ، بل ، اذا توسعنا قلنا وعن شعب روسيا بأسرها ، فى عشية الحرب الامبريالية الاولى ، مع الاحساس بدنو الثورة العظمى .

ان اللحظات الاجتماعية لحياة البطل ، وما هو شخصى لصيق به تماما ، يرد فى «الدون الهادئ» فى وحدة متلاحمة ، وبشكل تيارا حياتيا هدارا واحدا . وفى سلوك غريغورى ميليخوف الاجتماعى ، ومصيره الحياتى الكثير من النموذجى بالنسبة لقوزاق تلك السنين ، وفى نفس الوقت لا نجد شبها لكل ما يحصل له بشىء آخر . لم يتكرر فى اى انسان ، وعلى الاطلاق ، مصير وشخصية غريغورى ميليخوف ! على الاقل لان ما هو متناقض فى هذه الشخصية كأنما مضاعف ، واكثر من مضاعف ، ولا عجب . فانه «تركى» «شركسى» حفيد بروكوفى الذى دخل اسمه ولمدة طويلة فى تاريخ قرية تاتارسكى ، لانه كان جسورا بشكل فريد فى اتخاذ القرارات ، وصلبا بشكل مذهل فى الدفاع عن كرامته الانسانية . . .

ومن ناحية اخرى تبدو قصة حب غريغورى واكسينيا الجميلة منفصلة بما فيه الكفاية عن كل ما هو اجتماعى الى ابعد الحدود .

ولكننا نفكر : أليست هى الاخرى مرتبطة ، بطريقتها الخاصة ، بتحول الاحداث والمعارك الاهلية ، وذات صلة بالتحول الشديد لمصير غريغورى السياسى ، وعموما ، بكل بحثه المضنى عن الطريق الصحيح فى الحياة ؟

والذى يحدث على الدوام أن الواقع الثورى يضفى ألوانه ، على نحو فريد ، ليس على ما كان يبدو خصوصيا ، غير خاضع لاية تأثيرات خارجية بل على مصير غريغورى كله . ومن بداية الرواية حتى نهايتها لا يضعف ميدان الاحداث الموحد الجبار القوى .

تضم رواية «الدون الهادئ» اكثر من ٦٠٠ شخصية ، وجميعهم ضروريون لان نفهم فى اكثر ما يمكن من العمق ونقيم بشكل اصدق لتلك الشخصية المعقدة من الشعب ، الباحثة بعذاب عن موقعها فى الثورة . فغريغورى ميليخوف مرتبط ، بهذا الشكل او بذاك ، بكل هذه الشخصيات ، وحتى باولئك الذين لم يلتقهم بشكل مباشر ابدا ، فى شريكات الاحداث العاصفة .

وعلى خلفية مصائر كل هذه الشخصيات الستمائة فى «الدون الهادئ» (وشخصيات من مثل بونتشوك أو ميشكا كوشيفوى قبل كل شىء) يمكن أن نفهم الى الاخر تاريخ حياة غريغورى نفسه ، تلك الفكرة العميقة التى وضعها المؤلف فى هذه الشخصية الرائعة حقا .

و«الدون الهادئ» سرد قصصى يبين لنا كيف تستحوذ عملية الثورة بشكل لا مرد له على الانسان مهما كان موقفه من الثورة ذاتها معقدا ومتناقضا .

ومع السنين تكشف رواية شولوخوف امام عالم القراء المزيد والمزيد من طبقاتها الجديدة ذات الدلالة ، والمواضيع والصراعات ،

والمشاكل الاجتماعية والمعاشية المحضة التى لم يلحظها النقد من قبل . ولا يخلو من دلالة أن الجدل الابداعى الواسع الذى يدور حول «الدون الهادئ» منذ عام ١٩٢٨ لا ينقطع . فالكتاب هو نفس الكتاب ، ولكن الاسئلة التى تبرز فى مجرى النقاش ، فى العقود المختلفة ، تبدو مختلفة .

يتصور البعض ان «الدون الهادئ» يظهر بشكل شامل ومقنع اصطفاف القوى الطبقية فى الثورة والحرب الاهلية ، وأن المؤلف يجيب ، بالدرجة الاولى ، عن هذا السؤال : كيف تصرف الفلاحون المتوسطو الحال ، والذين ترتبط بهم دائما احد اللحظات فى اية ثورة شعبية . وبالطبع ليس من الصعب ايجاد الاسس لمثل هذا الرأى فى المعيار العام للرواية ، وفى تفاصيلها ، فان «الانقسام» الطبقى لابطال «الدون الهادئ» واضح جدا . فى احد الطرفين يقف افقر القوزاق («ولد» ، كريستونيا ، بروخور زيكوف ، كوشيفوى) وفى الطرف الاخر المستغلون الريفيون «ذوو الايدى البيض» (موخوف ، كورشونوف ، ليستنتسكى) وبينهما آل غريغورى ميليخوف الذى يمثلون الوسط فى اكثر مظاهره الاجتماعية والخلقية تعبيرا . . .

وآخرون فى التزامهم «الضيق» للطريق السيوسيالوجى يجدون فى الرواية ، دون عناء ، المادة اللازمة لان يستنتجوا : لقد كان من المهم لشولوخوف أن يظهر أن الجماهير الكبيرة ، القسم الكبير من الشعب وليس فقط المشاركين الافراد فى الثورة يمكن أن يتعرضوا ، دون وعى ، الى الضلال التاريخى ، ويجدوا انفسهم منجرين الى قضية غير صحيحة مناقضة لمصالحهم ، كما حدث ذلك فى تمرد فيشينسكويه . ان تتبع طريق البطل باعتباره «ضلالا» من جانبه يعارض فى البحث الادبى اعتبار هذا الطريق جريرة ثابتة

لغريغورى ازاء الثورة والشعب . جريرة شخص وحيد لم يرغب فى الاصغاء الى حقيقة الشعب المعذبة ، التى قادت اغلبية القوزاق الى الطريق الثورى الصحيح الوحيد .

وفى رأيى أن الكثير جدا من الادلة المقنعة سيجد ، فى عمل شولوخوف هذا ، اصحاب الرأى القائل بأن الجوهرى ، بالنسبة «للدون الهادئ» هو دحر الفكرة الكاذبة عن امكانية وجود طريق ثالث للثورة . وفى حقيقة الامر : لماذا ترك غريغورى معسكر الحمر ، على الرغم انه كان يكره البيض «ذوى الايدى البيض» بكل قوة روحه المتمردة ؟ فهو ليس انانيا ، على الاطلاق ، ولا مالكا صغيرا ، بل على العكس ، انه فى القائه نفسه فى الاتون ، غير باخل بها ، كان يريد أن يجد أفضل نصيب لشعبه الذى يتعرض غريغورى فى سبيله لجميع العذابات التى وصفها المؤلف ذلك الوصف البليغ .

ومع ذلك فان مصيبة غريغورى هى أنه كان يعتبر الشعب كله يتجسد كليا فى القوزاق ، ولا يرى شعبا خارج الدون ، ولا يفهم «عذابات» «روسيا» هناك . ولم يكن متعطشا ابدا للقتال مع «روسيا» هذه . يكفيه ان يكون للقوزاق برنامج بسيط بما فيه الكفاية : وليتحارب البيض مع الحمر ، أما نحن فسنجد طريقنا الى الثورة ، الطريق الذى لا يؤدى الى هؤلاء ، ولا الى اولئك . . . وكل التاريخ الحياتى لبطل الرواية الرئيسى ، وتاريخ الكثيرين الذين كانوا مرتبطين به يخبرنا ايضا الى أين تؤدى بالناس مثل هذه الفلسفة فى ظروف الانقسامات الثورية العظيمة .

فى كل ثورة ، فى كل عاصفة اجتماعية يوجد دائما اناس يحاولون خداع انفسهم بهذه الفكرة البريئة من الوهلة الاولى ، فكرة الحياد السياسى . ولكن كم من الناس قادت الى حافة الهاوية ،

وكم من الناس دفعت الى دوامة مصائب وعذابات لا حصر لها !
وقد أظهرت رواية «الدون الهادئ» كل ما ينطوى عليه هذا الموقف الـ«بين‌بين» من تهلكة فى الصراع بين القوى المقاتلة من أجل الحياة او الموت ، وفشل البحث عن «طريق ثالث» بين الحق والباطل ، الخير والشر ، النور والظلمة ، الثورة والعداء للثورة ، الايديولوجية التقدمية ، والايديولوجية الرجعية . وفى هذا المنحى يمكن ان تضاف ميزة أخرى الى الميزات الكثيرة لرواية شولوخوف الرائعة هذه وهى أن هذا العمل يصف كيف أن الافكار الاجتماعية السياسية تأسر الناس ، جماهير غفيرة من الناس ، ويكشف اهمية هذه الافكار بالنسبة لناس أحياء ، بالنسبة لعائلة بعينها او هذه القرية المعنية . ان الثمن الفعلى لفكرة «الطريق الثالث» فى الثورة هو حياة غريغورى المريرة ، وموت جميع المحيطين به على وجه التقريب .

بالطبع ، ان مثل هذا التفسير «للدون الهادئ» ليس الا واحدا من التفسيرات العديدة ، ولا يستوعب مطلقا كل الغنى الفكرى للرواية . ومهما كان عدد التفسيرات التى تظهر يجب أن نفهم دائما ، مثلما لاحظ الاكاديمى السوفييتى خرابتشنكو ، ان السعة الحقيقية لفن شولوخوف «تتمثل فى أنه اعطى للشخصيات التى أبدعها عمقا مذهلا ، وملأها بمحتوى ذا اهمية انسانية شاملة» .

فى «الدون الهادئ» لوحة تاريخية محددة هائلة ، وامام نظر القارئ تندلع عاصفة الثورة النارية ، وتجرى الاحداث على مساحة هائلة — من بطرسبورغ الثورية وخنادق غاليتسيا الى قرية على الدون ، وسهوب الكوبان ، التى صارت مسرحا لواحدة من اخطر معارك الثورة . ومع كل هذه السعة توجد عناية دقيقة ومتفحصة بشكل

مذهل تكاد تشمل كل الذين يقعون فى مدى نظر المؤلف ، عناية بالتحولات المفاجئة للمصائر ، وباليومى الاعتيادى المعيشى الصغير . . .

ويجب بشكل خاص أن يُبرز فى مهارة شولوخوف فن النفاذ السيكولوجى الى حياة البطل الداخلية الروحية : فالقارئ يعيش شيئا فشيئا ودون أن يدرى احاسيس البطل ، وينظر بعينيه الى ما يحيطه .

ان العبارة التى القاها شولوخوف ذات مرة فى حديث مع ادباء فرنسيين تجعلنا أكثر فهما لما يقلق شولوخوف أكثر من غيره فى حياة الانسانية وفى مصير كل فرد محدد . لقد قال شولوخوف : «يهمنى الناس الذين تستحوذهم الفورات الاجتماعية والوطنية . . . اذ يبدو لى أن شخصياتهم تتبلور فى هذه اللحظات» .

ويمكن للمرء ان يسمع من صفحات «الدون الهادئ» ذلك النداء الداعى الى تذكر الانسان دائما فى كل الازمنة ، وفى اية هزات وتغيرات اجتماعية عالمية . ان ذلك ما يؤكده الفنان الذى رسم شخصيات غريغورى واكسينيا ، وبودتلكوف ، وبونتشوك ، وايلينيشنا ، وداريا ميليخوفا . ومع ذلك فان من القليل على شولوخوف الرضى بالتجاوب الخير مع مصيبة انسان ، وقليل عليه أن يفهم الناس ويتعاطف معهم . بل ان الكاتب كان يريد ان تثير الشخصيات التى ابدعها النشاط ، وتدعو بفعالية الى مساعدة الانسان .

يشترط ميثاق جائزة نوبل أن يلقى الحائز عليها كلمة تعطى بشكل موجز تصورا عن نظرات الكاتب الى الحياة والفن ، والى واجب الفنان . وقد قال شولوخوف عن نفسه ما يلى : «أود ان تساعد كتبى الناس ليكونوا احسن ، وانقى روحا ، وتوقظ الحب

نحو الانسان ، والسعى الى النضال الناشط فى سبيل مثل الروح الانسانية وتقدم البشرية» .

واعتقد أن ذلك أهم شىء لفهم مؤلف «الدون الهادئ» كفنان ، وكانسانى .

ليخينوف

ليس بمحراث شُقّت ارضنا المجيدة . . .
بسنابك الخيل تُحرث ارضنا ،
برؤوس القوزاق تُزرع ارضنا المجيدة ،
بهيٌ دوننا الهادئ بأراملة الصبايا ،
أبونا ، الدون الهادئ ، يزهو باليتامى ،
وامواج الدون الهادئ تزخر بأدمع الاباء والامهات .

ايه ، يا أبانا ، ايها الدون الهادئ !
ايه ، يادوننا الهادئ ، علام تجرى مياهك عكرة ؟
هيهات لى ، انا الدون الهادئ ، ان أجرى صافيا !
ففى أعماقى تنبض ينابيع باردة ،
وفى أحشائى ، انا الدون الهادئ ، تتواثب الاسماك الشهب .

(اغنيتان قوزاقيتان قديمتان)

الجزء الاول

١

كان بيت ميليخوف يقع عند طرف القرية الاقصى . وكانت بوابة زريبة الماشية تفتح صوب الشمال باتجاه الدون . ويأتى الشاطئ وراء منحدر وعر يمتد مسافة حوالى سبعة عشر مترا بين صخور طباشيرية ضخمة يغطيها الطحلب . وثمة أكوام لؤلؤية من قواقع المحار ، وحافة رمادية اللون متكسرة قوامها الحصباء تلثمها الامواج ، ومن ثم وجه الدون الرقراق الفولاذى اللون ، تلاعبه الريح . والى الشرق ، وراء اسيجة من اغصان الصفصاف تحيط بساحات درس الحبوب ، يمتد طريق هتمان ، حيث يوجد نبات الشيح الرمادى ، ونبات لسان الحمل المتصلب ذو اللون البنى والذى هرسته حوافر الخيل ، وثمة مصلى عند مفترق الطريق ، ثم يأتى السهب مغلفا بضباب متنقل . والى الجنوب ، تمتد سلسلة من التلال الطباشيرية . والى الغرب ، هناك الشارع ، يقطع الساحة ميمما صوب المروج الساحلية .

عاد القوزاقى بروكوفى ميليخوف الى القرية اثناء الحرب ما قبل الاخيرة مع تركيا ، وقد جلب معه زوجة : امرأة صغيرة متلفعة بشال من رأسها الى قدمها ، تغطى وجهها على الدوام ، ونادرا ما تكشف عن عينيها الوحشيتين الحزينتين . وكان الشال الحريرى يحمل عطورا غريبة فواحة ، وطرائزه الملونة بألوان قوس قزح تثير حسد النساء القوزاقيات . وظلت هذه الاسيرة التركية بعيدة عن أقارب بروكوفى ، ولم يمض وقت طويل حتى اعطى ميليخوف

العجوز لولده حصته من الارث . وظل طيلة حياته يرفض ان يضع قدمه داخل بيت ابنه ، ذلك لانه لم يستطع أن ينسى ذلك العار .

وسرعان ما تدبر بروكوفى امره ، فأقام له النجارون دارا ، وصنع هو بنفسه سياجا لساحة الماشية ، وفى مطلع الخريف أخذ زوجته الاجنبية محنية الرأس الى دارها الجديد . وقد سار معها خلال القرية وراء العربة المحملة بما لديهما من متاع الدنيا ، فاندفع الجميع ، شيبا وشبانا ، الى الشارع . وكتم الرجال ضحكاتهم وراء لحاهم ، وتناقلت النسوة تعليقات مسموعة ، بينما اندفع سرب من أطفال القوزاق الوسخين يزعقون خلف بروكوفى . ولكنه واصل سيره بطيئا ، بمعطفه مفتوح الازرار ، وكأنه يترسم ارضا حرثت توا ، وهو يعصر معصم زوجته الرقيق بكفه السوداء الضخمة ، رافعا رأسه ذا الناصية الشقراء ، فى تحد واستخفاف . سوى أن أكياسه الدهنية تحت عظام خديه انتفخت وارتعشت ، وتفصد العرق بين حاجبيه المقطبتين دائما .

منذ ذلك الحين لم يقع عليه نظر انسان فى القرية الا نادرا ، ولم يحضر هو لقاءات القوزاق بتاتا . وعاش حياة عزلة فى داره المنفردة على جانب الدون ، ورويت عنه حكايات غريبة فى القرية . زعم الصبيان الذين يرعون العجول وراء طريق المرج أنهم كانوا يشاهدون بروكوفى كل مساء ، وضوء النهار يتلاشى ، يحمل زوجته بين ذراعيه حتى رابية مدفن التتار . فيجلسها على قمة الرابية ، مسندا ظهرها الى صخرة مسامية قديمة تآكلتها الانواء ، ويجلس هو الى جانبها ، والاثنان يحدقان بثبات عبر السهب ويلبثان يحدقان حتى يتلاشى الغروب ، ثم يلف بروكوفى زوجته بمعطفه المصنوع من الجوخ الخشن ويحملها عائدا الى البيت .

وتاهت القرية فى الظنون ، بحثا عن تفسير لسلوك غريب كهذا . وتقولت النساء كثيرا حتى انشغلن عن تفلية رؤوسهن بحثا عن القمل . وسرت الاشاعات حول زوجة بروكوفى ايضا ، فقال البعض انها ذات جمال خلاب ، وذهب آخرون الى نقيض ذلك . على ان الامر حسم فى الاخير حينما انطلقت الى دار بروكوفى واحدة من أكثر النساء جرأة ، وهى مافرا زوجة الجندى ، بحجة الحصول على شىء من الخميرة . وحين نزل بروكوفى الى القبو لجلب الخميرة ، سنحت الفرصة لمافرا لتكتشف ان سبية بروكوفى التركية كانت الرعب بعينه . . .

بعد بضع دقائق كانت مافرا ، وقد تورد وجهها وانداحت عصابة رأسها ، تسامر جمعا من النساء فى زقاق صغير :

— وماذا يمكن ان يكون قد رأى فيها ، يا عزيزاتى ؟ ليتها كانت امرأة حسب ، ولكن مخلوقا مثلها ! . . لا مؤخرة لها ولا نهد ! هى الهول بعينه ! ان فتياتنا لذوات اجساد أفضل ! عجبا ! وانتن تستطعن ان تفككن جسمها ، كالزنبور . أما تلكما العينان الهائلتان السوداوان ، فانها تجعلهما تومضان كما يفعل الشيطان ، اللهم اغفر لى . لابد انها على وشك الولادة ، يشهد الله .

فقالت النساء فى دهشة :

— على وشك الولادة ؟

— لست ابنة البارحة ! فقد ربيت ثلاثة ابناء بنفسى .

— ولكن ، ترى ما شكل وجهها ؟

— وجهها ؟ أصفر . لا ضياء فى عينيها . ويتوجب علىّ أن اقول انها لا تجد الحياة فى أرض غريبة محققة لاحلامها . والادهى ، يافتياتى ، انها ترتدى . . . سروال بروكوفى !

فشهقت النساء معا وفى ذعر: — مستحيل !

— لقد رأيتها بنفسى ، انها ترتدى السروال ، ولكن من غير اشرطة لابد ان ما عليها هو سروال عمله . انها ترتدى قميصا طويلا ، ومن تحته يمكن لكنّ ان تشاهدن السروال محشوا فى الجواريب . أنا ، حينما رأيتها ، سرت البرودة فى دمى . . .

وانتشر الهمس فى القرية ان زوجة بروكوفى ساحرة . واقسمت زوجة ابن استاخوف (وآل استاخوف كانوا أقرب جيران بروكوفى) انها شاهدت زوجة بروكوفى فى اليوم الثانى للثالوث * ، قبيل الفجر ، حافية ، حاسرة الرأس ، تحلب بقرة استاخوف فى ساحة الماشية . ومنذ ذلك الحين تضاءل ضرع البقرة حتى صار بحجم قبضة الطفل ، وفقدت البقرة حليبها ، ثم سرعان ما نفقت .

فى تلك السنة ، كانت ثمة حالة غير اعتيادية نفقت خلالها الكثير من الماشية . وعند المناطق الضحلة من الدون كانت تظهر ، كل يوم ، جيف جديدة لابقار وعجول على الشاطئ الرملى . ثم سرت العدوى الى الخيل . وقلت القطعان التى كانت ترعى فى مراعى القرية . وزحفت خلال ازقة القرية وشوارعها اشاعة شريرة . . .

عقد القوزاق اجتماعا ثم ذهبوا الى بروكوفى ، فخرج الى درج العتبة وانحنى لهم قائلا :

— ما الذى أستطيع أن افعله من أجلكم ، ايها الشيوخ المبجلون ؟

وبدون ان ينبسوا ببنت شفة ، تقدم الجمع من الدرج . وكان اول الصارخين عجوز مخمور :

---

* الثالوث فى الدين المسيحى ، اتحاد الثلاثة : الاب والابن وروح القدس . **المترجمون** .

— جرّ ساحرتك الى هنا ! فلسوف نحاكمها . . .

فاندفع بروكوفى الى داخل الدار ، غير انهم امسكوا به فى الممر ، وضرب قوزاقى ضخم ، يعرف باسم لوشنيا ، رأس بروكوفى على الحائط وقال له :

— اقلع عن العراك ، ولا حاجة بك للصياح . نحن لن نمسك بشىء ، لكننا سنسحق زوجتك سحقا . خير لنا ان نهلكها من أن تموت القرية بكاملها بسبب من نقص الماشية . ولكن اياك والعراك والا بقرت الحائط برأسك !

وجاء الزئير من الدرج :

— اسحبوا العاهرة الى الفناء !

فلفّ زميل لبروكوفى فى الجيش شعر المرأة التركية حول أحدى يديه ، وبالاخرى أغلق فمها الصارخ وسحبها جريا عبر الممر وطرحها أرضا عند اقدام الجمع . وانطلقت صرخة حادة فوق الاصوات العاوية ، فانفلت بروكوفى من قبضة ستة من القوزاق واندفع متفجرا الى داخل الدار واختطف سيفا من الحائط . فتدافع القوزاق بالمناكب وهم ينطلقون خارج الدار . وجرى بروكوفى نازلا الدرج وهو يلوح بسيفه الصافر اللماع فوق رأسه ، فتراجع الجمع وتفرقوا شذر مذر فى أرجاء الفناء .

كان لوشنيا بطيئا فأستطاع بروكوفى أن يلحق به عند السقيفة . وبضربة مائلة على الكتف الايسر من الخلف شق سيف بروكوفى جسم القوزاقى الى حد الحزام . اما الجمع ، الذين كانوا ينتزعون اوتاد السياج ، فقد تراجعوا على اعقابهم وانطلقوا عبر ساحة درس الحبوب نحو السهب .

بعد نصف ساعة ، تجرأ القوزاق على الاقتراب من دار بروكوفى من جديد ، وتقدم اثنان منهم بحذر نحو الممر . هناك ، على

عتبة المطبخ كانت زوجة بروكوفى راقدة ، وسط بركة من الدماء ، رأسها ملقى الى الوراء ، وشفتاها ملتويتان فى ألم ، ولسانها المقضوم بارز الى الخارج . وكان بروكوفى يهز رأسه وفى عينيه حملقة زجاجية وهو يلف كرة صغيرة زاعقة فى معطف من جلد الخراف — هو وليد جاء قبل الاوان .

° ° °

ماتت زوجة بروكوفى فى ذلك المساء . واشفقت امه العجوز على الطفل فتعهدته بالرعاية .

لبخوه بمعجون النخالة ، واطعموه حليب الفرس ، وما أن مضى شهر حتى حملوه الى الكنيسة ، بعد أن تأكد لهم ان الصبى الاسمر ذا الملامح التركية سيعيش ، وهناك عمدوه ، واطلقوا عليه أسم جده بانتلاى . ورجع بروكوفى بعد اثنى عشر عاما قضاها فى الاشغال الشاقة . ولم يكن ليشبه القوزاق بلحيته المقصوصة الحمراء التى وخطها المشيب ، وبملابسه الروسية . وأخذ ابنه وعاد الى داره .

شب بانتلاى اسمر البشرة صعب المراس . وكان يشبه أمه وجها وقالبا . وزوجه بروكوفى الى ابنة جار له قوزاقى .

منذ ذلك الحين بدأ الدم التركى يمتزج بدم القوزاق . وهكذا ظهر فى القرية آل ميليخوف ، الذين عرفوا باسم الاتراك ، وهم القوزاق ذوو الانوف المعقوفة والوسامة المتوحشة .

وحينما مات بروكوفى ، تعهد ابنه بانتلاى شؤون الدار ، فاعاد تسقيف الدار بالقش ، وألحق بالحقل نصف هكتار من الارض المشاعة ، وبنى سقائف جديدة ومخزنا للحبوب جعل له سقفا من صفائح الحديد . وطلب من السمكرى ان يقطع من مخلفات الحديد زوجا من ديوك ، وحينما ثبت هذان على سطح المخزن ،

أضفيا حيوية على عزبة ميليخوف وأسبغا عليها مظهر الاعتداد والرفاهية .

تحت وطأة السنين العابرات أصبح بانتلاى بروكوفييفتش مفتول العضل صلبا ، وعرض جسمه واحدودب قليلا ، لكنه ما فتىء يبدو رجلا كبيرا قوى البنيان . لقد كان يابس العظام ، اعرج (فقد انكسرت ساقه اليسرى فى شبابه حينما كان يطفر الموانع اثناء استعراض امبراطورى للجيش) . وكان يعلق فى أذنه اليسرى قرطا فضيا على شكل هلال ، وبقى شعره ولحيته محافظين على لونهما الاسود الزاهى حتى تقدمت به السن . وكان اذا استبد به الغضب فقد زمام نفسه ، مما جعل ، بلا شك ، زوجته الممتلئة تشيخ قبل اوانها ، ويصبح وجهها ، الذى كان جميلا يوما ما ، كنسيج العنكبوت ، مليئا بالغضون .

وقد ورث بيوتر ، ابنه الاكبر المتزوج ، عن امه قامة معتدلة وانفا افطس ، وشعرا غزيرا بلون الحنطة ، وعيونا بنية . غير ان الابن الاصغر ، غريغورى ، كان يشبه اباه . وهو اطول من بيوتر بمقدار نصف رأس ، واصغر منه ست سنوات ، وله ذات الانف المتدلى المعقوف الذى كان لأبيه ، اما بياض عينيه الملتهبتين فكان مائلا الى الزرقة داخل شقيهما المنحرفين قليلا . وكان جلده اسمر مائلا للحمرة ، مشدودا على عظام خديه البارزين . وقد احدودب ظهر غريغورى قليلا ، تماما كأبيه . حتى فى ابتسامته كانت ثمة سمة متشابهة ، وحشية بعض الشىء .

ويكتمل شمل اسرة ميليخوف بدونيا ، الاثيرة لدى والدها ، وهى صبية نحيفة ذات ذراعين طويلتين وعينين واسعتين ، وداريا ، زوجة بيوتر وطفلها الصغير .

٢

كانت نجمات قليلات تتلألأ فى سماء الفجر الرمادى ، والريح تهب عند أعتاب الغيوم . وثمة ضباب عال يتدحرج فوق الدون ليتجمع عند منحدر تل طباشيرى ، ويزحف داخلا الاخاديد كما تزحف افعى رمادية لا رأس لها . وكانت الضفة اليسرى للنهر ، والرمال ، والغدران المعشوشبة ، ومستنقعات القصب ، والاشجار الندية تومض تحت ضياء الفجر البارد الفتان . ووراء الافق ، كانت الشمس تحترق بلا لهب ، وهى لما تزل متحجبة .

كان بانتلاى بروكوفييفتش اول من استيقظ فى دار ميليخوف . فخرج الى العتبة وهو يزرر ياقة قميصه المطرز . كان الفناء الحشيشى مغطى بلون فضى نَدِى ، فأطلق الماشية فى الشارع . وجرت داريا لتحلب البقر وهى ما تزال ترتدى قميص النوم ، وتلألأ الندى على سمانتى ساقيها البيضاوين العاريين ، وتركت قدماها على حشيش الفناء اثرا فضيا .

ووقف بانتلاى بروكوفييفتش لحظة يراقب الحشيش وهو يستقيم بعد ان تطأه اقدام داريا ، ثم استدار عائدا الى الغرفة .

على افريز النافذة المفتوحة كانت ثمة اوراق ازهار وردية لشجرة الكرز الآخذة بالتفتح فى الحديقة الامامية . وكان غريغورى نائما على وجهه واحدى ذراعيه مسبلة الى جانب .

— غريغورى ، أتأتى للصيد ؟

فتساءل هامسا وهو ينزل ساقيه من السرير :

— ماذا ؟

— تعال نخرج للصيد حتى طلوع الشمس .

فسحب غريغورى بنطاله اليومى من المشجب ، وهو يتنفس

من أنفه فى تثاقل ، ولبسه ، ودسه فى جواربه الصوفية البيضاء ، وقضى وقتا طويلا فى لبس حذائه وهو يصلح من وضع اعلى كعبيه المطويين .

وتساءل بصوت أجش فيما كان يتبع أباه الى الممر :

— ولكن هل غلت امى طعم الصيد ؟

— أجل . اذهب الى القارب . سآتى بعد دقيقة .

وصب العجوز الجويدار* المغلى ذا الرائحة النفاذة فى اناء ، ولمّ الحبات المتساقطة بحرص فى كفه ومضى يطلع نحو الشاطئ ، فوجد ابنه جالسا فى القارب محدودب الظهر .

— اين سنذهب ؟

— الى الشاطئ الاسود . وسنجرب الصيد عند الشجرة الغريقة حيث كنا نصيد منذ ايام .

انفصل القارب عن الشاطئ ، ومؤخرته تخط على الارض ، ثم استقر فى الماء . وحمله التيار ، وهو يهزه محاولا ان يقلبه جانبا ، فيما كان غريغورى يقوده بالمجذاف دون ان يجذف .

— فيم لا تجذف ؟

— لنصل الى وسط التيار اولا .

وتحرك القارب باتجاه الضفة اليسرى قاطعا تيار المجرى الرئيسى . وتعالى وراءهما صياح ديوك القرية الرنانة منداحا فوق الماء بلا رنين . وفيما كان جانب القارب يحتك بالضفة الصخرية السوداء المتعالية فوق النهر ، اقترب من الشق . وعلى مبعدة حوالى عشرة امتار من الشاطئ ظهرت من الماء اغصان معوجة لشجرة دردار غريقة ، ودارت حولها ودومت فقاقيع زبد مضطربة .

همس الاب لابنه :

---

* الجويدار : نبات كالشعير . **المترجمون** .

— احضر الخيط بينما أنثر أنا الطعم .

وغمس يده فى فوهة الاناء الذى يتصاعد منه البخار . وتناثر الجويدار فى الماء بصوت مسموع كما لو ان احدا كان يهمس «شش» . ثم لضم غريغورى بعض الحبات المنتفخة فى الصنارة ، وتبسم :

— هيا ، يا أسماك ! صغيرات وكبيرات معا !

ونزل الخيط فى الماء بدوائر وتوتر ، ثم ارتخى من جديد حالما وقعت رصاصة الصنارة فى القعر . ووضع غريغورى قدمه على نهاية العصا ، ودس يده فى جيبه بحذر ليخرج كيس تبغه .

— لا حظ لنا اليوم يا ابتاه . فالقمر فى المحاق .

— هل جلبت بعض عيدان الكبريت ؟

— أى .

— اعطنى نارا .

وشرع العجوز يدخن ، وحدج صوب الشمس الراقدة وراء شجرة الدردار . وأجاب :

— يأكل الشبوط الطعم كما يحلو له . فقد يفعل ذلك احيانا والقمر فى افول .

فتنهد غريغورى :

— يبدو ان صغيرات الاسماك ينقرن الطعم .

وتلاطم الماء صخابا على جانبى القارب ، وقفز الى الاعلى شبوط طوله أكثر من متر ، زاه كما لو صب من نحاس أحمر ، وهو يثن ، ضاربا الماء بذيله العريض المقوس . وتناثرت قطرات كبيرة من الرذاذ فوق القارب .

ومسح بانتلاى بروكوفيتش لحيته المبللة بكمه :

— انتظر الان !

والى جانب الشجرة الغريقة وبين الاغصان العارية المتفرعة ، قفز شبوطان فى آن واحد ، وتلوى ثالث فى الهواء ، اصغر حجما ، ورف بعناء قرب الشاطئ .

* * *

لاك غريغورى بنفاذ صبر عقب سيكارته المبلل . وكانت الشمس الموشحة بالضباب قد طلع نصفها الان . ونثر بانتلاى بروكوفيتش بقية الطعم ، وزم شفتيه معبسا وهو يشخص نظره بقساوة على طرف العصا الساكن .

يصق غريغورى عقب سيكارته مراقبا انفلاته السريع فى حنق . وفى سره كان يلعن اباه لانه ايقظه فى ذلك الوقت المبكر . ثم ان التدخين ومعدته خالية جعل الدخان يفوح فى فمه وكأنه شعر محروق . وكان على وشك ان ينحنى ويغرف بعض الماء فى كفه ، حينما تحركت نهاية العصا فى تلك اللحظة حركة طفيفة وبدأت تغيب فى الماء .

همس العجوز :

— انتشه !

انتفض غريغورى وأطبق كفيه على العصا ، غير انها تقوست وغاص طرفها بسرعة فى الماء . جرت الى الاسفل قوة هائلة كقوة الطارة العصا المرنة المصنوعة من الصفصاف الاحمر .

فدمدم العجوز : «امسكه !» بينما كان يجنح بالقارب بعيدا عن الشاطئ .

حاول غريغورى ان يرفع العصا ، لكن السمكة كانت من القوة بحيث انقطع الخيط الغليظ محدثا صوتا جافا ، فترنح غريغورى واوشك ان يسقط .

فتمتم ابوه : «انها قوية كالثور» فيما كان يحاول ان يلضم صنارة بشيء من الطعم الجديد دون ان يفلح . اما ابنه فقد اطلق ضحكة منفعلة وشدّ خيطا جديدا الى العصا ، والقى به فى الماء . وما كاد الرصاص يصل الى القعر حتى تقوس طرف العصا .

فحمحم غريغورى وهو يداور السمكة فى طرف الخيط . بصعوبة : «هو ذا ابليس !» وجعلت هذه تندفع الى وسط التيار .

وشق الخيط صفحة الماء محدثا حفيفا عاليا ، مخلفا وراءه حاجزا مائيا مخضوضرا . وجعلت أصابع العجوز القصيرة تعبث بمقبض المغرفة بلا تفكير .

— لاتدعه يدنو من القارب ! حاذر ان يقطع الخيط !

— لا تقلق .

وارتفع الى سطح الماء شبوط كبير ، ذو لون أحمر وأصفر ، وخبط الماء محدثا زبدا ، ثم غاص من جديد الى الاعماق شاقا الماء برأسه العريض .

— انه يخلع ذراعى ! كلا ، أيها الشبوط ، لن تفلت !

— امسك به ، غريغورى !

— انى ماسكه !

— لا تدعه يلجأ الى أسفل القارب ! اياك !

وشرع غريغورى ، وهو يستعيد انفاسه ، يسحب الى القارب الشبوط المنهك الراقد على جنبه ، ودفع العجوز المغرفة الى الماء ، لكن الشبوط عاد فغطس من جديد الى الاعماق بما تبقى لديه من قوة .

وصاح العجوز :

— أجعل رأسه الى الاعلى ! ودعه يبتلع بعض الهواء ، فذلك كفيل بتهدئته !

مرة ثانية ، سحب غريغورى السمكة المتعبة الى القارب ، فطافت على سطح الماء وفمها مفتوح وانفها يصطدم بحافة القارب الخشنة ، وزعانفها الذهبية ترف .

فقال بانتلاى بروكوفيتش منحنحا ، فيما كان يرفع الشبوط بالمغرفة :

— لقد انتهى أمره !

ولبثا جالسين طوال نصف ساعة أخرى ، لكن سمك الشبوط لم يعد يتواثب .

وأخيرا قال العجوز :

— لفّ الخيط ، يبدو اننا حصلنا على نصيب يومنا .

استعدا للعودة فدفع غريغورى القارب بعيدا عن الشاطئ ، لقد اجتازا نصف الطريق . كان غريغورى يستشف من وجه ابيه انه كان يريد ان يقول شيئا ما ، غير ان العجوز جلس يشخص بنظره فى صمت الى بيوت القرية المتناثرة على سفح التل .

ثم شرع يتكلم مترددا وهو يجرجر عقدة الكيس تحت قدميه :

— اسمع يا غريغورى . . . لقد لاحظتُ انك واكسينيا استاخوفا . . .

فأحمر وجه غريغورى بشدة ، وادار رأسه . وحزت ياقة قميصه رقبته الغليظة التى لوحتها الشمس ، وضيقت عليها حتى برز منها طوق ابيض من البشرة .

واستطرد العجوز ، خشنا ومغضبا هذه المرة :

— كن على حذر ايها الفتى ، والا فسيكون لى معك حديث من نوع آخر . ان ستيبان جار لنا ، ولن اقبل باى تعابث مع امرأته . فهذا الضرب من الاشياء قد يؤدى الى افدح الضرر ،

وأنا احذرك مقدما ، ان وجدتك تعابثها فسأسلخ جلدك !

وضم بانتلاى بروكوفيتش قبضته الناتئة ، وبعينين ضيقتين لاحظ انحسار الدم عن وجه ولده .

تمتم غريغورى بصوت أجش : «كلها أكاذيب» ، وحدق صوب جسر انف ابيه المزرق .

— اسكت !

— الناس ميالون الى الكلام . . .

— أمسك لسانك يا ابن العاهرة !

فانكب غريغورى على المجذافين ، وتواثب القارب الى الامام ، وجعلت فقاقيع الماء تتراقص مبتعدة عن ذيل القارب فى مويجات صغيرة .

ظلا صامتين الى أن اشرفا على الشاطىء حين ذكّره ابوه قائلا :

— تذكّر ما قلته لك ، والا فسامنعك منذ اليوم من الخروج ليلا ، وآنئذ لن تستطيع ان تمد قدما خارج الحوش !

لم يجب غريغورى . وتساءل فيما كان يجنح بالقارب الى الضفة :

— هل سأعطى السمكة للنساء ؟

فأجاب العجوز بصوت ارق :

— اذهب وبعها ، وبثمنها تستطيع ان تبتاع لك تبغا .

وتبع غريغورى اباه ، وهو يعض شفتيه . وقال فى سره : «حاول ذلك يا أبى ! فلسوف أخرج الليلة حتى لو عقلت قدمى» وراحت عيناه تنغرزان بقساوة فى قفا رأس العجوز .

حين وصل غريغورى الى الدار ، غسل السمكة بعناية ونظفها من الرمل ، وادخل عودا فى خياشيمها .

عند بوابة الحوش التقى بصديقه القديم ميتكا كورشونوف .

وكان ميتكا يتمشى وهو يعابث طرف حزامه المرصع بالفضة ، وقد تلألأت عيناه الدائريتان الصفراوان بوقاحة فى حدقتيهما الضيقتين . كان بؤبؤا ميتكا مستطيلين كبؤبؤى القطة مما يجعل نظراته زائغة .

— اين تذهب بهذه السمكة ؟

— لقد صدناها اليوم ، وسوف ابيعها .

— لموخوف ؟

— أى .

وبنظرة واحدة خمن ميتكا وزن السمكة .

— خمسة عشر رطلا ؟

— خمسة عشر ونصف ، فقد وزنتها على القبان .

— خذنى معك ، وسأقوم بالمساومة عليها .

— هيا اذن .

— وما هو نصيبى ؟

— لا حاجة بك للتخوف ، فلن يذهب تعبك سدى .

كان القداس قد انتهى ، والقرويون الخارجون من الكنيسة يملأون الشوارع .

وكان الاخوة من آل شامل يوسعون الخطى ، ثلاثتهم ، جنبا الى جنب فى الطريق . كان أكبرهم ، أليكسى الاقطع * ، يتوسطهم ، وقد جعلت ياقة قمصلته العسكرية الضيقة رقبته القوية تشرئب منتصبة ، وكانت لحيته الصغيرة المدببة ذات الشعر المجعد الخفيف تتلوى جانبا بشكل متحد ، وعينه اليسرى تطرف

---

* الاقطع : ذو الذراع الواحدة . **المترجمون** .

بصورة عصبية . فقد انفجرت بندقيته بيده اثناء تدربه على الرماية قبل عدة سنوات ، ونفذت شظية طائشة فى وجنته . وهكذا غدت عينه اليسرى تطرف بمناسبة وبدونها ، وكانت ندبة زرقاء تمتد على وجنته الى أن تختفى وراء شعره الشبيه بألياف القنب . وقد بترت يده اليسرى عند المرفق ، لكن اليكسى معروف بمهارته فى لف السيكارة بيد واحدة . يضغط كيس التبغ على صدره ويقطع الحجم المناسب من الورق باسنانه ، ويلفه على شكل حوض ، ثم يضع التبغ ويلف السيكارة ، وقبل ان تدرك ما الذى يفعله تجده يسألك نارا ليشعل سيكارته وهو يطرف بعينه .

وعلى الرغم من أنه ذو ذراع واحدة فقد كان ابرع مقاتل فى القرية . ولم تكن قبضته ضخمة بصورة متميزة عن القبضات الاعتيادية — حوالى حجم القرعة البرية — ولكن حدث مرة ان اغاظه ثوره اثناء الحراثة ، ولم يكن يحمل سوطه ، فانهال عليه بضربة من قبضته ، طرحت الثور على اخاديد الارض المحروثة والدم يتدفق من اذنيه . ولم يستعد الثور صحته الا بعد جهد . اما الاخوان الاخران ، مارتن وبروخور فقد كانا يشبهان اليكسى حتى فى ادق التفاصيل . كانا قصيرين قويين ، مثله ، وعريضى المناكب ، سوى ان لكل منهما ذراعين .

حيا غريغورى الاخوة شامل ، غير ان ميتكا واصل السير مشيحا بوجهه بحدة . ففى مباريات النزال بالقبضات يوم عيد المرفع لم يظهر اليكسى أى اعتبار لأسنان ميتكا اليافعة . فبضربة قوية ، أصابه فى فمه وكانت النتيجة أن بصق ميتكا زوجا من الاسنان الجيدة على الجليد الازرق الرمادى الذى حفرته كعوب الاحذية الحديدية .

وفيما تقدم اليكسى ناحيتهما ، غمز خمس مرات .

— أتبيع حملك ؟

— هل تريد ان تبتاعه ؟

— بكم ؟

— بزوج من الثيران زائدا امرأتك !

فزر اليكسى عينيه وهزهز طرف ذراعه وقال :

— انك لشخص هزلى ! هأ — هأ ! زائدا امرأتى ! هل ستأخذ اولادها ايضا ؟ فتبسم غريغورى وقال مازحا :

— ابق لنفسك شيئا للنسل ، والا فسينقرض آل شامل .

فى ساحة القرية تجمع القرويون حول سور الكنيسة . وكان حارس الكنيسة يمسك اوزة فوق رأسه ويصيح : «خمسون كوبيكا . هل من مزيد ؟»

ومدت الاوزة عنقها وجعلت تجيل النظر حولها ، بينما احولت عينها الخرزية بازدراء .

وسط احدى حلقات الناس كان ثمة عجوز اشيب يقف ملوحا بذراعيه ، وصدره مغطى بالاوسمة والمداليات .

قال ميتكا مشيرا ناحية تلك الحلقة :

— ان غريشاكا العجوز يروى احدى حكاياته عن الحرب التركية . فلنذهب ونستمع اليه .

— وبينما نستمع اليه ، سيجيف الشبوط وينتفخ .

— اذا انتفخ ، ازداد وزنه وهذا من صالحنا .

فى الساحة الواقعة وراء مأوى عربة الحريق — حيث توجد براميل متشققة ذات مقابض مكسورة — كان السقف الاخضر لبيت موخوف يرتفع امام البصر . حين حاذا غريغورى المأوى بصق وسد انفه : برز عجوز من وراء برميل وهو يزرر سرواله ويمسك حزامه بين اسنانه .

فسأله ميتكا بسخرية :

— هل ضايقتك بطنك كثيرا ؟

فأتم العجوز تزرير سرواله ، واخرج الحزام من بين أسنانه وقال :

— ما دخلك أنت ؟

— يجب ان يُدس به انفك ولحيتك ، فلا تستطيع امرأتك ان تنظفه حتى لو قضت اسبوعا فى غسله .

فقال العجوز فى حنق :

— سأدسّك انت فيه !

فضيق ميتكا عينيه الشبيهتين بعينى القط ، وكأنما فى وهج الشمس .

— يالرقتك ! اغرب عنى يا ابن العاهرة . فيم تضايقنى ؟ اترغب ان تتذوق طعم حزامى ؟

تضاحك غريغورى وتقدم صوب مدخل بيت موخوف . كان الدرابزين تزينه ضفائر غزيرة من اغصان الكروم البرية ، بينما تظللت الدرجات بظلال كسلى .

— انظر كيف يعيش بعض الناس يامتيكا !

— حتى مقبض الباب مذهب . . .

وضحك ميتكا ضحكة قصيرة فيما كان يفتح الباب المؤدى الى الشرفة ، واستطرد :

— تصور ذلك العجوز وهو يدخل هنا . . .

ونادى شخص من الجهة الاخرى للباب : «من هناك ؟»

فدخل غريغورى بحياء ، بينما ترك ذيل الشبوط اثرا على الواح الارضية المطلية .

— من تريد ؟

كانت ثمة فتاة تجلس فى كرسى هزاز مصنوع من خشب الصفصاف ، وبيدها صحن من الفرولة . وحملق غريغورى بصمت فى الشفتين الممتلئتين الورديتين المرسومتين على شكل قلب تحضنان ثمرة . ونظرت الفتاة الى الفتيين ورأسها مائل الى جانب .

اسرع ميتكا لنجدة غريغورى . فتنحنح وهو يسأل :

— اتريدون شراء شىء من السمك ؟

— سمك ؟ سأذهب لاستفسر .

وارجحت كرسيها صعدا ، ثم نهضت وخرجت تصفق بخفيها المطرزين . وتلألأت الشمس خلال ثوبها الابيض ، ورأى ميتكا معالم باهتة لساقين ممتلئتين ودانتلا قميصها الداخلى العريض المتموج . واذهله البياض الحريرى لسمانتى ساقيها العاريين . أما عند كعبيها المكورين الصغيرين ، فقد كان الجلد اصفر بلون الحليب . وقال لاكزا لغريغورى :

— انظر اى ثوب ! مثل الزجاج تستطيع ان ترى كل شىء خلاله .

وعادت الفتاة من الباب المؤدى الى الممر ، وجلست برشاقة على الكرسى .

— اذهب الى المطبخ .

فسار غريغورى على رؤوس اصابعه داخل البيت . ووقف ميتكا يطرف محملقا فى الخط الابيض لمفرق شعر الفتاة المقسوم الى نصفى حلقة ذهبية . وتفحصته هى بعينين مرحتين لا يقر لهما قرار .

— انت من القرية ؟

— نعم .

— ابن من انت ؟

— ابن كورشونوف .
— وما أسمك ؟
— ميترى !
وتفحصت اظافرها الوردية بتمعن ، وبحركة رشيقة ثنت ساقيها الى أعلى .
— من منكما اصطاد السمكة ؟
— صديقى غريغورى .
— وهل تصيد السمك انت ايضا ؟
— عندما تحدونى الرغبة .
— بالخيط والصنارة ؟
— نعم .
بعد برهة ، قالت :
— اود لو أذهب للصيد يوما ما .
— حسنا ، سآخذك إنْ رغبت .
— حقا ؟ وكيف يمكننا ترتيب ذلك ؟
— يستوجب عليك ان تستيقظى مبكرة جدا .
— سوف استيقظ مبكرة ، سوى ان عليك ان توقظنى .
— بامكانى أن أفعل هذا . ولكن ماذا عن ابيك ؟
— ماذا عن ابـى ؟
فتضاحك ميتكا وقال :
— قد يحسبنى لصا ويطلق الكلاب علىّ .
— هراء ! فانا أنام وحيدة فى الغرفة التى فى الزاوية .
تلك هى النافذة — واشارت اليها ، واستطردت : — اذا جئت تطلبنى ، دق على النافذة فأستيقظ .
وبين حين وآخر كان يأتى من ناحية المطبخ صوت غريغورى

متهيبا ، ونبرة الطباخة الغليظة المتشحمة . وصمت ميتكا وهو يتحسس فضة حزامه .
ثم سألته بابتسامة خفية :
— انت متزوج ؟
— لماذا ؟
— اوه ، مجرد فضول .
— كلا ، فانا اعزب .
وأحمر وجه ميتكا فجأة ، اما هى فعادت تسأله وهى تبتسم فى غنج وتعابث غصنا من التوت الشتائى * المتناثر على الارضية :
— وهل تحبك الفتيات ياميتيا ؟
— بعضهن يحببنى وبعضهن لا يحببنى .
— قل لى . . . ولماذا تشبه عيناك عينى القط ؟
— القط ؟
وهنا بلغ ارتباك ميتكا أشده .
— أجل ، فهما بالضبط كذلك ، كعينى القط .
— لابد اننى ورثتهما عن أمى . ليس لى حيلة فى الامر .
— ولماذا لا يزوجونك ياميتيا ؟
وأفاق ميتكا من اضطرابه العارض ، وقد أحس بالسخرية الخفية فى كلماتها ، وراح صفار عينيه يومض وقال :
— لابد للديك أن يشتد عوده قبل ان يبحث له عن دجاجة .
فرفعت حاجبيها دهشة ، واحمر وجهها ، ونهضت عن

---

* التوت الشتائى : المزروع فى المنابت الزجاجية . **المترجمون** .

كرسيها . وكان ثمة وقع أقدام تونى الدرجات من الشارع .

لقد لسعت ابتسامتها العابرة ميتكا كالشوكة . ومر بميتكا رب البيت ، سيرغى بلاتونوفيتش موخوف ، حاملا جسده البدين فى اعتزاز ، وهو يجرجر برقة حذاءه الكبير المصنوع من جلد الجدى .

وتساءل ، فيما كان يمر دونما التفاتة من رأسه :

— أيريدنى هذا الشخص ؟

— لقد جلبا شيئا من السمك يابابا .

وظهر غريغورى بدون شبوطه .

٣

كان صباح اول ديك قد انطلق حينما عاد غريغورى من سهرته تلك الليلة . وانبعث من ناحية الردهة عبير الكروم الحامضة ونبات الكرنب الشوكى ذى الرائحة النفاذة .

مشى على أطراف أصابعه الى الغرفة ، خلع ملابسه ، وعلق سروال يوم الاحد بعناية ، ورسم اشارة الصليب واستلقى . كانت على ارضية الغرفة بركة ذهبية من ضوء القمر ، تتقاطع عليها ظلال النافذة . وفى الزاوية التمعت فضة الايقونات باهتة تحت المناشف المطرزة ، وانبعث من الرف المثبت فوق السرير طنين متكاسل لذباب مستثار .

وكاد ينام لولا ان ابن أخيه شرع يبكى فى المطبخ . وبدأ المهد يصر كعجلة عربة غير مشحمة . وسمع داريا ، زوجة أخيه ، تتمتم بصوت نعسان : «نم أيها الملعون الصغير ! انت لا تدعنى اظفر بلحظة هدوء !» وشرعت تترنم للطفل برقة :

اوه ، اين كنت اذن ؟
كنت اراقب الخيل
وما الذى رأيت ؟
رأيت حصانا ذا سرج
مقصبا ، كله ، بالذهب . . .

وفيما غريغورى يغفو على صرير المهد المنتظم المريح ، تذكر : «غدا ، سيرحل بيوتر الى المعسكر ، تاركا داريا مع الطفل . . . سيتوجب علينا ان نقوم بالحش بدونه» .

ودفن رأسه فى وسادته الحارة ، غير أن تنويمة داريا ظلت تنفذ الى اذنه باصرار :

وأين هو حصانك ؟
خارج البوابة
واين هى البوابة ؟
جرفها الفيضان بعيدا

وانبعث صهيل قوى اطار من عينيه النوم ، وادرك من نبرته انه حصان بيوتر العسكرى . وامتدت اصابعه الخدرة ليزرر قميصه بتثاقل ، وكاد ان يلفه النوم من جديد على وقع اغنية داريا المنساب :

واين هو الاوز ؟
راح الى القصب
واين هو القصب ؟
قطعته الصبايا
وأين هن الصبايا ؟
الصبايا تزوجن

واين هم القوزاق ؟
ذهبوا الى الحرب

توجه غريغورى النعسان الى الاصطبل وقاد حصان بيوتر الى الشارع . وفارقه النعاس على غير ما توقع حينما دغدغ وجهه نسيج عنكبوت طائر .

عبر الدون ، انتشر ضوء القمر متراقصا ، لا يطاله الموج ابدا . وتعلق فوق النهر ضباب ، وفوق الضباب النجوم ، كحبات قمح متلألئات . وفى حذر شديد تهجس الحصان طريقه بحوافره ، فالمنحدر الى النهر صعب الارتياد . ومن الجانب الاقصى للنهر تناهى صياح البط . وقفزت سمكة قرموط محدثة رذاذا على الشاطئ الطينى الضحل ، تبحث على غير هدى عن سميكات أصغر .

وقف غريغورى وقتا طويلا ازاء النهر . كان الشاطئ ينضح برطوبة وعفونة شديدتين . سقطت من شفتى الحصان رذاذة ماء . كان ثمة فراغ رقيق وبهيج فى فؤاد غريغورى ، وغمره شعور بالطيبة وصفاء البال . وفيما انثنى عائدا حدق صوب الشرق حيث شرعت عتمة الليل الزرقاء تنجاب رويدا رويدا .

والتقى بامه عند الاصطبل .

— أهذا أنت ياغريشا * ؟

— ومن عسى أن يكون ؟

— هل اوردت الحصان ؟

فأجابها باقتضاب ان : «نعم» . وألقت امه رأسها الى

---

* صيغة تحبب لاسم غريغورى . **المترجمون** .

الوراء وهى تحمل ملء صدريتها روثا جافا للموقد ، وقدماها الحافيتان المتيبستان تصطفقان على الارض .

— هلاّ ذهبت لايقاظ آل استاخوف . فقد قال ستيبان انه سيمضى مع ولدنا بيوتر .

واشاعت رطوبة الصباح قشعريرة باردة راعشة فى غريغورى ، وسرت فى جسمه وخزات مخدرة . وجرى صاعدا الدرجات الثلاث ذات الصدى المتجاوب الى دار استاخوف . كان الباب مرفوع المزلاج ، وكان ستيبان نائما على فرشة فى المطبخ ورأس زوجته تحت ابطه .

وعلى ضوء الفجر الشاحب رأى غريغورى قميص نوم اكسينيا منحسرا فوق ركبتيها ، ونظر الى ساقيها المنفرجتين بلا حياء بيضاوين كلحاء نبات البتولا . فوقف لحظة يحملق ، وهو يحس بجفاف يزحف فى حلقه ودوى حديدى يتفجر فى رأسه .

جعل يسترق النظر . ثم نادى بصوت أجش غريب :

— هاى ! هل من أحد هنا ؟ استيقظوا !

وتنهدت اكسينيا بعمق وهى تستيقظ .

— اوه ، من هذا ؟

ومدت يدها العارية وشرعت تتحسس قميصها باستعجال ، مسوية اياه فوق ساقيها . وكان ثمة قطرة صغيرة من الرضاب على وسادتها : فنوم النساء عميق عند الفجر .

— هوذا أنا . ارسلتنى أمى لاوقظكما .

— سننهض بعد لحظة . اننا نائمان على الارض بسبب من البراغيث . قم ياستيبان ، الا تسمعنى ؟

وخمن غريغورى من صوتها انها شعرت بالحرج ، فأسرع بالخروج .

ثمة ثلاثون قوزاقيا سيذهبون الى معسكر ربيعى للتدريب ومكان اجتماعهم ساحة القرية . وقبيل الساعة السابعة بدأت تتوارد على ساحة القرية عربات ذات اغطية مشمعية ، وقوزاق مشاة وخيالة يرتدون قمصانا خفيفة ويحملون عددهم .

كان بيوتر واقفا على عتبة الدار وهو يخيط باستعجال عنانا مقطوعا . وكان بانتلاى بروكوفيتش يظلع حول حصان بيوتر ، ويضع شوفانا فى معلفه ، ويصيح من حين لاخر :

— دونيا ، ألم تضعى كسرات الخبز فى الكيس بعد ؟ هل ملحت شرائح لحم الخنزير ؟

وكانت دونيا تنطلق كالسنونو رائحة غادية ، متوردة الوجنتين ومتفتحة كالبرعم ، وهى ترد على صيحات ابيها بالضحك :

— عليك بما يخصك يا ابتاه ، وأنا ساحزم متاع أخى بصورة متقنة بحيث لـن يتحرك منه شىء حتى يـصل تشركاسك .

وسأل بيوتر والده وهو يؤمى برأسه الى الحصان ويبلل الخيط برضابه :

— ألم ينته من طعامه بعد ؟

فأجاب ابوه متأنيا : «لم ينته بعد» فيما كان يفحص مرشحة السرج بكفه الخشن ، فان وجود عشبة او كسرة خبز صغيرة عالقة بالمرشحة قمينة ، خلال مسيرة واحدة ، بحز ظهر الحصان وجعله يتقيح .

— حينما ينتهى من طعامه ، اورده يا أبـى .

— سينزل به غريشا الى الدون . ياغريغورى قُدْ الحصان الى النهر !

أخذ غريغورى الحصان الطويل الضامر ، ذا الغرة البيضاء ، وقاده خلال البوابة ، ثم قفز الى ظهره مسندا يده اليسرى برفق على غاربه ، ومضى فى خبب متمايل . وحاول ان يكبح جماح الحصان عند النزول الى النهر ، غير ان الحيوان اسرع الخطى وجرى نازلا المنحدر . وفيما أرجع غريغورى ظهره الى الوراء حتى كاد ان ينطبق على العمود الفقرى للحصان ، رأى أمرأة تحمل سطلين نازلة التل . فأنحرف بحدة عن الممشى وانطلق الى الماء مخلفا وراءه مثارا من النقع .

جاءت اكسينيا هابطة المنحدر وهى تتمايل ، وصاخت بصوت زاعق من بعيد :

— أيها الشيطان المجنون ! كدت تدحرجنى بحصانك . ألا انتظر ، فلسوف احكى لوالدك كيف تركب .

— لا يا جارتى ، لا تغضبـى . فحينما تودعين زوجك الذاهب الى المعسكر ، قد أكون ذا فائدة فى بيتك .

— وكيف بحق الشيطان ستكون ذا فائدة لى ؟

وتضاحك غريغورى قائلا :

— ستطلبيننى حينما يحل موسم الحصاد .

وغرفت اكسينيا بمهارة سطلا مليئا بماء النهر ، وحبست تنورتها بين ركبتيها لتحميها من الريح ونظرت الى غريغورى . سألها غريغورى :

— هل تهيأ ستيبان للرحيل ؟

— وما دخلك انت ؟

— اية نارية انت ! الا يجوز السؤال ؟

— حسنا ، لقد تهيأ . ثم ماذا ؟

— اذن ستصبحين امرأة بلا رجل ؟

— نعم .

رفع الحصان شفتيه من الماء ، صر باسنانه وهو يحاول ان يلوك الماء وضرب سطح الماء بحافره الامامى شاخصا عبر الدون . أما اكسينيا فقد ملأت سطلها الثانى ، ورفعت النير الى كتفيها ، وبخطوات متمايلة جعلت ترتقى المنحدر . فأدار غريغورى حصانه وتبعها فى حين خفقت الريح بتنورتها وتعابثت بجعدات شعرها اللطيف الناعم على رقبتها السمراء . وتوهجت عصابتها المطرزة بالحرير الملون فوق عقصتها الغزيرة ، وألتم قميصها الوردى فى تنورتها عند الخصر ، والتصق فى نعومة بظهرها المنتصب وكتفيها المرصوصين . وبينما كانت تتسلق المرتقى انحنت الى الامام ، فبان المنخفض ما بين كتفيها واضحا تحت قميصها ، ورأى غريغورى حلقات ابطها السمر ، حيث تبقع قميصها بالعرق . وظل يراقبها فى كل لحظة ، والحت عليه الرغبة فى مواصلة الحديث معها .

— ستفتقدين زوجك ، أليس كذلك ؟

وبدون ان تتوقف ، التفتت اكسينيا وتبسمت .

— بالطبع سأفتقده . تزوج انت وسترى ما اذا كنت ستفتقد حبيبتك أم لا .

قالت هذا بصوت متقطع وهى تتنفس بصعوبة .

واقترب غريغورى بحصانه منها حتى حاذاها ، ونظر فى عينيها .

— ولكن ثمة زوجات اخريات يسعدن بذهاب ازواجهن . فهذه داريا ستسمن فى غياب بيوتر .

ارتجف منخرا اكسينيا من شدة تنفسها وسوت شعرها وقالت :

— ليس الزوج دودة علق ، مع أنه يمتص الدم .

ثم تساءلت :

— هل سنراك متزوجا عما قريب ؟

— أنا لا ادرى ، فالموضوع يعتمد على والدى . ربما بعد خدمتى العسكرية .

— لا زلت يافعا ، فلا تتزوج .

— ولم لا ؟

— الزواج ضجر لا غير .

وتطلعت من تحت حاجبيها ، وابتسمت بكآبة دون ان تنفرج شفتاها . فلاحظ غريغورى لاول مرة أن لها شفتين شرهتين بلا حياء وممتلئتين نوعا ما . وأجاب وهو يمرر اصابعه على عرف الحصان :

— أنا لا اريد ان اتزوج . فثمة من ستحبنى دونما زواج .

— هل لاحظت واحدة ، اذن ؟

— من عساى أن الاحظ ؟ فها انت الان وانت تودعين زوجك . . .

— لا تحاول ان تتعابث معى !

— وما الذى ستفعلين ان حاولت ؟

— سأخبر ستيبان .

— وأنا سألقن ستيبان هذا درسا . . .

— انت معتد بنفسك كالديك ، ولكن اياك ان تكون اول من يصيح .

— لا تحاولى ان ترهبينى يا اكسينيا !

— انا لا أحاول ارهابك . تعابث مع الفتيات ، وليطرزن لك مناديلك ، ولكن اصرف نظرك عنى .

— سأنظر اليك أكثر الان .

— حسنا ، فانظر اذن .

واعطته اكسينيا ابتسامة مصالحة ، وحادت عن الممشى محاولة المرور من جانب الحصان . فادار غريغورى الحصان جانبا وسد عليها الطريق

— دعنى امر ياغريشا .

— لن ادعك .

— لا تكن أحمق ، فيجب أن اعين زوجى .

فاستفز غريغورى الحصان مبتسما ، وحاصر اكسينيا عند الضفة ، فقالت :

— دعنى امر ايها الشيطان ! فثمة اناس فوقنا . ماذا عساهم يظنون لو شاهدونا ؟

وتلفتت حولها فى نظرة وجلة ، وتخطته مقطبة دون ان تلتفت الى الخلف .

كان بيوتر يودع عائلته عند درجات الباب . فأسرج غريغورى الحصان . واسرع أخوه هابطا الدرجات وهو يشد على سيفه الى جانبه وأمسك بالاعنة . وراوح الحصان فى اضطراب وهو يتحسس بالطريق الطويل ، وجعل يلوك اللجام . وقال بيوتر لابيه وقد وضع قدما فى الركاب وأمسك بالسرج :

— لا ترهق الخيل ذوات الطرر البيض يا أبى ، فاننا سنبيعها فى الخريف . وسيحتاج غريغورى الى حصان فى الجيش ، كما تعلم . ولا تبع حشائش السهب . فانت نفسك تعلم اى تبن قد نحصل عليه من المرج هذا العام .

فاجاب العجوز راسما علامة الصليب :

— حسنا . . . ليكن الله معك . حظا سعيدا .

فالقى بيوتر بجسمه الصلب على السرج بحركة معتادة ،

وسوى طيات قميصه فى نطاقة من الخلف . وتحرك الحصان صوب البوابة ، واهتز السيف بايقاع فيما كانت رمانته تتلامع باهتة فى ضوء الشمس .

وتبعته داريا والطفل على ذراعها ، بينما وقفت امه وسط الحوش تمسح عينيها بكمها وانفها بطرف صدريتها .

ومرقت دونيا الى البوابة تصيح :

— يا أخى ! الفطائر ! لقد نسيت الفطائر ! فطائر البطاطة !

صاح بها غريغورى متضايقا :

— فيم هذا الزعيق ، ياحمقاء ؟

— لقد ترك فطائره وراح — وانتحبت دونيا مستندة الى عمود البوابة ، وجرت الدموع على خديها الملتهبين وسالت على بلوزتها البسيطة .

وظللت داريا عينيها بكفها ، ووقفت تشخص الى قميص زوجها الابيض خلال ستار من التراب . وهز بانتلاى بروكوفيتش العجوز عمود البوابة المتهرىء ، ونظر الى غريغورى قائلا :

— اصلح البوابة ، وضع عمودا جديدا لها . — ووقف لحظة يفكر ، ثم أعلن كما تعلن الاخبار : — رحل بيوتر .

ورأى غريغورى ستيبان ، عبر السياج المضفور ، يتهيأ للرحيل ، بينما أخرجت اكسينيا حصانه ، وهى ترتدى تنورة صوفية خضراء جميلة . وقال لها ستيبان شيئا ما وهو يبتسم ، ومن غير ما استعجال قبّل زوجته باعتداد ، وترك ذراعه حول كتفها لوقت طويل . وبدت يده التى لفحتها الشمس والاشغال المرهقة سوداء كالفحم ازاء قميصها الابيض . كان يقف وظهره صوب غريغورى ، ورقبته القائمة الحليقة ، وكتفاه العريضتان المتهدلتان بعض الشىء ، وذؤابة احد شاربيه المفتولتين ، تبدو

عبر السياج كلما مال على زوجته .

وضحكت اكسينيا لشيء ما وهزت رأسها بالنفى . وتمايل الجواد الضخم الادهم قليلا حينما القى ستيبان جرمه الثقيل على السرج . ومضى بحصانه عبر البوابة مستعجلا ، وقد بدا وكأنه مزروع على السرج ، وسارت اكسينيا الى جانبه وهى تمسك بالركاب وتنظر كالكلبة فى عينيه من اسفل الى اعلى بوجد ونهم .

وظل غريغورى يراقبهما بنظرة طويلة لا تطرف حتى مرا ببيت مجاور واختفيا وراء منعطف الطريق .

٤

قبيل المساء بدأت عاصفة رعدية ، وأمتدت طبقة من السحب الثقيلة فوق القرية . وأهاجت الريح نهر الدون فجعل يرسل امواجا كاسرة مزبدة صوب ضفتيه ، واومضت السماء ببرق جاف ، وبين اونة وأخرى كانت الارض تهتز بقصف الرعد . وحومت حدأة بجناحين منشورين تحت الغيوم ، وطاردتها غربان ناعقة . وعبرت الغيمة نهر الدون من الغرب ، ناشرة انفاسها الباردة . وادلهمت السماء متوعدة وراء المروج ، وامتد السهب فى صمت وترقب . وفى القرية ، كان ثمة اصطفاق ينبعث من صفاقات النوافذ المغلقة ، وأسرع العجائز عائدات الى بيوتهن من صلاة المغرب وهن يرسمن علامة الصليب . ودوم عمود رمادى من الغبار فوق ساحة القرية ، وكانت اولى قطرات المطر تهبط على الارض التى ارهقها الحر الربيعى .

جرت دونيا عبر الحوش ، هازة ضفائرها المجدولة ، وصفقت باب بيت الدجاج ، ووقفت وسط الحوش ومنخراها منتفخان

كحصان يتهيأ لطفر الموانع . وفى الشارع كان الاطفال يتقافزون هنا وهناك . وكان ميشكا ابن الجار ، ذو الثمانية أعوام ، يدور حول نفسه على رجل واحدة ، وقبعة ابيه الواسعة بشكل غير معقول تغطى رأسه حتى عينيه ، ويهزج بصوت حاد :

رُحْ ، رُحْ ، يامطر
فنحن خارجون
لنوفى ربنا النذر
ولننحنى للمسيح

راقبت دونيا بغبطة قدمى ميشكا الحافيتين الخشنتين تضربان الارض . هى ، الاخرى ، ودت لو ترقص فى المطر وتبلل رأسها ، كى يغزر شعرها ويتجعد ، وهى ، الاخرى ، ودت لو تقف على يديها فوق التراب على جانب الطريق ، كما يفعل صديق ميشكا ، مجازفة بالسقوط على الاعشاب الشوكية . لكن أمها كانت تراقبها وتحرك شفتيها مُغضبة من وراء الشباك . فتنهدت وجرت الى الدار . وكان المطر آنذاك ينهمر بغزارة ، وقرقع رعد فوق سطح الدار تماما ، ثم انحدر مبتعدا عبر الدون .

فى الممر كان بانتلاى بروكوفيتش وغريغورى الناضح عرقا ، يجرجران شبكة صيد ثقيلة ملفوفة من الغرفة الجانبية .

وصاح غريغورى على دونيا : «هاتى خيطا غليظا ومخيطا ، بسرعة !»

واشعلوا المصباح فى المطبخ . وقعدت داريا لتصلح الشبكة . وتأففت حماتها فيما كانت تهزهز الطفل :

— ماذا فى دماغك يارجل ! فلنذهب الى الفراش . لقد زادت كلفة الكاز اكثر وأكثر وانت لا تبخل به . فما عساكم

تصيدون الان ؟ واين تراكم ذاهبون بحق الطاعون ؟ قد تغرقون ، انظروا الى ما يجرى فى الحوش ! فغضب الله مسلط على رؤوسنا . ياللبرق الرهيب ! ياسيدى عيسى المسيح ، يا أم السماوات . . .

ولبرهة ، كان كل شيء ازرق زاهيا وساكنا داخل المطبخ ، وكان بالامكان سماع المطر ينقر صفاقات النافذة . وتلا ذلك قصف الرعد . فندت عن دونيا شهقة متكسرة وأخفت وجهها فى الشبكة . ورسمت داريا علامة الصليب ازاء النوافذ والباب . وحملقت العجوز بعينين مخيفتين فى القطة المتمسحة برجليها :

— دونيا ، اطردى هذه الملعونة . . . يا أم السماوات ، اغفرى لى ذنوبى . . . دونيا ، اخرجى القطة الى الحوش . بست ، ياروح الشر ! فلتنزل عليك . . .

وأهتز غريغورى فى ضحك صامت وهو يلقى الشبكة .

— حسنا ، فيم ضجيجك هذا ؟ — صـــاح بانتلاى بروكوفيتش ، واردف : — اسرعن بعملكن يانسوة . لقد اخبرتكن ذاك اليوم ان تعنين بالشبكة .

فتجرأت زوجته قائلة :

— ليس ثمة سمك فى الوقت الحاضر .

— ان كنت لا تفهمين ، فامسكى لسانك ! سنصيد اسماك الحفش الصغيرة فى الاماكن الضحلة . ستجنح اسماك الحفش الصغيرة نحو الضفاف الان ، فهى تخاف العواصف . ولا بد ان يكون الماء طينيا الان . دونيا ، اخرجى لتتسمعى الى المجرى فيما اذا كان سريعا .

فتقدمت دونيا صوب الباب فى تردد .

اما الام فما كان لها ان تسكت ، وألحت قائلة :

— ومن الذى سيخوض معك ؟ داريا لا يجب ان تفعل

ذلك ، فقد يصيب البرد صدرها .

— انا وغريغورى ، وأما بشأن الشبكة الاخرى . . . فسننادى على أكسينيا وامرأة أخرى .

وجرت دونيا الى الداخل منقطعة الانفاس ، وقد علقت باهدابها قطرات مطر متراقصة ، وفاحت منها رائحة التراب الاسود الرطب . وقالت لاهثة :

— ان المجرى يهدر ايما هدير .

— هل تأتين انت ايضا ؟

— ومن غيرى ذاهب ؟

— سنأخذ بعض النساء .

— حسن .

فقال لها ابوها :

— ضعى عليك معطفك واجرى الى اكسينيا . فان رغبت فى المجيء معنا ، اطلبى منها ان تحضر مالاشكا فرولوفا ايضا .

فقال غريغورى بابتسام :

— أما تلك ، فلن يجمدها البرد ، فهى سمينة كالخنزير .

اسدت ام غريغورى نصيحة اليه : — لم لا تأخذ شيئا من القش ، غريشا ايها العزيز ؟ احش بعضا منه تحت قلبك ، والا ستصيبك نزلة فى داخلك .

— أجل ياغريغورى ، اذهب واحضر بعض القش ، فالعجوز على حق بين .

عادت دونيا بسرعة مع المرأتين . وبدت اكسينيا بتنورتها الزرقاء وسترتها الممزقة والمحزومة بحبل ، اقصر واكثر نحافة . وفيما كانت تتبادل الضحكات مع داريا ، نزعت عصابة رأسها . ولفت شعرها فى عقصة اكثر احكاما ، واذ كانت تلقى برأسها

الى الوراء حين وضعت عصابتها على رأسها من جديد ، شخصت ببصرها الى غريغورى فى برود . وقالت مالاشكا البدينة بصوت مبحوح وهى تشد جوربيها :

— هل احضرتم الاكياس ؟ قسما بالرب سنصطاد السمك عن آخره ، اليوم .

وذهب الجميع الى الحوش . كان المطر لا يزال ينهمر بغزارة على الارض المنقوعة ، تاركا على البرك زبدا ، ومتدفقا صوب الدون فى جداول .

قادهم غريغورى فى طريق النزول الى النهر . ومن غير ما سبب ، أحس فجأة بالمرح الشديد .

— حذار من الحفرة ، يا ابنى .

— ما أشد الظلمة !

وقالت مالاشكا متضاحكة بصوت خشن :

— تشبثى بى ، يا اكسينيا . سنهلك معا .

— أليس هذا هو مرسى ميدانيكوف ، ياغريغورى ؟

— هو بالذات .

وصاح بانتلاى بروكوفيتش فوق زئير الريح :

— ابدأوا من هنا .

وانطلق صوت مالاشكا الاجش :

— لا أستطيع أن اسمعك ياعم .

— ابدأوا بالخوض والله فى عونكم ، وانا سآخذ الجانب العميق . . . العميق . . . اقول يا مالاشكا ، ايها الشيطانة الصماء ، الى اين تجرجرين الشبكة ؟ ها انا ذاهب نحو الجوانب العميقة . . . غريغورى ، غريشا ، دع أكسينيا تأخذ جانب الضفة !

ويزأر الدون زئيرا مزمجرا ، والريح تمزق صفحة المطر

المائل شذر مذر .

خاض غريغورى ، متحسسا القاع بقدميه ، حتى بلغ الماء خصره . وزحفت الى صدره برودة ثقيلة ، حتى ضيقت الخناق على قلبه ، وكانت الامواج تضرب وجهه وعينيه المخاوصتين باحكام ، كما يضرب السوط . وتجوفت الشبكة وانجرفت نحو الاعماق وتزحلقت قدما غريغورى الملفوفتان بجوارب صوفية فوق القاع الرملى . انفلتت الشبكة من يده ، أعمق فأعمق . وهوى فجأة ، وانجرفت ساقاه . ثم انتشله التيار وحمله الى وسط المجرى . فراح يجذف بذراعه اليمنى بعنف عائدا الى الضفة . لقد اخافته الاعماق المدوّمة السوداء كما لم تخفه من قبل . وتحسست قدماه ، فرحتين ، القاع الطينى . واصطدمت سمكة بركبته .

— خذها الى الاعماق ! — هكذا تناهى اليه صوت ابيه من الظلمة المخيفة .

ومرة أخرى غاصت الشبكة المائلة الى الاعماق ، ومن جديد جرف التيار قدمى غريغورى عن القاع ، وسبح نافثا الماء رافعا رأسه .

— أكسينيا ، هل انت بخير ؟

— بخير ، حتى الان .

— ألن يتوقف المطر ؟

— بلى ، سيتوقف الرذاذ ، ليبدأ فوقنا المطر الثقيل .

— تكلمى بهدوء . فلو سمعنا أبى ، فسيصب جام غضبه علىّ .

— خائف من ابيك ، هه ؟

مرت لحظة ، وهما يجرجران الشبكة فى صمت . ويحول الماء دون اى حركة مثل عجين لزج .

— غريشا ، ثمة شجرة غريقة ازاء الضفة ، كما أتصور ! لابد لنا ان نجنب الشبكة منها .

وطوحت غريغورى موجة لاطمة فظيعة الى بعد كبير عنها . بدا وكأن كتلة هائلة من التراب قد انفصلت عن الجرف وهوت فى الماء فأثارت موجة صاخبة .

— آه — آه — صاحت اكسينيا من مكان ما قرب الضفة . فشرع غريغورى يسبح ، باتجاه صياحها والرعب يتملكه .

— اكسينيا !

ريح ، وزئير الماء الدفوق .

— اكسينيا ! — صاح غريغورى ثانية ، ورعشة الخوف تغشاه .

— ايه ، غريغورى — تناهى اليه صوت أبيه من بعيد . وصار يضرب الماء بضراوة . تحسس شيئا لزقا تحت قدميه ، فامسكه بيده : لقد كانت الشبكة .

وجاء صوتها مختنقا بالدموع : «غريشا ، اين انت ؟» فزعق غاضبا فيما كان يحبو على يديه وركبتيه صاعدا الى الضفة :

— لم لم تجيبى ندائى ؟

وأخذا يسويان الشبكة الملتفة المشربكة ، جالسين القرفصاء على اعقابهما وهما يرتجفان . وأطل القمر خلال فرجة مشروخة لاحدى الغيمات . كان ثمة همهمة مكتومة للرعد فيما وراء المروج ، وتلامعت الارض بالبلل ، وبدت السماء ، غب استحمامها بالمطر ، صاحية باردة .

وبينما كان غريغورى يفك الشبكة ، تفرس فى اكسينيا . كان وجهها ابيض كالطباشير ، لكن شفتيها الحمراوين الغليظتين قليلا كانتا تبتسمان . وكانت تقول بصوت منقطع لتستعيد انفاسها :

— ليتك رأيت كيف ارتطمت بالضفة ! كدت افقد عقلى . كنت خائفة حتى الموت . فقد ظننت انك قد غرقت .

تلامست يداهما ، وحاولت اكسينيا ان تدس يدها فى كم قميصه .

— ما ادفأ ذراعك — قالت ذلك متشكية وأضافت : — فانا جمدانة ! والقشعريرة تسرى فى جسمى .

— انظرى كيف انفلت هذا النغل ، — واطلعها غريغورى على ثقب فى وسط الشبكة ، قطره اكثر من متر .

وجاء شخص راكضا على الضفة . وخمن غريغورى انها دونيا ، فصاح عليها من بعيد :

— هل جلبت الخيط ؟

اجابت دونيا وهى تقترب منهما لاهثة :

— أجل ، لماذا جالسان هنا ؟ لقد ارسلنى ابى اليكما لتذهبا فى الحال الى رأس الضفة ، لقد صدنا ملء الكيس حفشا صغيرا .

وكان فى صوتها رنة انتصار جلى .

رنقت اكسينيا الثقب فى الشبكة ، وأسنانها تصطك بردا . ولاجل ان يدفئوا ، قطعوا المسافة الى رأس الضفة ركضا .

كان بانتلاى بروكوفيتش يلف سيكارة باصابع متشققة ، ومتورمة من الماء . وقال متفاخرا ، وهو يحرك قدميه كأنه يرقص :

— فى المرة الاولى ، ثمانى سمكات ، ولكن فى المرة الثانية . . . — وتوقف برهة يشعل سيجارته ، ثم اشار بقدمه الى الكيس دون ان يقول شيئا .

فنظرت اكسينيا بفضول الى داخل الكيس ، حيث انبعثت منه حسحسة السمك المضطرب ، يتزحلق بعضه فوق بعض .

— اين كنتما ؟
— لقد احدثت سمكة قرموط ثقبا فى شبكتنا .
— هل اصلحتماها ؟
— نعم ، بصورة ما .
— طيب . سوف نخوض مرة أخرى الى ركبنا ، ومن ثم الى الدار . انزل ياغريشا ، ماذا تنتظر ؟

وخطا غريغورى نحو النهر وساقاه خدرتان . وكانت اكسينيا ترتعش بشدة حتى انه شعر بالشبكة تهتز معها .

— لا ترتعشى !
— بودى لو استطعت ، لكن ستختنق انفاسى .
— اصغى الى ! فلنخرج ، وعلى السمك اللعنة !

وفى تلك اللحظة وثب فوق الشبكة شبوط كبير ، فضيق غريغورى دائرة الشبكة . وتحاملت اكسينيا على نفسها حتى بلغت الضفة . وعلى الرمال تناثرت المياه ثم كرّت منحسرة ، بينما استلقى السمك مرتعشا فى الشبكة .

— هل سنعود عن طريق المرج ؟
— العودة اقرب عبر الغابة . هاى ، انتم ، يامن هناك . هل انتم قادمون ؟
— اذهبا قبلنا . سنلحق بكما . فنحن نقوم بتنظيف الشبكة .

عصرت اكسينيا تنورتها ، عابسة الوجه ، والقت كيس السمك على كتفها وانطلقت راكضة . التقط غريغورى الشبكة . وكانا قد قطعا حوالى مائتى خطوة حينما بدأت اكسينيا تئن :

— لم أعد أقوى على السير ، فساقاى خدرتان .
— انظرى ، ثمة كومة قش عتيقة . لماذا لا تتدفأى فيها ؟
— شىء حسن ! والا فلن اصل بيتى .

فازاح غريغورى ذروة الكومة وحفر حفرة ، فانبعثت من القش المتروك زمنا طويلا رائحة دفء وعفونة .

— ازحفى الى الوسط . انه كالفرن هنا .

فالقت عنها الكيس ودفنت نفسها بالقش حتى الرقبة .

واستلقى غريغورى الى جانبها وهو يرتعش من البرد وانبعثت رائحة لطيفة مثيرة من شعرها المبلل . كانت قد استلقت ، ورأسها ملقى الى الوراء ، وهى تتنفس بانتظام من فمها المنفرج .

همس غريغورى مائلا نحوها :

— ان لشعرك رائحة كرائحة السيكران . أتعرفين تلك الزهرة البيضاء ؟

التزمت الصمت . كانت نظرتها غائمة وبعيدة ، ومثبتة على الهلال الآفل .

اخرج غريغورى يده من جيبه ، وجذب رأسها اليه فجأة . فانتزعت نفسها منه بعنف . وقامت من القش .

— تخلّ عنى !
— اهدئى .
— تخلّ عنى ، والا صرخت !
— انتظرى يا اكسينيا !
— ياعمى بانتلاى !

وانبعث صوت بانتلاى بروكوفيتش قريبا جدا ، من وراء أجمة من شجيرات الزعرور البرى :

— هل ضللت الطريق ؟

فقفز غريغورى من كومة القش وهو يصر باسنانه .

وتساءل العجوز من جديد وهو يتقدم نحوها :

— فيم صراخك ؟ هل تهت ؟

فوقفت أكسينيا ازاء كومة القش تصلح من وضع عصابتها ، والبخار يتصاعد من ملابسها .

— لم أته ، ولكننى أكاد اتجمد .

فقال لها العجوز :

— انظرى يا امرأة ، ثمة كومة قش ، تدفئى فيها .

وتبسمت أكسينيا وهى تنحنى لترفع الكيس .

٥

يبعد معسكر التدريب فى قرية سيتراكوفو حوالى ستين فرستا * . وقد ركب بيوتر ميليخوف وستيبان استاخوف فى عربة واحدة ، وكان برفقتهما ثلاثة اخرون من قريتهم : فيدوت بودوفسكوف ، وهو قوزاقى شاب له وجه كالميكى مجدور ، وكريسانف توكين الذى يلقب بكريستونيا ، وهو جندى احتياط من الوجبة الثانية فى كتيبة حرس الاتمان ** ، وايفان توميلين ، المدفعى الذى كان

---

* فرستا : مقياس طول روسى قديم ، يساوى ١,٠٦ كيلومتر . **المترجمون** .

** **الاتمان** : كان الاتمانات ينتخبون من القوزاق فى روسيا القيصرية لاشغال مناصب القيادة على مستويات متعددة ، فقد كان قائد جيش الدون يسمى **اتمان الجيش** ، ورئيس القصبة (ستانيتسا) وتعنى منطقة او مركز منطقة قوزاقية ، — كان يسمى **اتمان القصبة** . واذا ما خرجت مفرزة قوزاقية فى حملة ما ، انتخبت المفرزة اتمانا لها . وتعنى الكلمة ، بتعبير واسع **الرئيس** او **الزعيم** . وحينما فقد القوزاق استقلالهم فى النهاية اصبح «اتمان جميع القوات القوزاقية» لقبا وراثيا للقيصر ، وصارت قيادة جميع القطعات القوزاقية فى الواقع ، بيد **اتمانات معينين** .

يتوجه الى قرية برسيانوفكا . وبعد ان توقفوا لاطعام الاحصنة ، شدوا حصانى كريستونيا واستاخوف الى العربة ، واقتيدت الخيول الاخرى وراءها . وامسك بالاعنة كريستونيا ، وهو قوى البنية ، غريب الاطوار نوعا ما ، كاغلبية افراد كتيبة الاتمان . فجلس فى مقدمة العربة ، محنى الظهر كالعجلة ، حاجبا الضياء عن داخلها ، واستحث الخيول بصوته ذى الجرس العميق ، الخفيض الهادر . وتمدد بيوتر وستيبان وتوميلين يدخنون تحت غطاء المشمع الجديد المشدود باحكام . وساز بودوفسكوف خلف العربة ، وساقاه الكالميكيتان الحنفاوان * تسرعان الخطو على الطريق المعفر .

كانت عربة كريستونيا تتقدم الركب وتتقاطر خلفها سبع عربات او ثمان اخر ، تجر وراءها خيولا مسرجة وغير مسرجة . وضج الطريق بالضحك والصياح والاغانى وزنخرة الخيل وجلجلة الركائب الخالية .

كان رأس بيوتر مسندا على كيس فيه البقسماط ، وهو مضطجع بلا حراك ، يبرم شاربيه الطويلين الاصفرين .

— ستيبان !

— ها ؟

— هيا نغنى .

— الحر شديد ، وحنجرتى جافة كالعظمة !

— سوف لا تجد حانات هنا ، فلا تنتظر ذلك !

— حسنا ، غن انت . غير انك لا تصلح للغناء . لكن غريشا ، اخاك ، يمكنه ان يغنى . فما صوتـــــه

---

* الحنفاوان : معوجتان الى الداخل . **المترجمون** .

كالاصوات ، انه وتر من الفضة الخالصة . كنا أنا وهو نغنى فى السهرات .

والقى ستيبان رأسه الى الخلف ، وتنحنح ، ثم شرع يغنى بصوت خفيض متناغم :

اواه ، ثمة شروق بديع وضاء
قد تعالى مبكرا فى السماء

واسند توميلين خده على راحته ، كما تفعل النساء ، والتقط النغم فى صوت رفيع نواح . وراقب بيوتر ، مبتسما ، وطرف شاربه فى فمه ، العقد الصغيرة فى اوردة صدغى المدفعى العريض الصدر تزرق من الجهد الذى يبذله .

يافعة كانت ، تلك المرأة
التى درجت نحو الجدول الصغير

واستدار ستيبان على مرفقه ، وكان مضطجعا ورأسه ازاء كريستونيا واحمرت رقبته الجميلة الصلبة . وقال :

— هيا ياكريستونيا . . . اشترك فى الغناء .

والولد لما ادرك مرماها
اسرج فرسه الكستنائية

حول ستيبان نظرته الباسمة الى بيوتر الذى اطلق طرفى شاربيه من فمه وضم صوته اليهم . اما كريستونيا فقد زأر بصوت هز غطاء المشمع ، شاطرا بفمه شاربيه العريضين :

اسرج فرسه الكستنائية
ليلحق بالمرأة الشابة

وثنى كريستونيا قدمه الحافية الضخمة وانتظر ان يستأنف ستيبان الغناء . وواصل ستيبان غناءه برقة مغمض العينين ، ووجهه المعروق فى الظل ، وقد جعل صوته خفيضا حتى الهمس تارة ، ورنانا كرنين المعادن تارة أخرى .

دعينى ، دعينى ، ايتها المرأة
أسقى كستنائيتى فى الجدول

ومن جديد انطلق صوت كريستونيا الهادر العميق ليغرق اصوات الاخرين . وانبعثت اصوات من العربات المجاورة تردد الاغنية . وقرقعت العجلات على حوافها الحديدية ، وزنخرت الخيل من الغبار ، وانسابت الاغنية فوق الطريق ، قوية عميقة كمياه الفيضان . وانطلق فى الجو زقزاق ابيض الجناحين من السهب البنى ذى الاشجار المتهدلة ، فطار مطلقا صيحة باتجاه الوادى ، محولا عينا زمردية ليراقب سلسلة العربات ذوات الاغطية البيض ، وخيلا تثير بحوافرها سحائب ترابية ، ورجالا فى قمصان بيض معفرة ، يسيرون على حافة الطريق . ولما هبط الزقزاق فى الوادى ، واستقر صدره الاسود على الحشيش الرطب الذى سوته حيوانات هائمة ، فاته المشهد الذى كان يجرى فى الطريق . كانت العربات ما زالت تدرج على الطريق كما فى السابق ، والخيل العرقى ما زالت تشق طريقها ، برمة ، خلال الغبار ، غير ان القـــوزاق صاروا الان يركضون بقمصانهم المتربة من عرباتهم الى عربة القيادة ، يدورون حولها ويزأرون بالضحك .

كان ستيبان منتصبا بطوله فوق العربة ، ماسكا الغطاء بيد ، وموقعا اللحن بالاخرى ، وهو يهدر بنغم شائع فى سرعة مضاعفة :

لا تقعد قربى
لا تقعد قربى
سيقول الناس انك واقع فى حبى
واقع فى حبى
وآت على دربى
واقع فى حبى
وآت على دربى
ولكننى لست من الصنف الوضيع . . .

وانطلقت حزمة من الاصوات الخشنة لتؤدى دور الجوقة فى زئير ينفرش على الغبار المثار على جانبى الطريق :

لكننى لست من الصنف الوضيع
لست من الصنف الوضيع
فقد ولدت ابنة لشيخ قطاع الطريق
وقد نشأت ابنة لشيخ قطاع الطريق
ولست من الصنف الوضيع
اننى حبيبة لابن أمير . . .

صفر فيدوت بودوفسكوف ، واضطربت الخيل محاولة ان تحرر نفسها من الاعنة ، ومال بيوتر بجسمه خارج العربة وضحك ولوح بقبعته ، وهزّ ستيبان كتفيه فى مجون ، وابتسامة براقة على وجهه ، وعلى امتداد الطريق تدحرجت سحابة من غبار . وقفز كريستونيا من العربة ، وهو فى قميصه الكبير الطويل من غير ما نطاق ، وشعره متلبد ، ووجهه ينضح بالعرق ، وادى رقصة قوزاقية ، مدوما كأنه عجلة ضخمة ، عابسا ومتأوها ، تاركا على التراب الحريرى الاشهب آثارا مفلطحة لقدميه العاريتين .

توقفوا عند رابية ذات قمة رملية عريضة ، ليقضوا ليلتهم . زحفت سحب من الغرب ، وتساقط المطر من اجنحتها السود . واوردت الخيل من بركة تمايلت فوق سدها ، على مهب الريح ، اشجار صفصاف موحشة . وعلى الماء الذى تغطيه طحالب راكدة وتزحف فوقه مويجات بائسة ، كان ضوء البرق ينعكس مشوها . وكانت الريح تفتت قطرات المطر ، وكأنها تنثر الهبات على راحة الارض السمراء .

واقتيدت الخيل المقيدة الى الكلأ . وانيطت حراستها بثلاثة رجال ، فيما اشعل الاخرون النيران وعلقوا القدور على عرائش * العربات .

وكان كريستونيا يطبخ الدخن . وبينما كان يحركه بملعقة شرع يروى قصة للقوزاق الجالسين حوله :

— كانت الرابية عالية ، كهذه . قلت لابى الذى مات : «ألن يعاقبنا الاتمان على حفرنا الرابية دونما اذن بذلك ؟»

فتساءل ستيبان فيما كان عائدا من موضع الخيل :

— فيم يهرف هذا ؟

— اننى اروى كيف نقبنا عن الكنز ، انا وابى ، رحمة الله على روحه .

— واين بحثتم عنه ؟

— خلف الوادى انت تعرف هذا المكان هو رابية مركولوف .

قال ستيبان : — هكذا اذن .

---

* العريش : المحور الذى تشد به الخيل . **المترجمون** .

وجلس القرفصاء حذاء النار والتقط جمرة بكفه وجعل يتلاعب بها وقتا طويلا ، ثم أولع سيكارة بها .

— طيب ، وقال ابى : «هيا ياكريستونيا ، فلسوف نحفر فى رابية مركولوف» . فقد سمع عن ابيه ان ذلك الكنز مدفون فيها . ولكن الكنز ليس شيئا سهل المنال ولذا ابى نذر لله بقوله : «هبنى الكنز ، ولسوف أشيد كنيسة بديعة» . وهكذا تم الاتفاق بيننا ومضينا . كانت ارضا مشاعة . ولهذا فلم يكن هناك من يستطيع منعنا غير الاتمان . وصلنا عند العصر ، ولهذا انتظرنا حتى حلول الليل وقيدنا الخيول وتسلقنا مع مجارفنا حتى قمة الرابية . وشرعنا نحفر فى القمة تماما . وحفرنا حفرة عميقة ، وكانت الارض مثل الصخر . وغمرنى العرق من رأسى الى قدمى ، بينما ظل أبى يتمتم بصلواته ، ولكن صدقونى ، يا أخوان ، كانت بطنى تقرقر بشدة . . . فانتم تعرفون ما نأكله فى الصيف : لبن حامض وكفاس * واشعر بالمغص حتى اكاد أموت ! وابى رحمة الله عليه يقول : «اف ! ياكريستونيا ، انك وغد . فها انا أصلى وانت لا تستطيع ان تضبط بطنك . أنا لا أقدر ان اتنفس بسبب الرائحة الكريهة . تنح عن الرابية يا . . . والا فسأشج رأسك بالمجراف . أن وقاحتك كفيلة بجعل الكنز يغور فى أعماق الارض» . وهكذا استلقيت الى جانب الرابية واوجاع بطنى قمينة بهلاكى ، وابى — الذى كان رجلا قويا — يمضى ويمضى فى التنقيب وحده . ويظل يحفر حتى يصل الى بلاطة صخرية ، فيناديني ، وأضع قضيبا تحتها . وارفعها . صدقونى ، يا اخوان ،

---

* الكفاس : مشروب شعبى روسى . **المترجمون** .

كانت ليلة قمراء ، وتحت تلك البلاطة انبعث بريق ، وأى بريق . . .

فقاطعه بيوتر مبتسما ومعابثا شاربيه :

— ها أنت ذا تكذب الان ياكريستونيا .

— من الذى يكذب ؟ فلتذهب انت الى الشيطان ، والى أم الشيطان !

وعقد كريستونيا بنطاله ذا المؤخرة العريضة والقى نظرة خاطفة على مستمعيه .

— كلا ، فما انا بكاذب . انها حقيقة الله .

— اكمل قصتك !

— ثمة بريق ينبعث يا اخوان . وأنا انظر ، واذا به فحم خشبى . حوالى اربعين بوشلا * وابى يقول : «ازحف ياكريستونيا داخلا ، واخرجه برمته» . وهكذا اخرجت كل تلك النفايات . مضيت اخرجها حتى طلوع النهار . وفى الصباح ، كان هو أمامنا .

— من ؟ — تساءل توميلين المضطجع على مشرحة السرج .

— من يكون غير الاتمان ؟ يصادف ان يمر من هناك بمركبته . «من أعطاكما الاذن ؟» وما الى ذلك . اما نحن فنصمت ويقبض علينا ويجرجرنا الى القرية . ثم استدعينا الى المحكمة فى كامنسكايا فى السنة ما قبل الاخيرة ، لكن ابى ، وقد خمن ما هو آت عليه ، استطاع أن يموت قبل حلول الاوان . فكتبنا الى المحكمة نقول انه ليس فى عداد الاحياء .

وأخذ كريستونيا قدر الدخن المغلى من النار وذهب الى العربة لاحضار الملاعق . وحينما عاد سأله ستيبان :

---

* بوشلا : اربعة غالونات . **المترجمون** .

— حسنا ، وماذا عن ابيك ؟ فقد نذر لله ان يبنى كنيسة ، ألم يف بنذره ؟

— انت أحمق ياستيبان . فماذا عساه يبنى بقيمة الفحم الخشبى ؟

— مادام قد نذر ، كان عليه ان يفى بنذره .

— لم يكن هناك اتفاق ، أيا كان شكله ، حول فحم الخشب ، أما الكنز . . .

واهتزت ألسنة النار من القهقهات التى انطلقات عاليا ، ورفع كريستونيا رأسه عن القدر ، ولما لم يفهم سببا للضحك ، انطلق هو الاخر بزئيره المرعد وغطى على ضحك الجميع .

٧

كانت اكسينيا فى السابعة عشرة من عمرها حينما زُوِّجت من ستيبان استاخوف . لقد جاءت من قرية دوبروفكا ، من رمال الجانب الاخر للدون .

قبل الزواج بحوالى عام ، كانت اكسينيا ذات يوم خريفى تحرث فى السهب الذى يبعد حوالى ثمانية فرسخات عن القرية . وفى ذلك الليل قيد يديها ابوها ، وهو فى الخمسين من عمره ، واغتصبها .

وتوعدها قائلا :

— سوف اقتلك ان تنفست بكلمة ، ولكن اذا بقيت هادئة فلسوف اشترى لك سترة فاخرة وطماقين وخفين . تذكرى ، لسوف اقتلك ان انت . . .

وتحت جنح الليل جرت اكسينيا بتنورتها الداخلية الممزقة

عائدة الى القرية . وارتمت على قدمى أمها ونشجت تروى القصة كاملة . فشدّ اخوها الاكبر الذى عاد منذ حين من الخدمة العسكرية وأمها حصانين الى العربة وجعلا اكسينيا تجلس معهما ، وانطلقا الى الاب . اوشك اخوها ان يميت الخيول فى منطلقه عبر الفرسخات الثمانية . ووجدوا العجوز بالقرب من خيمة الحقل . كان مستلقيا على معطفه فى غيبوبة سكران والى جانبه زجاجة فودكا فارغة . وامام عينى اكسينيا حل أخوها العريش من العربة ، وبرفسة اقام اباه على قدميه ، ووجه اليه باقتضاب سؤالا او سؤالين ، ثم ضربه فيما بين عينيه بالعريش ذى الرأس الحديدى . وطوال ساعة ونصف ، ظل وأمه يضربانه بدون توقف . وجعلت الام المسنة ، وهى التى كانت على الدوام زوجة مطيعة ، تمزق بجنون شعر زوجها الغائب عن الوعى ، بينما استعمل الاخ قدميه . وتمددت اكسينيا تحت العربة ، وقد غطت رأسها وهى ترتعش فى صمت . . . وحملوا أباها الى الدار قبيل الفجر . تمدد يئن بصوت ذبيح وعيناه تجولان فى ارجاء الغرفة بحثا عن اكسينيا التى اخفت نفسها وجرى الدم من اذنه الممزقة على الوسادة ، الى أن مات قبيل المساء . وأخبروا الجيران بانه سقط سكرانا من العربة فمات .

بعد عام من الزمن ، وصل خاطبون فى عربة صغيرة زينت بصورة مرحة ، طالبين يد اكسينيا . فلقى ستيبان الطويل ، ذو الرقبة المنتصبة والجسم القويم ، قبولا لدى زوجته المقبلة ، وحدد عيد الخريف ميعادا للزفاف . كان النهار زمهريرا والجليد ذا وقع بهيج على الطرق يوم نصبت اكسينيا سيدة فتية لبيت استاخوف . وفى الصباح الباكر الذى تلا افراح الزواج جاءت حماة اكسينيا ، وهى عجوز طويلة تقوس ظهرها بسبب من مرض نسائى مؤلم ،

وايقظتها ، ثم اخذتها الى المطبخ وقالت لها وهى تنقل الاشياء بلا هدف :

— والان يا عزيزتى ، نحن لم نأخذك لتمارسى الحب ، ولا لكى تضطجعى فى الفراش . اذهبى واحلبى البقرات ، وبعد ذلك اعدى شيئا من الطعام . انني عجوز ومريضة . ويجب عليك ان تتعهدى شؤون الدار ، فكل ما فيها سيقع على عاتقك .

وفى اليوم نفسه ، أخذ ستيبان زوجته داخل المخزن ، وضربها عامدا وبشكل فظيع . وضربها على بطنها ونهديها وظهرها ، وحريصا الا تكون اثار الضرب ظاهرة للعيان . وبعد ذلك ، اهملها ، وجعل يصاحب زوجات طائشات منفصلات عن ازواجهن الجنود ، ويترك داره كل ليلة تقريبا ، بعد ان يحبس اكسينيا فى المخزن او فى الغرفة .

وطوال ثمانية عشر شهرا ، أى الى ان رزقا بطفل ، لم يكن ليغفر لها العار الذى جلبته اليه . ثم صار اكثر هدوءا ، ولكنه كان ضنينا فى ملاطفتها ، ونادرا ما كان يقضى ليلة فى الدار .

اثقل الحقل الواسع بماشيته الكثيرة كاهل اكسينيا بالعمل . وكان ستيبان يعمل بلا حماسة ، ويزوغ للتدخين او لعب الورق بعد ان مشط شعره بعناية ، او لتقصى آخر الاخبار ، وصار على اكسينيا ان تفعل كل شىء . ولم تكن حماتها لتساعدها الا بالنزر اليسير . فما ان تنتقل هنا وهناك قليلا حتى تهوى على الفراش ، وبشفتين مزمومتين صفراوين وعينين محملقتين فى السقف بألم ، تستلقى متأوهة وتتكوم على شكل صرة . وفى مثل هذه الاوقات ، كان وجهها ، الذى تكسوه شامات كبيرة قبيحة ، ينضح بالعرق وتقطر دموعها على خديها ، قطرة اثر قطرة . وكانت اكسينيا تترك عملها وتنزوى فى ركن من الغرفة وتحدق فى وجه حماتها بخوف واشفاق .

ماتت العجوز بعد عام ونصف عام . ففى الصباح بدأت اكسينيا تشعر بالام المخاض ، وحوالى الظهر ، وقبل مجىء الطفل الى العالم بساعة او زهائها ، سقطت العجوز ميتة عند باب الاصطبل القديم . وجرت القابلة لتحذر ستيبان السكران من دخول غرفة النوم ، فوجدت العجوز ممدة وقد انثنت رجلاها تحت جسمها .

وبعد ولادة الطفل ، كرست اكسينيا نفسها لزوجها ، غير انها لم تكن لتشعر نحوه باية عاطفة غير الاشفاق الانثوى المر وحكم العادة . وفى غضون عام مات الطفل ، وعادت الحياة الى ما كانت عليه . وحينما عبر غريشا ميليخوف درب اكسينيا ، ادركت ، والرعب يتملكها ، انها كانت منجذبة الى ذلك الفتى الاسمر اللطيف . وقد تصابر غريشا عليها فى حب مؤمل عنيد ، وكان هذا الاصرار عين ما كانت تخشاه اكسينيا فى غريشا . ووجدت انه لم يكن ليخاف ستيبان ، او يتراجع بسببه ، وعلى الرغم من مقاومة شعورها بكل قوتها ، فقد لاحظت على نفسها انها كانت تعنى بزينتها ايام الاحاد وفى ايام الاسبوع اكثر من أى وقت مضى . وكانت تعلل نفسها ، ازاء ضميرها ، بشتى المعاذير وهى تحاول أن تظهر امامه كلما سنحت لها الفرصة . لقد كان مما يسعدها ان تتحسس عينى غريغورى السوداوين تلاطفانها باصرار وهيام . وحينما كانت تستيقظ فى الصباح قبل ان تمضى لتحلب البقرات ، كانت تبتسم لنفسها ، ومن غير ان تدرك لماذا ، تقول فى دخيلتها : «اليوم يوم سعيد . لكن لماذا ؟ اواه يا غريغورى . . . ياغريشا» . كان يخيفها هذا الشعور الجديد الذى ملأها ، وصارت تتلمس طريقها عبر افكارها فى حذر ، كما لو كانت تعبر الدون فوق جليد اذار الذائب .

وبعد أن ودعت ستيبان الذاهب الى المعسكر ، قررت ان تتجنب غريغورى ما استطاعت . وقد ازداد قرارها تصميما بعد حادثة صيد السمك .

٨

قبل احد الثالوث بحوالى يومين ، تم توزيع مروج القرية ، وكان بانتلاى بروكوفيتش حاضرا اثناء التوزيع . ثم عاد الى داره عند موعد الغداء . فالقى جزمته متأففا ، وأعلن وهو يهرش قدميه المتعبتين بتلذذ :

— حصتنا هى البقعة القريبة من الضفة الحمراء . ليست بذات حشائش افضل بكثير من المعتاد . ويمتد جزؤها الاعلى حتى الغابة . وهى مجرد نجيل فى بعض الاماكن ، وشىء من الثيل .

تساءل غريغورى :

— ومتى سنقوم بالحش ؟

— بعد العيد .

دمدمت العجوز مقطبة :

— وهل ستأخذون داريا معكم ؟

لوح بانتلاى بروكوفيتش بيده فأسكتها :

— دعينى وشأنى ! سنأخذها اذا احتجنا اليها . هيا اعدى الغداء . فيم وقوفك فاغرة الفم ؟

ففتحت الزوجة العجوز باب الفرن بقرقعة وأخرجت حساء الكرنب المدفأ . وجلس بانتلاى بروكوفيتش الى الطعام وقتا طويلا يروى احداث التوزيع ويحكى عن الاتمان المخادع الذى كاد أن يغش مجمع القوزاق برمته . وعقبت داريا :

— لقد لجأ الى حيلة فى العام الماضى ايضا . خصوصا حينما حاول ان يغش مالاشكا اثناء توزيع الارض .

فتمتم بانتلاى بروكوفيتش :

— لقد كان ابن عاهرة ، دائما .

وتساءلت دونيا متهيبة :

— ولكن من الذى سيجرف ويكوّم يابابا ؟

— ماذا عنك أنت ؟

— انا لا أستطيع أن أقوم بكل ذلك لوحدى .

— سوف ندعو اكسينيا استاخوفا . فقد رجانا ستيبان ان نحش له . علينا ان نلبى رجاءه .

فى الصباح التالى ، جاء ميتكا كورشونوف راكبا جواده ابيض السيقان ودخل الى حوش ميليخوف . كان ثمة مطر خفيف وضباب كثيف عالق فوق القرية . ومال ميتكا من على سرجه وفتح البوابة ودلف الى الداخل ، فصاحت فيه العجوز من العتبة :

— هاى ، انت ، ايها الوغد ، ماذا تريد ؟ — وكان النفور واضحا فى صوتها ، فلم تكن تميل الى ميتكا الوقح المشاكس .

— وما دخلك انت يا ايلينيشنا ؟ — قال ميتكا ذلك فى استغراب بينما كان يربط جواده الى حاجز العتبة ، واضاف :

— اريد غريشا ، اين هو ؟

— انه نائم فى السقيفة . ولكن هل اصابك مس ؟ ام تراك لم تعد قادرا على استعمال ساقيك حتى صار عليك ان تأتى راكبا ؟

فرد عليها ميتكا برما :

— انت دائما تحشرين انفك ، ايتها العمة .

وصفع جزمته الجلدية اللامعة بسوطه الانيق ، وانطلق متمايلا

يبحث عن غريغورى ، فوجده نائما فى عربة صغيرة . فزر ميتكا عينه اليسرى كأنه يصّوب ، وهوى بسوطه على غريغورى .

— قم ، ياموجيك ! *

كانت «موجيك» اسواً كلمة وجدها ميتكا . فقفز غريغورى كما لو كان فوق نوابض .

— ماذا تريد ؟

— لقد نمت ما فيه الكفاية .

— دعك عن العبث يامتيكا قبل ان يعصف بى الغضب .

— قم ، فلدى ما احدثك به .

— حسنا ؟

فجلس ميتكا على جانب العربة ، وقال وهو يكشط بالسوط الوحل المتيبس من جزمته :

— لقد أُهنتُ ، ياغريشا .

— أى ؟

— انظر ، ان القضية . . .

وقذف من فمه سبابا كثيرا ، واستطرد :

— انه ملازم اول ، ولهذا فانه يريد ان يتباهى .

وكان يلفظ الكلمات بسرعة مغتاظا دون ان يفتح فمه ، فيما كانت ساقاه ترتجفان .

ورفع غريغورى جسمه قليلا متسائلا :

— اى ملازم اول ؟

فقال ميتكا بهدوء اكثر وهو يمسك بكم غريغورى :

— اسرج حصانك فى الحال ، وتعال الى المروج . لسوف

---

* موجيك : تعنى فلاحا . **المترجمون** .

اريه ! قلت له — تعال ، ياصاحب السعادة ، ولسوف نرى — فقال — أجلب جميع اصدقائك ورفاقك ، وسوف اهزمكم جميعا ، فلقد حصلت ام فرسى على الجوائز فى سباق قفز الموانع لخيل الضباط فى بطرسبرغ — وما عسى ان تكون فرسه او امها بالنسبة لى ؟ عليهما اللعنة ! فلن ادعهما تسبقان جوادى !

فارتدى غريغورى ملابسه مسرعا . وتبعه ميتكا ، والغضب آخذ بخناقه :

— لقد جاء لزيارة التاجر موخوف . اسمع ، ما كان اسمه ؟ ليستنتسكى ، على ما اظن . ضخم ، جدى المظهر ، ويضع عوينات . حسنا ، فليضع عوينات ، لكنها لن تساعده فى شىء : فلن ادعه يلحق بجوادى .

واسرج غريغورى الفرس العجوز متضاحكا . ولكى يتحاشى لقاء ابيه ، انطلق الى السهب خلال بوابة ساحة درس الحبوب . وركبا صوب المرج بمحاذاة سفح التل ، وكانت حوافر الخيل تعجن الوحل بفرقعة . وبالقرب من شجرة حور جرداء كان عدد من الفرسان فى انتظارهما : الضابط ليستنتسكى على فرس رشيقة جميلة ، وسبعة من صبيان القرية ممتطين جيادهم .

— من أين سنبدأ ؟ — تساءل الضابط ملتفتا الى ميتكا ، وهو يسوى عويناته المعلقة على انفه دون اطارات ، وينظر باعجاب الى عضلات الصدر القوية لجواد ميتكا .

— من شجرة الحور الى بركة القيصر .

— واين هى بركة القيصر؟ — حاوص ليستنتسكى عينيه بصورة تنم عن قصر نظره .

— هناك ، ياصاحب السعادة ، عند طرف الغابة .

واصطفت الخيل فى خط واحد . ورفع الضابط سوطه فوق رأسه . فتلوت كتافته .

— نبدأ حينما اقول «ثلاثة» اتفقنا ؟ واحد . . . اثنان . . . ثلاثة !

وانطلق ليستنتسكى اولا ، منحنيا فوق قربوس* السرج ، ويده على قبعته . وبقى ، برهة ، يتقدم الجميع . ثم انتصب ميتكا على ركابيه ، ووجهه شاحب قانط . وبدا لغريغورى ان ميتكا كان متباطئا بشكل لا يحتمل فى انزال السوط على كفل الجواد .

كانت المسافة الى بركة القيصر حوالى ثلاثة فرستات . وحينما قطعوا نصف المسافة ، لحق جواد ميتكا ، الذى استقام جسمه كالسهم ، بفرس ليستنتسكى . اما غريغورى ، الذى تخلف منذ البداية ، فقد كان يخب خاملا وهو يراقب بفضول سلسلة الراكبين المتناثرة .

كان الى جانب بركة القيصر تل رملى صغير ، غسلته فيضانات الربيع ، وقد كست حدبته اعشاب قليلة . ورأى غريغورى ميتكا والضابط ينطلقان صاعدين التل ثم يختفيان معا عبر حافته ، يتبعهما الاخرون . وحينما بلغ البركة وجد الخيل العرقة متجمعة الى جانب بينما كان الصبيان المترجلون يتحلقون حول ليستنتسكى ، وميتكا يتألق فى حبور مكتوم ، وتنم كل حركة فيه عن الشعور بالانتصار . اما الضابط فلم يبد عليه الغم مطلقا ، بخلاف ما كان متوقعا ، اذ كان يقف وظهره مستند على شجرة ، ويدخن سيكارة . وقال مشيرا الى فرسه المزبدة : «كنت قد قطعت عليها مائة

---

* القربوس : حنو السرج او حدبته . **المترجمون** .

وخمسين فرسخا وجئت عليها من المحطة امس . فلو كانت مرتاحة ، لما استطعت ان تلحق بها ، يا كورشونوف» .

فقال ميتكا باريحية : — ربما .

كان صبى انمش الوجه ، قد وصل آخر الراكبين ، فصاح حاسدا :

— ان جواده احسن ما فى المقاطعة من خيل .

فقال ميتكا : «انه حصان جيد» ، ومرر كفه على رقبة الجواد ، ويده تهتز انفعالا . ونظر الى غريغورى ، وابتسم ببلاهة .

ترك غريغورى وميتكا الاخرين وعادا الى البيت بمحاذاة اطراف القرية . اما الضابط فقد ودعهما ببرود ، وحياهما تحية عسكرية رافعا اصبعين الى حافة قبعته ، واستدار مبتعدا .

وبينما كانا يقتربان من الدار ، رأى غريغورى اكسينيا قادمة باتجاههما ، وهى تجرد غصنا اثناء سيرها . وحينما لحظته طأطأت رأسها . فصاح ميتكا قائلا :

— فيم تحمرين خجلا ، هل نحن عاريان ؟ — وغمز بعينه — يا فرحة عينى !

وكاد غريغورى ان يحاذيها ، وهو يحدق امامه فى خط مستقيم ، ثم ضرب فرسه المتبخترة بسوطه ، على حين غرة ، فأقعت الى الوراء على ساقيها الخلفيتين ، وارسلت رذاذا من الوحل فوق اكسينيا .

— تبًا لك من شيطان مخبول !

فأدار غريغورى فرسه الجامح بحدة وتقدم نحوها ، وتساءل :

— لم لا تقولين «مرحبا» ؟

— انك لست اهلا لها .

— ولهذا نثرت عليك الوحل . لا تغترى بنفسك كثيرا .

فصاحت اكسينيا ملوحة بذراعيها امام انف الفرس :

— دعنى امر . فيم تدوسنى بحصانك ؟

— انها فرس وليست حصانا .

— هذا لا يهمنى ، دعنى امر .

— فيم غضبك يا اكسينيا ؟ أبسبب ما حدث ذلك اليوم فى المرج ؟

وحدجها غريغورى محدقا فى عينيها . فحاولت اكسينيا ان تنطق بشىء ما ، لكن دمعة صغيرة ظهرت فى زاوية عينها السوداء ، وارتعشت شفتاها بصورة تثير الشفقة . وهمست ، وهى تبتلع ريقها بصعوبة :

— اتركنى ياغريغورى . . . لست غاضبة . . . فأنا . . .

ثم مضت .

لحق غريغورى بميتكا عند البوابة ، والاستغراب يتملكه . سأله ميتكا :

— هل ستخرج الليلة ؟

— كلا .

— لماذا ؟ ما السبب ؟ ام تراها دعتك لقضاء الليلة معها ؟

فمسح غريغورى جبينه براحته ، ولم يجب .

٩

لم يخلف عيد أحد الثالوث فى بيوت القرية سوى زعتر جاف منثور على الارض ، ونثار اوراق مسحوقة ، وأغصان دردار وبلوط ذابلة معقودة على البوابات والسلالم .

بدأ جمع القش مباشرة بعد أحد الثالوث . فمنذ الصباح الباكر ازهرت المروج بتنورات النساء الزاهية ، والصدريات المطرزة

اللامعة ، وعصابات الرأس الملونة . وخرجت القرية عن بكرة ابيها للحش . وتزين الحاشون والجارفون ، كما لو كانوا فى عيد سنوى . هكذا جرت الامور منذ القدم . ومن الدون الى ادغال الحور البعيدة ، تململت ارض المروج المنهوبة وتأوهت .

أما اسرة ميليخوف فقد تأخرت عن العمل ، ولم ينطلقوا الا بعد أن كان نصف القرية تقريبا قد بلغ المرج .

حيا جامعو القش رب الاسرة والعرق يتصبب منهم :

— انت تستيقظ متأخرا ، يا بانتلاى بروكوفيتش .

— ليست غلطتى . . . انهن النساء مرة أخرى — وتضاحك العجوز ، واستحث الثيران بسوطه المصنوع من الجلد الخام .

— طاب يومك ، ياجار ! انت متأخر قليلا ، أليس كذلك ؟ — قالها قوزاقى طويل يعتمر قبعة من القش ، هازا رأسه وهو واقف على جانب الطريق يشحذ منجله .

— اتحسب ان العشب سيكون جافا ؟

— اذا لم تسرع خطاك فسيجف عما قريب . اين حصتك ؟

— بالقرب من الضفة الحمراء .

— استعجل اذن والا فاتك الاوان .

وفى مؤخرة العربة جلست اكسينيا وقد غطت وجهها كليا لتتقى الشمس ومن الفتحات الضيقة التى تركتها لعينيها ، جعلت تحدق بهدوء وصرامة فى غريغورى الذى جلس ازاءها . وكانت داريا متلفعة أيضا وقد ارتدت أحسن ثياب يوم الاحد ، وتدلت ساقاها بين عوارض جانب العربة ، واعطت ثديها الطويل ذا العروق الزرق للطفل الراقد بين ذراعيها . وتململت دونيا على حافة العربة وعيناها السعيدتان تتفرسان فى المرج والناس السائرين على امتداد الطريق ، وقد بدا على وجهها المرح الذى لفحته الشمس ،

وانفها الذى انتشرت عليه رشة من النمش ، وكأنه يقول بلسانها «اننى أشعر بالمرح والسعادة لان اليوم ، بسمائه الزرقاء الصافية ، هو الاخر سعيد ، ولان روحى يملؤها الهدوء الازرق الصافى ذاته . اننى سعيدة ، ولدى كل ما أريد» . وجذب بانتلاى بروكوفيتش كمى قميصه القطنى فوق قبضتيه ، ليمسح العرق المنساب من تحت ذؤابة قبعته . والتصق قميصه التصاقا محكما على ظهره المقوس ، وقد قتم لونه بيقع العرق . ونفذت الشمس قوية خلال غيمة رمادية منفوشة ، وأسالت مجرى من الاشعة المتكسرة السديمية فوق المرج والقرية والسهب وتلال الدون الفضية البعيدة .

كان النهار قائظا . والغيمات الصغيرة تزحف متكاسلة ، حتى انها لم تسبق ثيران بانتلاى بروكوفيتش فى سيرها المكدود على الطريق . وكان بانتلاى بروكوفيتش العجوز نفسه يرفع ويلوح بسوطه متثاقلا ، كما لو كان مترددا فى ضرب جوانبها الهزيلة . ويبدو ان الثيران نفسها ادركت ذلك ، فلم تسرع خطاها ، وواصلت سيرها الى الامام متباطئة متكاسلة تهز ذيولها بلا انقطاع . حومت فوقها ذبابة خيل غبراء ذات لون ذهبى وبرتقالى .

وبدت أرض المروج ، حينما قطعت الحشائش على مقربة من بيوت القرية ، تتألق فى بقع خضراء شاحبة ، وفى المناطق التى لم تقطع فيها الاعشاب ، انبعث من الحرير الحشيشى ، الاخضر المشوب بالسواد ، حفيف كلما داعبه النسيم .

لوح بانتلاى بروكوفيتش بسوطه قائلا :

— تلك هى قطعتنا .

سأله غريغورى :

— نبدأ من الغابة ؟

— من الممكن ان نبدأ من هذا الطرف ايضا ، تركت العلامة هناك .

حل غريغورى الثيران المتعبة . وراح العجوز ، والقرط يتلامع فى اذنه ، يبحث عن العلامة التى وضعها عند نهاية القطعة . وبعد دقيقة صاح ملوحا بيده : «هات المناجل» .

فذهب غريغورى اليه وهو يدوس الحشيش ، مخلفا وراءه اثرا متماوجا . ويمم بانتلاى بروكوفيتش وجهه صوب برج الناقوس البعيد ورسم علامة الصليب وتناول المنجل . وشع أنفه المعقوف وكأنه قد لمع بالدهان لتوه ، وتلكأ العرق فى تجاويف خديه الاسمرين . وابتسم ، فكشف عن صف مرصوص من الاسنان البيض اللامعة وراء لحيته السوداء بلون الغراب ، ومال برقبته المتغضنة الى اليمين ، وهوى بمنجله الكبير على الحشيش ، فاذا بنصف دائرة ، قطرها متران ، من الحشيش تتكوم عند قدميه .

وحذا غريغورى حذو أبيه ، وعيناه نصف مغمضتين ، وهو يلقى الحشيش ارضا بمنجله . وأمامه ازدهت صدريات النساء كقوس قزح مبعثر ، لكن عينيه كانتا تبحثان عن صدرية واحدة ، بيضاء مطرزة الحاشية ، واختلس نظرة الى اكسينيا وأستأنف الحش من جديد ، متساوقا مع خطى ابيه .

لقد شغلت اكسينيا ذهنه طوال الوقت . وفيما كانت عيناه نصف مغمضتين قبلها فى الخيال وناجاها بكلمات ملتهبة رقيقة تدفقت على لسانه من حيث لا يدرى . ثم ازاح عنه تلك الاخيلة وواصل الخطى من جديد بصورة منتظمة . . . واحد . . . اثنان . . . ثلاثة ، وانصرف ذهنه الى شذرات من الماضى . «كنت جالسا معها تحت كومة القش الرطب . . . القمر فوق المرج . . . وبين حين واخر تتساقط قطرة من الشجيرة فى البركة . . . واحد . . . اثنان . . . ثلاثة . . . بديع ! آه ، لكم كان هذا بديعا !»

وتناهت اليه ضحكة من ورائه ، فتطلع الى الخلف : كانت

داريا مستلقية تحت العربة وأكسينيا منحنية عليها تسرّ لها شيئا ما . ولوحت داريا بذراعيها ، وعادتا تضحكان من جديد . وكانت دونيا جالسة على محور العربة تغنى بصوت زاعق .

قال غريغورى لنفسه : «سابلغ تلك الشجيرة ، ثم اشحذ منجلى» . وفى تلك اللحظة شعر بمنجله يمر خلال شىء ناعم ومستكين . فانحنى غريغورى ، فاذا ببطة برية صغيرة تمرق داخل الحشيش وهى تصيح . والى جانب الحفرة التى ضمت عشها تكومت بطة أخرى وقد شقها المنجل نصفين ، بينما تفرقت بقية الفراخ مذعورة واختفت فى الحشيش . فوضع غريغورى الطائر الميت على راحته . لقد كان واضحا انه خرج من البيضة قبل بضعة ايام ، فقد كان ثمة دفء باق فى زغبه . وعلى منقاره المسطح نصف المفتوح ، كانت فقاعة وردية من الدم ، وانكمشت عيناه الخرزيتان ، بينما ظلت رجلاه الصغيرتان دافئتين ترتعشان . وجعل غريغورى يحدق فى الكرة الصغيرة الهامدة فى يده ، وقد انتابه شعور حاد مفاجىء بالرثاء له .

— ماذا وجدت ياغريشا ؟ — وجاءت دونيا ناطة خلل الممر المحشوش وضفيرتاها تتواثبان على صدرها . فالقى غريغورى البطة ، متجهم الوجه ، واعمل بمنجله مغضبا .

تناولوا غداءهم بسرعة . وكان قوام وجبتهم ، التى كانوا قد جلبوها من البيت فى كيس ، شحم الخنزير واللبن الرائب .

قال بانتلاى بروكوفيتش اثناء الغداء «لا داعى للذهاب الى الدار . سنسرح الثيران لترعى فى الغابة ، وفى الغد ، حالما يزول الندى من العشب سنتم الحش» .

بعد الغداء ، شرعت النساء فى جرف القش . وانكمش الحشيش المقصوص وتيبس فصار يبعث رائحة قوية مخدرة .

كان الغسق قد حل حينما توقفوا عن عمل اليوم . وجمعت اكسينيا الصفوف الاخيرة من الحشيش معا ، ومضت الى العربة لتطبخ شيئا من هريسة الدخن . لقد سخرت متخابثة من غريغورى طوال اليوم ، وظلت تتابعه بنظرات تفيض كراهية ، كما لو كانت تقتص منه لذنب عظيم لا يغتفر . ساق غريغورى الثيران ليوردها من الدون ، وهو مكتئب خائر العزيمة . ظل ابوه يراقبه هو وأكسينيا طوال النهار . وقال ناظرا الى غريغورى فى كدر : «تناول عشاءك ، ثم اذهب لحراسة الثيران . وأحرص الا تدخل المرج . وخذ فروتى» .

وارقدت داريا طفلها تحت العربة ومضت الى الغابة بصحبة دونيا لجلب الحطب .

وفوق المرج ، تعالى القمر الشاحب فى السماء المنيعة المظلمة . وحومت زوبعة من الفراشات حول ألسنة اللهيب ، والى جانبها وضع العشاء على قطعة قماش خشنة . وغلى الدخن فى اناء الحقل الاسخم . وصاحت داريا على غريغورى ، وهى تمسح ملاعق بطرف تنورتها الداخلية :

— تعال تناول عشاءك .

فظهر غريغورى من الظلمة ، وفروة أبيه ملقاة على كتفيه ، واقترب من النار . سألته داريا مبتسمة : «ما الذى يثقلك بالهموم . بهذا القدر ؟» فرد عليها مازحا : «أحس بألم فى ظهرى . يبدو انها ستمطر» .

وقالت دونيا متضاحكة : — انه لا يريد ان يحرس الثيران .

وحاولت ان تجاذب اخاها الحديث بينما جلست الى جواره . ولكن باءت محاولاتها بالفشل لأمر ما . رشف بانتلاى بروكوفيتش الهريسة جارشا بأسنانه الدخن غير المستوى . وكانت أكسينيا تأكل

دون ان ترفع عينيها ، وهى تبتسم لفكاهات داريا من غير ما حماسة كثيرة . فى حين اشتعلت وجنتاها باحمرار شديد .

نهض غريغورى قبل الاخرين ، ومضى الى الثيران .

فصاح ابوه وراءه : «احرص على الا تدوس الثيران حشيش الاخرين» ، ثم غص بلعومه بفتات الدخن فجعل يسعل سعالا جافا لوقت طويل .

وانتفخت وجنتا دونيا فيما كانت تحاول ان تكتم ضحكها . تضاءلت النار . ولفت الجماعة رائحة حلوة انبعثت من الاوراق المحترقة فى الحطب المتوهج .

* * *

عند منتصف الليل تسلل غريغورى الى المضرب ، وتوقف على مبعدة عشر خطوات . كان ابوه يشخر شخيرا مرنانا فى العربة . والجمر غير المطفأ يتألق من خلل الرماد كأنه عيون طاووس ذهبية .

وانتزع شبح رمادى ملثم نفسه من العربة واقترب وئيدا من غريغورى . وعلى مبعدة خطوتين او ثلاث ، توقف الشبح . اكسينيا ! ودق قلب غريغورى سريعا وعنيفا ، وتقدم الى الامام حبوا ، وقد نحى طرف فروته الى الوراء ، وضغط اليه جسدها الملتهب المستسلم . وانثنت ساقاها عند الركبتين ، وارتعشت واصطكت أسنانها . فرفعها غريغورى فجأة والقاها على ذراعيه ، كما يلقى ذئب شاة ذبيحة على ظهره ، ومضى متعثرا باطراف معطفه المفتوح مبهور النفس .

— اوه ! غريشا ، غريشا ! ابوك . . .

— أهدئى !

وانتزعت نفسها منه ، لاهثة تنشد الهواء فى ثنايا صوف الفروة الحامض ، والندم يأخذ بخناقها ، وندت عنها صيحة متأوهة خفيضة هى الى العياط اقرب :

— انزلنى ، ما فى اليد حيلة سأذهب بنفسى .

١٠

ليس لازورديا ولا احمر فاتحا كلون الخشخاش ، حب المرأة المتأخر ، لكنه مسعورا كعشب السيكران النابت على جانب الطريق .

بعد انتهاء الحش ، أمست اكسينيا امرأة أخرى : وكأن احدا قد وسم وجهها بميسم من نار . واذا صادفتها النساء تبسمن بخبث ، وهززن رؤوسهن وراءها . اما الفتيات فقد حسدنها ، لكنها شمخت عاليا برأسها الهانئ المجلل بالعار .

وسرعان ما عرف الجميع حكايتها مع غريغورى ميليخوف . فى البدء ، كان الحديث يدور همسا ، والناس بين الشك واليقين ، ولكن بعد أن رآهما راعى القرية فى بكرة الفجر مستلقيين فى الذرة اليانعة تحت ضياء القمر الافل بالقرب من طاحونة الهواء ، انتشرت الشائعات كموجة عكرة تتكسر مضطربة على الشاطئ .

ثم بلغت الشائعة سمع بانتلاى بروكوفيتش ايضا . فقد حدث ذات يوم أحد ، ان ذهب الى حانوت موخوف ، وكان الازدحام على الباب شديدا الى درجة لا تحتمل المزيد . فدخل بانتلاى بروكوفيتش ، وبدأ الجميع يوسعون له الطريق ، وهم يبتسمون وراءه . واتجه صوب الطاولة حيث تباع الاقمشة . وجاء صاحب الحانوت ، سيرغى بلاتونوفتش موخوف ، ليلبى طلب العجوز بنفسه . وسأله : «اين كنت طوال هذه المدة يا بروكوفيتش ؟»

— لدى عمل كثير ، ومتاعب فى الحقل .

— حقا ؟ متاعب وعندك مثل هذين الولدين ؟

— أى ولدين ؟ لقد ودعت بيوتر الى المعسكر ، وليس ثمة سواى وغريشا لنعمل كل شىء .

وفرق موخوف لحيته الحمراء الناشفة باصابعه الى نصفين ، والقى من زاوية عينه نظرة ذات معنى على جمع القوزاق .

— لِمَ لَمْ تحك لنا شيئا عنه ؟

— عن أى شىء ؟

— ماذا تعنى بقولك عن أى شىء ؟ تفكر بتزويج ابنك ، دون ان تقول كلمة ما لاى انسان ؟

— أى ابن ؟

— غريغورى ابنك غير متزوج .

— انا لم افكر بتزويجه ، بعد .

— لكننى سمعت انك بصدد اتخاذ كنة لك . . . اكسينيا ، زوجة ستيبان استاخوف .

— ماذا ؟ وزوجها على قيد الحياة . . . كيف يابلاتونوفتش . . . لابد انك تمزح . اليس كذلك ؟

— أمزح ؟ ولكنى سمعت الخبر من الاخرين .

فمسح بانتلاى بروكوفتش بيده على قطعة القماش المبسوطة على الطاولة ، ثم استدار بحدة ومضى يعرج قاصدا الباب . واتجه الى داره مباشرة ، مطأطأ الرأس كالثور وقد ضم قبضة اصابعه المعروقة ، وصار يحجل على ساقه العرجاء بصورة اوضح . وحين مر بدار استاخوف القى نظرة عجلى عبر سياج الصفصاف . كانت اكسينيا فى ثوب جميل تدلف الى الدار تحمل سطلا فارغا وقد بدت يافعة ، وهى تهزهز ردفيها اللدنين .

صاح بانتلاى بروكوفتش : «ياهذى ، انتظرى» ومرق الى الداخل خلال البوابة . فتوقفت اكسينيا تنتظره . ثم دخلا الى المطبخ . كانت القاع الترابية المكنوسة يتلألأ عليها رمل أحمر ، وكان ثمة على المصطبة فى الزواية الامامية فطائر طازجة اخرجت توا من الفرن . وانبعثت من الغرفة رائحة ملابس زنخة وتفاح حلو .

هرت قطة رقطاء ذات رأس كبير حول رجلى بانتلاى بروكوفتش . وقوست ظهرها والتصقت بجزمته . فركلها ركلة ضارية قذفت بها الى المصطبة . صاح وهو يسمر نظره فى عينى اكسينيا :

— ما هذا الذى أسمعه ؟ ها ؟ لم يكد زوجك يغيب ، حتى عمدت الى غواية رجال آخرين ! لسوف اجعل دم غريشا يسيل لاجل ذلك ، وسأكتب الى زوجك ستيبان ! فليسمع بهذا ! ياعاهرة ، لم تنالى كفايتك من الضرب على ما يبدو ؟ اياك ان تضعى قدما داخل حوشى من الان فصاعدا . تتعابثين مع شاب . وعندما يأتى ستيبان ، هو سيقول لى . . .

أنصتت اليه اكسينيا وقد حاوصت عينيها . وفجأة رفعت طرف تنورتها بلا حياء وغمرت بانتلاى بروكوفتش برائحة ملابس النساء وتقدمت نحوه متلعة بصدرها ، وقد التوت شفتاها وتعرت اسنانها .

— من انت ؟ حماى ؟ ها ؟ من انت كى تعلمنى ؟ رح وعلم امرأتك ذات المؤخرة السمينة . اضبط من فى دارك انت ، لن اعيرك اهتماما ايها الشيطان الاعرج ذو القدم البتراء ! اخرج من هنا ، فانت لا تخيفنى !

— انتظرى ، ايتها السفيهة المخبولة !

— ليس ثمة ما انتظره ! عد من حيث اتيت ! واذا اردت ابنك غريشا ، فلسوف آكله ، بعظامه وكل ما فيه ، دون ان

يحاسبنى احد ! ماذا لو أحببت غريشا ؟ اضربنى ، هلا فعلت ؟ تريد ان تكتب الى زوجى ؟ اكتب الى الاتمان إن شئت ، ولكن غريشا يعود لى ! فهو لى ! انه ملكى ، وسأبقيه ملكا لى !

وضغطت اكسينيا على بانتلاى بروكوفتش الواهن بنهدها الذى كان يترجرج خلف قميصها الرقيق الضيق كطير حبارى واقع فى فخ ، والهبته بشعلة عينيها السوداوين ، واغرقته بمزيد من الكلمات البذيئة الفظيعة . فتراجع العجوز نحو الباب ، وحاجباه يرتعشان ، وتلمس العصا حيث تركها فى الزاوية ، ودفع الباب بمؤخرته وهو يلوح بيده . وظلت اكسينيا تضغط عليه حتى اخرجته من الممر ، وهى تصيح لاهثة هائجة :

— سوف انعم بحبى ، وسوف اعوض عن كل ما قاسيته من مظالم ! وآنذاك ، لك ان تقتلنى ان شئت ! فغريشا ملكى ، ملكى !

ومضى بانتلاى بروكوفتش يعرج الى بيته ، مدمدما بشىء خلل لحيته . فوجد غريغورى فى الغرفة ، ومن غير ان يقول شيئا هوى بعصاه على ظهر ابنه ، فتقوس غريغورى وامسك بذراع ابيه :

— فيم هذا ، يا أبى ؟

— جزاء افعالك المشينة ، يا ابن العاهرة !

— اية أفعال ؟

— لا تلوث جارك ! لا تجلب العار لأبيك ! لا تجر وراء النساء ، ايها التيس الحقير !

وطفق بانتلاى بروكوفتش يزمجر وهو يجرجر غريغورى فى ارجاء الغرفة محاولا انتزاع العصا التى كان غريغورى يمسك بها .

— لن ادعك تضربنى — صاح غريغورى فى صوت مبحوح وهو يصر على اسنانه ، ووضع العصا على ركبته ، ثم . . . طاق . . . كسرها !

فهوى بانتلاى بروكوفتش بقبضته القاسية على رقبة غريغورى ، مزمجرا :

سأجلدك علنا يا ابن الشيطان الرجيم ! سوف ازوجك من بلهاء القرية ! سوف اخصيك ! — راوح فى مكانه مستعدا ليوجه ضربة جديدة .

وجلب الصياح الام العجوز فجاءت الى الغرفة مهرولة .

— بروكوفتش . بروكوفتش ! اهدأ قليلا . مهلا !

لكن الرجل العجوز كان قد استشاط غضبا عن جد ، فدفع زوجته بعنف ، وقلب المنضدة وعليها ماكنة الخياطة وانطلق الى الحوش . ولم يكن غريغورى قد اتم نزع قميصه الذى تمزق كمه خلال العراك ، حين دفع ابوه الباب وظهر من جديد على العتبة كأنه سحابة عاصفة .

— لسوف ازوجه واتخلص منه ، ابن العاهرة هذا — وضرب الارض بقدمه كما تفعل الخيل ، وثبت نظره على غريغورى القوى ، واستطرد : — سأذهب غدا وادبر الزيجة . ما كنت اعتقد انى ساعيش لارى الناس يتضاحكون علىَّ بسبب ابنى .

— دعنى ارتدى قميصى اولا ، ثم زوجنى !

— سأزوجك من بلهاء القرية ! سأزوجك حتما !

وانصفق الباب ، وطقطقت اقدام العجوز هابطة السلم وهدأت .

١١

على مبعدة من قرية سيتراكوفو ، كانت صفوف العربات ذات الاغطية المشمعية تمتد عبر السهب . كانت ثمة بلدة صغيرة نظيفة ذات سقوف بيضاء ، تتنامى بسرعة لا تصدق ، وأمتدت

خلالها شوارع مستقيمة ، وتوسطتها ساحة صغيرة حيث يمشى جندى للحراسة ذهابا وايابا .

كان الرجال يحيون حياة معسكر التدريب الاعتيادية الرتيبة . ففى الصباح تقوم مفرزة من القوزاق الذين يتولون حراسة الخيل السارحة بسوقها الى المعسكر . ثم يتبع ذلك الحس * وسرج الخيول وقراءة الاسماء ، والاستعراض . وكان ضابط الركن آمر المعسكر ، العقيد بوبوف ، ينعق بصوت جهورى ، والعرفاء الذين يدربون القوزاق الشباب يصرخون باوامرهم . وقد اشتركوا فى الاشتباكات خلف التل ، وحاصروا «العدو» بمهارة وصوبوا النار الى الاهداف . وتحمس فتيان القوزاق فى مباريات المبارزة بالسيف ، بينما تملص كبارهم من التدريب قدر ما استطاعوا .

وبينما كانت الاصوات تخشوشن من الحر والفودكا ، هبت رياح منعشة معطرة فوق صفوف العربات الطويلة المغطاة ، وصفرت السوالق من بعيد وأومأ السهب يدعوهم اليه ليخلفوا وراءهم دخان الاكواخ البيضاء .

قبل ارفضاض المعسكر بحوالى اسبوع ، جاءت زوجة اندرى توميلين (وهو اخو المدفعى ايفان) لزيارته ، وقد جلبت له شيئا من الفطائر المصنوعة فى البيت ، ومجموعة من الاطعمة اللذيذة ، وقبضة من أخبار القرية .

وقفلت عائدة فى الصباح الباكر ، حاملة تحيات القوزاق وتوصياتهم الى عوائلهم واقربائهم فى القرية ، الا ستيبان استاخوف الذى لم يحملها اية رسالة . فقد الم به مرض فى الليلة السابقة ، وشرب الفودكا ليشفى نفسه ، فكانت النتيجة ان امسى عاجزا

---

* الحس : تنظيف الخيل بالمحسة . **المترجمون** .

عن رؤية اى شىء فى عالمنا الفسيح هذا ، بما فى ذلك زوجة توميلين . ولم يخرج الى الاستعراض ، ورجا مساعد الطبيب ان يفصد له دمه ، فاستجاب الاخير لرجائه واضعا مجموعة من ديدان العلق على صدره . وجلس ستيبان بقميصه الداخلى مستندا الى عجلة عربته وقد تلطخ غطاء قبعته الكتانى الابيض بشحم العربة ، ارخى شفته السفلى ، وراح ينظر الى ديدان العلق وهى تمص من صدره الذى يشبه البرميل فتنتفخ بالدم القاتم .

وكان مساعد الطبيب يقف الى جانبه مدخنا ، ينفث الدخان خلال الفجوات الواسعة بين اسنانه .

— أتشعر بأى تحسن ؟

— انها تمتص الدم بصورة حسنة . هذا أخف على القلب نوعا ما .

— ديدان العلق شىء عظيم !

واقترب توميلين وغمز لستيبان قائلا :

— ستيبان ، لدى كلمة معك .

— تكلم .

— تعال للحظة .

فنهض ستيبان متأففا وابتعد مع توميلين .

— قل ما لديك .

— كانت امرأتى هنا فى زيارة . وقد رحلت هذا الصباح .

— حسنا ؟

— ثمة لغط كثير حول زوجتك فى القرية .

— ماذا ؟

— لغط لا يسر .

— اى ؟

— انها تتعابث مع غريغورى ميليخوف . وبصورة مكشوفة تماما .

فشحب وجه ستيبان وانتزع الديدان من صدره وسحقها بقدمه . وحين أتم سحق آخر واحدة منها ، زرر ياقة قميصه ، ثم ، كما لو انتابه الخوف على حين غرة ، عاد ففك ازرار قميصه ، فيما كانت شفتاه الطباشيريتان تتحركان بدون توقف : ارتجفتا ، ثم انزلقتا فى ابتسامة بلهاء ، ثم ارتعشتا وتجمعتا فى ثنية دكناء . وظن توميلين ان ستيبان لابد ماضغ شيئا قويا وصلبا . ثم ، شيئا فشيئا ، عاد اللون الى وجهه ، وتجمدت شفتاه ، اللتان ضغطت عليهما اسنانه ، وغدتا هامدتين بلا حراك . نزع قبعته ، وفرش بكمه بقعة الشحم على غطائها الابيض ، وقال بصوت رنان : «شكرا للاخبار» .

— لم ارد سوى تحذيرك . معذرة . . . هذه هى اخبار البيت . . .

وخبط توميلين يديه على بنطاله فى اسف ، ومضى الى حصانه غير المسرج . وانبعث عن المعسكر لغط وصياح . فقد عاد القوزاق من تمارين المبارزة . ووقف ستيبان برهة يحدق بثبات وتجهم فى اللطخة السوداء فى قبعته . كانت ثمة علقة نصف مسحوقة ، ومحتضرة ، تزحف صاعدة على جزمته .

١٢

بعد عشرة ايام سيكون القوزاق فى طريق عودتهم من المعسكر.

وفى تلك الاثناء عاشت اكسينيا فى جنون حب مرير لم تظفر به الا متأخرة . وكان غريغورى ينسل اليها فى الليل ، على

الرغم من وعيد ابيه ، ويعود عند الفجر .

وفى ظرف اسبوعين استنزف قواه ، كحصان يجهد نفسه بما يفوق طاقته . وبسبب من قلة نومه ، تشرب وجهه الاسمر ذو الوجنتين البارزتين بلون ازرق ، ولمعت عيناه المتعبتان من محجريهما الغائرين لمعانا محموما . أما اكسينيا فصارت تمضى سافرة الوجه تماما ، وقد اسودت التجاويف العميقة تحت عينيها فى سواد كلى ، وابتسمت شفتاها الشرهتان المتورمتان فى تحد قلق .

وقد بلغت علاقتهما المجنونة حدا من الغرابة والعلانية ، واحترقا هائمين فى شعلة واحدة لا تعرف الخزى ، ولم يردعهما ضمير ولا اخفيا حبهما عن العالم ، وتضاءلا امام أعين الناس واسودت صورتهما ، وصار الناس يخجلون من النظر اليهما اثناء التقاءهما فى الشارع . حتى رفاق غريغورى ، الذين كانوا يمازحونه حول اكسينيا ، غدوا الان يلزمون الصمت ويشعرون بالتثاقل والضيق فى صحبته . اما النساء ، فقد غبطن اكسينيا فى قلوبهن ، ومع ذلك ذممنها ، وانتظرن بشماتة عودة ستيبان ، يلوعهن الفضول لمعرفة ما ستؤول اليه الامور .

ولو أن غريغورى تظاهر وبذل أى جهد لاخفاء علاقته مع اكسينيا زوجة الجندى ولو أن اكسينيا ابقت علاقتها بغريغورى خفية نسبيا ، دون الاعراض عن الاخرين ، لما كان العالم قد وجد فى علاقتهما شيئا غير عادى ، ولربما كانت القرية قد ثرثرت بعض الشىء ثم نسيتهما . لكنهما تعاشرا فيما يشبه العلن . وكانت تربطهما علاقة قوية لا تشبه اية عشرة عارضة ، ولهذا السبب اعتبرها القرويون منافية للاخلاق ، وامسكوا انفاسهم فى ترقب متلصص . فسيعود ستيبان ويحل العقدة .

فى حجرة نوم آل استاخوف ، كان خيط يمتد فوق السرير

لُضِمت فيه بكرات خياطة فارغة ، بيضاء وسوداء ، كان القصد من تعليقها تزيين الغرفة . وكان الذباب يقضى لياليه على البكرات ، وقد امتدت منها انسجة العنكبوت حتى بلغت السقف . كان غريغورى متمددا على ذراع اكسينيا البارد العارى ، ويحدق فى سلسلة البكرات . وكانت اكسينيا تعابث خصلات شعره الخشنة بيدها الاخرى ذات الاصابع التى اخشوشنت فى العمل الشاق . وكانت ثمة رائحة لبن دافىء تنبعث من أصابعها ، وحينما ادار غريغورى رأسه غارزا أنفه فى ابطها ، افعمته رائحة العرق الانثوى الحلوة النفاذة .

الى جانب السرير الخشبى المطلى المزين ببكرات صغيرة ، ضمت الحجرة صندوقا واسعا ، ذا أطر حديدية ، كان موضعه قرب الباب ، وقد احتوى على ملابس زفاف اكسينيا وحليها . وفى ركن من الغرفة ، كانت منضدة ، وصورة زيتية للجنرال سكوبوليف على صهوة حصان منطلق صوب صف من الاعلام المنحنية أمامه ، وكرسيان ، فوقهما ايقونات ذوات هالات ورقية مزخرفة . وعلى الحائط الجانبى ، تدلت صور نقطها براز الذباب . وكانت واحدة منها تضم عددا من القوزاق بخصل شعرهم المجعدة ، وصدورهم المنتفخة تزينها سلاسل الساعات ، وسيوفهم المشهرة ، وكانت الصورة لستيبان ورفاقه اثناء الخدمة العسكرية الفعلية . وعلى مشجب علقت بزة ستيبان العسكرية ، التى لم تغادر مكانها ذاك . وأطل القمر خلال النافذة وحط مترددا على خيطى نائب العريف الابيضين فوق كتف البزة .

قبلت أكسينيا ، متأوهة ، غريغورى على منبت انفه فيما بين حاجبيه .

— غريشا ، ياحبيبى .

— ماذا ؟

— لم يبق غير تسعة أيام .

— ليس هذا بالاجل القصير .

— ماذا عساى ان أفعل ، ياغريشا ؟

— وكيف لى أن أعرف ؟

وكتمت اكسينيا آهة ، وعادت من جديد تسوى شعره الملبد ونفرقه .

قالت بلهجة اختلط فيها التساؤل بالافصاح : «سيقتلنى ستيبان» .

لم ينبس غريغورى ببنت شفة . لقد اراد ان ينام . وبذل جهدا كى يفتح جفنيه الملتصقين ، فرأى فوقه سواد عينى اكسينيا المزرق المتلألىء .

— حينما يعود زوجى ، ستتخلى عنى ، أليس كذلك ؟ ستخاف ؟

— لِمَ أخاف منه ؟ انت زوجته ، ويفترض فيك ان تكونى الخائفة .

— حينما أكون الى جانبك لا ينتابنى خوف ، ولكنى حينما افكر فى الامر اثناء النهار اجدنى خائفة .

تثاءب غريغورى وغير من وضع رأسه وقال :

— ليست لعودة ستيبان اهمية كبيرة . ان أبى يتحدث عن تزويجى .

وابتسم ، وكان على وشك ان يضيف شيئا ، الا أنه أحس بيد اكسينيا تحت رأسه ترتخى فجأة ، وتلين وتدفن نفسها فى الوسادة ، وترتعش وبعد لحظة تعود فتتصلب من جديد . ثم تساءلت والغصة تخنق صوتها :

— ممن يفكر فى تزويجك ؟

— انه يتحدث فى الامر ، لا ،غير . أمى تقول انه يفكر فى ناتاليا بنت كورشونوف .

— ناتاليا . . . انها فتاة جميلة . جميلة جدا . حسنا ، امض وتزوج منها . رأيتها فى الكنيسة قبل مدة . كانت انيقة الملبس . . .

كانت أكسينيا تتكلم بسرعة ، لكنه لم يكد يسمعها ، فقد كان صوتها خاليا من الحياة وكئيبا الى درجة كبيرة .

— اننى لا اعير جمالها قدر دبوسين من اهتمامى ، بودى ان اتزوجك انت .

فسحبت اكسينيا ذراعها بحدة من تحت رأسه ، واخذت تحدق فى النافذة بعينين جافتين . كان فى الحوش ضباب ليلى اصفر . والقت السقيفة ظلا ثقيلا . وكانت الصراصير تصر ، وعلى الدون تهدر طيور الواق ، وتنساب نغماتها العميقة الاسيانة خلال نافذة حجرة النوم .

— غريشا !

— خطر لك شىء ما ؟

فأمسكت اكسينيا بيدى غريغورى الخشنتين الصلبتين ، وضغطتهما على صدرها وعلى خديها الباردين شبه الميتين ، وأعولت :

— فيمَ اقمتَ علاقتك بى ، عليك اللعنة ! ما الذى سافعله ؟ لقد اخذتَ قلبى . . . غريشا ، لقد انتهى أمرى . . . ستيبان سيرجع ، وماذا عساى اقول له ؟ . . من ذا الذى سيكون فى عونى ؟

لم يجب غريغورى بشىء . وحدقت اكسينيا بأسى فى انفه الجميل الذى يحاكى منقار النسر ، وعينيه المظللتين ، وشفتيه

الخرساوين . . . وفجأة اجتاح فيضان طاغ من الشعور السد الذى كان يكبح جماح عواطفها ، فجعلت تقبله بجنون فى وجهه ورقبته وذراعيه والشعر الاسود الخشن المجعد على صدره ، وأحس غريغورى بجسدها يرتعش حين التقطت انفاسها وهمست :

— غريشا . . . يا أعز من عندى . . . ياحبيبى . . . لنهرب بعيدا . ياحبيبى . لنترك كل شىء ونمضى . سأهجر زوجى وكل شىء ما دمت انت معى . . . سنرحل بعيدا ، الى المناجم . ساظل احبك وارعاك . لى عم يعمل حارسا فى مناجم بارامونوف سوف يساعدنا . . . غريشا . . . قل شيئا !

التوى حاجب غريغورى الايسر . وظل يفكر لحظة ، ثم فتح فجأة عينيه التركيتين الملتهبتين ، وكان فيهما استخفاف هازىء متلامع .

— حمقاء أنت يا اكسينيا ، حمقاء ! تثرثرين ، وليس فى كلامك ما يستحق الانصات . كيف أستطيع ان ارحل عن القرية ؟ علىَّ ان اؤدى الخدمة العسكرية فى العام القادم . . لا جدوى فى الرحيل . . . لن اتزحزح مطلقا عن ارضنا . هنا ، يوجد السهب ، وثمة شىء استنشقه — أما هناك ؟ فى الشتاء الماضى ، ذهبت مع ابى الى المحطة . كدت أموت . الات تزأر ، والهواء خانق ومثقل بالفحم المحترق . كيف يعيش الناس هناك ، لا ادرى . ربما اعتادوا ذلك !

وبصق غريغورى ، وكرر القول :

— لن ارحل عن القرية .

اشتدت عتمة الليل خارج النافذة ، ومرت سحابة امام القمر . وتلاشى الضباب الاصفر من الحوش ، واختفت الظلال ، وصار من العسير ان يتبين المرء ما اذا كانت احطاب العام الماضى

أم اعشاب جافة ، تلك التى لاحت ، عتماء ، وراء السياج .

واشتدت العتمة فى الغرفة ايضا . اختفى لمعان الخيطين على بزة ستيبان العسكرية المعلقة الى جانب النافذة ، وفى الظلام الرمادى الهامد لم يلحظ غريغورى الارتعاش الخفيف فى كتفى اكسينيا ، ولا رأسها المدفون فى يديها ، وهى تهتز فى صمت على الوسادة .

١٣

بعد زيارة زوجة توميلين ، تغيرت ملامح ستيبان بشكل واضح ، فتدلى حاجباه فوق عينيه ، وتجعد جبينه فى تقطيب قاس عميق . صار مقلا فى كلامه مع رفاقه ، وجعل يغضب لاتفه الاسباب ، وتخاصم مع رئيس العرفاء ، ولم يعد يطيق النظر الى بيوتر ميليخوف . لقد انقطعت عرى الصداقة التى كانت تربطهما فى السابق . وفى حومة هياجه الفوار المغتاظ ، انحدر فى سلوكه الى الحضيض وكأنه حصان شموس . وهكذا ، رجعا الى القرية عدوين .

وكان لابد من حدوث شىء يوصل العداء الغامض بينهما الى حد فاصل . انطلقا الى قريتهما مع الجماعة نفسها كما كان الحال فى السابق . وكان حصانا بيوتر وستيبان مشدودين الى العربة ، وكان كريستونيا على حصانه خلفهما . وتمدد اندرى توميلين ، الذى كان يعانى من الحمى ، فى العربة يغطيه معطفه العسكرى . وكان فيدوت بودفسكوف أكسل من أن يقود العربة ، فامسك بيوتر بالاعنة . وسار ستيبان الى جانب العربة ، لافحا بضربات من سوطه الرؤوس القرمزية للاشواك النامية على جانب الطريق . كان المطر يتساقط ، وجعل التراب الاسود الثر يلتصق بالعجلات

كالقطران . وكانت السماء خريفية تضفى عليها السحب لونا رماديا . وجاء الليل . ولم تكن انوار اية قرية تلوح فى مدى الرؤية . فأخذ بيوتر يستحث الخيل بسوطه بلا رادع . وفجأة صاح ستيبان فى الظلمة :

— انت . . . يا . . . انت ! انت تترك حصانك ، وتهوى بالسوط على فرسى طول الوقت !

— افتح عينيك ! انا اضرب الحصان الذى لا يسحب .

— اخشَ الا أربطك انت الى عريش العربة . ذاك هو المكان اللائق بالاتراك .

فالقى بيوتر بالأعنة وقال :

— ماذا تقصد ؟

— اوه ، ابق فى مكانك .

— اخرس !

وتساءل كريستونيا وهو يقترب من ستيبان على حصانه : «فيم هياجك عليه ؟»

لم يجبه ستيبان ، وكان الظلام يخفى وجهه . ومضوا صامتين طوال نصف ساعة أخرى . كان الطين ينسحق تحت العجلات ، والمطر يتساقط برتابة فوق الاغطية المشمعة . أرخى بيوتر الاعنة ، ودخن وهو يسترجع فى ذهنه كل كلمات الاهانة التى قد يستعملها فى عراكه القادم مع ستيبان . فار الحنق فى قلبه واستبدت به الرغبة فى ان يقول لستيبان السافل كلمات لاذعة ويستهزئ به .

— تنح عن طريقى . اريد ان ادخل تحت الغطاء .

قال ستيبان ذلك وهو يدفع بيوتر جانبا ووثب الى مدوس العربة .

ارتجت العربة فجأة ووقفت ، فقد تزحلقت الخيل فى الوحل ، وتتابعت ومضات حوافرها ، وأنّ العريش . فصرخ بيوتر :

— هوه ! — وقفز الى الارض .

فتساءل ستيبان قلقا : «ماذا حدث ؟» اقترب كريستونيا على حصانه قائلا :

— ماذا حدث يا شياطين ؟

— هات ضوءا .

— اين الكبريت ؟

— ياستيبان هات الكبريت .

فى المقدمة ، كانت الفرس تنافح وتزنخر . واشعل أحدهم عود ثقاب ، فتكونت دائرة برتقالية صغيرة من الضياء ، ثم خيم الظلام من جديد . ويبدين مرتعشتين تحسس بيوتر العمود الفقرى للفرس المنكفئة ، ثم جر العنان : «هاى !»

انّت الفرس وانقلبت ، فانكسر العريش الاوسط نصفين . وأشعل ستيبان جملة من عيدان الثقاب . كانت فرسه متمددة وهى تشرئب برقبتها ، وقد انغرست احدى قادمتيها حتى الركبة فى حفرة مرموط فى الارض .

فك كريستونيا السيور ، فى عجلة . وتبادل بعضهم البعض بالكلام :

— اسحب قادمتها !

— فك العنان عن حصان بيوتر بسرعة !

— هوه ! على مهلك ! على مهلك !

— انها ترفس ! اللعنة عليها ! احترس !

واخيرا ، اوقفت فرس ستيبان على اقدامها بعد لأى . وفيما أمسك بها بيوتر من عنانها ، زحف كريستونيا على ركبتيه فى

الوحل ، متحسسا ساقها المتدلية باستكانة .

وهدر كريستونيا :

— يبدو انها كسرت .

وضرب فيدوت براحة يده على ظهر الفرس المرتعش :

— لنر فيما اذا كانت تستطيع السير .

وسحب بيوتر العنان ، فحجلت الفرس خطوة او خطوتين دون ان تطأ الارض بقائمتها اليسرى ، وصهلت . راوح تومبلين فى قلق وهو يرتدى معطفه السميك ، ويقول :

— كُسِرت ، اللعنة ! فقدنا فرسا .

وبدا على ستيبان ، الذى ظل صامتا حتى الان ، كأنه ينتظر مثل هذه الملاحظة . فهجم على بيوتر منحيا كريستونيا عن طريقه . كان يستهدف رأسه ، الا انه أخطأ ، وهوى بضربته على كتفه . وتماسك الاثنان ، وسقطا فى الوحل . وانبعث صوت قميص يمزّق . واستطاع ستيبان ان يطرح بيوتر تحته ، ضاغطا بركبته على رأس بيوتر . وراح يكيل اليه الضربات بقبضته . واستطاع كريستونيا ان يجره عن بيوتر وهو يصرخ بالشتائم البذيئة .

صاح بيوتر وهو يبصق دما :

— فيم ذلك ؟

— افتح عينيك حين تسوق ، يا افعى ! سر فى الطريق !

وحاول بيوتر ان ينتزع نفسه من قبضة كريستونيا ، فزأر الاخير لاصقا بيوتر بيد واحدة على العربة :

— كفاية ! حذار ان تعاركنى !

شدوا حصان بودوفسكوف الصغير القوى الى جانب حصان بيوتر . واعطى كريستونيا حصانه لستيبان ليمتطيه ، وزحف هو الى داخل العربة مع بيوتر .

كان الليل قد انتصف حينما بلغوا أحدى القرى ، فتوقفوا عند أول دار ، ذهب كريستونيا ليطلب من اهله مبيتا عندهم . فقد مضى كريستونيا يخوض فى الوحل صوب الشباك ، غير مكترث بالكلب الذى كان يعض اطراف معطفه . فتح شيش الشباك ، وجعل يخمش على لوح الزجاج باظفر متقرن .

— يارب البيت !

ولم يجبه سوى همس المطر ، وهدير النباح .

— يارب البيت ! ايها الاخيار ، سلاما ! دعونا نقضى الليلة عندكم ، اكراما للمسيح ، ها ؟ نحن قادمون من معسكر التدريب ، كم عددنا ؟ خمسة . بديع ، فيلحفظكم المسيح .

ثم استدار الى ناحية البوابة وصاح : «ادخلوا !»

فقاد بودوفسكوف الخيل الى الداخل . وتعثر بمعلف خنزير ملقى فى وسط الحوش ، فانحدر من فمه سيل من السباب المقذع . وقادوا الخيل الى الحظيرة . ومضى توميلين الى البيت واسنانه تصطك ، بينما بقى كريستونيا وبيوتر فى العربة .

عند الفجر ، تهيأوا لمواصلة الرحلة ثانية . فخرج ستيبان من البيت ، تظلعت وراءه عجوز حدباء . وصاح كريستونيا ، الذى كان يشد الخيل ، بلهجة مشفقة :

— هوّ هوّ ، ياجدتى ! ياله من سنام هذا الذى حطّوه عليك ! لكنه ذو فائدة لك عند الركوع فى الكنيسة . فلست بحاجة الى الانحناء الكثير للوصول الى الارض !

— لئن كنت اصلح للركوع ، فانت ياعزيزى تصلح لتعليق الكلاب عليك . فثمة شىء ما لكل واحد منا !

وابتسمت العجوز بصرامة ، مثيرة استغراب كريستونيا بما كشفته من صف كامل لاسنان صغيرة سليمة .

— واسنانك ، يالها من اسنان ، كسمك الكراكى ! الا تعطينى بعضا منها ؟ ها انذا فى ريعان الشباب ، وليس لدى ما الوك به .

— وماذا سيتبقى لدى ، ياعزيزى ؟

— لسوف نعطيك طقما من اسنان الخيل ، ياحبوبة . ستموتين يوما ما ، ولن يلقوا نظرة الى اسنانك فى الاخرة . فليس القديسون تجار خيل ، كما تعلمين .

فقال توميلين مبتسما : «استمر فى ذلك ياكريستونيا» ، وتسلق الى داخل العربة .

ومشت العجوز وراء ستيبان الى الحظيرة ، وتسألت : «اى منها ؟» فتنهد ستيبان قائلا : «الدهماء» فوضعت العجوز عصاها على الارض . وبحركة رجولية قوية واثقة ، رفعت ساق الفرس المصابة . وتحسست باصابعها الهزيلة المعقوفة رضفة الركبة بعناية ، فتحركت اذنا الفرس وجعلها الالم تتراجع على ساقيها الخلفيتين . وكشف عن صف اسنانها البنية .

— لا لا ، ليس هناك كسر ، ايها القوزاقى . اتركها هنا وسأشفيها .

— متأكدة ياجدتى ؟

— أانا متأكدة ؟ لا ادرى ياعزيزى . سأحاول ان أشفيها .

فلوح ستيبان بيده ومضى الى العربة . فارتفع صوت العجوز وهى تراقبه بعينين ضيقتين : «هل ستتركها ام لا ؟»

فأجاب :

— فلتبق هنا .

وقال كريستونيا هادرا بالضحك :

— ستشفيها لك . وحين تعود اليها لن تجد لديها اية ساق باقية ، فالبيطارة نفسها حدباء .

١٤

— آه ، لكم اتحرق شوقا اليه ، ياجدتى العزيزة ! ها انا أرى الى نفسى تذوب . لم أعد أستطيع خياطة ثنيات لتنورتى بالسرعة الكافية . وجسمى يزداد نحافة . كلما يمر بجانب البيت أحس بقلبى يحترق . بودى لو ارتمى على الارض والثم اثار اقدامه . لربما استعمل شيئا ما ليسحرنى ؟ ساعدينى ياعزيزتى . انهم بصدد تزويجه . . . ساعدينى ياعزيزتى . . . مهما يكن الثمن . . . لسوف اعطيك كل ما أملك ، فقط ساعدينى !

ونظرت العجوز دروزديخا الى اكسينيا بعينين صافيتين داخل شبكة وجهها المجعد ، هازة رأسها لدى سماعها القصة المريرة .

— ومَنْ هو هذا ؟

— ابن بانتلاى ميليخوف .

— التركى ، أليس كذلك ؟

— بلى .

وتمضغت العجوز لثتها عديمة الاسنان ، وترددت فى جوابها :

— تعالى الىّ فى بكرة الغد ، ياطفلتى ، حالما يطلع الفجر . سوف ننزل الى الدون ، الى الماء ، سوف نغسل عنك حنينك . وأحضرى قليلا من الملح معك . . . هكذا . . .

وتلفعت اكسينيا بشالها الاصفر ، ومضت ، وكتفاها متهدلتان ، خارجة خلال البوابة . وابتلع الليل هيكلها الداكن ، وكان الصوت

الوحيد فى الشارع صوت صندلها الذى تخط به على الارض . ثم تلاشت خطواتها . ومن مكان ما فى طرف القرية ، انبعثت جلبة عراك وغناء .

عند الفجر ، وقفت اكسينيا ، التى لم تعرف النوم طوال الليل ، تحت نافذة دروزديخا :

— جدتى !

— من هناك ؟

— أنا اكسينيا . انهضى .

— سأرتدى ملابسى حالا .

واتخذتا طريقهما خلل الدروب الخلفية الى النهر . وعلى مقربة من المرسى كانت محاور عربة مهجورة ملقاة وقد تشربت بالماء . وعند حافة الماء كان الرمل يحز اقدامهما ببرودة . وزحفت ، صاعدة من الدون ، ضبابة باردة رطبة .

وأخذت دروزديخا يد اكسينيا بيدها الهزيلة وقادتها الى الماء .

— اعطينى الملح . ارسمى علامة الصليب باتجاه المشرق .

فرسمت اكسينيا الصليب على نفسها ، وهى تحدق فى حنق باتجاه المشرق الوردى البهيج .

— خذى شيئا من الماء براحتك واشربى .

وشربت اكسينيا ، مبللة كمى قميصها . وكعنكبوت اسود فجت العجوز الامواج المتلاطمة فى تكاسل ، وجلست القرفصاء ، وجعلت تهمس :

— ايتها التيارات الجليدية القادمة من الاعماق . . . جسد محزون . . . وحش فى القلب . . . حمى وحنين . . . باسم الصليب المقدس ، باسم الام الطاهرة المقدسة . . . عبدالرب . . . غريغورى .

تناهت هذه الكلمات الى مسمع اكسينيا .

ونثرت دروزديخا بعض الملح على الرمل الندى عند قدميها وبعضا منه فى الماء ، ووضعت الباقى فى صدر اكسينيا .

— رشى بعض الماء على كتفك . اسرعى !

فعلت أكسينيا ذلك ، وحملقت بحزن وغضب فى خدى دروزديخا النحاسيين .

— أهذا كل شىء ؟

— نعم ، هذا كل شىء . اذهبى ونامى .

جرت أكسينيا ، مبهورة الانفاس الى الدار . كانت الابقار تخور فى الفناء . وكانت داريا تسوق ابقارها لتلتحق بقطيع القرية ، وعيناها نعستان وخداها متوردان ، وحاجباها مقوسان . فابتسمت حين رأت اكسينيا تجرى مارة بها وقالت :

— هل نمت جيدا ، يا جارتى ؟

— الحمد لله . . .

— واين كنت فى هذا الوقت الباكر ؟

— كنت فى زيارة فى القرية .

كانت نواقيس الكنيسة تدق داعية لصلاة الصبح ، وكان وقعها النحاسى يتكسر الى نثار من الاصوات . وفرقع مساعد راعى القرية بسوطه فى الطريق الجانبى . فساقت أكسينيا بقراتها مسرعة الى الخارج ، ثم حملت اللبن الى الدار لتخضه . وشمرت كميها ومسحت يديها بصدريتها ، وصبت اللبن فى المخضة ، وهى شاردة الذهن .

كان ثمة ضجيج عجلات صاخب وزنخرة خيل فى الشارع . فوضعت اكسينيا السطل ، وذهبت لتستطلع الامر من الشباك الامامى . كان ستيبان قادما خلال البوابة ، ويده على رمانة

سيفه . وكان القوزاق الاخرون يَجُرّون على خيلهم صوب ساحة القرية . جعّدت اكسينيا صدريتها باصابعها ، وجلست على المصطبة . ثمة خطوات فى السلم . . . خطوات فى الممر . . . خطوات عند الباب مباشرة . . .

وقف ستيبان على العتبة ، صامرا نفورا ، وقال :

— حسنا ؟

فتقدمت نحوه أكسينيا ، وجسمها الممتلىء يترنح برمته . وقالت ببطء : «اضربنى» وادارت اليه كتفها .

— حسنا ، يا أكسينيا ؟

— لن اكتمك . لقد اثمت . اضربنى ، ياستيبان !

وضمت رأسها بين كتفيها ، وانحنت الى الاسفل لتحمى بذراعيها بطنها فقط ، وصارت وجها لوجه معه . وحملقت عيناها دون ان تطرفا من محجريهما الداكنين فى وجهها الابكم الذى شوهه الخوف . ترنح ستيبان وتخطاها ، فانبعثت من قميصه غير المغسول رائحة العرق الرجولى ، وروائح الطريق الحريفة . ثم هوى على السرير دون ان ينزع قبعته . واستلقى لحظة هناك ، ثم هزّ كتفيه ، والقى عنه نطاق سيفه . وتدلى شاربه الاشقر ، البارز المبروم فى العادة ، وارتخت ذؤابتاه . فحدجته اكسينيا بطرف عينها ، دون ان تدير رأسها نحوه ، وكانت القشعريرة تجتاح بدنها بين لحظة وأخرى . ثم وضع ستيبان قدميه على طرف السرير ، فانزلق الوحل من جزمته . حدق فى السقف ، ولاعب شرابة سيفه الجلدية .

— الفطور جاهز ؟

— لا . . .

— هاتى شيئا آكله .

رشف شيئا من اللبن مبللا شاربه . ومضغ الخبز متباطئاً . وكانت عضلات وجنتيه الوردية تتحرك بانتظام . وقفت اكسينيا قرب الموقد تراقب بفزع لاهب اذنى زوجها الغضروفيتين الصغيرتين ترتفعان وتنخفضان وهو يأكل .

نهض ستيبان من المائدة ورسم علامة الصليب عليه ، وطلب اليها باقتضاب :

— هيا ياعزيزتى ، اخبرينى بالامر .

وبرأس منكس ، نظفت اكسينيا المائدة ، ولم تنبس بشيء .

— اخبرينى كيف انتظرت زوجك ، كيف صنت شرفه ، ها ؟

وهوت ضربة مريعة على رأسها ، فانتزعتها من الارض ، وقذفتها شطر الباب . وارتطم ظهرها بعمود الباب ، فندّ عنها انين بائس .

ان النساء ضعيفات الجسم ناعماته ، ولكن ستيبان بوسعه ان يصرع حتى رجال الحرس الاقوياء الاشداء ، بضربة محكمة على الرأس . فلعل الخوف هو الذى انهض اكسينيا ، او ربما رغبة المرأة فى الحياة — فافاقت من الضربة ، واستراحت لحظة مستلقية ، ثم حبت زاحفة على الاربع .

كان ستيبان يشعل سيكارة وسط الغرفة ، فلم يرها تنهض على قدميها . القى كيس تبغه على المنضدة ، غير ان أكسينيا كانت آنذاك قد صفقت الباب وراءها ، فاندفع خلفها يطاردها .

ركضت اكسينيا ، والدم يسيل من رأسها ، متجهة صوب السياج الذى يفصل فناءهما عن فناء آل ميليخوف . وأدركها ستيبان عند السياج ، فأهوى بيده السوداء على رأسها كالصقر ، ولفّ شعرها باصابعه ، وجعل يجذبها ، حتى طرحها ارضا ،

على رماد الفحم الذى كانت اكسينيا ترميه كل يوم بجانب السياج .

مرّ اليكسى شامل الاقطع بالسياج ، والقى نظرة الى الداخل ، فطرفت عينه ، وانفرجت لحيته الكثة الصغيرة عن ابتسامة : ليس فى الامر غرابة ان زوجا يسحق زوجته بجزمته بالفعل ، ويداه وراء ظهره ، انه لشيء طبيعى جدا ان يعاقب ستيبان زوجته الشرعية . وساور شامل الفضول فى ان يتوقف ، ليرى ما اذا كان سيضربها حتى الموت او لا ، لكن ضميره ابى عليه ذلك . فهو ، على كل حال ، ليس بامرأة .

لو كنت تراقب ستيبان عن بعد ، لظننت انه يؤدى رقصة قزاقية . وكان هذا ما حسبه غريغورى بالفعل ، حينما شاهد ستيبان ، خلال النافذة ، يتواثب ، صاعدا هابطا ، لكنه اعاد النظر مرة اخرى ، ومرق خارج الدار ، راكضا صوب السياج على اصابع قدميه ، وهو يضم قبضتيه القويتين الخدرتين الى صدره ، وتبعه بيوتر فى جزمتيه الثقيلتين .

انطلق غريغورى ، كالطائر ، عبر السياج العالى ، وهجم على ستيبان من الخلف فترنح ستيبان ، ثم استدار وتقدم صوب غريغورى كالدب .

قاتل الاخوان ميليخوف باستبسال ، وانقضا على ستيبان كما تنقض غربان الرمم على جثة متفسخة . وحدث عدة مرات أن هوى غريغورى تحت قبضة ستيبان الصخرية ، فهو لم يكن ندا متكافئا لعراك شديد المراس كستيبان ، لكن بيوتر القوى البنيان ، والخفيف الحركة استطاع ان يقف بثبات على قدميه ، وان كان ينحنى تحت ضربات ستيبان مثل قصبة فى مهب الريح .

تراجع ستيبان الى درجات الباب ، وأحدى عينيه تومض

لهبا والاخرى تكتسي لون الخوخ الفج .

فى تلك الاثناء ، حدث ان جاء كريستونيا ليستعير رباط خيل من بيوتر ، ففرقهم .

— كفوا عن ذلك — ولوح بذراعيه ، — تفرقوا ، والا ابلغت الاتمان .

بصق بيوتر بحذر دما ونصف سن فى راحة يده ، ثم قال بصوت مبحوح : — تعال ياغريشا . سنظفر به فى وقت آخر .

وجاء صوت ستيبان متوعدا من الدرج : — احرص على ان لا اظفر انا بك !

— طيب ، طيب !

— لا «طيب» ولا هم يحزنون ، لسوف اقلع مصارينك !

— اجاد انت أم هازل ؟

وجرى ستيبان نازلا الدرجات ، فانطلق غريغورى لمواجهته ، لكن كريستونيا دفعه نحو البوابة ، وقال متوعدا :

— جرب ، سوف اسلخ عنك جلدك !

منذ ذلك اليوم ، تطورت الكراهية بين آل ميليخوف وستيبان استاخوف حتى صارت عقدة مستحكمة . لكن غريغورى ميليخوف كتب له ان يحل تلك العقدة بعد عامين فى بروسيا الشرقية قرب بلدة ستوليبين .

١٥

— قل لبيوتر ان يشد الفرس على العربة ويعد حصانه ايضا .

فخرج غريغورى الى الحوش . كان بيوتر يدفع عربة صغيرة من تحت طنف الحظيرة .

— يقول ابى ان عليك ان تشد الفرس على العربة وتعد حصانك ايضا .

فقال بيوتر وهو يثبت العريش :

— أعرف ذلك دون ان يقول لى هو . لاحاجة الى نصائحه .

كان بانتلاى بروكوفتش جالسا يتم تناول حسائه وهو ينضح بالعرق ، وقد بدا وقورا ، مثل راعى كنيسة اثناء القداس .

وكانت دونيا تراقب غريغورى بتيقظ ، وهى تكتم تلألؤا صبيانيا فى موضع ما تحت الظلال المنعشة لاهدابها المقوسة الطويلة . وبدت ايلينشنا ضخمة مهيبة فى شال يوم الاحد الليمونى ، ولاح فى طرفى شفتيها قلق امومى ، القت نظرة الى غريغورى وقالت لزوجها العجوز :

— كفاك حشو بطنك ، يا بروكوفتش . من يراك يخال انك كنت تموت جوعا .

— حتى الطعام تمنعينه عنى ! يا لك من امرأة نقوق !

ثم ظهر شارب بيوتر القمحى الطويل عند الباب .

— عربتك جاهزة ، لو سمحت !

فانفجرت دونيا ضاحكة وأخفت وجهها فى كمها . ومرت داريا عبر المطبخ متفحصة عريس المستقبل ، وحاجباها الرقيقان يتراقصان .

وكانت الخالة فاسيليسا الارملة ابنة عم ايلينشنا ، ذاهبة معهم للخطبة . وكانت صاحبة همة خبرت الحياة ، وعركت تجاربها ، وكانت أول من حط على العربة الصغيرة ، مديرة رأسها المدور ، متضاحكة وكاشفة عن اسنانها السود المعوجة تحت ثنيات شفتيها .

فقال بانتلاى بروكوفتش محذرا :

— لا تعرضى اسنانك ، يا فاسيليسا ، سوف تفسدين كل

شيء . فاسنانك هذه تبدو كمن امضت سهرة صاخبة ، فليست بينها سن تستطيع ان تقف معتدلة .

— آه يا ابن العم ، انا لست بالعروس المرتقبة .

— ربما لا تكونين ، ومع ذلك فلا تضحكى . يالها من اسنان . . . لونها وحده يبعث فى المرء الغثيان .

اصاب فاسيليسا الاستياء ، على ان بيوتر كان ، فى تلك الاثناء ، قد فتح البوابة ، وسوّى غريغورى الاعنة الجلدية ، وقفز الى مقعد السائق . وجلس بانتلاى بروكوفتش وايلينشنا الى الخلف ، وكأنهما عروسان جديدان .

وصاح بيوتر ، مرخيا الرسن :

— الهبهما بالسوط !

فعضّ غريغورى شفتيه وانهال بالسوط على الحصان الذى تتحرك اذناه : «اياك ان تتشربك !» فشدت الخيل على الاعنة ثم انطلقت بسرعة .

وزعقت داريا : «حذار ! سوف تنقلب !» ولكن العربة انحرفت بحدة ، ومضت تتوثب مقرقعة على عثرات الطريق .

ومال غريغورى جانبا ليستحث حصان بيوتر المتخلف بسوطه . وامسك ابوه لحيته بيده ، وكأنه يخشى ان تنتشها الريح منه . وصاح بصوت مبحوح ، منحنيا فوق كتف غريغورى : «اضرب الفرس !» والقى نظرات الى الجانبين .

ومسحت ايلينشنا بكم قميصها المخرم عينيها اللتين ادمعتهما الريح ، وطرفت الى قميص غريغورى الاطلس الازرق الذى كان يخفق ويتموج على ظهره . وكان القوزاق يتنحون عن الطريق ، ويقفون طويلا محملقين وراءهم . وجرت الكلاب من البيوت تنبح بين حوافر الخيل ، على ان نباحها ضاع فى قرقعة العجلات المؤطرة حديثاً .

لم يرحم غريغورى الخيل ولا بخل بالسوط ، ولم تمض عشر دقائق حتى خلفوا القرية وراءهم . وامتد على جانبى الطريق الطوق الاخضر للبساتين الاخيرة . وسرعان ما لاح لهم بيت كورشونوف الكبير بسياجه الخشبى . جذب غريغورى الاعنة ، فقطعت العربة نشيدها الحديدى فى منتصفه ، وتوقفت عند البوابة المطلية والمنقوشة بحفر دقيق .

لبث غريغورى مع الخيل ، بينما مضى بانتلاى بروكوفتش يعرج صوب درجات الباب . ومخرت وراءه ايلينشنا حمراء الوجه وفاسيليسا المزمومة الشفتين تحفّ بهما خشخشة تنورتيهما . وتعجّل العجوز نفسه خشية ان يفقد الشجاعة التى استجمعها اثناء الطريق ، وتعثر بالعتبة العالية ، وصدم ساقه العرجاء ، فاستبد به الغيظ ، وتجهم وجهه من الألم ، وضرب بقدمه مغتاظا درجات العتبة المكنوسة جيدا .

دخل المطبخ هو وايلينشنا معا تقريبا . كان يكره الوقوف الى جانب زوجته ، اذ كانت أطول منه ، ولهذا تقدمها خطوة ، ورسم علامة الصليب امام ايقونة دكناء ، فيما كان ينزع قبعته .

— صحة طيبة !

فأجاب رب البيت وهو ينهض من على المصطبة : «لله الحمد» كان عجوزا انمش قصير القامة .

واستطرد بانتلاى بروكوفتش :

— جئناك ضيوفا ، ياميرون غريغورييفتش .

— الضيوف على الرحب والسعة دائما . ماريا ، هاتى شيئا يقعد عليه الزوار .

فمسحت زوجته العجوز ، ضامرة الصدر ، غبارا وهميا من على ثلاثة مقاعد ، ودفعتها الى الضيوف . فجلس بانتلاى بروكوفتش

على طرف احدها مجففا عرق جبينه بمنديله .

وابتدر قائلا دون مقدمات : «جئناكم بمهمة» وهنا جلست ايلينشنا وفاسيليسا ايضا ، وهما تلملمان تنورتيهما .

وابتسم رب البيت : «على الرحب والسعة . اية مهمة هى ؟»

ودخل غريغورى ، ونظر حوله ثم قال :

— صحة طيبة . — لله الحمد — اجابت زوجة رب البيت بصوت ممطوط . وحياه رب البيت بنفس التحية . وكست وجه ميرون غريغوريتش الانمش موجة من احمرار نحاسى ، فقد ادرك الآن موضوع الزيارة ، فأصدر الى زوجته امرا : «ادخلوا الخيل الى الفناء ، والقوا لها شيئا من التبن» . فخرجت زوجته .

استأنف بانتلاى بروكوفتش كلامه ، قائلا لحيته الجعداء وشاداً قرط اذنه فى سورة انفعاله :

— ليس لدينا سوى القليل مما نتحدث به . لديك فتاة غير متزوجة ، ولدينا ابن . الا نستطيع ان نصل الى ترتيب ما ؟ بودنا أن نعرف . اتعطيها لنا أم لا ؟ فلربما نصبح انسباء ؟

— من يدرى ؟ — وحكّ ميرون غريغوريتش موضع الصلع فى رأسه ، واستطرد : — يتعين علىّ ان اقول اننا لم نفكر فى تزويجها هذا الخريف . فثمة عمل ملء ايدينا ، وهى ليست كبيرة السن . لقد سلخت فى التو ربيعها الثامن عشر . هذا صحيح ، أليس كذلك ياماريا ؟

— صحيح .

فتدخلت فاسيليسا : «هذا اوان الزواج تماما . فما اسرع مايشيخ الفتاة !» ، وتململت على مقعدها ، وقد وخزتها المكنسة التى سرقتها من الممر ، وحشرتها تحت سترتها . فقد جرت التقاليد على ان الخاطبين الذين يسرقون مكنسة الفتاة لا يُرد لهم طلب .

وأجابت زوجة كورشونوف : «لقد جاءت عروض أخرى لابنتنا منذ بداية الربيع . لن توضع ابنتنا على الرف . لا نستطيع ان نشكو الى الله الكريم . . . فابنتنا تستطيع القيام بكل شىء . . . سواء فى الحقل او فى البيت . » فقاطع بانتلاى بروكوفتش ثرثرة المرأة قائلا : «لو جاء رجل طيب ، يمكن ان نزوجوها» .

فحك رب البيت رأسه : «الزواج ليس بمشكلة . فباستطاعتنا ان نزوجها فى اى وقت كان» .

فظن بانتلاى بروكوفتش بان طلبه سيرفض ، وتملكه الكدر .

— طيب ، ان هذا يعود لك وحدك ، بالطبع . فللمرء حق الاختيار ، وفى مستطاعه ان يسعى حيث يشاء . ان كنت تبغى العثور على ابن تاجر ، او رجل من هذا القبيل ، فهذا بحث آخر ، ونحن نعذرك .

واذ كانت المفاوضات على وشك ان تنهار ، انفعل بانتلاى بروكوفتش وصار وجهه أحمر كالبنجر ، بينما كانت ام الفتاة تقوق كدجاجة راقدة تحوم فوقها حدأة . غير ان فاسيليسا تدخلت فى الوقت المناسب ، فصبت فيضا من الكلمات الهادئة الملطفة ، كما يُصبّ الملح على الحروق ، وأفلحت فى سد الثغرة :

— مهلا ، مهلا يا أعزائى ! اذا اثير موضوع كهذا وجب ان يسوى كما ينبغى من اجل سعادة طفلتكم . فناتاليا — لن تجدوا مثيلة لها ولو بحثتم فى وضح النهار ! العمل يلتهب فى يديها ! اية شابة مجتهدة ! اية ربة بيت ! اما جمالها ، فلكم ان تنظروا باعينكم ، ايها الناس الطيبون . . . — وفتحت ذراعيها فى تلويحة معطاءة ، متلفتة الى بانتلاى بروكوفتش وايلينشنا العابسة ، واستطردت : — اما هو فزوج أهل لكل فتاة . كلما انظر اليه ،

أحس بقلبى يدق حنيناً ، فما أشد شبهه بزوجى الراحل ، اما اسرته فهى مجدة فى العمل . سلوا اى انسان فى هذه الديار عن بروكوفيتش ، فكل العالم يعرفه رجلا شريفا كريما . . . بالله عليكم ، هل نحن نريد ضررا لاطفالنا ؟

وانساب صوتها الناعم فى اذنى بانتلاى بروكوفتش مثل الشراب الحلو . كان يستمع اليها ويفكر فى نفسه معجبا بما تقول : «آه ، هذه الشيطانة ذلقة اللسان ، لها اسلوب فى الكلام عجيب ! من يقدر ان يبزها ! باستطاعة بعض النساء ان يصعقن قوزاقيا بكلماتهن . . . كل ذلك من امرأة !» واستغرق فى اعجابه بفاسيليسا التى جعلت الان تصب المديح على الفتاة وعائلتها ، متوغلة فى نسبها حتى الجد الخامس .

— لا ريب ، اننا لا نريد ضررا بابنتنا .

وقال رب البيت ملطفا ، وهو يبتسم :

— كل ما فى الامر هو أن الوقت لم يحن لتزويجها .

فاستأنف بانتلاى بروكوفتش كلامه ملحا :

— ليس الوقت مبكرا ، وحق الله ليس الوقت مبكرا .

ونشجت ربة البيت ، بين منافقة ومخلصة :

— عاجلا او آجلا ، ستعين علينا ان نفارقها .

— ادع ابنتك ياميرون غريغوريفتش . لنراها .

— ناتاليا !

فظهرت فتاة خجلى عند الباب ، تتشاغل اصابعها السمر بكشكش مئزرها . فشجعتها الام مبتسمة خلال دموعها :

— ادخلى . . . ادخلى . . . انها خجلى .

كان غريغورى جالسا بجنب صندوق كبير مزين برسوم زرقاء باهتة اللون فنظر اليها .

عينان رماديتان جريئتان تحت وشاح اسود مخرم . وغمازة وردية صغيرة فى الخد الاسيل ، وابتسامة مكتومة خجلى على الشفتين . ثم حول غريغورى عينيه الى يديها : كانتا كبيرتين . ترك العمل الشاق عليهما اثره . تحت البلوزة القصيرة الخضراء التى ضمت جسدها الممتلىء ، برز نهداها الصغيران الصلبان صلابة نهود الصبايا ، بسذاجة واستكانة ، وبدت حلمتاهما الصغيرتان الناتئتان كزرين .

وما هى الا لحظة ، حتى استوعبها غريغورى كلها بنظره ، من الرأس حتى الساقين الطويلتين البديعتين . تأملها كما يفحص تاجر فرسا قبل الشراء ، وقال لنفسه : «لابأس بها» ، ثم ترك عينيه تلتقيان بعينيها . فبدت نظرتها الساذجة المخلصة ، والمرتبكة قليلا ، كأنها تقول : «ها انا ذا ، بكل ما انـا عليـه . فاحكم علىَّ كما تشاء» . فاجاب غريغورى بعينيه وابتسامته : «رائعة !»

— حسنا ، حسبك هذا — وأشار لها ابوها ان تخرج .

فيما كانت ناتاليا تسد الباب وراءها ، نظرت الى غريغورى دون ان تحاول اخفاء ابتسامتها او فضولها .

أستأنف كورشونوف كلامه من جديد ، بعد ان تبادل النظرات مع زوجته ، قائلا :

— اسمع يا بانتلاى بروكوفتش . ابحثوا الامر مجددا ، وسنبحثه نحن مع العائلة . وبعد ذلك سنقرر ما اذا كنا سنعتبره اتفاقا على الزواج او لا .

وبينما كان بانتلاى بروكوفتش يهبط الدرج دس هذه الجملة :

— سنزوركم مرة أخرى يوم الاحد القادم .

وتعمد كورشونوف ان يظل صامتا ، متظاهرا بأنه لم يسمع .

١٦

لم يدرك ستيبان ، وهو يدارى الالم والحقد فى نفسه ، انه كان يحب اكسينيا حبا بائسا مقيتا ، على الرغم من ماضيها والحياة التعسة التى يحياها معها ، الا بعد ما علم عن سلوكها من توميلين . كان يقضى لياليه فى المعسكر مستلقيا فى العربة ، يغطيه معطفه السميك ، وذراعاه معقودتان خلف رأسه ، يفكر بالصورة التى ستلقاه بها زوجته لدى عودته . كان يحس أن عقربا حلت فى صدره فى محل قلبه . واذ رقد يفكر بالف وسيلة للانتقام منها ، أحس باسنانه كما لو رصت بينها ذرات رمل ثقيلة . لقد خفف عراكه مع بيوتر من غلواء غضبه . وحينما وصل الى داره كان متعبا جدا ، فلم يصب اكسينيا منه سوى عقاب يسير .

ومنذ يوم عودته ، حوم شبح خفى على دار استاخوف ، فاكسينيا تمضى على اطراف اصابعها ، وتتكلم همسا ، لكن ثمة فى عينيها ، اللتين ظللهما رماد الخوف ، قبسا من النار التى اضرمها غريغورى .

واذ جعل ستيبان يراقبها ، كان يتحسس ذلك بشعوره لا بعينيه . فيقاسى العذاب . وفى الليل ، وحينما كانت أسراب الذباب تنام فى المطبخ على عوارض السقف ، واكسينيا قد سوت الفراش وشفتاها ترتعشان ، كان ستيبان يطبق على فمها بكفه ذات العقد ويضربها ، ويطالبها بتفاصيل مخجلة عن علاقتها بغريغورى . فتتلوى اكسينيا ، وتشهق متلمسة الهواء فوق السرير الصلب الذى تنبعث منه رائحة جلد الخروف . فاذا اتعبه تعذيب جسمها الناعم اللدن كالعجين ، مرر يده على وجهها باحثا عن الدموع ، فلا يجد سوى الجفاف فى خديها المشتعلين ، وفكيها يختلجان تحت اصابعه .

— هل ستخبرينى ؟

— كلا !

— ساقتلك !

— اقتلنى ، اقتلنى ، بحق المسيح . ستنتهى آلامى . هذه ليست حياة .

ويطحن ستيبان اسنانه ، ويلوي جلد ثديها الرقيق المبلل بالعرق ، فترتعد اكسينيا وتئن .

ويتساءل ستيبان هازلا : «يؤلمك هذا ؟»

— اجل ، يؤلمنى .

— وهل تعتقدين ان ذلك الامر لم يؤلمنى ؟

ويتقدم الليل قبل ان يغلبه النعاس ، فينام متكورا واصابعه السوداء المتورمة تتحرك بلا انقطاع . وتنهض اكسينيا متكئة على مرفقها ، فتتأمل وجه زوجها وقد جعله النوم وسيما ، ثم تلقى برأسها على الوسادة من جديد ، وتهمس مع نفسها .

لم تعد ترى غريغورى الا لماما . وقد حدث مرة ان التقت به قرب الدون ، وكان قد اورد الثيران ، وهمّ بصعود المنحدر وهو يلوح بغصن فى يده ويتأمل قدميه . وكانت اكسينيا نازلة الى الدون حين رأته فأحست بنير الدلاء يبرد فى يديها ، والدم الحار ينبض فى صدغيها .

وحينما استعادت ذكرى ذلك اللقاء فيما بعد ، وجدت من الصعب عليها اقناع نفسها بان ذلك قد حدث فعلا . لم يلحظها غريغورى الا بعد ان كادت تعبره ، فرفع رأسه على صرير السطل الموصول ، وارتعش حاجباه ، وابتسم فى غباء . فشخصت اكسينيا ببصرها عبر رأسه الى امواج الدون الخضر ، والى ابعد منها حيث حافة الرأس الرملى المتوغل فى النهر . واجتاحها انفعال

ملتهب اعتصر الدموع من عينيها .

— اكسينيا !

مشت بضع خطوات ثم توقفت منكسة الرأس كمن يتوقع صفعة . فقال غريغورى دون ان يدير رأسه ، وهو يضرب بغصنه فى حنق ثورا متلكئا :

— متى سيحش ستيبان الجويدار ؟

— أنه يتهيأ لذلك الان .

— حين تودعينه ، اذهبى الى حديقة عباد الشمس العائدة لنا ، وساوافيك هناك .

نزلت اكسينيا الى الدون ودلواها يصران . كان الزبد يتلوى كالافعى على امتداد الشاطئ ، مثل شريط اصفر يومض على طرف الموجة الاخضر . وكانت ثمة طيور بيض تصيد الاسماك تحوم وتصيح فوق النهر ، وعلى سطح الماء تألقت سمكات صغيرات تألق مطر فضى . وفى الجانب الاخر ، وراء بياض الرأس الرملى ، شمخت ذروات رمادية لشجرات حور معمرات ، بعجرفة وتجهم . وبينما كانت اكسينيا تغرف الماء ، اسقطت دلوها فى النهر ، فرفعت تنورتها ، وخاضت فى الماء الى ركبتيها ، وراح الماء يدغدغ سمانتيها ، وللمرة الاولى منذ عودة ستيبان ضحكت اكسينيا بهدوء وتردد .

والتفتت لتنظر الى غريغورى . كان لم يزل يلوح بغصنه كأنه يطرد الذباب ، وهو يرتقى المرتفع ببطء .

وبعينين تغشاهما الدموع ، رنت الى ساقيه القويتين بحنان وهما تخطوان باعتداد . وكان سرواله القضفاض المحشور فى جوارب صوفية بيضاء ، يزهو باشرطته القرمزية . وقد رفرفت على ظهره فوق عظم اللوح ، قصاصة قميص مزق حديثا ، وبدا من الشق

مثلث من بشرته السمراء . فقبّلت اكسينيا بعينيها هذه البقعة الصغيرة من الجسد الحبيب الذى كان لها ذات مرة . وتساقطت الدموع على شفتيها الشاحبتين الباسمتين .

وضعت دلويها على الرمل لتعلقهما على النير ، ولاحظت اثار حذاء غريغورى . فنظرت خلسة حولها ، لم يكن ثمة احد على مرمى البصر سوى بعض الاولاد يستحمون على مقربة من الرصيف البعيد . فجلست القرفصاء وغطت اثر القدم براحتها ، ثم قامت ، وعلقت النير على كتفيها ، وأسرعت الى الدار مبتسمة لنفسها .

كانت الشمس تعبر السماء فوق القرية ، وقد احاط بها ضباب خفيف . وامتد ، وراء القطيع المتجعد من السحب البيضاء الصغيرة ، مرعى لازوردى ، بارد عميق . والحرارة خانقة مميتة فوق السقوف الحديدية المحرقة ، والشوارع المغبرة المهجورة ، وعلى الافنية ذات العشب الاصفر اليابس .

كانت اكسينيا تمشى متمايلة والماء يطرطش من الدلوين متساقطا على الارض المتشققة . حينما اقتربت اكسينيا من درجات الباب ، كان ستيبان يشد الخيل الى آلة الحصاد ، وقد وضع على رأسه قبعة قش عريضة . نظر الى اكسينيا وهو يعدل مشد الصدر على الفرس الناعسة وقال : «صبى شيئا من الماء فى الابريق» . فصبت اكسينيا سطلا من الماء فى الابريق فاكتوت اصابعها بالحافة الحديدية الحارة .

وقالت وهى تنظر الى ظهر زوجها العرق : «عليك ان تأخذ شيئا من الثلج والا فسيصبح الماء دافئا بعد قليل» . — «اذهبى واطلبى شيئا من الثلج من آل ميليخوف» — ثم صرخ ستيبان مستدركا : «لا ، لا تذهبى» .

ومضت اكسينيا لتسد البوابة . وأخفض ستيبان عينيه واختطف السوط .

— اين ذاهبة ؟

— لأسد البوابة .

— ارجعى ، ياعاهرة . قلت لك لا تذهبى .

واسرعت عائدة الى الدرجات ، وحاولت ان تعلق النير على الحاجز غير ان يديها كانتا ترتعشان بشدة ، فسقط النير مقعقعا على الدرجات .

نشر ستيبان معطفه المشمع على المقعد الامامى ، ثم جلس وأمسك بالاعنة .

— افتحى البوابة .

وبينما كانت تفعل ذلك ، غامرت بالسؤال : «متى ستعود ؟»

— عند المساء . لقد اتفقت مع انيكوشا على الحصاد . خذى الطعام اليه . سيخرج الى الحقل بعد أن ينهى شغله عند الحداد .

وصّرت عجلات الحاصدة فيما كانت تحفر بساط التراب الرمادى . ومضت اكسينيا الى داخل الدار ، ووقفت لحظة وهى تضع يديها على قلبها ، ثم القت عصابة على رأسها ، وجرت نازلة الى النهر .

والتهبت الفكرة فجأة فى ذهنها : «ولكن ، لنفرض انه عاد ؟ ما العمل اذن ؟» وتوقفت كما لو رأت حفرة عميقة عند قدميها ، ونظرت الى الخلف ثم اسرعت ، تكاد تركض على امتداد ضفة النهر صوب المروج .

أسيجة . بقاع من الارض مزروعة خضارا . بحر أصفر من عباد الشمس يتحدى الشمس بنظراته . أخضرار شاحب لنبات

البطاطة . نساء آل شامل يعزقن حقل البطاطة ، مقوسات الظهور فى ثياب وردية ، ومعازقهن ترتفع وتنخفض بحدة على الارض الرمادية . وحينما وصلت اكسينيا الى بستان ميليخوف ، تلفتت حولها ، ثم رفعت السقاطة الخشبية وفتحت البوابة . وتتبعت الممشى صوب الدغل الاخضر لسيقان عباد الشمس . وحشرت نفسها الى وسط الدغل ، محنية الظهر ، وقد علق على وجهها لقاح النبات الذهبى ، ثم لملمت تنورتها واقتعدت الارض الدغلاء .

راحت تنصت : ورن السكوت فى اذنيها . وانبعث من مكان ما فوقها طنين نحلة وحيدة . ان سيقان عباد الشمس تمتص الارض فى صمت .

ظلت جالسة على هذه الحال نحو نصف ساعة ، يعذبها الشك . هل سيأتى ؟ كانت على وشك ان تذهب ، وهى تسوّى عصابتها ، حينما صرت البوابة صريرا ثقيلا . وقع خطوات .

— اكسينيا !

— تعال من هنا .

— ها قد جئت اذن !

واقترب غريغورى ، والاوراق تخشخش عند مروره ، وجلس الى جانبها . صمتا لحظة .

— ما هذا الذى على خدك ؟

فمسحت اكسينيا بكمها الغبار الذهبى العطر .

— لابد انه من عباد الشمس .

— هناك ، تحت عينك ، ايضا .

ومسحته عنها . التقت عيونهما . فاجهشت أكسينيا بالبكاء ، اجابة على تساؤل غريغورى الصامت .

— ما عدت احتمل . فانا ضائعة ياغريشا .

— ماذا يفعل بك ؟

فسحبت ياقة بلوزتها بعنف . وبدا نهداها الورديان ، الممتلئان كنهود الفتيات ، تغطيهما كدمات زرقاء محمرة .

— الا تعلم ؟ انه يضربني كل يوم . انه يمتص دمي . . . وانت ايضا . . . لوثتني كالكلبة ، ثم تركتني . . . انكم جميعا . . .

وزررت بلوزتها باصابع مرتعشة ، ثم غشيها الخوف من ان يكون قد تكدر ، فتطلعت الى وجهه المشيح عنها .

قال غريغورى ببطء ، وهو يقضم نصلا من الحشيش :

— اذن ، فانت تحاولين القاء اللوم عليَّ ؟

اثار صوته الهادئ غيظ اكسينيا فصرخت بضراوة :

— الا تستحق اللوم ؟

— الكلب لا يواقع كلبة تُمانع .

أخفت اكسينيا وجهها فى يديها ، اذ هوت عليها الاهانة مثل لطمة قوية سديدة .

تجهم غريغورى واختلس النظر اليها مخاوصا . كانت ثمة دمعة تتألق بين السبابة والوسطى من اصابعها . وتلألأ شعاع متكسر من الشمس مغبر على الدمعة الشفافة ، وجفف اثرها الرطب على بشرتها .

لم يكن غريغورى ليحتمل الدموع ، فتململ نافذ الصبر ، ونفض نملة بنية عن سرواله بقسوة ، ونظر الى اكسينيا من جديد . لم تكن قد تحركت ، ولكن ثلاثة مسايل من الدموع كانت تتسابق هابطة على ظهر يدها .

— ماذا حدث ؟ هل جرحت شعورك ؟ اكسينيا ! اسمعى ! كفى . . . اريد أن اقول شيئا .

انتزعت يديها من وجهها ، وقالت :

— لقد جئت الى هنا لالتمس النصيحة . فلماذا تقول هذا الكلام ؟ ان الحال مريرة بما فيه الكفاية ، وانت . . .

احمر وجه غريغورى وهو يفكر : «لا تستحق هذه الاهانة» .

— اكسينيا . . . انا لم اقصد ذلك ، فلا تتكدرى .

— انا لم اجئك لاكون عالة عليك ، فلا تخف .

وفى تلك اللحظة ، كانت تعتقد حقا أنها لم تأت لتكون عالة على غريغورى ، ولكنها كانت قد حدثت نفسها بغموض وهى تعدو بمحاذاة الدون : «سوف اقنعه بالكلام . لن يتزوج . فمع مَنْ اعيش اذا لم اعش معه ؟» ثم تذكرت ستيبان ، فهزت رأسها بعناد لتطرد عنها الفكرة المباغتة .

وتساءل غريغورى : «اذن ، فحبنا انتهى ؟» وانبطح على بطنه ، متكئا على مرفقه وهو يبصق اوراق زهرة وردية لدغـــل متسلق ، كان يمضغها .

فقالت اكسينيا فزعة :

— أتقول : انتهى ؟ — وكررت القول باصرار وهى تحاول النظر فى عينيه :

— ماذا تعنى ؟

كان فيهما بصيص ابيض مزرق حينما اشاحهما عنها .

فاحت الارض الجافة المتعبة بالغبار والشمس . وحفت الريح بين الاوراق الكبيرة الخضراء . وغابت الشمس لحظة ، وقد غلفتها سحابة عابرة وسقط ظل اغبش متموج على السهب ، على القرية ، على رأس اكسينيا الاسيان ، وعلى الكأس الوردى لزهرة الدغل المتسلق .

اطلق غريغورى تأوها برما ، وتمدد على ظهره ، ضاغطا عظمى اللوح على التربة الحارة .

وشرع يتكلم متباطئا :

— اسمعى يا اكسينيا . هذه ورطة عفنة بصورة ما . . . لقد كنت افكر . . .

وانبعث صرير عربة فوق بقعة الخضار مصحوبا بصوت امرأة تستحث : «هو . . و . . . وه ! . . امضوا ياثيرانى !»

وبدا النداء لاكسينيا قريبا جدا فانبطحت على الارض . ورفع غريغورى رأسه وهمس :

— انزعى عصابة رأسك . انها ظاهرة . . . وقد يروننا .

ازاحت عصابتها ، فلاعب النسيم اللاهب المتسلل خلال عباد الشمس خصلات الشعر على رقبة اكسينيا . وشيئا فشيئا تلاشى ضجيج العربة .

فاستأنف غريغورى كلامه من جديد : «حسنا ، اليك ما كنت افكر به» ثم اضاف متشجعا :

— ما فات فات . فيم نحاول القاء اللوم على احدنا ؟ علينا ان نحيا بشكل من الاشكال .

واستمعت اليه اكسينيا فى قلق وترقب ، وهى تكسر ساقا من النبات بيدها فيما كانت تنتظر . ثم نظرت الى وجه غريغورى ، وتعقبت فى عينيه لمعانا صارما جادا .

— كنت افكر فى ان نضع نهاية لـ . . .

ترنحت اكسينيا . وانشبت اصابعها فى الدغلة المتسلقة الخشنة ونفخت منخاريها وهى تترقب نهاية الجملة . ولسعت وجهها نار ضاربة من الرعب ونفاذ الصبر ، وجف حلقها . ظنت انه سيقول «نضع نهاية لستيبان» ، ولكنه لحس شفتيه اليابستين اللتين كانتا تعتملان بصعوبة ، وقال برما :

— . . . ان نضع نهاية لهذه العلاقة . ها ؟

انتصبت اكسينيا ، ومضت صوب البوابة شاقة طريقها خلال رؤوس عباد الشمس الصفر المتمايلة .

وصاح غريغورى بصوت مختنق : «اكسينيا !»

وأجاب نداءه صرير البوابة الثقيل .

١٧

ما ان تم حصاد الجويدار ، وقبل ان يتيسر نقله الى المخازن ، نضج القمح . ففى الحقول الخصيبة وعلى السفوح ، حال لون الاوراق الجافة اصفر ، وتشت حتى صارت انابيب ، ويبست السيقان بعد ان ادت ما عليها .

وانتشى الجميع بالحصاد الوفير ، فقد جاءت السنابل ممتلئة والحبات ثقيلة كبيرة .

قرر بانتلاى بروكوفتش — بعد ان بحث الموضوع مع ايلينشنا — ان الزفاف سيتم ، اذا ما وافق آل كورشونوف على الخطبة ، فى عيد المخلص الخريفى . ولم يكن قد زار آل كورشونوف بعد لمعرفة جوابهم ، فقبل كل شىء يجب ان يتم الحصاد ، ثم ينتظر حلول عطلة ما .

بدأ آل ميليخوف الحصاد ذات جمعة . جرت الحاصدة ثلاثة خيل . اعد بانتلاى بروكوفتش العربة لنقل الحصيد . ومضى بيوتر وغريغورى الى الحقول للحصاد .

سار غريغورى واضعا يده على المقعد الامامى الذى جلس عليه اخوه . كان غريغورى مكتئبا ، واختلجت العضلات ما بين فكه الاسفل وعظام وجنتيه فاستشف منهـا بيوتر علامة اكيدة على ان اخاه يتميز غضبا وانه على استعداد للعراك ، ولكنه

شرع مع ذلك فى معابثة اخيه وهو يبتسم من تحت شاربه القمحى .

— وحق الرب ، لقد اخبرتنى بنفسها !

فتمتم غريغورى ، وهو يمضغ شعرة من شاربه :

— حسنا ، وماذا لو اخبرتك ؟

— قالت : «بينما كنت عائدة من بستان الخضار ، سمعت اصواتا من بقعة عباد الشمس فى حدائق ميليخوف» .

— بيوتر ، كفّ عن هذا !

— اجل ، اصوات . «وتطلعت خلال السياج . . .»

وارتعش جفنا غريغورى :

— هل ستكف عن هذا ، أم لا ؟

— انت صبى غريب الاطوار ! دعنى أكمل .

فتوعده غريغورى ، وهو يتراجع الى الخلف :

— اننى احذرك يا بيوتر ، فسوف نتعارك بعد لحظة .

فرفع بيوتر حاجبيه ، واستدار فى مقعده ليواجه غريغورى .

— «تطلعتُ خلال السياج ، وهناك رأيتهما ، العاشقين ، مستلقيين متعانقين !» هذا ما قالته . قلت : «من ؟» فاجابت : «عجبا ! هما اكسينيا واخوك» ، فقلت . . .

فالتقط غريغورى مذراة من قبضتها ، كانت ملقاة فى مؤخرة الحاصدة ، وهجم على اخيه . فقذف بيوتر بالاعنة ووثب عن مقعده ، وجعل يزوغ امام الخيل . وقال صائحا :

— باه ! يالللشيطان ! لقد جن ! باه ! حسبكم ان تنظروا اليه . . .

فقذف غريغورى المذراة باتجاه اخيه ، وهو يكشر عن اسنانه ، فجثا بيوتر على يديه وركبتيه ، وطارت المذراة فوقه ثم

انغرست من اسفلها فى الارض الجافة الصلبة ، وهى تتذبذب رنانة .

تجهم وجه بيوتر وامسك باعنة الخيل المستفزة ، واخذ يلعن ثائرا :

— كدت تقتلنى ، ياختزير !

— أجل ، وددت لو قتلتك !

— انت احمق ، شيطان مخبول . انت ابن ابيك حقا : تركى ابن تركى .

انتزع غريغورى المذراة من الارض ، وجعل يمشى وراء الحاصدة . ثم اشار اليه بيوتر باصبعه قائلا :

— تعال هنا . اعطنى المذراة .

وحول الاعنة الى يده اليسرى ، وامسك بالمذراة من اسنانها ، ثم سدد بمقبضها ضربة على ظهر غريغورى الذى لم يتوقع شيئا . وقال فى اسف ، وهو يراقب غريغورى الذى كان قد قفز بعيدا : «تستحق ضربة اشد» .

بعد لحظة او لحظتين ، اشعلا سكارتين ، ونظر الواحد الى الاخر ، ثم انفجرا ضاحكين .

حينما هجم غريغورى على اخيه ، كانت زوجة كريستونيا تقود عربتها عائدة الى البيت ، فرأتهما فى تلك الحال . انتصبت على عربتها ، غير انها لم تتبين ما كان يحدث . اذ ان الحاصدة والخيل حجبتهما عنها . وما ان وصلت الى شارع القرية حتى صرخت منادية احدى جاراتها :

— يا كليموفنا ! اجرى واخبرى بروكوفتش التركى بأن ولديه يتقاتلان بالمذارى على مقربة من رابية التتار . قولى لـــه ان غريغورى — يا للشيطان ! — طعن بيوتر فى جنبه بأسنان المذراة . فما كان من بيوتر الا ان سدد اليه . . . فسال دم كثير .

بدأ صوت بيوتر يبح من الصياح وراء الخيل المتعبة . فجعل يصفر بدلا من ذلك . وكان غريغورى يذرى الحزم عن الحاصدة مسندا قدمه التى سودها التراب على عارضة الحاصدة . وكانت الخيل ، والذباب ينهشها بضراوة ، تهز ذيولها وتجر الماكنة متثاقلة .

كان الناس يعملون على امتداد السهب كله حتى خط الافق الازرق وشفرات الماكنات تصلصل وتئز والسهب ترقطه حزم القمح ، واخذت السناجب البرية تقلد السواق فى صفيرهم ، فراحت تصفر من على الاكمات .

صاح بيوتر فوق ضجيج الماكنة وهو يلتفت الى غريغورى : «شوطان اخران ، ثم نتوقف لندخن !» . فأومأ غريغورى برأسه ، اذ لم يكن بمستطاعه أن يفتح شفتيه اليابستين الا بمشقة . وقرب قبضته من اسنان المذراة ليوفر لنفسه سيطرة افضل على الحزم الثقيلة ، وتنفس بما يشبه التشنج . وصار صدره المبلل بالعرق يحكه ، وسال العرق من تحت قبعته على وجهه واحرق عينيه كالصابون . وبعد ان اوقفا الخيل ، شربا ودخنا .

قال بيوتر مظلّلا عينيه براحته : «ثمة شخص ما راكب حصانا يجرى بسرعة كبيرة على الطريق» .

فحدق غريغورى ، ورفع حاجبيه مستغربا .

— يبدو وكأنه ابى .

— انت مجنون . اى حصان يمكن ان يركب ، اذا كانت كل الخيل هنا ؟

— انه هو .

— انت مخطئ .

— انه هو ، وحق الله . أبى .

وبعد لحظة صار بالامكان رؤية الحصان الجارى بسرعة والراكب ، فراوح بيوتر فى دهشة قلقة :

— حقا ، انه أبى !

— لا بد ان شيئا ما وقع فى الدار — عبر بذلك غريغورى عن فكرة اقلقتهما معا .

كبح بانتلاى بروكوفتش حصانه ، وهو لم يزل على مبعدة مائة خطوة ، وصاح ملوحا بسوطه الجلدى فوق رأسه : «سأجلدكما يا ولدى العاهرة» !»

— ماذا هناك ؟ — واستبدت ببيوتر دهشة طاغية ، ودسّ نصف شاربه فى فمه .

وقال غريغورى مبتسما ، ومنتقلا الى الجانب الاخر من الحاصدة نحوطا .

— تعال الى الجانب الاخر من الحاصدة ! والله ، سوف يجلدنا بذلك السوط . والى ان نصل الى صلب الموضوع ، يكون قد انتزع مصاريننا من بطوننا !

وجاء الحصان المزبد يخب فوق القمح المحصود . وهز بانتلاى بروكوفتش سوطه ، وقدماه تصطكان على جنبى الحصان (فقد كان يركبه بلا سرج) وصاح :

— ماذا كنتما تفعلان هنا ، يا ابناء الشيطان ؟

فلوح بيوتر بذراعيه ، وعيناه ترمقان السوط فى خشية :

— كنا نحصد .

— مَنْ الضارب بالمذراة ومن المضروب ؟ وفيم كان عراككما ؟

ادار غريغورى ظهره لابيه ، وشرع يعدّ الغيمات همسا .

راوح بيوتر وتساءل وهو ينظر الى ابيه من اسفل الى اعلى وهو يطرف بعينيه :

— ما بالك ؟ اية مذراة ؟ من كان يتعارك ؟

— كيف ؟ لقد جاءتنى ، راكضة بنت الدجاجة تلك ، وهى تزعق : «لقد تضارب ولداك بالمذارى» . فما رأيك بهذا ؟ ها ؟ — هز بانتلاى بروكوفتش رأسه منفعلا ، ثم ارخى الاعنة وقفز عن الحصان اللاهث . — اختطفت حصانا من فيدكا سيميشكين وجئت أجرى . حسنا ؟

— من اخبرك بكل هذا ؟

— امرأة !

— كذبت يا ابى . لابد انها كانت نائمة فى عربتها وحلمت بهذه الحكاية .

فقال بانتلاى بروكوفتش بين صائح وصافر ، وهو يهز بلحيته :

— امرأة ! عاهرة كليموف تلك ! يا الهى ! ساجلد تلك المومس !

وأخذ يضرب الارض بقدميه وهو يعرج بقدمه اليسرى .

ظل غريغورى يحدج فى الارض وهو يختلج فى ضحك مكتوم . ومسح بيوتر رأسه العرق ، وعيناه مثبتتان على ابيه .

لبث بانتلاى بروكوفتش يهتز انفعالا الى ان برد قلبه ثم هدأ . فجلس على مقعد ماكنة الحصاد ، وحصد صفين أو ثلاثة ثم امتطى حصانه ، وهو يشتم ، وركب عائدا الى القرية فى الطريق المغبر ولحق عربتين محملتين بالقمح وسبقهما . نسى سوطه على الارض ، فالتقطه بيوتر وقلبه بين يديه وهز رأسه قائلا لاخيه :

— لقد تحاشينا مصيبة ، يافتى . فما هذا السوط ! كان بالامكان ان يجعل منك عاجزا ، ايها الاخ . فبوسع هذا ان يقطع رأسك عن بدنك كليا .

اشتهر آل كورشونوف بانهم اغنى اسرة فى قرية تتارسكى ، فلديهم اربعة عشر زوجا من الثيران ، بالاضافة الى الخيل والافراس التى جىء بها من مزرعة جياد بروفالسك ، وخمس عشرة بقرة ، وماشية أخرى لا حصر لها ، وقطيع مكون من عدة مئات من رؤوس الغنم . عدا ذلك كان ثمة ما يلفت النظر : كان بيتهم بغرفه الست وسقفه الحديدى يضاهى بيت التاجر موخوف ، وقد سقفت مرافقه الخارجية بقرميد جديد زاه ، وبلغت مساحة حديقته ومرجه حوالى هكتارين . فما عسى المرء ان يطلب اكثر من ذلك ؟

ولهذا كان بانتلاى بروكوفتش خجلا نوعا ما ومترددا فى سره اثناء زيارته الاولى لال كورشونوف خاطبا . كان باستطاعة آل كورشونوف ان يجدوا لابنتهم زوجا اغنى بكثير من غريغورى . كان بانتلاى بروكوفتش يعلم هذا فتوجس خيفة من ان يقابل عرضه بالرفض ، فلم يكن يود ان يذهب سائلا لدى كورشونوف المغرور . الا ان ايلينشنا ظلت تنخر فيه كما ينخر الصدأ بالحديد ، حتى استطاعت ان تتغلب على عناد الشيخ . واخيرا ، قام بزيارة آل كورشونوف ، لاعنا فى اعماقه غريغورى وايلينشنا والدنيا برمتها .

والآن ، حان الوقت للذهاب اليهم لاستجلاء جوابهم ، سوى انهم كانوا ينتظرون حلول يوم الاحد . وفى الوقت ذاته ، ثار تحت السقف الحديدى المطلى لبيت كورشونوف خلاف حاد . فقد صرحت ناتاليا لامها ، بعد رحيل آل ميليخوف ، قائلة :

— انا اميل الى غريشا ، ولن ازف الى سواه .

فرد عليها ابوها : — وجدت لنفسها عريسا ، هذه البلهاء . ميزته الوحيدة هى انه اسود كالغجر . ياوردتى العزيزة ، انى استطيع ان اجد لك زوجا افضل بكثير .

— انا لا اريد سواه ، يا ابتى ، — وتوردت وجنتاها وشرعت تنتحب : — والا فيمكنك ان تأخذنى الى الدير .

فالقى ابوها بورقته الاخيرة :

— انه زير نساء يجرى وراء زوجات الجنود . كل القرية تعرف ذلك .

— حسنا ، لكن ذلك !

— حسنا ، فاذا كان رأيك «لكن كذلك» ، فهو كذلك بالنسبة لى .

كانت ناتاليا ، وهى كبرى البنات ، اثيرة لدى أبيها ، فلم يجبرها على زواج . وقد جاءتها عروض كثيرة للزواج ، بعضها من قرى بعيدة ، من قوزاق اثرياء ، لكن ناتاليا لم تبد ميلا لأى من الخاطبين المتقدمين ، ولم تجد جهودهم نفعا .

على ان ميرون غريغوريتش كان يميل الى غريغورى فى اعماق قلبه ، لهمته القوزاقية ولحبه الزراعة والعمل الدؤوب . وكان قد جلب انتباهه من بين شباب القرية حينما فاز بالجائزة فى سباق الخيل ، لكنه اعتقد ان من المهانة ان يزوج ابنته الى رجل غير غنى ، وذى سمعة سيئة .

وفى الليل ، راحت زوجته تهمس له ملاطفة يده النمشاء المشعرة : «انه فتى شغول وسيم . وناتاليا متيمة به فعلا . فتن قلبها» .

فادار ميرون غريغوريتش ظهره الى صدر زوجته الذاوى البارد ، ودمدم مغضبا :

— تنحى عنى ، ايتها الثرثارة ! زوجيها من ابله ، ماذا يهمنى ؟ لقد اخذ الله منك عقلك . «وسيم !»

قالها مقلدا لهجة زوجته ، واستطرد :

— هل تجنين من وجهه محصولا ؟

— ليست المحاصيل كل شىء فى الدنيا . . .

— ما قيمة وسامته ؟ لو ان له مركزا حسنا ! يجب ان اعترف انه مما يحط من قدرى ان ازوج ابنتى من الاتراك . يجب ان يكون الخطيب ندا لنا — وململ ميرون غريغوريتش على السرير فى اعتزاز .

وهمست زوجته وهى تتقرب الى ظهره وتلاطف يده بتودد :

— انهم عائلة دؤوب وميسورة الحال .

— ايه ، الشيطان ! تنحى عنى ، الا تستطيعين ؟ افسحى لى مجالا صغيرا . فيم تتحسسين يدى كما لو كنت بقرة حلبى ؟ اعملى ما شئت بخصوص ناتاليا . زوجيها من فتاة قصيرة الشعر ان كان هذا يلائمك !

فتمتمت فى اذنه الغزير الشعر :

— كان عليك ان تولى ابنتك بعض العطف ! لا وزن الثروة فى هذا المجال . . .

لكن ميرون غريغوريتش جعل يلبط برجله ، والصق نفسه بالحائط وبدأ يشخر وكأنه قد نام فعلا .

حين جاء آل ميليخوف ليستطلعوا الرد ، وقع آل كورشونوف فى حيرة . فقد وصلوا بعيد صلاة الصباح . وحينما وضعت ايلينشنا قدمها على درجة العربة اوشكت ان تقلبها ، لكن بانتلاى بروكوفتش وثب نازلا من مقعده مثل ديك صغير . رغم انه تعثر ومشى مشية الفتى الى البيت .

تأفف ميرون غريغوريتش وهو يتطلع من النافذة :

— ها هم . . . اى شيطان جاء بهم الينا اليوم .

— يا الهى ، لم اكد اخرج من المطبخ ، ولم اجد الفرصة

حتى لاستبدال تنورتى اليومية .

ـــ مظهرك حسن كما انت . ليس ثمة من يفكر فى الزواج منك . من عساه يريدك ، ياجَرَبَ الخيل !

ـــ انت وغد منذ ولدت ! وها قد فقدت عقلك فى كهولتك هذه !

ـــ امسكى لسانك يا امرأة !

فعنفته زوجته وهى تتفحصه اثناء مرور الزوار عبر الحوش :

ـــ كنتَ تستطيع ان ترتدى قميصا نظيفا ، عظام ظهرك بارزة خلال هذا الذى ترتديه . عيب ، ايها الشيطان الهرم !

ـــ لا عليك ، فهم سيعرفوننى كما انا . ولن يمانعوا حتى لو ارتديت الجنفاص !

صاح بانتلاى بروكوفتش وهو يتعثر فوق عتبة الباب : «صحة طيبة !» وما لبث ان خجل لارتفاع صوته ، وحاول ان يصلح الامر فرسم علامة الصليب على نفسه مرتين امام الايقونة .

واجاب ميرون غريغوريتش ، ناظرا اليهم بعبوس : «طاب يومك !»

ـــ وهبنا الله طقسا حسنا .

ـــ الحمد لله ، وسيستمر كذلك .

ـــ ولهذا سيغدو الناس ايسر حالا .

ـــ صحيح .

ـــ ن . . . ن . . . نعم .

ـــ أحم .

ـــ وهكذا جئنا يا ميرون غريغوريتش لنعرف ما استقر عليه الرأى فيما بينكم . . . ما اذا كنا سنعقد الزيجة أم لا ؟

وتقدمت ربة الدار مرحبة بهم ، وماسحة الارضية بطرف

تنورتها المشية الطويلة : «ادخلوا ، من فضلكم . اجلسوا ، رجاء .» فاجابت ايلينشنا : «لا تهتموا بنا ارجوكم» .

فجلست وثوبها يحف حولها . واراح ميرون غريغوريتش مرفقيه على مشمع المائدة الجديد ، ولاذ بالصمت . وانبعثت رائحة مزعجة من المطاط الرطب ومن شىء آخر من المشمع ، الذى كان مزينا فى زواياه بصور القيصر والقيصرة السابقين ، وفى وسطه الاميرات الامبراطوريات الجليلات وعلى رؤوسهن قبعات بيض ، والقيصر نيقولاى الثانى ، منقطا ببراز الذباب .

قطع ميرون غريغوريتش حبل الصمت :

ـــ حسنا . . . لقد قررنا ان نعطيكم ابنتنا . وهكذا سنصبح اقرباء ان استطعنا الاتفاق على الصداق .

وهنا ، اخرجت ايلينشنا من موضع ما فى الاعماق المجهولة لسترتها اللماعة ذات الكمين المنتفختين ، رغيفا كبيرا من الخبز الابيض ووضعته على المائدة .

ولسبب خفى اراد بانتلاى بروكوفتش ان يرسم علامة الصليب على نفسه ، الا ان اصابعه المخلبية المعقوفة ، وان اتخذت الوضع المناسب للعلامة وارتفعت الى نصف المسافة المطلوبة ، الا ان وضعها تغير على حين غرة . وانزلق ابهامه الاسود الضخم ، خلافا لرغبة صاحبه ، بين سبابته ووسطاه ، ومرق هذا العنقود الصفيق من الاصابع ، خلسة ، وراء ذيل معطفه الازرق المفتوح ، وأخرج قنينة حمراء الفم .

نظر بانتلاى بروكوفتش ، وهو يطرف عينه بانفعال ، الى وجه ميرون غريغوريتش الانمش ، وربت ، ملاطفا ، على قعر القنينة براحته الحافرية العريضة . واقترح :

ـــ والان ، يا اصدقائى الاعزاء ، سنقدم صلاة لله ،

ونشرب ونتحدث عن طفلينا ، وعن اتفاق الزواج .

بعد ساعة من الزمن ، كان الرجلان يجلسان متقاربين بحيث اختلطت حلقات لحية ميليخوف السوداء كالقطران بخيوط لحية كورشونوف المتصببة الحمراء . وانبعثت مع زفير بانتلاى بروكوفتش رائحة الخيار المخلل فيما كان يتناقش حول الشؤون المالية لاتفاقية الزواج . وشرع فى همس مبحوح : «يا نسيبى العزيز» وكرر : «يا نسيبى الاعز» رافعا صوته الى درجة الصياح . ثم زأر : «يا نسيبى» مكشرا عن انيابه الكبيرة المسطحة . «ان مطاليبك اثقل بكثير مما استطيع تحملها . تأمل ، يا نسيبى العزيز ، تأمل كيف تحاول سلبى ، اولا طماق واخفاف . ثانيا ، معطف من الفراء . ثالثا ، ثوبان صوفيان ، رابعا ، عصابة رأس حريرية . ان هذا يعنى خراب بيتى !»

وبسط بانتلاى بروكوفتش ذراعيه على اتساعهما حتى تفتقت دروز معطفه . واحنى ميرون غريغوريتش رأسه وحدق فى المشمع الطافح بالفودكا المراقة والمخللات . وقرأ فى النقوش المزركشة فى الرأس «العائلة الملكية الروسية» . وخفض عينيه مسافة اخرى : «صاحب الجلالة الامبراطورية والملك ، الامبراطور نيقولاى . . .» ، وكانت ثمة قشرة بطاطا تغطى بقية الكتابة . ولم تكن قسمات الامبراطور واضحة من تحت قنينة الفودكا الفارغة . وحاول ميرون غريغوريتش وعيناه تطرفان باجلال ، ان يتبين بزة الامبراطور الفاخرة ذات النطاق الابيض ، لكنها كانت مغطاة بطبقة كثيفة من بذور الخيار اللزجة . اما الامبراطورة فكانت تشمخ فى نظرتها بغرور ، وعلى رأسها قبعة عريضة الاطراف ، وقد احاطت بها حلقة من بناتها الباهتات . وأحس ميرون غريغوريتش انه قد أهين حتى كادت الدموع تطفر الى عينيه ، وقال فى سره مخاطبا الامبراطورة :

«انت تبدين فخورة الآن ، كأوزة تطل من سلة ، لكن حين سيتعين عليك تزويج بناتك ، سأطل انا عليك ، وارى كيف تتخبطين انت» .

وطن بانتلاى بروكوفتش فى اذنيه طنين نحلة سوداء كبيرة فرفع كورشونوف عينين تغشاهما الدمع ، وانصت .

— لكى نقدم هدية كهذه مقابل ابنتك — والان نستطيع ان نقول ابنتنا — هذه الطماق والاخفاف ومعاطف الفراء ، سنضطر الى ان نسوق بقرة الى السوق ونبيعها .

فضرب ميرون غريغوريتش المائدة بقبضته وصاح :

— وهل تضن بها ؟

— ليس الامر ان اضن بها . . .

— هل تضن بها ؟

— مهلا ، ايها النسيب !

— اذا كنت تضن بها . . . فليأخذك الشيطان !

ولوح ميرون غريغوريتش بيده العرقة على المائدة فاسقط الاقداح على الارض .

— ان ابنتك هى التى ستكد لقاءها .

— فيلكن ! ولكن عليك ان تقدم الهدايا اللائقة ، والا فلن يكون هناك زواج !

فهز بانتلاى بروكوفتش رأسه : «بقرة تباع من حظيرتى !» وهز قرطه فى اذنه لامعا لمعانا باهتا .

— الصداق لا بد منه . ان لها صندوقا من الملابس ، ولكن عليك ان تظهر الاحترام لى ان كنت قد وضعت عينك عليها . تلك هى عادتنا القوزاقية . تلك هى منذ القدم ، ونحن متمسكون بالتقاليد القديمة .

— سوف أظهر لك احترامي !

— أظهر احترامك !

— سأظهره !

— ثم دع الصبيين يعملان ويثريان . لقد عملنا ، وها نحن نعيش ميسورين كأى فرد من الناس ، فليفعلا الشيء نفسه !

وتشابكت لحيتا الرجلين فى ايقاع ملون ، وقبلا بعضهما ، شرع بانتلاى بروكوفتش يأكل خيارة منكمشة جف ماؤها ، وانتحب وقد جاشت نفسه بمشاعر متداخلة متضاربة .

كانت المرأتان جالستين على الصندوق وقد تشابكتا متعانقين . وكل منهما تصم اذن الاخرى بوقوقة صوتها . وقد التهب وجه ايلينشنا بحمرة كرزية ، بينما حال لون لوكينشنا أخضر بسبب الفودكا ، وصارت كالثمرة الشتائية التى اذبلها الصقيع . قالت لوكينشنا :

— لن تجدى طفلة مثلها فى أى مكان آخر فى ارجاء العالم . ستكون مجدة ومطيعة ، ولن تتفوه بكلمة تعارضك .

فقاطعتها ايلينشنا ، مسندة خدها بيدها اليسرى ، وواضعة مرفقها الايسر فى يدها اليمنى :

— ياعزيزتى ، هذا ما قلته له ، لا ادرى كم من المرات ، ابن العاهرة هذا . كان يستعد للخروج ، مسأ ذلك الاحد ، واضعا شيئا من التبغ فى كيسه ، قلت له : «متى ستتركها ، ايها الكافر الملعون ؟ إلامَ سأظل اتحمل هذا العار فى شيخوختى ؟ سيضع ستيبان حدا لعبثك الصبيانى ، ذات يوم جميل !»

فى هذه الاثناء ، تطلع ميتكا الى الغرفة خلال خصاص الباب ، وأوطأ منه تهامست أختا ناتاليا الاصغران ، بينما كانت ناتاليا نفسها جالسة فى الغرفة الابعد ، تمسح دموعها بكم قميصها

الضيق . كانت تخشى الحياة الجديدة التى تنفتح امامها ، ويضنيها المجهول .

وفى الغرفة ، افرغت قنينة فودكا ثالثة ، واتُّفق على لم شمل العروس والعريس فى عيد المخلص الاول .

١٩

ظل بيت كورشونوف يطن كخلية نحل بجلبة الاستعدادات للزفاف ، فكانت الملابس الداخلية تخاط للعروس فى عجل ، وناتاليا تجلس كل مساء لتحوك لعريسها القفازين ولفاف الرقبة التقليدى من شعر الماعز ، وتظل امها منكبة على ماكنة الخياطة حتى الغسق تساعد الخيّاطة المأجورة .

حين وصل ميتكا يصحبه ابوه وعمال الحقل ، عائدين من الحقول ، لم يتوقف ليغتسل او ينزع جزمة الحقل الثقيلة ، بل مضى ليجالس ناتاليا فقد كان يجد لذة كبيرة فى اغاظة اخته .

كان يتساءل باقتضاب وهو يشير الى اللفاف :

— تحوكين ؟

— نعم ، وماذا فى ذلك ؟

— اقتلي نفسك بالحياكة ، بلهاء . انه سيحطم فكك ، بدلا من الاعراب عن امتنانه لك .

— لماذا ؟

— اوه ، انا اعرف غريشا ، فهو صديقى . هذا دأبه ، فهو يعض دونما سبب .

— لا تهرف بالاكاذيب . تظن اننى لا أعرفه .

— لكننى أدرى به منك . فقد كنا نذهب الى المدرسة سوية .

ويفتعل ميتكا حسرة عميقة ، ويخفض نظره الى يديه المخرمشتين ويحنى ظهره المديد .

— سوف تضيعين ياناتاليا ، لو تزوجته . خير لك ان تبقى عانسا . ما الذى تجدينه فيه ، على اية حال ! انه قبيح الخلقة بما يكفى لاشاعة الذعر فى حصان . وبليد ايضا . حسبك ان تمعنى النظر فيه قليلا ، انه شخص قذر .

فتغضب ناتاليا ، وتحبس دموعها ، وتحني وجها بائسا فوق اللفاف . ويستطرد ميتكا دونما رحمة : «والادهى من ذلك انه مغرم ، ففيم تحرقين شبابك ؟ انت حمقاء ياناتاليا ! اعرضى عنه ! سأسرج الحصان واذهب الى دارهم لاخبرهم . . .»

ويأتى الجد غريشاكا لينقذ ناتاليا من ميتكا ، وهو يخط على الارض بعصاه المعقدة ، ويمسد لحيته الصفراء الكالحة . ويغرز العصا فى جنب ميتكا ويسأل : «ما تفعل هنا ، يا عديم النفع ، ها ؟» فيجيب ميتكا معتذرا : «جئت للزيارة ، ياجدى» .

— جئت للزيارة ؟ حسنا ، وانا آمرك بان تخرج من هنا . الى الوراء عُدْ !

ويرفع العجوز عصاه ويتقدم صوب ميتكا على ساقيه الهزيلتين المرتعشتين .

لقد درج الجد غريشاكا على الارض تسعة وستين عاما . اشترك فى الحملة ضد الاتراك عام ١٨٧٧ ، وكان مراسلا نابها للجنرال كوركو ، لكنه فقد حظوته لدى سيده فأعيد الى كتيبته . ومنح وسامى القديس غيورغى ومدالية القديس غيورغى لاستبساله فى ميادين القتال فى بليفنا وروشيتش . وهو يعيش الآن مع ابنه ، متمتعا باحترام القرية الشامل لصفاء ذهنه وامانته التى لا يرقى اليها الشك ، ولاريحيته ، وهو يقضى سنواته الباقيات فى استعادة ذكرياته .

كان يجلس فى الصيف من الفجر حتى الغسق على المصطبة بالجنب من البيت ، محنى الرأس ، يخط بعصاه على الارض ، فيما تطوف فى ذهنه صور غامضة وفتات من الافكار ، وتتلألأ ومضات واهنة من الذكرى بين ظلال النسيان .

وكان رفرفُ قبعته المكسور يلقى ظلا داكنا على عينيه المغمضتين مما يزيد الغضون على خديه عمقا وكانت لحيته شيباء رمادية . والدم الاسود يجرى متثاقلا خلال اصابعه المقوسة فوق عصاه وعروق يديه المنتفخة .

ومن عام الى عام كان دمه يبرد فيروح يتشكى الى ناتاليا ، حفيدته الاثيرة :

— هذه الجوارب صوفية ، لكنها لا تفى بالدفء . ويحسن بك ان تحوكى من الجوارب زوجا لى ، يا طفلتى .

فتتضاحك ناتاليا قائلة : «لكننا فى الصيف ياجدى !» ، وتجلس الى جانبه على المصطبة ، وتنظر الى أذنه المجعدة الصفراء الكبيرة .

— ثم ماذا ، ياطفلتى ؟ نحن فى الصيف ، ولكن دمى بارد كبرودة الارض العميقة تحتنا !

نظرت ناتاليا الى شبكة العروق على يده ، والتمعت فى ذهنها ذكرى يوم من ايام طفولتها . كانوا يحفرون بئراً فى حوشهم ، وكانت ، وهى لما تزل صبية صغيرة ، تغرف الطين الرطب من الدلو وتصنع دمى ثقيلة وبقرات ذوات قرون مهشمة . واستعادت بوضوح ذكرى ملمس الطين الثلجى الجامد ، المرفوع من عمق كبير . وجعلت ناتاليا تحدق الآن خائفة فى يدى جدها المغطاة بنمش الكهولة الاسمر طينى اللون . فقد بدا لها ان ما كان يسرى فى شرايينه كان ترابا طينيا اسود وليس دما قرمزيا ناصعا .

وتتساءل ناتاليا : «اخائف انت من الموت ، يا جدى ؟»

فيلوى الشيخ رقبته الرقيقة المعقدة كأنه يخلصها من الياقة الصلبة لسترة بزته العسكرية البالية ويهز شاربيه الاشهبين المخضوضرين ويجيبها ، والابتسامة تكشف عن اسنانه البيضاء ، وترتعش غضون صغيرة حول عينيه : «اننى انتظر الموت كما انتظر ضيفا عزيزا . لقد آن الاوان ، فقد عشت ايامى ، وخدمت قياصرتى ، وشربت كفايتى من الفودكا» .

فتمسد ناتاليا على يد جدها وتتركه ، وهو لم يزل منحنيا ، محدودبا ، جالسا على المصطبة فى بزته الرمادية المرقعة فى مواضع كثيرة ، مخرمشا الارض بعصاه ، بينما تتلألأ شاراته الحمر اللامعة ، فى حبور وفتوة ، على ياقته الصلبة المنتصبة .

وقد استقبل نبأ زواج ناتاليا المقبل بهدوء ظاهر ، ولكنه حزن فى دخيلته وغضب . فقد كانت ناتاليا تنتقى له افضل اللقم من المائدة وتعطيها له ، وكانت تغسل افرشته ، وتصلح وتحوك جواربه وبنطاله وقمصانه . وهكذا ، حينما سمع الشيخ بالنبأ ، ظل يوجه اليها نظرات عابسة صارمة طوال يومين .

وجه السؤال الى ميرون غريغوريتش :

— آل ميليخوف قوزاق طيبون . الراحل بروكوفى كان قوزاقيا طيبا . لكن كيف حال احفاده ؟ ها ؟

فأجابه ميرون غريغوريتش متململا : «لا بأس بهم .»

— غريغورى هذا فتى لا يحترم الاخرين . كنت قادما من الكنيسة ، قبل ايام ، ومر بى دون تحية . لا يجد الشيوخ احتراما كبيرا هذه الايام . . .

فتسهم لوكينشنا بكلمة فى صالح صهرها المقبل : «انه فتى طيب .»

— «طيب» ما تقولين ؟ اوه حسنا ، ما دامت ناتاليا ميالة اليه . . .

ولم يسهم غريشاكا فى مفاوضات الزواج بشىء ذى بال ، فقد جاء من المطبخ ، وجلس الى المائدة لحظة او لحظتين ، وبجهد جهيد شرب قدحا من الفودكا ، وحينما شعر بها تلعب برأسه وأحس بدفء يسرى فى جسمه ، مضى خارجا من جديد .

وطوال يومين ظل يراقب ناتاليا السعيدة المنفعلة ، فى صمت ، ويمضغ طرفى شاربيه المخضوضرين ، ثم بدأ أكثر لطفا فى موقفه ، وناداها : «ناتاليا . حسنا ، ياحفيدتى الصغيرة ، اذن فانت سعيدة جدا ، ها ؟» فاعترفت له : «انا لا ادرك كنه شعورى جيدا ، يا جدى» .

— حسنا ، حسنا ، فليكن المسيح معك ، وليمنحك الرب بركته . . .

ثم عاتبها بمرارة :

— ألم يكن فى مقدورك ان تنتظرى حتى أموت ، ايتها الملعونة الصغيرة ، ستكون حياتى مريرة بدونك .

كان ميتكا يتسمع لحديثهما فى المطبخ ، فقال معقبا :

— من المحتمل ان تعيش مائة سنة أخرى ، ياجدى . فهل عليها ان تنتظر طيلة ذلك الوقت ؟ يا للماكر !

واستحال لون الشيخ ارجوانيا من الغضب ، فجعل يقرع الارض بعصاه وقدميه صائحا : «اخرج ، ابن القحبة ! قلت اخرج ! يا عفريت الشيطان ! من طلب اليك ان تتسمع ؟»

فجرى ميتكا الى الحوش متضاحكا . ظل العجوز منفعلا مدة طويلة بعد ذلك ، لاعنا ميتكا ، وكانت ساقاه ترتجفان عند الركبتين فى جوربيه الصوفيين القصيرين .

كانت شقيقتا ناتاليا الصغيرتان ، ماريشا وهى فى الثانية عشرة وكريبا ، وهى عفريتة فى الثامنة من عمرها ، تنتظران الزفاف بنفاذ صبر .

وشمل السرور المكتوم الاجراء الزراعيين الذين كان كورشونوف يستخدمهم على الدوام متوقعين وليمة فاخرة من سيدهم وعطلة لبضعة أيام . كان احدهم وهو اوكرانى طويل ، كالرافعة ، له اسم غريب «هت–بابا» ، يغرق نفسه فى نوبة سكر وعربدة مرة كل ستة أشهر تقريبا ، فيسكر بكل ما لديه من ملابس وأجور . وبالرغم من انه احس ببوادر النوبة المألوفة منذ وقت مضى ، الا أنه أجبر نفسه على تأجيل الشروع بالسكر حتى يوم الزفاف .

ولم يكن الاجير الزراعى الثانى ، وهو قوزاقى أسمر نحيف يسمى ميخى ، قد اشتغل لدى كورشونوف الا منذ مدة قصيرة . وقد عمل اجيرا بعد ان اصابته كارثة حريق . وبسبب من صداقته لهت–بابا ، صار شيئا فشيئا مدمنا على الشراب . وكان ذا ولع كبير بالخيل . وحينما يكون سكرانا ، يشرع بالبكاء ، ويتبلل وجهه حاد القسمات عديم الحاجبين ، بالدموع ، فيسبب الازعاج لميرون غريغوريتش :

— سيدى ! يا سيدى العزيز ! حينما تزوج ابنتك دعنى اشترك فى سباق الخيل لمناسبة الزفاف . سأريهم مهارتى فى السوق . سأقودها خلال النار ولن تشتعل شعرة واحدة من الخيل . فقد كانت لى خيل ذات يوم . آه . . .

وأمسى هت–بابا العابس المتجهم متعلقا بميخى ، لسبب او لاخر ، وجعل يسيمه العذاب على الدوام بنفس النكتة القديمة حول اسم قريته الاصلية ، فيظل يضحك بلا انقطاع ، وبصوت أجش ، من نكتته التافهة المبتذلة ، ويضرب على ساقيه الطويلتين اليابستين . فينظر ميخى باشمئزاز الى وجه هت–بابا الحليق والى جوزة عنقه المرتجفة ويلعنه .

تحدد يوم الزفاف فى اول يوم بعد الصوم الكبير . لم تبق

سوى ثلاثة اسابيع . وفى عيد صعود العذراء جاء غريغورى لزيارة عروسه المقبلة ، فجلس الى المائدة المستديرة فى غرفة الاستقبال ، يتناول بذور عباد الشمس والبندق مع صويحبات العروس ، ثم همّ بالعودة الى داره ، فخرجت ناتاليا لتوديعه . وفى الحظيرة المسقفة ، حيث كان حصانه مربوطا ، وقد أسرج بسرج جديد انيق ، دست يدها فى صدرها ، وقد احمرت خجلا ، وهى تتطلع اليه بعينين تنطقان بالحب ، ثم دست فى يده لفة صغيرة تشع بدفء صدرها . وبهرها غريغورى ، وهو يأخذ الهدية ، بياض اسنانه الذئبية ، وتساءل :

— ما هذا ؟

— سترى . . . طرزت لك كيسا للتبغ .

فجذبها غريغورى اليه مترددا يريد ان يقبلها ، لكنها دفعته بقوة فى صدره بيديها ، وألقت رأسها الى الوراء ، وادارت عينيها ، وجلة ، نحو نوافذ البيت .

— سيروننا !

— دعيهم ! . .

— اننى خجلة !

فشرح غريغورى لها الامر : «يحدث هذا فى البداية حسب !»

امسكت ناتاليا بالاعنة بينما امتطى حصانه ، فوضع قدمه فى الركاب ، مقطب الوجه ، جلس بارتياح على السرج ، ومضى خارجا من الحوش . ففتحت له البوابة ، ووقفت تتبعه بنظرها مظللة عينيها براحة يدها . مال غريغورى على سرجه الى اليسار ، على الطريقة الكالميكية ، ملوحا بسوطه فى زهو .

«لم يبق سوى احد عشر يوما آخر» ، حدثت ناتاليا نفسها ، وتنهدت وضحكت .

تشق الحنطة الخضراء ذات الاوراق الحادة الارض ، وتنمو ، وما ان تمضى بضعة أسابيع حتى يصبح بمستطاع زاغ ان يحطّ فيها دون ان يلوح منه شيء . ويمتص القمح السوائل من التربة ويصعد النسغ الى السنبلة ، فتزهر ، وتتلفع السنابل بغبار ذهبى وتمتلىء الحبة بعصير حليبى ، حلو ، معطار . ويخرج الفلاح الى السهب ، ويقف متأملا ، فتمتلئ جوانحه بالفرح . وقد يأتى قطيع من الماشية ، ويدوس على القمح ، ويسحق الحبة المثقلة فوق التراب . وتخلف الماشية ، حيثما ترقد ، بقعا مستديرة من الحنطة المسحوقة ، فيملأ المشهد قلب الفلاح بالمرارة واليأس .

كذلك الحال مع اكسينيا . فقد داس غريغورى بصندله الخشن الثقيل ، على مشاعرها التى تنامت حتى نضجت وغدت مثل حبة ممتلئة . لقد لوثها ، وسحقها ، واضرم فيها النار حتى امست رمادا — وكان هذا كل ما فى الامر .

بعد عودتها من حديقة عباد الشمس فى بستان ميليخوف ، كان ثمة فراغ ووحشة يتناميان فى اعماقها ، مثل حقل مهجور غطته اعشاب الاوز والنجيل . فمضت تلوك اطراف عصابتها ، وقد غص بلعومها بالبكاء . دخلت دارها ، وتهاوت على الارض ، يخنقها الدمع والعذاب ، والفراغ الموحش الذى الهب رأسها . . . ثم مرت الازمة فقد غار الالم الحاد فى قعر فؤادها وتعشش هناك .

وتعود الحنطة التى داستها الماشية فتستوى من جديد ، وبالندى والشمس ، تستفيق السيقان المسحوقة ، منحنية ، فى البدء ، كرجل ينوء بحمل ثقيل جسيم ، ثم تنتصب رافعة رؤوسها

وتتمايل فى مهب الريح ، ويعود النهار نهارا من جديد . . .

وحينما كانت اكسينيا تلاطف زوجها بعاطفة مشبوبة فى الليل ، كان ثمة رجل آخر يملك زمام افكارها ، وتختلط الكراهية بحب عظيم فى قلبها . كانت المرأة ترسم الخطط للاتيان بمنكر جديد وعار جديد . لقد عقدت العزم على انتزاع غريغورى من ناتاليا السعيدة ، التى لم تعرف طعما لمرارة الحب او حلاوته . واستلقت تفكر فى خططها ليلا ، وعيناها الجافتان تطرفان فى العتمات ، ورأس ستيبان الوسيم يرقد ، ثقيلا ، على ذراعها اليمنى ، وقد مالت خصلته على جبينه . كان يتنفس خلال شفتيه المواربتين ، واصابعه السود الخشنة تستكن على صدر زوجته فى اغفائه . واستلقت اكسينيا تعمل فكرها وخططها ، لكن شيئا واحدا قد عقدت عليه العزم الراسخ : ستنتزع غريغورى من اى انسان آخر ، ستغمره بالحب ، وتمتلكه كما امتلكته فى السابق . على ان فى اعماق قلبها ألما عميقا ، مافتىء يلسعها ، كلسع النحلة .

وفى النهار ، كانت اكسينيا تغرق نفسها بالاعمال والواجبات المنزلية . وقد تصادف غريغورى من حين لاخر ، فيشحب وجهها ، ثم تشد باعتزاز جسدها الجميل الذى يتحرق اليه بلهفة عارمة ، وتحدق بتحد ومن غير ما حياء فى متاهات عينيه السوداوين .

وبعد كل لقاء ، كان الحنين اليها يستبد بغريغورى . وصار يغضب بلا سبب ، وجعل يصب غيظه على دونيا وامه ، على انه غالبا ما كان يستل حسامه ، ويخرج الى الفناء الخلفى ، ويهوى به على الاغصان القوية النابتة فى الارض ، حتى يسبح فى عرقه . وخلال اسبوع قطع منها كومة كبيرة . واثار ذلك حنق بانتلاى بروكوفتش ، فراح يلعن :

— هذا الشيطان الخسيس ، لقد قطع ما يكفى لعمل

سياجين . ياللفارس الملعون ! رح الى الغابة ، ان كان عليك ان تهلك نفسك بالتقطيع . صبراً ، يافتاى ! فستحين لك الفرصة ، حينما سيدعونك للخدمة العسكرية . وآنذاك ، سرعان ما تستنفد قواك !

٢١

أربع عربات مزينات فى بهرج بهيج ، يجر كلا منها زوج من الخيل ، ستذهب لاحضار العروس . ويتزاحم حشد من اهالى القرية فى ملابس العيد حولها ، وهى واقفة فى فناء آل ميليخوف .

كان بيوتر اشبين العريس ، وقد ارتدى سترة رسمية سوداء وبنطلونا ازرق بأشرطة ، وربط ذراعه اليسرى بمنديلين ابيضين ، وثبت تحت عذاريه القمحيين ابتسامة مزدرية . كان يقف دائما الى جانب العريس . وقال لاخيه :

— لاتكن خجولا ، ياغريغورى ! ارفع رأسك مثل ديك ، ولا تعبس !

تتعالى اصوات فى الحشد بالقرب من العربات :

— اين الاشبين ؟ حان الوقت لنذهب الى العريس !

— يا نسيب !

— ها ؟

— اجلس فى العربة الثانية ! هل تسمع ؟

— وهل توجد مقاعد فى العربات ؟

— هى مريحة بلا مقاعد !

وكانت داريا ، الرشيقة اللدنة مثل غصن صفصاف ، ترتدى تنورة صوفية حمراء ، كلون توت العليق . واهتز قوسا حاجبيها المزججين ، ولكزت بيوتر :

— قل لابيك ان الوقت قد حان لذهابنا ، فهم هناك فى انتظارنا .

فتشاور بيوتر مع ابيه همسا ، ثم اصدر امره :

— خذوا اماكنكم . فى عربتى ، خمسة والعريس . يا انيكاى اجلس فى مقعد الحوذى .

فتسلقوا الى العربات . وفتحت ايلينشنا البوابات ، متوردة الوجه مزهوة . وتسابقت العربات الاربع ، واحدة اثر اخرى ، فى الشارع .

جلس بيوتر الى جانب غريغورى وراحت داريا تلوح ازاءهما بمنديل من الدانتيلا . وجعلت حفر الطريق ونتوآته تقطع الاصوات التى انطلقت تردد احدى الاغانى . وتشكلت صورة ملونة من الشرائط القرمزية لقبعات القوزاق ، والبزات والسترات الرسمية السوداء والزرقاء ، والاكمام المربوطة بالمناديل البيض ، وقوس قزح متناثر لعصابات النساء ، والتنورات الزاهية ، ومثار الغبار الرقيق .

كان انيكاى ، جار ميليخوف واحد اقربائهم ، يقود عربة العريس ، وقد مال الى الامام فوق ذيول الخيل حتى كاد ان يقع من على مقعده ، وفرقع سوطه وصفر ، فجعلت الخيل العرقى تشد بمزيد من الجهد على الاعنة المتوترة .

وزأر بيوتر :

— هيا ، ازجرها ، ازجرها !

فغمز انيكاى الامرد ، الشبيه بالخصى ، لغريغورى ، وجعد وجهه الانثوى الاملط فى ابتسامة خافتة ، واطلق صفيرا واستحث الخيل بسوطه .

وهدر ايليا اوجوكين ، خال العريس ، وهو يحاول ان يسبقهم

بالعربة الثانية : «افسح لى الطريق !» وتبين غريغورى وجه دونيا السعيد وراء ظهر خاله .

فصاح انيكاى وهو يثب على قدميه ويطلق صفيرا نفاذا : «لا ، لن تسبقنى !» ولفح الخيل حتى انطلقت فى جنون فصاحت داريا : «سوف تقع !» واحتضنت بذراعيها جزمة انيكاى الجلدية الطويلة اللامعة . وصاح الخال ايليا من جانبهم : «حذار !» لكن صوته ضاع فى هدير العجلات وقرقعتها .

اما العربتان الاخريان ، فقد سارتا جنبا الى جنب مثقلتين بنساء ورجال يتصايحون . وكانت الخيل المزينة على ظهورها باجلّة حمر وزرق ووردية ، وازهار من ورق وشرائط مضفورة فى نواصيها واعرافها ، واجراس باعنتها ، تنهب الارض على الطريق العاثر ، ناثرة ندفا من الزبد ، والاجلّة المبللة ترفرف وتخفق فى مهب الريح .

عند بوابة آل كورشونوف كان جمع من صبيان القرية فى انتظار الموكب . فما ان رأوا الغبار المتصاعد من الطريق حتى ركضوا الى الحوش زاعقين : «انهم قادمون !» و«هاقد وصلوا !» ، واحاطوا بهت — بابا الذى خرج توا .

— فيم الزحام ؟ اغربوا ، ايها الشياطين الصغار . اى ضجيج هذا ! انا لا اقدر ان اسمع نفسى .

وتواثب الصغار حول سروال هت–بابا الفضفاض صارخين وهازئين به . فنظر هت–بابا الى الاطفال الهائجين ، ورأسه منحنٍ كما لو كان يحدق فى بئر عميقة ، وحك بطنه المشدودة المستطيلة وعلى وجهه ابتسامة سمحة .

وبلغت العربات البوابة وهى تقرقع ، فقاد بيوتر غريغورى الى درجات الباب ، وتبعهما الاخرون .

اغلق الباب ما بين الممر والمطبخ . فطرقه بيوتر ، وترنم : «يا سيدنا عيسى المسيح ، ارحمنا !»

وجاء صوت من الجانب الاخر للباب : «آمين !»

وكرر بيوتر الكلمات والطرق ثلاث مرات ، وفى كل مرة كان يتلقى نفس الجواب .

— هل لنا ان ندخل ؟

— على الرحب والسعة .

وفُتح الباب على مصراعيه . وحيت بيوتر اشبينة ناتاليا ، ممثلة والديها ، وهى ارملة جميلة ، بانحناءة وابتسامة من شفتين رقيقتين حمراوين كتوت العليق ، وقالت له : «اشرب هذا فى صحتك ، ايها الاشبين» ، وناولته قدحا من كفاس جديد عكر . فسوى بيوتر عذاريه ، وكرع القدح عن آخره ، ثم حمحم وسط ضحك الجميع المكتوم : «ياله من شراب ! فانتظرى ياتوتتى السوداء ، انتظرى حتى ارد اليك الفضل . لسوف اجعلك تدفعين ثمن هذا» .

قالت الاشبينة وهى تنحنى وتبتسم فى مكر : «معذرة» .

وبينما كان اشبين العريس واشبينة ناتاليا يتنافسان فى مباراة من الملح ، جىء بثلاثة كؤوس لكل واحد من اقرباء العريس ، طبقا لاتفاق الزواج .

اما ناتاليا ، التى ارتدت ثوب زفافها والخمار ، فقد جلست الى المائدة تحرسها شقيقتاها . وامسكت ماريشكا فى يدها الممتدة ، بشوبك * ، ولوحت كريبا ، وفى عينيها حماس

---

* الشوبك او الشوبق : خشبة الخباز التى يسوى بها الرغيف قبل الخبز . المترجمون .

وتحد ، بسلة تستعمل اثناء البذر . وانحنى بيوتر ، وقد بلله العرق واسكرته الفودكا قليلا ، وعرض عليهما فى قدحه قطعة من ذات الخمسين كوبيكا . غمزت الاشبينة لماريشكا فضربت المائدة بشوبكها :

— قليل ! لن نبيع العروس !

وكرة اخرى ، قدم لهما شيئا من القطع الفضية فى قدحه . فزمجرت الشقيقتان : «لن ندعك تأخذها !» واحاطتا بمرفقيهما ناتاليا منكسة الرأس .

— والآن ، ما معنى هذا ؟ ها نحن قد دفعنا المزيد .

فأمر ميرون غريغوريتش الفتاتين مبتسما : «اقبلا ، ايتها البنتان !» وتقدم من المائدة . وكان شعره الاحمر الملطخ بالزبدة الذائبة تنبعث منه رائحة العرق والروث .

نهض اقارب العروس واصدقاؤها من مقاعدهم حول المائدة ، وافسحوا المكان للقادمين الجدد .

دفع بيوتر طرف منديل فى يد غريغورى ، وقفز على مصطبة ، ثم قاده الى العروس حيث جلست تحت الايقونات ، فأخذت ناتاليا المنديل من طرفه الاخر فى يدها الرطبة المضطربة .

وطقطقت الاسنان حول المائدة ، وجعل الضيوف يمزقون الدجاجات المسلوقة بأيديهم اربا اربا ليمسحوها بعدئذ بشعورهم . وبينما كان انيكاى يلوك عظمة صدر ، جرى الدسم الاصفر على ذقنه الامرد الى ياقته .

ورثى غريغورى لنفسه ، وهو يرى الى ملعقته وملعقة ناتاليا المعقودتين معا بمنديل ، اولا ، ثم الى الشعرية التى يتصاعد بخارها من الاناء . كان جائعا الى حد كبير ، واحس بمعدته تتضور .

اما داريا فقد كانت تاكل بشهية ، بينما بدا على الخال ايليا ، الذى جلس الى جانبها يمصمص ضلع خـــــروف بتمهل ، انه يهمس فى اذنها باشياء غير لائقة ، ذلك لانها خاوصت عينيها ورفعت حاجبيها ، متوردة الوجه مقهقهة .

اكل الضيوف كثيرا وبشهية ، واختلط بخار العرق الرجالى النفاذ برائحة النساء المعطرة الاكثر نفاذا . وانبعثت من التنورات والسترات الرسمية السود والشالات المحفوظة فى صناديقها زمنا طويلا ، رائحة النفتالين ورائحة اخرى ، ثقيلة وخانقة ، مثلما ينبعث من ملابس العجائز البالية .

نظر غريغورى من طرف عينيه الى ناتاليا ، ولاحظ لاول مرة ان شفتها العليا كانت منتفخة ومتدلية على الشفة السفلى كما يتدلى رفرف القبعة . ولاحظ ايضا شامة بنية على خدها الايمن تحت عظم الوجنة ، وقد نبتت من الشامة شعرتان ذهبيتان ، ولسبب ما اثار ذلك نفوره . وتذكر رقبة اكسينيا الهيفاء بخصلاتها الجعد الوبرية ، وانتابه شعور بأن احدا ما القى فى داخل ياقته حفنة من الاعشاب الشوكية التى تخز ظهره العرق . فارتعش جسمه ، وجعل يراقب الاخرين يمضغون ويلوكون ويتلمظون شفاههم ، وقد استبد به شعور خانق بالتعاسة .

وحينما انفضوا عن المائدة جاء احدهم ، ورائحة عصير الفاكهة المختمرة وحموضة خبز القمح تفوح من انفاسه ، وصبّ فيضة من الدخن فى ساق جزمته لكى تحميه من العين الشريرة . وطوال طريق العودة الى بيته ظل الدخن يؤلم قدمه . كما ضايقته ياقة القميص الضيقة حدّ الاختناق . وجعل غريغورى يتمتم باللعنات مع نفسه فى غضب يائس بارد ناجم عن مراسيم الزواج المقبضة للنفس .

حينما وصلت الخيل الى فناء آل ميليخوف ، كان التعب قد هدها ، بالرغم من انها استراحت قليلا لدى آل كورشونوف . وكانت اعنتها ملطخة بالزبد ، لكن السواق السكارى ظلوا يستحثونها بلا روية .

واستقبل العجوز ميليخوف وزوجته الموكب . كان بانتلاى بروكوفتش يمسك بايقونة ولحيته السوداء المشوبة بلون فضى تتلألأ ، بينما وقفت زوجته الى جانبه ، وقد تصلبت شفتاها الرفيعتان .

وتحت وابل من ثمار حشيش الدينار وحبات القمح ، تقدم غريغورى وناتاليا نحوهما ليتقبلا بركاتهما . وسالت دمعة على وجه بانتلاى بروكوفتش وهو يباركهما ، ثم عبس وتململ ، وقد ضايقه ان يشهد الاخرون ضعفه .

دخل العروسان الى الدار . وانقضت داريا على دونيا الراكضة من المطبخ عند درجات العتبة ، وقد احمرت من الفودكا والرحلة والشمس ، تسألها :

— أين بيوتر ؟

— لم اره .

— عليه ان يذهب الى القس فى حين ليس له اثر ، عليه اللعنة !

واخيرا عثرت على بيوتر متمددا فى عربة ، يئن ، بعد ان كرع من الفودكا اكثر مما يتحمل ، فانقضت عليه كالحداة :

«لقد شربت اكثر مما ينبغى ، ياكافر ! قم واجر الى القس !»

فاحتج بيوتر ، وهو يمد يديه نحو القش وذرق الدجاج :

«اغربى عنى ! انا لا اعرفك . من انت حتى تتأمرى ؟»

فدفعت داريا اصبعين فى فمه ، والدموع فى عينيها . وامسكت بلسانه الهاذى ، واعانته على ان يفيق ، فاربكه ذلك . ثم صبت على رأسه دلوا من ماء البئر البارد ، ونشفته ببطانية خيل واخذته الى القس .

وبعد ساعة وقف غريغورى الى جانب ناتاليا (التى جعل ضوء الشموع وجهها جميلا) فى الكنيسة ، ممسكا شمعة بيده ، وعيناه تجولان فى سهوم فوق جدار من الناس المتهامسين حوله ، ومرددا فى نفسه هذه الكلمات التى لم تكن لتنأى عن ذهنه : «ها انك قد انتهيت» . ومن خلفه ، سعل بيوتر ذو الوجه المنتفخ . وفى مكان ما بين الرهط ، لحظ عينى دونيا متلألئتين ، وخيل اليه انه ميز وجوها اخرى . وسمع اصوات الجوقة المتنافرة وغناء الشماس الطنان . كان تبلد احاسيسه يشله . ومشى وراء الاب فيساريون حول كرسى الكتاب ، متعثرا بكعبى جزمة القس المتآكلة ، وتوقف حينما جذبه بيوتر برفق من طرف سترته الرسمية . وجعل يحدق فى ألسنة لهب الشموع الصغيرة المتلألئة ، ويقاوم رغبة فى الاغفاء تملكته .

وقال الاب فيساريون لغريغورى وهو يحدق فى عينيه بلطف : «تبادلا الخاتمين !» فأطاعاه . وتساءل غريغورى فى صمت حينما التقى نظره ببيوتر : «هل سنفرغ من هذا عما قريب ؟» ، ورفت زاويتا فم بيوتر وهو يكتم ابتسامة : «عما قريب» . ثم قبل غريغورى شفتى زوجته المبللتين ، عديمتى الطعم ، ثلاث مرات ، واخذت تنبعث من الكنيسة رائحة الشموع المطفأة الكريهة ، وتزاحم الجمع نحو الباب .

خرج غريغورى ماسكا يد ناتاليا الخشنة الكبيرة . وخبط احدهم قبعته على رأسه . وحملت نسمة دافئة من الجنوب رائحة نبات

الشيح الى منخريه ، وانحدرت البرودة من السهب . تلوى البرق الازرق وراء الدون ، وقدم المطر ، وتناهى الى الاسماع عبر سور الكنيسة الابيض وفوق همهمة الاصوات ، الرنين الرقيق الخفى للاجراس المدلاة من الخيل الجامحة .

٢٣

لم يصل آل كورشونوف الى دار آل ميليخوف الا بعد مبارحة العروسين الى الكنيسة . وكان بانتلاى بروكوفتش ، قبل ذلك ، قد خرج الى البوابة عدة مرات ليستطلع قدومهم ، لكن الطريق الرمادى المحدد بخطوط من النباتات الشوكية كان مهجورا تماما . وحول عينيه ناحية شاطئ الدون الاخر . كانت الغابة تكتسى لونا ذهبيا ، وعيدان القصب الناضج تميل ، تعبى ، فوق البحيرة الصغيرة .

وثمة خمول الخريف الباكر ، المتشح بالغسق ، يلف القرية والدون وحافة التلال الكلسية والغابة الكامنة فى سديم ليلاكى وراء النهر ، والسهب . وعند مفترق الطرق ، كانت الحدود الحادة للمصلى القائم على جانب الطريق بارزة ازاء صفحة السماء الزرقاء .

التقطت اذنا بانتلاى بروكوفتش صوتا لايكاد يسمع لعجلات تدور وكلاب تنبح . ثم دارت عربتان صغيرتان من ساحة القرية عبر الشارع ، وقد جلس فى الاولى ميرون غريغوريتش والى جانبه زوجته يواجهها الجد غريشاكا فى بزة رسمية جديدة وقد علق على صدره وسام القديس غيورغى ومدالياته . وكان ميتكا يقود العربة ، جالسا باسترخاء على المقعد الامامى دون ان يكلف نفسه عناء التلويح بسوطه للخيل القوية . وكان ميخى فى العربة الثانية مائلا

الى الخلف ، يجر الاعنة محاولا تقليل سرعة الخيل المندفعة . وكان وجهه الهزيل ، عديم الحاجبين ، قرمزيا ، والعرق يتصبب من تحت رفرف قبعته المكسور .

فتح بانتلاى بروكوفتش البوابة ، واندفعت العربتان الى داخل الفناء . وانسابت ايلينشنا نازلة على درجات المدخل وطرف ثوبها يكنس بقايا الوحل من الدرجات .

— مرحبا ، ايها الاقرباء الاعزاء ! امنحوا دارنا المتواضع شرف دخولكم . — وثنت خصرها السمين فى انحناءة .

وفتح بانتلاى بروكوفتش ذراعيه ، ورأسه مائل الى جانب ، ورحب بهم : — نحن ندعوكم الى الدخول !

وامر ان تحل الخيل ، اتجه نحو والد كنته . ومسح ميرون غريغوريتش سرواله بيده ليزيل عنه الغبار . سلّم احدهما على الاخر واتجها الى مدخل الدار . وتباطأ غريشاكا العجوز خلفهما ، وقد خضته رحلة العربة غير المعتادة .

والحت ايلينشنا : «تفضلوا ، تفضلوا ، ايها الاعزاء !»

— نشكرك ، ها نحن قادمون .

— كنا ننتظركم . تفضلوا . سآتى بمنضفة لتنظف بها بزتك . ما اكثر الغبار هذه الايام ، حتى لقد صرنا لا نتنفس الا بصعوبة .

— اجل ، حقا ، انها جافة جدا . . . وهذا هو سبب الغبار . . . لا تزعجى نفسك ياعزيزتى ، سوف آتى بعد ان . . .

وتراجع العجوز غريشاكا ، وهو ينحنى لمضيفته البليدة ، حتى وصل الى مخزن الحبوب فالتجأ وراء ماكنة درس مطلية .

فغمغم بانتلاى بروكوفتش ، موقفا زوجته عند درجات العتبة :

— الا تستطيعين ان تتركى العجوز وشأنه ، ياحمقاء . هو يريد ان يقضى حاجته وانت تظلين . . . اين عقلك ، يا امرأة !

فاحتجت ايلينشنا فى ارتباك :

— انّى لى ان اعرف .

— كان ينبغى لك انت ان تخمنى ذلك . لا بأس خذى الضيوف الى المائدة .

واخذت اسرة العروس الى غرفة كبيرة ، حيث جلس الى المائدة رهط من الضيوف نصف مخمورين . وسرعان ما عاد العروسان الجديدان من الكنيسة . وقد ملأ بانتلاى بروكوفتش الاقداح من قنينة هائلة ، والدموع تترقرق فى عينيه :

— حسنا يا اقرباءنا الاعزاء ، فلنشرب نخب طفلينا ! لتمتلئ حياتهما بالطيبات ، كما امتلأت حياتنا . وليعيشا سعيدين متمتعين بأحسن عافية . . .

وصبوا قدحا كبيرا من الفودكا للجد غريشاكا وافلحوا فى افراغ نصفه فى فمه ذى اللحية المتصوفة والنصف الاخر على ياقة بزته الصلبة . وقرعت الاقداح . وجعل القوم يشربون ويشربون دون اى نخب ، وهم يثيرون جلبة كجلبة السوق . وقام نيكيفور كولوفايدين ، وهو يمت الى آل كورشونوف بصلة بعيدة وكان يجلس عند طرف المائدة الاقصى ، فرفع قدحه وزأر بالكلمات التقليدية : «مُر الطعم ، مُر !» *

فتصايح الضيوف الجالسون حول المائدة وراءه : «مر ! مر !»

وجاء الجواب من المطبخ المزدحم : «أوه ، مُر !»

فقبل غريغورى يعبوس شفتى زوجته عديمتى الطعم ، وأجال فى الغرفة نظرة طريدة . لم ير سوى وجوه قرمزية محمومة ،

---

* حسب التقاليد يتبادل العروسان القبلات حين يسمعان هذه الجملة . الناشر .

ونظرات وابتسامات فظة كدرة بفعل السكر ، وأفواه تلوك بشراهة ، ولعابها يسيل على خوان المائدة المطرز حين بلغت الحفلة ذروتها .

وفتح كولوفايدين فمه متباعد الاسنان ، على سعته ، وقال :

— «مُر !» وانكمشت شارات خدمته الطويلة على كم بزة الحرس الزرقاء ، حين رفع قدحه .

— «مُر !» ، التقط الجمع الصرخة من جديد .

ونظر غريغورى الى فم كولوفايدين بكراهية ، ولاحظ لسانه القرمزى بين اسنانه حينما صرخ : «مُر !»

وتمتم بيوتر ، وقد رف شاربه المبلل بالفودكا : «تبادلا القبل ، ايها العروسان البليدان» . ومن المطبخ ، شرعت داريا تغنى وقد تورد وجهها من السكر ، فالتقط الاغنية الاخرون ، وانتقل الغناء الى غرفة كبيرة . واختلطت الاصوات ، لكن ارعاد كريستونيا علا فوق الجميع هازا زجاجات النوافذ .

— يا للزفاف ، ايها الناس الطيبون ! . .

— ذق لحم الضأن هذا !

— ابعد مخلبك عنى ، فزوجى ينظر الينا !

— مُر ! مُر !

— لا ! لا اريد لحم ضأنك هذا . افضل شيئا من السمك السلمون . اجل ، احب ذلك . . . انه دسم .

— بروشكا يا ابن العم ، لنشرب نخبا اخر !

— آه ، ان هذا يبعث الدفء فى عصافير قلبك !

— يا سيمين غورديتش !

— ها ؟

— ليأخذك الشيطان !

وفى المطبخ ، انّت الارض واهتزت ، واصطكت الكعوب ، وسقط قدح على الارض ، ولكن صوت تحطمه ضاع فى الضجيج العام . ونظر غريغورى الى المطبخ عبر رؤوس الجالسين الى المائدة . وشرعت النساء يرقصن بمصاحبة الصيحات والصفير ، ورحن يهززن مؤخراتهن الضخمة ، فلم تكن بينهن نحيفة واحدة ، اذ كانت كل واحدة قد لبست خمس او سبع تنورات معا ، وجعلن يلوحن بمناديلهن ، ويحركن مرافقهن اثناء الرقص .

وصل الى المسامع صوت الاكورديون . وشرع العازف يعزف لحن رقصة قوزاقية . وانطلقت صيحة : «حلقة ! شكلوا حلقة !»

وتوسل بيوتر ، دافعا بطون النساء : «تراصفن قليلا !»

وايقظ غريغورى نفسه ، وغمز لناتاليا :

— سيرقص بيوتر رقصة القوزاق . راقبيه .

— مع من ؟

— ألا ترين ؟ مع امك .

تخصرت ماريا لوكينيشنا ، مسندة يديها على ردفيها ، ومنديلها بيدها اليسرى . وتقدم بيوتر نحوها بخطوات متبخترة ، وقفز بخفة ومهارة ، ثم تراجع الى مكانه . رفعت لوكينيشنا تنورتها ، كما لو ارادت ان تعبر بركة ماء ، والتقطت الايقاع باصبع قدمها ، ورقصت وسط هدير من الاستحسان ، مشمرة ساقيها كما يفعل الرجال .

نثر عازف الاكورديون رقرقة من النغمات الناعمة دفعت بيوتر الى الحركة ، ثم هبط صائحا فى وضع قرفصى ، وجعل يرقص بشكل دائرى ، ضاربا رقبتى جزمته براحتى يديه ، وقاضما طرف شاربه فى زاوية فمه . وراح يحرك قدميه الى الداخل والخارج

بسرعة كبيرة ، وتواثبت خصلته على جبينه ، الا انها لم تستطع ان تلحق بوثبات قدميه .

وكان الحشد عند الباب قد حجب الرؤية عن غريغورى . فلم يعد يسمع سوى صيحات الضيوف السكارى وضربات الكعوب الحديدية ، مثل طقطقة لوح صنوبر محترق .

ثم رقص ميرون غريغوريتش مع ايلينشنا . كان يرقص بطريقة جدية رزينة على عادته فى اداء كل شىء . ووقف بانتلاى بروكوفتش فوق مقعد يراقبهما ، مدليا ساقه العرجاء ومطقطقا بلسانه . وتراقصت شفتاه وقرطه بدلا من ساقيه .

والتقط الرقصة خبراؤها ، كما التقطها من لم يستطع ان يثنى ساقيه بصورة لائقة . وانطلقت صيحات صوب الجميع :

— الهبوها !

— خطوات اقصر ! آه ، يا ! . .

— ساقاه خفيفتان بما فيه الكفاية ، لكن مؤخرته تعيق حركته .

— آه ، امضى بها !

— ان جانبنا يربح .

— هيا !

— تعبان ، أليس كذلك ؟ لسوف اكسر قنينة على رأسك ان لم ترقص !

كان الجد غريشاكا آنذاك قد استبد به السكر كليا فاحتضن ظهر جاره العريض على المصطبة ، وطنّ فى اذنه طنين البعوض :

— اية سنة ذهبت للخدمة العسكرية لاول مرة ؟

فاجابه جاره ، وهو عجوز منحنى الظهر كشجرة بلوط عتيقة :

— ١٨٣٩ ، يابنى !

فأصاخ غريشاكا السمع وهو يمسك بطرف اذنه : «متى ؟»

ـــ قلت لك ١٨٣٩ .

ـــ ما اسمك ؟ فى اية كتيبة خدمت ؟

ـــ مكسيم بوكاتيريوف . كنت نائب عريف فى كتيبة باكلانوف . انا من ابناء قرية «الوهدة الحمراء» .

ـــ انت قريب لال ميليخوف ؟

ـــ ماذا ؟

ـــ سألتك ، هل انت قريب للعائلة ؟

ـــ أى أى ! انا جد العريس ، من ناحية امه .

ـــ قلت فى كتيبة باكلانوف ؟

فنظر الشيخ الى غريشاكا بعينين ذابلتين ، وهو يحاول عبثا ان يمضغ قطعة من الخبز بلثته عديمة الاسنان ، وهز رأسه بالايجاب .

ـــ اذن ، فلا بد انك كنت فى الحملة القفقاسية ؟

ـــ انا خدمت تحت امرة باكلانوف نفسه ، رحمة الله عليه ، وساهمت فى غزو القفقاس . كان فى كتيبتنا قوزاق بارزون . كانوا طوالا كالحرس ، وان لم يكونوا منتصبى القامة مثلهم . رجال ضخام ، طوال الاذرع ، عراض المناكب ، ليسوا كقوزاق هذه الايام . هكذا كان رجالنا ، باابنى ! كان فخامة الجنرال الراحل يجلدنى بنفسه . . .

ـــ اما أنا فقد شهدت الحملة التركية ، هه ؟ اجل شهدتها .

ونفخ غريشاكا العجوز صدره الهزيل مجلجلا بالمداليات .

ـــ استولينا على قرية عند الفجر ، وعند الظهر اطلق البوقى الانذار .

ـــ نحن ايضا تسنى لنا ان نخدم قيصرنا . كنا نقاتل بالقرب من روشيتش وكانت كتيبتنا ، كتيبة قوزاق الدون الثانية عشرة ، ملتحمة مع الاتراك .

ـــ اطلق البوقى الانذار . . . ـــ استطرد بوكاتيروف العجوز دون ان يصغى الى غريشاكا .

وقد بدأ غريشاكا يشعر بالضيق وهو يلوح بيده مغضبا :

ـــ أى نعم . يخدم الانكشاريون الاتراك قيصرهم ويضعون على رؤوسهم اكياسا بيضاء . ها ؟ اكياسا بيضاء على رؤوسهم .

ـــ واطلق البوقى الانذار ، وقلت لرفيقى : علينا ان نتراجع بانيموفى ، ولكن علينا ان ننتزع تلك السجادة من الحائط اولا . سنلفها لفة . . .

ـــ لقد كوفئت بوسامين من اوسمة القديس غيورغى تقديرا لبطولتى فى القتال . اسرت مقدما تركيا وهو حى .

وشرع الجد غريشاكا يبكى ويضرب بقبضته الذابلة على العمود الفقرى لجاره . لكن الاخير غمس قطعة من الدجاج فى مربى الكرز بدلا من الخردل ، وحدق ببلاهة فى خوان المائدة المتسخ ، ودمدم والطعام فى فمه الخاسف : «حسبك ان تتأمل اية خطيئة ساقتنى اليها الروح الشريرة ، يابنى !» وحدقت عينا الشيخ بثبات على ثنيات الخوان البيضاء ، وكأنهما لا تنظران الى خوان غارق بالفودكا والحساء ، ولكن الى الشعاب الثلجية فى جبال القفقاس .

«انا لم آخذ فى حياتى شيئا لا يخصنى ، استولينا على القرى الشركاسية فى كل بيت ثروة ، ولكننى لم ارد ان اخذ شيئا لان السرقة من افعال الشيطان وهذه المرة ما ان رأيت تلك السجادة ، حتى قلت فى نفسى : تصلح هذه مرشحة سرج جيدة .

ـــ لقد رأيت تلك البقاع بنفسى . ورحلت الى بلاد عبر

البحار ايضا . — وحاول غريشاكا ان ينظر فى عينى جاره ، لكن المقلتين العميقتين كانتا مغلقتين بطبقة كثيفة شعثاء من شعر الحاجبين واللحية . كان يريد ان يستأثر باهتمام جاره لسماع ذروة قصته ، فلجأ الى المكر واندفع الى وسطها دونما مقدمات :

«ويصدر الرئيس الامر : «الى الامام خببا !»

رفع قوزاقى كتيبة باكلانوف العجوز رأسه ، كما يفعل حصان الهجوم على صوت النفير ، واسقط قبضته على المائدة هامسا : «اعدوا الرماح ! استلوا السيوف ، يارجال باكلانوف !» واشتد صوته على حين غرة ، وتلامعت عيناه الذابلتان واومضتا : «يا رجال باكلانوف ! يالليشطار !» ، وزأر فاغرا فكيه الاصفرين عديمى الاسنان : «اهجموا . . . الى الامام !»

وصوب الى غريشاكا نظرة فتية ذكية ، وترك الدموع متلألئة على لحيته تتساقط دون ان يمسحها بكمه المتسخ .

وتحمس غريشاكا هو الاخر :

— اعطانا هذا الامر ، ولوح بسيفه . فاندفعنا مسرعين الى الامام ، وكان الاتراك متجمعين بهذه الصورة — ، ورسم مربعا على خوان المائدة باصبع مرتعشة ، — وكانوا يطلقون نارا علينا . غرنا عليهم مرتين . وفى كل مرة كانوا يردوننا الى موضعنا . كلما حاولنا ، انطلق فرسانهم من غابة صغيرة لتحمى جناحهم . ولهذا اصدر آمر رعيلنا الامر فتحولنا باتجاههم ومضينا . سحقناهم بخيلنا . هزمناهم . أى فرسان فى العالم يستطيعون الصمود امام القوزاق ؟ فروا الى الغابة صائحين . رأيت ضابطهم امامى مباشرة راكبا حصانا كميتا . ضابط وسيم الطلعة ، كان له شاربان اسودان . نظر الىّ ملتفتا الى الوراء وسحب مسدسه من جراب مربوط بسرجه . طاق ! لكنه اخطأنى . همزت حصانى ولحقت به . كنت على

وشك ان اشطره نصفين ، لكننى فكرت فيما هو افضل . فقد كان ، على اية حال ، انسانا مثلى . فطوقت خصره بذراعى الايمن . فطار عن سرجه . ثم عضّ ذراعى ، لكننى اسرته رغم ذلك . . .

نظر غريشاكا فى زهو المنتصر الى جاره ، لكن رأس الشيخ الكبير المدبب كان قد هوى على صدره ، وكان يشخر فى دعة .

الجزء الثانى

١

يستطيع سيرغى بلاتونوفتش موخوف ان يتتبع سلالته الى مدى بعيد .

أثناء حكم بطرس الاول ، كانت جنيبة شحن حكومية تمخر فى الدون متجهة الى بحر آزوف بحمولة من البقسماط والبارود ، فهاجمها ليلا قوزاق بلدة تشكوناكى القائمة على ضفة الدون الاعلى ، وقتلوا حراسها الناعسين ، ونهبوا البقسماط والبارود واغرقوا الجنيبة .

فأرسل القيصر جنودا من فورونيج ، واحرقوا بلدة تشكوناكى عن آخرها ، وهزموا القوزاق المذنبين بلا رحمة ، وعلقوا ضابطهم واربعين آخرين على مشانق عائمة ارسلت بجثثها المعلقة حدر الدون عبرة للقرى العاصية .

بعد زهاء عشر سنوات بدأت البقعة ، التى شهدت بالامس دخان المواقد يتصاعد من اكواخ تشكوناكى ، تعمر من جديد بالمستوطنين القوزاق وباولئك الذين نجوا من المذبحة ، بدأت القصبة تتنامى من جديد وقد احيطت بالاسوار . وفى الوقت نفسه أرسل من فورونيج الى تشيكوناكى مخبر سرى من وكلاء القيصر ، كان فلاحا روسيا يدعى موخوف . واتجر هذا بمقابض السكاكين ، والتبغ ، واحجار الصوان والمتفرقات الاخرى اللازمة فى حياة القوزاق اليومية . وكان يشترى ويبيع الحاجات المسروقة ، ويسافر مرتين فى العام الى فورونيج ، متظاهرا بالسعى الى استكمال بضائعه ، وهو يرمى فى الواقع الى ابلاغ السلطات بأن القصبة

كانت ، آنئذ ، هادئة وبان القوزاق لم يكونوا بصدد تدبير أى اعتداء جديد .

من هذا الفلاح الروسى ، نيكيتا موخوف ، انحدرت عائلة التجار آل موخوف ، عمقت جذورهم فى ارض القوزاق ، وتكاثروا وانتشروا فى المنطقة مثل الدغل البرى الصلب ، محافظين باجلال على اوراق الاعتماد نصف المتعفنة التى منحها حاكم فورونيج الى سلفهم . وكان يمكن ان تظل هذه الاوراق محفوظة حتى يومنا هذا لولا ان نارا أتت عليها فى حقتها الخشبية وراء الايقونة أثناء حريق كبير وقع فى حياة جد سيرغى موخوف . وقد سبق لهذا الموخوف ان القى بنفسه فى هاوية الافلاس بلعب الورق ، لكنه شرع ينهض من كبوته مرة أخرى حينما أتت النار على كل شىء . وصار على سيرغى ان يبدأ من جديد وهو يملك القليل من المال . بعد أن دفن اباه المشلول ، بدأ شراء الريش وشعر الخنزير . وظل خمسة اعوام يعيش فى بؤس ، يغش قوزاق المنطقة ويعتصر منهم كل كوبك . ثم قفز أسمه على حين غرة من «سيريوجكا البائع المتجول» الى «سيرغى بلاتونوفتش» وفتح حانوتا صغيرا لبيع الخردوات ، وتزوج من أبنة قس نصف مجنون ، وتلقى معها صداقا كبيرا ، واصبح صاحبا لمتجر الاقمشة . وقد شرع سرغى بلاتونوفتش فى تجارة الاقمشة فى الوقت المناسب ، اذ كان القوزاق يهاجرون فى ذلك الحين ، بناء على تعليمات من سلطات الجيش ، بكامل قراهم من الضفة اليسرى للدون ، حيث الارض رملية جدباء ، الى الضفة اليمنى ، وظهرت الى الوجود أبنية حول قصبة كراسنوكتسكايا الفتية ، وانبعثت قرى جديدة على حدود الاقطاعات السابقة ، وعلى ضفاف أنهر «تشير» و«تشورنايا» و«فرولوفكا» ، وفوق وديان السهب وشعابه ، بجانب القرى الاوكرانية . وهكذا وجد

هؤلاء القوزاق أن باستطاعتهم أن يبتضعوا من حانوت سيرغى موخوف ، حيث تمتلىء رفوفه باقمشة جذابة فى متناول ايديهم ، بدلا من ان يقطعوا خمسين فرستا او اكثر . ووسع سيرغى بلاتونوفتش اعماله ، كما يتوسع اكورديون كبير ، وجعل يتاجر بكل ما هو ضرورى فى حياة القرية البسيطة — كجلود الحيوانات ، والملح ، والنفط ، وشتى السلع الرخيصة حتى انه شرع بتجهيز الماكنات الزراعية ، فعرضت خارج الحانوت حاصدات ، وباذرات ، ومحاريث ، ودارسات ، فى صف واحد ، تحفظها من قيظ الصيف حجب الحانوت الخضر باردة الظلال . من الصعب ان يعد المرء ما فى حافظة نقود امرء آخر ، ولكن يبدو ان تجارة سيرغى الماهر درت عليه ربحا كبيرا ، فاقام صومعة لخزن الحبوب فى غضون ثلاث سنوات ، وبدأ فى العام الذى تلا وفاة زوجته الاولى ببناء طاحونة بخارية . ووقعت القرية تنارسكى والقرى المجاورة شر وقعة فى قبضته السمراء ذات الشعر الاسود الاملس المتباعد . ولم يعد ثمة بيت غير مدين لسيرغى بلاتونوفتش فهذه قصاصة خضراء اللون ذات حافة برتقالية تفيد أن حاصدة قد بيعت بالدين الى فلان ، وهذا جهاز عرس لابنة شخص آخر يشتريه من موخوف بالدين ، فقد حان ميعاد زواج البنت ، بيد أن الاسعار التى تدفعها صومعة الحبوب فى بارومونوفو قد هبطت ، فيلجأ أبو العروس الى سيرغى بلاتونوفتش قائلا : «ضع ثمن جهاز العروس على حسابى ، يا سيرغى بلاتونوفتش» وهكذا مضت الحال على هذا المنوال . واستخدم موخوف تسعة عمال فى الطاحونة ، وسبعة فى الحانوت ، واربعة خدم فى البيت : اى كان ثمة عشرون فما يأكل خبز التاجر . وكان لديه طفلان من زوجته الاولى : البنت ليزا ، وولد اصغر منها بعامين ، هو فلاديمير الفاتر المزاج

المصاب بسل الغدة اللمفية . اما زوجته الثانية ، آنا ، المخلوقة اليابسة ذات الانف المدبب ، فكانت عاقرا ، وصبت على الطفلين مزيجا من حنان العاقر للاطفال وحقد العانس المتراكم (فهى لم تتزوج الا فى الرابعة والثلاثين) ، وظهر الاثر السىء لمزاجها العصبى عليهما ، ولم يعد ابوهما يعيرهما من الاهتمام اكثر مما يعيره لعامل الاصطبل أو الطباخ ، فقد شغلته اعماله التجارية طيلة الوقت ، ونشأ الطفلان بلا رادع يردعهما ، ولم تبذل زوجته القاسية اى مسعى لتفهم الطفلين وادراك حاجاتهما النفسية ، فقد اخذت اشغال المنزل الكثير من وقتها ، فترعرع الاخ والاخت غريبين عن بعضهما ، متباينين فى الاخلاق ، وكأنما لم تجمع بينهما اية رابطة . فشب فلاديمير كئيبا ، خاملا ، ذا نظرة خبيثة ونزوع الى الجد ليس من سمات عمره . وعاشت ليزا فى مجمع الخادمة والطاهية ، وكانت الاخيرة امرأة ماجنة ذات تجارب كثيرة جدا ولهذا اطلعت ليزا على الجانب الخفى من الحياة ، وهى لما تزل صغيرة . واثارت فيها المرأتان فضولا سيئا فشبت ليزا وحشية ، كما تشب زهرة الحب الصافى فى الغابة ، بالرغم من انها لم تزل مراهقة خجولا نحيلة .

مضت السنون المتباطئات .

وصار الكبير اكبر . وابنع الصغير .

وذات مساء نظر سيرغى موخوف الى ابنته عبر مائدة الشاى . فاصابته الدهشة . ها قد اصبحت ليزا فتاة هيفاء وسيمة ، وكانت قد اتمت فى التو دراستها الثانوية . نظر اليها ، وارتجف فى يده الصحن المملوء شايا بلون العنبر . «ما أشد شبهها بأمها الراحلة ! يالآلهى ، صورة طبق الاصل !» «ليزا اديرى رأسك جانبا» لم

يكن قد لاحظ فى اى يوم مضى ذلك الشبه المذهل بين ابنه وامها .

كان فلاديمير موخوف يتمشى فى فناء الطاحونة ، وهو الآن صبى فى الصف الخامس ، نحيف الصدر ، يعلوه اصفرار المرض . وكان هو واخته قد عادا مؤخرا لقضاء عطلتهما الصيفية ، فذهب هو كعادته ليلقى نظرة على الطاحونة ، ويتدافع بين المتزاحمين الذين يعلوهم الطحين ، وليستمع الى الارعاد الرتيب للدواليب المسننة ، والى فحيح الاحزمة الدوارة . كان مما يشبع غروره ان يستمع الى همهمة الاحترام من الزبائن القوزاق :

— هو ذا وريث السيد .

وصل فلاديمير الى البوابة متلمسا طريقه بحذر بين العربات واكوام الروث . ثم تذكر انه لم يذهب الى غرفة الماكنة ، فقفل راجعا .

وعلى مقربة من صهريج الزيت المطلى باللون الاحمر ، عند مدخل غرفة الماكنة ، كان عامل الطاحونة تيموفى ، وقبانى يكنى بـ«الولد» ومساعده دافيد ذو اسنان بيضاء يعجنون قرصا كبيرا من الطين باقدامهم العارية ، وقد طويت سراويلهم الى ما فوق الركبة .

وحياه القبانى هازئا : «آه ! . . السيد !»

— مرحبا !

— مرحبا يافلاديمير سيرغيفتش !

— ما الذى تفعلان ؟

فقال دافيد بابتسامة خبيثة جارا قدميه من الكتلة المتماسكة التى فاحت منها رائحة الروث :

— نحن نعجن الطين . ان اباك ضنين بالروبلات ، فهو

لا يستأجر النساء ليقمن بهذا العمل . ويجبرنا على العمل — واضاف وهو ينقل قدميه مبقبقا : — أن اباك بخيل ، اجل فهذه حقيقته .

فاحمر وجه فلاديمير مغضبا . وشعر بكراهية عارمة لدافيد ذى الابتسامة المستديمة واللهجة الساخرة ، وكره حتى اسنانه البيض .

— ماذا تعنى بـ«بخيل» ؟

فاوضح دافيد مبتسما :

— انه حقير بصورة فظيعة ، مستعد لان يأكل غائطه لو كان ذلك يدر عليه مالا .

فضحك «الولد» وتيموفى مستحسنين . واحس فلاديمير بكل ما فى الاهانة من قساوة . فحملق فى دافيد ببرود وقال :

— انت اذن . . . غير راض ؟

فاجاب دافيد :

— تعال الى هذا الطين ، واعجنه بنفسك وستعرف اى احمق يمكن ان يرضى به ؟ ان عملا كهذا قد يفيد اباك نوعا ما ويخلصه من بعض شحمه .

ومضى دافيد متمايلا يدوس بقوة قرص الطين وهو يرفع قدميه عاليا ، وقد علت وجهه الآن ابتسامة مرحة . اما فلاديمير فقد نقب مسبقا فى ذهنه عن رد مناسب ، وهو يتحسس منذ الآن حلاوة الانتقام . فقال متباطئا :

— طيب ! ساخبر بابا بانك غير راض عن عملك .

ونظر من زاوية عينه الى وجه الرجل ، وادهشه الاثر الذى سببه فيه . اذ انثنت شفتا دافيد بابتسامة بائسة مغتصبة ، وغامت وجوه الاخرين . وواصل الثلاثة عجنهم بصمت بعض الوقت ، ثم انتزع دافيد عينيه من قدميه الموحلتين وقال بلهجة حانقة متملقة :

— كنت امزح لاغير ، يا فولوديا .

— ساخبر بابا بما قلت .

ثم مضى فلاديمير مبتعدا ، وقد اغرورقت عيناه بدموع الالم من اجل ابيه ومن اجله ، وبسبب ابتسامة دافيد البائسة .

فصاح دافيد فزعا : «فولوديا ! فلاديمير سيرغيفتش !» وخطا خارجا من الطين ، تاركا سرواله ينزل على ساقيه الموحلتين .

توقف فلاديمير وركض دافيد نحوه مبهور النفس .

— لا تخبر اباك . سامحنى ، فانا احمق . صدقنى والله ، انا لم اقل ذلك عن نية مبيتة ، عن قصد .

فاجاب فلاديمير مقطبا : «حسنا لن اخبره» ومضى نحو البوابة . وانتصرت الشفقة فى قلبه من اجل دافيد . وراح يمشى الى جانب السور الابيض متنفسا الصعداء . وتناهى الى سمعه قرع المطرقة المرح من الكورة فى زاوية فناء الطاحونة ، تارة ناعما خفيضا حين تضرب الحديد ، وتارة رنانا قويا ، حين تنزل فى ضربة مزدوجة على السندان .

ثم تناهى الى سمعه صوت «الولد» العميق :

— لم اردت ان تقول ذلك ؟ لا تثر الروث حتى لا تفوح رائحته الكريهة .

فقال فلاديمير فى نفسه ساخطا : «الخنزير ! اذن فهو يجرؤ على الكلام . . . هل ساخبر أبى ام لا ؟»

ونظر خلفه فرأى دافيد قد ارتسمت على وجهه ابتسامته المستديمة فقر قرار فلاديمير : «لسوف اخبره !»

كانت ثمة عربة ربط حصانها الى عمود خارج الحانوت ، واطفال يهشون سربا رماديا من العصافير الخفاقة من على اطفائية حريق . وانبعث من الشرفة الصوت الجهير الطنان للتلميذ

بوياريشكن ، وصوت آخر مشروخ أجش .

ارتقى فلاديمير درجات العتبة الى البيت . وكانت اوراق الكروم البرية تتمايل فوقه ، مرصعة الدرجات والشرفة ، متدلية طرات مزبدة خضراً من رفارف السطح المنحوتة ذات الطلاء الازرق .

كان بوياريشكين يهز رأسه الحليق ويخاطب المعلم بالاندا ، وهو شاب ملتح رغم صغر سنه :

— حينما أقرأ كتاباته اشعر بالعطف الشديد أزاء ذلك القطاع المتلاشى من المجتمع على الرغم من حقيقة كونى ابنا لقوزاقى كادح ، أى كارها ، بالسليقة ، لكل الطبقات الميزة ، وحسبك ان تتصور ذلك . واكاد أصبح ، انا نفسى نبيلا ومالكا للارض ، واذ افكر فى امرأتهم النموذجية . اشعر باللهفة اليها ، حتى اننى احتضن مصالحهم فى طيات قلبى ، اللعنة ! اجل ياصديقى ، ذلك ما يستطيع عبقرى ان يفعله . انه يستطيع حتى ان يبدل عقيدتك .

فعبث بالاندا بشرابة حزامه الحريرى ، وتفحص التطريز الاحمر فى طرف قميصه ، وهو يبتسم متهكما ، وتمددت ليزا الى الوراء على الكرسى الهزاز ، اذ كان واضحا ان الحديث لم يكن يلاقى اى هوى فى نفسها . وجعلت عيناها ، اللتان تبدوان وكأنهما تبحثان ابدا عن شىء ما قد ضيعتاه ، تحملقان ساهمتين فى رأس بوياريشكين الازرق المصاب بجرح من الموس .

ادى فلاديمير انحناءة التحية لهم ومضى الى غرفة أبيه الخاصة ودق على الباب . كان سيرغى بلاتونوفتش جالسا على مقعد جلدى بارد ، يقلب صفحات عدد حزيران لمجلة «روسكويه بوكاتستفو» . وكانت ثمة مقطاعة ورق عظمية مصفرة ، ملقاة عند قدميه .

— حسنا ، ماذا تريد ؟

فرفع فلاديمير كتفيه قليلا وقوم طيات قميصه فى عصبية ، وطفق يتكلم مترددا : «بينما كنت عائدا من الطاحونة» ، ثم تذكر ابتسامة دافيد المتلامعة الساخرة ، فاستطرد بعزم ، شاخصا الى كرش ابيه المنتفخ داخل صدريته المصنوعة من الحرير الهندى : «سمعت دافيد عامل الطاحونة يقول . . .»

وأصغى سيرغى بلاتونوفتش بانتباه الى قصة ابنه ، ثم قال «سأطرده . يمكنك ان تذهب .» ثم انحنى متأوها ليلتقط مقطاعة الورق .

فى الاماسى ، اعتاد مثقفو القرية ان يجتمعوا فى بيت سيرغى بلاتونوفتش . كان هناك بوياريشكين ، التلميذ فى مدرسة موسكو التكنيكية ، وبالاندا ، المعلم القمىء الذى اكله الغرور والسل ، وخليلته المعلمة مارفا غيراسيموفنا ، ذات الوجه المستدير والقميص الداخلى الظاهر للعيان على الدوام بلا حياء ، والتى لا يبدو عليها الكبر قط ، وهناك مأمور البريد ، وهو أعزب ، غريب الاطوار يفوح منه عطر رخيص ورائحة شمع الاختام ، ومن حين لاخر ، كان يأتى اليهم الملازم الاول الشاب يفغينى ليستتسكى الذى امضى عطلته فى ضيعة ابيه . فتجلس الجماعة مساء تشرب الشاى فى الشرفة ، وتتبادل حديثا لا هدف له ، وحينما تسود فترة صمت يقوم أحد الضيوف فيدير حاكى رب البيت الثمين المطعم .

وفى مناسبات نادرة ، اثناء الاعياد الكبرى ، كان سيرغى بلاتونوفتش تحدوه الرغبة فى أن يبهر ابصار الاخرين فيدعو الضيوف ليتحفهم بالانبذة الغالية ، والكافيار الطازج المستورد من مدينة باتايسك لتلك المناسبة ، وافخر المقبلات . وفيما عدا ذلك ، كان يعيش عيشة اعتدال واقتصاد . الا ان الشىء الوحيد الذى

لم يقتر فيه كان شراء الكتب ، فقد احب القراءة ، وأراد ان يسبر غور الاشياء بعقله الذى كان سريع الالتقاط ، مثل نبات متسلق .

اما شريكه ، يمليان كونستانتينوفتش اتيوبين ، وهو رجل اشقر الشعر ذو لحية مدببة وعينين غائرتين ، فانه لم يكن يزور موخوف الا لماما . اذ كان متزوجا من راهبة سابقة ، انجبت له ثمانية اطفال فى خمسة عشر سنة من عمر زواجهما ، ويقضى اغلب الوقت فى بيته . وكان قد بدأ عمله كاتبا فى الجيش ، فنفشت روح التعلق والتذلل التى جلبها من هناك فى عائلته ايضا . فكان اطفاله يمشون على رؤوس اصابعهم فى حضوره ، ويتكلمون همسا ، وكانوا يصطفون ، كل صباح بعد الاغتسال ، تحت صندوق الساعة الكبيرة الاسود المعلق فى غرفة الطعام ، وتقف امهم وراءهم ، وما ان تطرق اسماعهم السعلة الجافة المنبعثة من غرفة النوم حتى يسرعوا فى اصوات متنافرة بتلاوة «ابانا الذى» وصلوات اخر .

آنذاك ، يكون يمليان كونستانتينوفتش قد انهى ارتداء ملابسه فيبرز من غرفة النوم لحظة انتهاء الصلوات . ويضيق عينيه الخضراوين الضيئلتين ويمد يده اللحيمة ، كما لو كان اسقفا ، بينما يتقدم صوبه الاطفال فى صف واحد لتقبيلها ، ثم يقبل يمليان كونستانتينوفتش زوجته فى خدها ، ويسألها لاثغا :

— بوليا ، هل الشاى جاهز ؟

— اجل ، يايمليان كونستانتينوفتش .

— صبى لى شيئا من الشاى القوى .

كان يمليان محاسب الحانوت . وكان يملأ الصفحات تحت العنوانين البارزين «الدائن» و«المدين» ، بخط زخرفى . وكان

يقرأ نشرة «اخبار البورصة» ، مزينا انفه الضخم بعوينات ذهبية الاطار معلقة عليه دون ان يكون فى حاجة اليها . وكان يعامل مستخدميه بأدب :

— ايفان بتروفتش ، من فضلك ار الزبون قماش توريدا .

اما قسيسا القرية ، الأب فيساريون والأب الفضيل بانكراتى ، فانهما لم يكونا على وفاق مع سيرغى بلاتونوفتش . اذ كان لهما خصام طويل الامد معه . ولم يكونا على وفاق مع بعضهما ايضا . فكان الاب بانكراتى الشكس الدساس ماهرا فى خلق المتاعب لجيرانه . اما الاب الارمل فيساريون ، ذو الخنة السفلسية التى تنم عن طبيعته الماجنة ، والذى عاش مع مدبرة منزل اوكرانية ، فقد نأى بنفسه عن الاخرين ، ولم يكن يحب الاب بانكراتى لغروره المفرط وطبعه الدساس .

كان للجميع ، فيما عدا بالاندا ، دور يمتلكونها . ويقع بيت موخوف ، ذو الجدران المصنوعة من الواح الخشب المعقودة والطلاء الازرق ، فى ساحة القرية ، ويقرفص ازاءه تماما ، فى وسط الساحة ، حانوته ذو الباب الزجاجى واللافتة الباهتة : «**متجر موخوف واتيوبين**»

وتمتد لصق الحانوت سقيفة طويلة منخفضة ذات قبو ، وعلى مبعدة مائة خطوة يرتفع الحائط الطابوقى لفناء الكنيسة ، ثم الكنيسة نفسها بقبتها التى تشبه بصلة خضراء ناضجة . وتأتى بعد الكنيسة حيطان المدرسة ، بيضاء نظيفة ، وذات جهامة رسمية ، ثم منزلان انيقان ، احدهما ازرق اللون ، صبغت اسيجته بطلاء ازرق ، يعود للاب بانكراتى ، والاخر بنى اللون (لتفادى اى تشابه مع المنزل الاول) وله سياج حفرت عليه نقوش ، وشرفة واسعة ، ويشغله الاب فيساريون . ويليه بيت اتيوبين الغريب المظهر

والمؤلف من طابقين ، ثم دائرة البريد ، ودور القوزاق المغطاة بالقش والمسقوفة بالحديد ، واخيرا تأتى مؤخرة الطاحونة المنحدرة وعلى سطحها ديوك من الصفيح الصدىء .

ويعيش سكان القرية خلف نوافذهم بصفاقات خارجية وداخلية مغلقة بالمزالج ، منقطعين عن بقية العالم ، وفى كل مساء ، ان لم تكن ثمة زيارة لجار ، فان كل عائلة تقفل صفاقاتها ، وتطلق كلابها من سلاسلها فى الافنية ، ولا يعكر الصمت الا صوت اللسان الخشبى لمطرقة الحارس الليلى .

٢

حدث ذات يوم ، فى اواخر اب ، ان التقى ميتكا كورشونوف بليزا ابنة موخوف عند النهر . وكان قد جذف لتوه عبر النهر من الجانب الاخر ، وشرع يربط قاربه حينما رأى زورقا ذا لون بهيج يكشط سطح التيار وهو يتجه صوب المرسى من ناحية الجبل . وكان الذى يجذفه هو التلميذ بوياريشكين ، وقد تلألأ رأسه الحليق بالعرق ، وبرزت عروق جبهته وصدغيه .

فى البدء ، لم يتبين ميتكا ليزا فى الزورق فقد كانت على رأسها قبعة من القش ، ووجهها فى الظل ، وكانت يداها الملفوحتان تضمان الى صدرها باقة من زنابق الماء الصفر .

صاحت ، هازة رأسها صوب ميتكا :

— كورشونوف ! لقد خدعتنى .

— خدعتك ؟

— الا تذكر ، فقد وعدت ان تأخذنى لصيد السمك ؟

القى بوياريشكين المجذافين ، واقام ظهره . وغرز الزورق

مقدمته فى الشاطئ محدثا خشخشة .

— الا تذكر؟ — وتضاحكت ليزا وقفزت الى الشاطئ ، فقال ميتكا معتذرا وتقاطعت انفاسه فيما تقدمت الفتاة منه :

— لم يكن لى متسع من الوقت ، لكثرة اشغالى .

فقاطعهما بوياريشكين :

— لا ، هذا مستحيل . لقد نلت كفايتى ، يا يليزافيتا سرغييفنا أمتنع عن القيام بهذه الخدمة ! تصورى مدى المسافة التى قطعناها فوق هذا الماء اللعين ! امتلأت يداى نفطات * . هاتى ارضا يابسة .

وغرس بوياريشكين قدما حافية طويلة على الشاطئ الحصباوى ، ومسح جبهته برفرف قبعته المدرسية المدعوكة . ومن غير ان تجيبه ليزا مضت نحو ميتكا الذى صافح بحركة خرقاء يدها التى مدتها اليه .

وسألته وهى تلقى رأسها الى الوراء وتضيّق حدقتيها :

— حسنا ، اذن متى نذهب للصيد ؟

— غدا ، ان شئت . لقد انهينا درس الحبوب ، وصار لدى متسع من الوقت .

— لعلك لا تخدعنى هذه المرة ؟

— لا ، لن اخدعك .

— هل ستأتى مبكرا ؟

— عند الفجر .

— سأكون بانتظارك .

---

* مفردها نفطة وهى بثور ملأى بالماء تظهر على اليد بسبب العمل اليدوى . **المترجمون** .

— سآتيك ، بشرفى سآتيك .

— لعلك لم تنس النافذة ؟

— سأجد طريقى اليها . — وابتسم ميتكا .

— اتوقع اننى سأرحل عما قريب . وبودى ان اذهب الى الصيد قبل ذلك .

وعبث ميتكا وهو صامت بمفتاح قفل القارب الصدىء ، وحدق مباشرة فى شفتيها .

تساءل بوياريشكين وهو يتفحص قوقعة فى راحته : «هل ستنتهين عما قريب ؟»

— لحظة واحدة .

ولبثت ساكنة بعضا من الوقت ، ثم تساءلت وهى تبتسم لسبب ما :

— لقد احتفلتم بزفاف احد افراد عائلتكم ، أليس كذلك ؟

— اجل ، زفاف اختى .

— ممن تزوجت ؟

ودون ان تنتظر اجابته ، تبسمت من جديد فى غموض وعجالة ، وقالت : «تعال ، بالله عليك ، لا تنس !»

ومرة اخرى ، لسعته ابتسامتها ، كالشوكة ، تماما كما لسعته فى شرفة منزل موخوف .

ظل يراقبها حتى بلغت الزورق . فدفعه بوياريشكين الى الماء مباعدا قدميه ، بينما تبسمت ليزا عبر رأسه الى ميتكا ، الذى كان لا يزال يعبث بالمفتاح ، وهزت رأسها مودعة .

وحينما ابتعد الزورق ، سمع ميتكا بوياريشكين يسألها بصوت خفيض : «من هذا الفتى ؟»

— احد معارفى .

— ليس شأنا من شؤون القلب ؟

ولم تبلغ اجابتها اذنى ميتكا خلال صرير حلقتى المجذاف . ورأى بوياريشكين يرتمى الى الخلف ضاحكا وهو يجذف ، لكنه لم يستطع ان يرى وجه ليزا ، اذ كانت جالسة مديرة ظهرها له . وكان شريط قبعتها البنفسجى يتطاير خفيفا مع النسيم ويلاطف منحدر كتفها العارى برقة متناهية اثارت نظرة ميتكا الغائمة .

لم يحدث ان استعد ميتكا لمناسبة صيد بمثل حماسة ذلك المساء وهو الذى نادرا ما كان يخرج للصيد بالعصا والخيط . فأعد قطعا من الجل ، وغلى الذرة على النار فى مزرعة الخضار ، ثم جدد الخيوط المهترئة بسرعة .

سأله ميخى الذى كان يراقبه :

— خذنى معك ، ياميتكا . لن تقدر ان تدبر الصيد لوحدك .

— سأدبره .

فتأوه ميخى :

— لقد مضى زمن طويل منذ ان خرجنا معا اخر مرة . كم تحدونى الرغبة فى التمتع بسحب شبوط يزن نصف بود * .

فقطب ميتكا وهو ينحنى فوق عمود البخار الحار المتصاعد من القدر ، ولم يجب بشىء . وحينما انتهى من ذلك مضى الى البيت . كان الجد غريشاكا جالسا الى جانب النافذة ، وعلى انفه عوينات مستديرة ذات اطار نحاسى ، وهو يقرأ فى الانجيل .

وقال ميتكا متكئا بظهره على اطار الباب : «جدى !»

---

* بود مقياس وزن روسى قديم يساوى ١٦,٣٨ كغ . الناشر .

فنظر اليه الشيخ من فوق عويناته :

— ها ؟

— ايقظنى مع صياح الديك الاول .

— اين تقصد فى هذا الوقت المبكر ؟

— لصيد السمك .

كان الشيخ محبا للسمك ، لكنه تظاهر بمعارضة مشروع ميتكا .

— قال ابوك يجب ان يُضرب القنب فى الغد . وليس هناك مجال للتسكع ولصيد السمك !

فتحرك ميتكا عن الباب ولجأ الى المناورة .

— يستوى الامر علىّ . لقد اردت ان اقدم لك وجبة فاخرة ، ولكن طالما كان علينا ان نضرب القنب ، فلن اذهب .

فجفل الشيخ ونزع عويناته :

— قف . اين تراك ذاهبا ؟ سوف اكلم والدك بالامر . تستطيع ان تذهب . غدا الاربعاء ، وستكون قطعة من السمك المملح مناسبة . طيب ، سأوقظك . امض ، ايها الاحمق ، ما الذى يجعلك تتبسم ؟

وعند منتصف الليل ، هبط الشيخ ممسكا بسرواله الكتانى بيد وعصاه بالاخرى درجات المدخل متلمسا الطريق . وسرى مثل شبح مرتعش ، عبر الحوش صوب مخزن الحبوب ، فدلف اليه وراح يغرز عكازته فى جسم ميتكا النائم . كانت رائحة الحبوب المدروسة حديثا وذرق الفيران تختلط بالهواء العفن المفعم بنسيج العنكبوت لغرفة متروكة .

كان ميتكا نائما على بساط بجانب مستودع القمح ، فلكزه غريشاكا بعصاه ، دون ان يستطيع ايقاظه لفترة من الوقت . شرع

فى البدء يلكزه برفق ، هامسا «ميتكا . ميتكا . هى ، ميتكا ! هى ياسافل !»

لكن ميتكا لم يزد على ان شخر وعقف ساقيه الى الاعلى . فأمسى غريشاكا اقل تحفظا ، وراح يغرز العصا فى بطن ميتكا . فأمسك ميتكا بطرف العصا وهو يتأوه واستيقظ فجأة .

استاء الشيخ : «ياله من نوم ! نوم الحجر حقا !»

فتمتم ميتكا وسنان وهو يتلمس جزمته : «هدوءا ، ياجدى . لا تطنطن !»

اتخذ الفتى طريقه الى ساحة القرية . كانت الديوك قد شرعت بصياحها للمرة الثانية . وبينما كان يمر بمنزل الاب فيساريون سمع ديكا يخفق بجناحيه فى خم الدجاج ، ويطلق صيحة قوية جديرة برئيس شمامسة الكنيسة ، بينما قوقأت الدجاجات مذعورات .

كان هناك حارس ليلى نائم على درجات عتبة الحانوت ، وانفه مدسوس فى دفء ياقته المصنوعة من جلد الغنم .

وصل ميتكا الى سور بيت موخوف ، فوضع عدة الصيد والسلة على الارض ، وصعد درجات الشرفة على اطراف اصابعه كى لا يوقظ الكلاب . وراح يعالج سقاطة الباب الحديدية . كان الباب محكم الاغلاق . فتسلق سياج الشرفة ومضى الى النافذة . كانت نصف مغلوقة . ومن خلل الفرجة السوداء انبعثت رائحة عذبة لجسد فتاة نائم دافئ ، وفاح عطر زكى غريب .

— يليزافيتا سيرغيفنا !

وخيل لميتكا ان نداءه كان عاليا جدا . فانتظر . صمت سادر . فكر ميتكا فى نفسه وهو يمسك باطار النافذة : «ماذا لو انى قد اخطأت النافذة ؟ ماذا لو ان موخوف نائم هنا ؟ يا

للورطة ! سيقتلنى ببندقيته !»

— يليزافيتا سيرغيفنا ، أتأتين للصيد ؟

وفكر فى نفسه من جديد : «اذا اخطأت النافذة حصلت على جزائى !»

وقال متضايقا :

— اتراك تنهضين ؟

ودس رأسه خلال فتحة النافذة .

فرن صوت خفيض مذعور فى الظلام : «من هناك ؟»

— هذا أنا ، كورشونوف . أتأتين للصيد ؟

— آه ! لحظة فقط !

كانت هناك حركة فى الداخل . بدا صوتها النعسان الدافىء كأنه يفوح برائحة النعناع . ورأى ميتكا ان شيئا ابيض ذا حفيف يتحرك فى ارجاء الغرفة .

وقال لنفسه ورائحه غرفة النوم فى منخريه : «اننى افضل ان اتام معها على الخروج الى الصيد والجلوس فى برد» .

وبعد فترة ، ظهر وجهها الباسم عند النافذة مؤطرا بعصابة رأس بيضاء .

— سأخرج من هنا . اعطنى يدك .

وبينما كان يساعدها على النزول ، نظرت فى عينيه عن كثب .

— لم أتاخر عليك ، أليس كذلك ؟

— لا ضير ، فسنصل فى الوقت المناسب .

وراحا ينزلان حذر الدون . دعكت عينيها المتورمتين من اثر النعاس بيد وردية .

— كنت نائمة نوما بديعا . وكان فى مقدورى ان اظل

نائمة . الوقت مبكر للذهاب .

— سنصل فى الوقت المناسب بالضبط .

ومضيا فى أول زقاق يتفرع من الساحة متجها صوب النهر . وكان ماء النهر قد ارتفع خلال الليل فرفع القارب من موضعه العالى اليابس حيث ترك فى المساء السابق ، وصار الان يتمايل فى الماء على مبعدة قليلة من الشاطئ .

فقالت متنهدة وهى تقيس المسافة الى القارب بعينيها :

— سيتعين على ان اخلع حذائى .

فاقترح عليها ميتكا :

— دعينى احملك .

— لا ، افضل ان اخلع حذائى .

— حملك اسهل .

فأجابت ، وكان ثمة حرج فى صوتها :

— أفضّل الا تفعل ذلك .

فاحتضن ميتكا ساقيها فيما فوق الركبتين ، بذراعه اليسرى ، ورفعها فى يسر وخوّض فى الماء . فتشبثت ، بحركة لا ارادية ، بعمود رقبته الراسخ الاسمر ، وتضاحكت بنعومة عذبة .

لو لم يتعثر ميتكا بحجر كانت نساء القرية يستعملنه عند غسل الملابس ، لما كان هناك مجال لقبلة وجيزة عابرة . فاصدرت اهة وضغطت وجهها على شفتى ميتكا الصلبتين المتشققتين ، فتوقف قبل القارب بخطوتين . وراح الماء يدوم فوق رقبتى جزمته مشيعا البرودة فى قدميه .

حل القارب ، ودفعه بقوة عن الشاطئ ، ثم قفز اليه . وصار يجذف وهو واقف . وجعل الماء يحف تحت المؤخرة وينوح . ومضى القارب يناحر التيار برقة ، ميمما صوب الضفة

المقابلة . وتقافزت عصى الصيد وطقطقت فى قعر القارب .

وتساءلت وهى تلقى نظرة سريعة الى الخلف :

— اين تراك تأخذنى ؟

— الى الجانب الاخر .

احتك بريم القارب بالشاطئ الرملى . وبلا استئذان ، التقط ميتكا الفتاة بذراعيه ، وحملها الى دغل من نبات الزعرور البرى فجعلت تعض وجهه ، وتخمشه ، ثم ندت عنها صرخة مكتومة او صرختان ، ولما شعرت بقواها تخور ، بكت مغضبة ، ولكن بلا دموع . . .

عادا حوالى التاسعة . كانت السماء ملفعة بغشاوة مخضبة صفراء ، وثمة نسيم قوى يتراقص فوق النهر ، معابثا الامواج . ومضى القارب يتراقص على الامواج ، والرذاذ المزبد البارد يتلألأ على وجه ليزا الشاحب ويعلق بأهدابها وخصلات شعرها .

خاوصت عينيها الخابيتين باعياء ، وهى تدعك باصابعها وردة كانت قد سقطت فى القارب . وكان ميتكا يجذف دون ان ينظر اليها . وعند قدميه استلقى شبوط صغير وشلبة تفتح فمها الجامد وتبحلق بعينين ارجوانيتين . ارتسم على وجه ميتكا تعبير اختلط فيه الاثم بالرضا والقلق .

قال لها وهو يدير بالقارب مع التيار :

— سأخذك الى مرسى سمبونوف . سيكون ذلك اقرب لك .

فهمست : — لا بأس .

وعلى امتداد الشاطئ المهجور ، كانت الاسيجة الصفصافية تتأوه مع الريح الحارة ، مضمخة الهواء برائحة الدغل المحروق ،

وتيجان عباد الشمس الناضجة الثقيلة التى نقرتها العصافير ، قد تقوست سيقانها كثيرا وصارت تنثر بذورا وبرية على الارض . وبدت ارض المروج زمردية بالحشيش الجديد النابت فى اعقاب الحصاد . ومن بعيد كانت مهار الخيل تتواثب مرحة والريح الجنوبية الحارة تحمل صدى ضحك الاجراس المعقودة حول رقابها .

وبينما كانت ليزا تترك القارب ، التقط ميتكا سمكة ومدها اليها قائلا : «هاك ، خذى الصيد» .

فرفت اهدابها فى ذعر ، لكنها اخذت السمكة .

— حسنا ، اننى ذاهبة .

— طيب .

وامسكت بغصن اسفندان علق ميتكا عليه السمكة من خياشيمها وتولت عنه مبتئسة . لقد خلفت وراءها عند دغل الزعرور البرى كل اعتدادها ومرحها السابقين .

— ليزا !

واستدارت ، وقطبت حاجبيها فى ضيق واستغراب .

— ارجعى ، لحظة .

وحين اقتربت ، قال وقد ضاق ذرعا بارتباكه :

— كنا مهملين قليلا . ثوبك من الخلف . . . عليه بقعة . صغيرة جدا .

وغمر وجهها ورقبتها احمرار حار . وبعد لحظة صمت ، نصحها ميتكا :

— عودى من الطرق الخلفية .

فقالت همسا وهى تنظر الى ميتكا فى ندم وكراهية مفاجئة :

— سيتعين علىَّ ان أعبر الساحة ، على اية حال . . . كم وددت ان ارتدى تنورتى السوداء .

فاقترح ميتكا ببساطة وقد دهش لمرأى الدموع تشرق فى عينيها :

— دعينى اخضّرها قليلا بورقة شجرة .

. . . كحفيف نسمة صيفية هامسة ، طار النبأ فى القرية : «قضى ميتكا كورشونوف ليلة بكاملها فى الخارج مع ابنة سيرغى بلاتونوفتش» . تحدثت عنه النساء وهن يسقن ماشيتهن للالتحاق بقطيع القرية فى الصباح ، او هن واقفات فى الظل اليسير لرافعة البئر والغبار يدوم حولهن والماء يقطر من دلائهن ، او هن يضربن غسيلهن على الصخور المستوية بجانب النهر .

— السبب هو ان امها متوفاة .

— وليس لابيها لحظة فراغ ، اما زوجة ابيها فلا تبالى .

— يقول الحارس انه رأى رجلا ينقر على الشباك الاخير فى منتصف الليل . ظن بادىء الامر ان شخصا ما يحاول الانسلال الى البيت . وهرع ليتبين من هو ، ولينادى الشرطى ، فوجد انه ميتكا .

— بنات هذه الايام ، لا ادرى الى اى مصير يسرن . ليأخذهن الشيطان !

— قال ميتكا لابنى نيكيتا انه سيتزوجها .

— خير له ان يمسح مخاطه اولا .

— يقولون انه اكرهها على ذلك .

— يا . . . .

وانسابت الشائعات فى شوارع القرية ، ملطخة اسم الفتاة كما يلطخ قطران كثيف بوابة نظيفة . . . .

ونزلت الشائعات على رأس موخوف الاشيب نفسه وسحقته على الارض . ظل يومين لا يذهب الى الحانوت او الى الطاحونة .

ولم يصعد اليه خدمه ، الذين يعيشون فى الطابق الاسفل ، الا وقت الطعام . وفى اليوم الثالث ، امر سيرغى بلاتونوفتش ان يشد جواده الرمادى الارقط الى عربته الخفيفة ، ومضى بها الى القصبة ، وهو ينحنى ، ساهما ، للقوزاق الذين صادفوه فى الطريق . ومضت وراءه عربة حديثة الدهان مرقت خارجة من الفناء يجرها حصانان ادهمان متوثبان . وهز يميليان ، الحوذى ، حرير الاعنة الازرق ، وهو يمصمص غلبونه ، الذى اصبح ملازما على الدوام للحيته الشائبة ، وانطلق الحصانان الادهمان يتواثبان فى الشارع . وكان بالامكان ان يرى المرء ليزا تجلس ، شاحبة الوجه ، وراء ظهر يميليان الجلمودى ، وحقيبة خفيفة بين يديها ، وابتسامة حزينة على فمها . لوحت بقفازها لفلاديمير وزوجة أبيها الواقفين عند البوابة . وصادف ان كان بانتلاى بروكوفتش يعرج خارجا من الحانوت فى تلك اللحظة ، فتوقف وسأل البواب نيكيتا : «اين تذهب ابنة السيد ؟» فأجاب نيكيتا ، وهو يرضخ لارادة الضعف الانسانى الساذج : «الى موسكو ، للدراسة .»

وفى اليوم التالى ، وقع حادث ظل زمنا طويلا مدار الحديث عند النهر وتحت ظل رافعة البئر ، وحين تساق الماشية للرعى . . . فقبيل حلول الليل (وكان قطيع القرية قد عاد من السهب توا) ذهب ميتكا لرؤية سيرغى بلاتونوفتش . وقد انتظر حتى المساء لكى يتجنب ملاقاة اى انسان ، لانه لم يأت لمجرد زيارة ، بل ليطلب يد ابنة موخوف ، ليزا .

لقد التقى بها اربع مرات ، لا اكثر . وفى اللقاء الاخير جرى الحديث بينهما على هذه الصورة :

— ليزا هل تتزوجيننى ؟

— هراء !

— سأرعاك ، سأحبك . لدينا اناس يعملون بدلا عنا ، وستجلسين الى الشباك وتقرأين كتبك .

— أنت احمق !

فاستاء ميتكا ولم يزد . وعاد الى البيت مبكرا ذلك المساء ، وفى الصباح اذهل اباه قائلا :

— أبى ، اعد العدة لزواجى .

— لا تكن احمق .

— صدقنى يا أبى ، لست مازحا .

— مستعجل ، اليس كذلك ؟

— حان الوقت . . .

— بمن ابتليت . . . بمارفا المجنونة ؟

— ابعث بالخاطبين الى سيرغى بلاتونوفتش .

فوضع ميرون غريغوريتش بهدوء ادوات السكافة التى كان يصلح بها عنانا ، وزأر بالضحك .

— انك ذو مزاج مرح اليوم ، ياولدى .

لكن ميتكا اصر على رأيه ، فانفجر أبوه غضبا :

— ايها الاحمق ! ان لدى سيرغى بلاتونوفتش رأس مال يبلغ اكثر من مائة الف روبل . انه تاجر ، فمن انت ؟ اغرب عن وجهى ، والا جلدتك بهذا العنان .

— ونحن ايضا لدينا اربعة عشر زوجا من الثيران ، ولنا أرض انظر ما اكبرها . ثم انه ليس من اصل رفيع بينما نحن قوزاق .

فقال ميرون غريغوريتش باقتضاب ، اذ لم يكن يميل الى النقاش الطويل : «اغرب عن وجهى !»

لم يجد ميتكا له مستمعا متعاطفا معه غير جده . واتجه العجوز

الى ولده وهو يعرج وينقر بعصاه الارض .

— ها ؟

— لمَ تعارض ؟ مادام الولد مصرا على ما نوى عليه . . .

— يا ابى ، انت طفل كبير ، وحق الله انك كذلك . ان ميتكا غبى بما فيه الكفاية ، اما انت فـ . . .

— امسك لسانك ! — وضرب العجوز الارض بعصاه . — السنا انذادا لهم ؟ ينبغى ان يعتبر زواج ابن قوزاقى من ابنته شرفا له . انه سيرضخ ، وعن طيب خاطر ايضا . فنحن معروفون فى كل انحاء الريف . لسنا فقراء بل نملك ثروة . اذهب واطلب يد ابنته ياميرون . ما الذى يمنعك ؟ وليعطنا طاحونته صداقا . اطلب منه .

فزنخر ميرون غريغوريتش وخرج الى الفناء . وهكذا انتظر ميتكا حتى حلول المساء ، ثم ذهب الى موخوف نفسه . كان يعلم بان عناد ابيه مثل شجرة دردار راسخة الجذور قد تستطيع ان تحنيها ، ولكنك لن تقدر ان تكسرها ابدا . فلا جدوى من المحاولة .

مضى يصفر الى ان وصل باب بيت موخوف الامامى ، ثم صار يتهيب . تلكأ قليلا ، واخيرا مضى عبر الفناء الى الباب الجانبى . وعلى درجات العتبة ، سأل خادمة تخشخش بمئزرها المنشى : «هل السيد فى البيت ؟» فاجابت : «يشرب الشاى . انتظر» .

وجلس ميتكا وراح ينتظر . اشعل سيكارة ، دخنها ، وأطفأها باصابعه المبللة باللعاب ، ثم سحق عقبها على الارض . خرج موخوف وهو يزيل فتات البسكويت من على صدريته . وحين رأى ميتكا ، تجهم وجهه ، ولكنه قال له : «ادخل» .

فدخل ميتكا الى غرفة موخوف الخاصة الباردة ، التى تنبعث منها رائحة التبغ والكتب ، وهو يشعر بان الشجاعة التى ابداها حتى ذلك الحين لم تكن الا بالقدر الذى يتلاشى عند باب المكتب . مضى التاجر الى منضدته ، واستدار على عقبه بصرير : «حسنا ؟» . كانت اصابعه تخربش سطح المنضدة وراء ظهره .

— لقد جئت لاعرف . . . — وغاص ميتكا على الدبق البارد فى عينى موخوف النفاذتين ، فاقشعر بدنه : — ربما ستعطينى ليزا ؟

وتحالف اليأس ، والغضب ، والخوف ليملأ وجه ميتكا بحبات العرق الصغيرة كالندى ايام الجدب .

ارتعش حاجب موخوف الايسر ، وانثنت شفته العليا عن اللثة . واشرأب بعنقه وامال جسمه برمته الى الامام .

— ماذا ؟ ماذ . . . ذ . . . ذا ؟ ايها الوغد ! اخرج ! سأجرك الى الانمان ! يا ابن العاهرة ! يا وغد !

وبعث صياح موخوف الشجاعة فى ميتكا ، فجعل يراقب الدم الرمادى المزرق يفيض فى وجنتى موخوف .

— لاتعتبر ذلك اهانة . أنا لم ارد سوى ان اعوض عما فعلت .

فرفع موخوف الى اعلى عينيه المنتفختين بالدم والدمع ، والقى منفضة سكاير معدنية كبيرة عند قدمى ميتكا ، قفزت من على الارض وارتطمت بركبته . لكنه تحمل الالم برباطة جأش ، وفتح الباب بقوة ، وصاح مكشرا عن اسنانه بغيظ والم :

— كما تشاء يا سيرغى بلاتونوفتش ، كما تشاء ، لكننى عنيت ما قلت . . . لعمرى من ذا يريدها الآن ؟ ظننت اننى سأستر عارها . اما الآن . . . فحتى الكلب لن يمس عظمة مقضومة .

انطلق موخوف فى اعقاب ميتكا وهو يضغط منديلا مدعوكا على شفتيه ، وسد عليه الطريق الى الباب الرئيسى فجرى ميتكا صوب الفناء . وهنا لم يكن من السيد سوى ان غمز للحوذى يميليان ، وبينما كان ميتكا يعالج مزلاج البوابة الضخم ، انطلقت اربعة كلاب مطلقة الاسار تنبح من وراء زاوية مخزن الحبوب . وحينما وقع نظرها على الغريب ، اسرعت نحوه رأسا متوثبة عبر الفناء المكنوس .

فى عام ١٩١٠ ، عاد سيرغى بلاتونوفتش بزوج من الجراء السود ذات الشعر المجعد ، من المعرض فى نيجنى نوفغورود . وخلال عام من الزمن شب هذان الجروان الاسودان الاجعدان ذوا الفم الكبير ، كما تشب العجول الحولية . كانا فى البدء ، يتخاطفان تنورات النساء اللواتى يمررن بفناء موخوف ، ثم تعلما جر النساء الى الارض وعض سيقانهن ، ولم يأمر سيرغى بلاتونوفتش بتقييدهما بالسلاسل الا بعد ان قتلا عجل الاب بانكراتى وزوجا من خنازير اتيوين . اما الآن فلم يطلق الكلبين من قيودهما الا اثناء الليل ، ومرة كل ربيع للتناسل .

قبل ان يستطيع الالتفات كان أول الكلاب قد قفز الى كتفيه ، واسنانه مغروسة فى سترته . وتناهشته الكلاب السود المهتاجة وراحت تمزقه ، فجعل ميتكا يصدها عنه بضراوة محاولا الحفاظ على توازنه . ورأى يميليان يختفى داخل المطبخ ، وغلبونه يتر الشرر ، وسمع الباب ينصفق وراءه .

وعند الدرجات ، وقف سيرغى بلاتونوفتش ، وظهره مسند على انبوب تصريف الماء ، وقد تقلصت قبضتاه البيضاوان المشعرتان . اما ميتكا فقد ظل يتمايل ويترنح حتى استطاع ان يفتح البوابة ، جارا خلفه ثلة الكلاب المزمجرة لاهبة الانفاس

وهى تتدافع على ساقيه النازفتين . فأمسك احدها من بلعومه وخنقه . واستطاع قوزاق عابرون ان يطردوا البقية بشق الانفس .

٣

انسجمت ناتاليا مع اهل زوجها خير انسجام . فقد ربى ابوها ابناءه على العمل ، بالرغم من انه كان موسرا ويستخدم عمالا . وسرعان ما كسبت ناتاليا المجتهدة قلب والدى زوجها ، ومالت اليها ايلينيشنا منذ البداية ، وهى التى كانت فى دخيلتها لا تحب كنتها الكبرى ، داريا الشغوفة بالملابس .

وقد تدمدم على ناتاليا برقة ، وهى تشاغل نفسها فى المطبخ واقفة على ساقيها الضخمتين : «نامى ، نامى ايتها الصغيرة ! فيم تخرجين فى هذا الوقت الباكر ؟ عودى الى الفراش ، وسندبر الامور بدونك .»

وتعود ناتاليا ، التى استيقظت منذ الفجر لتعين الاخرين فى المطبخ ، فتمضى الى حجرتها لتستأنف نومها .

حتى بانتلاى بروكوفتش ، الصارم عادة فيما يتعلق بشؤون المنزل ، كان يقول لزوجته : «اسمعى ، يا امرأة ، لا توقظى ناتاليا . فهى بدون ذلك تكدح بما فيه الكفاية وستذهب اليوم مع غريشا للحراثة . ولكن استعجلى داريا تلك . فهى امرأة كسول وسيئة ، تطلى وجهها وتزجج حاجبيها ، العاهرة .»

— لنجعل اعباءها خفيفة خلال العام الاول — وتنهدت ايلينيشنا متذكرة حياتها التى قصمت ظهرها بالعمل المرهق .

بدأ غريغورى يألف وضع الزواج الجديد ، لكن ما ان مضى اسبوعان او ثلاثة حتى ادرك ، بخوف وحقد ، انه لم يبرأ تماما

من حب اكسينيا . كان ثمة شيء قد تخلف فى قلبه ، كالشوكة ، وما كان للألم ان يزول بسرعة ، والشعور ، الذى ازاحه فى فورة الزواج بتلويحة لا مبالية من يده ، كان شعورا عميق الجذور . لقد ظن انه قادر على نسيانه ، لكنه ابى ان يغيبه النسيان ، وظل الجرح ينزف دما . وحتى قبل الزفاف ، سأله بيوتر وهما يدرسان الحبوب سوية :

— ولكن ، يا غريشا ، ماذا عن اكسينيا ؟

— حسنا ، ماذا عنها ؟

— الن تأسف لهجرها ؟

فأجاب غريغورى ضاحكا : «سيلتقطها رجل آخر .»

فقال بيوتر وهو يقضم ذؤابة شاربه التى كان يلوكها : «طيب ، انت احسن العارفين» واضاف : «قد تندم بعد زواجك» .

فأجاب غريغورى مازحا : «يشيخ الغرام وتبرد الاجسام» .

لكن الامور لم تجر على هذا النهج . فبينما كان يلاطف فى الليالى زوجته كما يجب على زوج ، محاولا ان يلهيها بحيويته الفتية هو ، لم يكن يلقى الا برودا واستسلاما مرتبكا من جانبها . كانت ناتاليا تنفر من الملذات الجسدية ، فقد ورثت بعضا من دم امها البارد البطىء ، وكان غريغورى يتنهد كلما يتذكر شبق اكسينيا اللهاب .

— لا بد ان اباك يانا تاليا احبل بك امك على الثلج . ان فى جسمك من البرودة ما يكفى ويزيد .

واذا التقى باكسينيا ، تبسمت له بغموض وادلهم بؤبؤ عينيها ، وعلقت كلماتها به كما يعلق الطين فى قاع جدول .

— مرحبا ، غريشا ! كيف هو الحب مع زوجتك الشابة ؟

فيجيبها غريغورى متملصا : «لا بأس» ، ويهرب من نظرتها

المغازلة بأسرع ما يستطيع .

صار واضحا ان ستيبان قد سوى خلافه مع زوجته ، فقد قل تردده على الحانة ، واقترح ذات مساء ، وهو يذرى الحبوب على ساحة الدرس ، وذلك لاول مرة منذ بدأت المشاكل : «لنغن اغنية ، يا اكسينيا !» فجلسا ، وظهراهما الى كومة من القمح المدروس المغبر ، وبدأ ستيبان نشيدا عسكريا ، واشتركت معه اكسينيا بملء صوتها الخفيض . غنيا معا بصورة حسنة ، كما كانا يفعلان فى السنين الاولى لحياتهما الزوجية ، حينما اعتادا ان يرجعا من الحقول ، تحت الذؤابة القرمزية لوهج الغروب ، فيجلس ستيبان على الحمولة يغنى اغنية قديمة ، طويلة وحزينة كذلك الطريق الموحش المهجور عبر السهب . فتلتقط اكسينيا اللحن ، ورأسها مستكين على الثنيات المنتفخة فى صدر زوجها . وتمضى الخيل تجر العربة الصارة ، ويتراقص العريش صاعدا هابطا . ومن بعيد يصغى شيوخ القرية الى الاغنية :

— ان لها صوتا بديعا ، زوجة ستيبان تلك .

— اى نعم ، غناء جميل .

— اى صوت هو صوت ستيبان ، صاف كالجرس .

وبينما كان الشيوخ يجلسون على المصطبات بالقرب من بيوتهم مراقبين الغروب القرمزى المغبر ، مضوا يتبادلون عبر الشارع تعليقاتهم حول الاغنية ، واصلها واولئك الذين احبوها من قبل .

سمع غريغورى الزوجين استاخوف يغنيان ، وبينما كان يدرس الحبوب (وساحتا درس الحبوب متلاصقتان) استطاع ان يرى اكسينيا معتدة بنفسها كما كانت فى السابق ، متظاهرة بالسعادة ، او هكذا بدت الحال له .

لم يكن ستيبان يتبادل التحية مع آل ميليخوف . فظل

يعمل فى ساحة الدرس مؤرجحا كتفيه الجسيمين المتهدلين ، ملقيا لزوجته احيانا تعليقا هزليا ، فتستجيب له مبتسمة وعيناها السوداوان تومضان . وما فتئت تنورتها الخضراء تحوم امام عينى غريغورى المغمضتين ، ورقبته تنثنى بفعل قوة غريبة تدير رأسه فى اتجاه فناء ستيبان . ولم يلاحظ ان ناتاليا ، التى كانت آنذاك تساعد بانتلاى بروكوفتش فى نشر الحزم تمهيدا لدرسها ، كانت تقتنص كل رمقة نظر لا ارادية بنظرتها المتشوقة الغيور ، ولم ير بيوتر ، الذى كان يقود الخيل فى ساحة الدرس وقد تجعد وجهه بابتسامة صغيرة فيما كان يراقب اخاه .

وتأوهت الارض تحت الثقل المرهق للدراسات الحجرية ، وحاول غريغورى ، اثناء هذا الضجيج ان يتلمس ، فى عقله نتف الافكار التى انزلقت ، زائغة ، من مجال وعيه ، لكنه لم يفلح .

من ساحات الدرس القريبة والبعيدة انبعثت جلبة الدرس : صيحات سائقى الخيل ، صفير السياط ، وخشخشة الغرابيل ، واستلقت القرية تتشمس فى دفء ايلول المعتدل ، وقد اسمنها الحصاد ، وارتخت على امتداد الدون ، مثل ثعبان ملقى عبر الطريق . وفى كل فناء ، بسياجه المصنوع من اغصان الاسفندان ، وتحت كل سقف قوزاقى دارت حياة ، حافلة بالحلاوة والمرارة تدوم وتدوم منفردة ومنعزلة عن الاخرين . غريشاكا العجوز اصابه برد وكان يعانى من اسنانه ، وموخوف ينشب اظفاره فى لحيته ، وقد سحقه عاره ، يبكى فى وحدته ويصرف باسنانه ، وستيبان يهدهد فى قلبه حقده على غريغورى ويمزق فى نومه لحافه باصابعه الحديدية ، وتجرى ناتاليا الى السقيفة ، وترمى نفسها على كومة جل البقر تهتز وتتكور ، وهى تبكى سعادتها المدنسة ، وكريستونيا الذى كان قد باع عجلا فى المعرض ، وصرف ثمنه على الشراب

يعذبه ضميره ، وغريغورى يتأوه تحت عبء توجس وألم متجدد ، واكسينيا تغرق كراهيتها الابدية لزوجها فى دموعها كلما لاطفته .

وكان دافيد قد فصل من الطاحونة وصار يجلس ، ليلة تلو ليلة ، مع «الولد» فى مأوى سائقى العربات ، فيما كان «الولد» يعلن ، وعيناه الغاضبتان تومضان بالشرر :

— حسبك ان تنتظر ! ستقطع رقابهم عما قريب . ان ثورة واحدة لم تكن كافية . انتظر حتى تكون لنا ١٩٠٥ أخرى ، وآنئذ سنسوى الحساب ! — ويهز اصبعه الاندب متوعدا ، وبهزة من كتفيه يصلح من وضع سترته الملقاة عليهما .

وتمر الايام سراعا على القرية ، والليالى ، وتنساب الاسابيع ، وتزحف الشهور ، وتولول الريح فوق التل منذرة بانواء سيئة قادمة ، وينساب الدون ، الى البحر من غير ما اكتراث وقد صقلته زرقة الخريف المخضوضرة الرائقة .

٤

ذات احد فى اواخر تشرين الاول ، ركب فيدوت بودوفوسكوف عربته الى القصبة .

واخذ معه ثمانى من البط السمين وباعها فى السوق ، فابتاع لزوجته شيئا من القماش القطنى المطبوع ، واذ همّ بالعودة (وكان يشد مقود الرقبة وقد وضع قدما على العجلة) تقدم اليه غريب يبدو عليه انه ليس من تلك الديار .

حيا فيدوت واضعا يدا ملفوحة على حافة قبعته السوداء قائلا : «مرحبا» .

فقال فيدوت : «مرحبا» وتمهل مستفهما وهو يضيق عينيه الكالميكيتين .

— من اين انت ؟

— من قرية من القرى .

— واية قرية تراها قريتك ؟

— تاتارسكى .

اخرج الغريب علبة سيكاير فضية من جيبه (وعلى غطائها نقش زورق) وقدم سيكارة لفيدوت واستطرد يلقى اسئلته :

— وهل قريتك كبيرة ؟

— لا ، شكرا ، دخنت واحدة توا . قريتنا كبيرة جدا . ثلاثمائة عائلة ، او حوالى ذلك .

— وهل توجد فيها كنيسة ؟

— بلا ريب .

— وهل ثمة حدادون فيها ؟

— نعم ، يوجد محل حدادة .

— وهل هناك ورشة فى الطاحونة ؟

شد فيدوت العنان الى لجام الحصان ، ونظر بريبة الى قبعة الرجل السوداء والى تجاعيد وجهه الابيض العريض تحف به لحية سوداء قصيرة .

— ماذا تريد ان تعرف ؟

— انا قادم للعيش فى قريتكم . كنت للتو عند اتمان المنطقة . أعائد انت لقريتك فارغ العربة ؟

— أى .

— هل تأخذنى معك ؟ لست وحدى . فلى زوجتى وصندوقان كبيران .

— بوسعى ان آخذك .

وبعد ان اتفقا على الاجرة ، ركبا الى فروسكا الخباز حيث

نزل المسافر عنده ، واخذوا زوجة الرجل الشقراء النحيفة ، ووضعوا الصندوقين فى الخلف ، وانطلقوا فى رحلة العودة . وجعل فيدوت يلوى رأسه النحيل مستديرا من حين لاخر ، وهو يطقطق بلسانه للحصان ويلسع بالاعنة المضفورة ، كان الفضول يمزقه . اما المسافران فقد جلسا وراءه هادئين . وفى البدء طلب فيدوت سيكارة ، ثم تساءل :

— من اين انت ؟

— من روستوف .

— واحد منهم ؟

— ماذا قلت ؟

— هل ولدت هناك ؟

— م . . م . نعم .

وجعد فيدوت خديه البرونزيين وشخص ببصره الى الاجمات البعيدة لحشيش السهب . وبدأ الطريق يرتفع ، وعلى مبعدة نصف فرست منه ، وفى الدغل الرمادى الاشمر عند قمة المرتفع ، شخصت عينا فيدوت المجربتان الى حركات رؤوس طيور الحبارى التى لا تكاد ترى .

فتنهد مؤشرا باصبعه : «واأسفاه ، ليست معى بندقية ، والا لمضيت لصيد الحبارى . ها هى تتحرك .»

فأجاب مسافره وهو يطرف بعينيه عن قصر نظر : «انا لا ارى شيئا .»

راقب فيدوت الحبارى تهبط فى وهدة ، ثم ثنى نفسه مستديرا ليتفحص مسافريه عن كثب اكثر . كان الرجل متوسط الطول ، الا انه نحيل ، وكان فى عينيه المتقاربتين بريق دهاء ، وكثيرا ما كان يبتسم اثناء كلامه . اما زوجته فقد تلفعت بشال

محاك وغلبها النعاس فلم يستطع فيدوت ان يرى وجهها .

— ما الذى يدعوك الى الاقامة فى قريتنا ؟

— انني ميكانيكى . وانا انوى فتح ورشة . واستطيع ان اقوم باعمال النجارة ايضا .

فحملق فيدوت مرتابا فى كفى الرجل الضخمتين ، واضاف الغريب لما لحظ نظرته : «انا وكيل شركة «سنجر» لماكينات الخياطة ، ايضا .»

فسأله فيدوت : «وما اسمك ؟»

— شتوكمان .

— لست روسيا ، اذن ؟

— بلى ، انا روسى . لكن جدى كان لتوانيا بالمولد .

وسرعان ما عرف فيدوت ان اوسيب دافيدوفتش شتوكمان قد اشتغل فى السابق فى مصنع ، ثم فى مكان ما فى الكوبان * ، ثم فى معامل سكة الحديد الجنوبية الشرقية . واستدر فيدوت الفضولى عددا كبيرا من الحقائق الاخرى تتعلق بحياة الغريب .

وبعد فترة من الزمن ، فتر الحديث . ثم اورد فيدوت حصانه العرق من نبع على جانب الطريق ، وبدأ ينعس من اثر الرحلة وخضات العربة . ولم تبق الا مسافة قصيرة حتى يصلوا القرية . فلف فيدوت الاعنة حول يده واضطجع وقدماه متدليتان . لكنه لم يجد فرصة للنوم اذ سأله شتوكمان ، وهو يرتج ويتمايل مع حركة العربة :

— كيف هى الحياة فى دياركم ؟

— ليست رديئة جدا . لا بأس .

---

* الكوبان : احدى المناطق القوزاقية . **المترجمون** .

— والقوزاق عموما ، هل هم راضون عن حياتهم ؟

— بعضهم راض ، وبعضهم غير راض . لن تستطيع ان ترضى كل الناس .

فقال الرجل موافقا : «هذا صحيح» واستأنف اسئلته الماكرة المكنونة .

— تقول انكم تعيشون عيشة طيبة ؟

— عيشة طيبة .

— لا بد ان التدريب العسكرى السنوى يزعجكم ؟ هه ؟

— التدريب العسكرى ؟ لقد اعتدنا عليه . لا شىء يقلقك حينما تكون فى الجيش .

— ولكن من الصعب عليكم ، وانتم القوزاق ، ان تجهزوا كل عدتكم .

— صحيح ، اولاد الخنازير .

قال ذلك فيدوت بحماس مفاجئ ، ونظر قلقا من زاوية عينيه الى المرأة ، فحولت عينيها عنه .

— ان سلطاتنا شرذمة دنيئة . . . حينما ذهبت لاداء خدمتى العسكرية بعت ثيرانى واشتريت حصانا ، ولكنهم رفضوه .

فقال الغريب فى دهشة مفتعلة : «رفضوه ؟»

— رفضوه بالمرة . قالوا ان سيقانه غير صالحة . ناقشتهم وحاولت كل ما فى وسعى . قلت لهم — «ان له سيقان جواد سباق لكن مشيته تشبه مشية الديك» . الاانهم لم يقبلوا به . ان هذا كفيل بخراب بيتك .

واستمر الحديث حارا . وقفز فيدوت من العربة وشرع يتحدث عن حياة القرية بانطلاق . فلعن اتمان القرية لطريقة تقسيمه الضيزى لارض المروج ، وامتدح مجرى الامور فى بولنده حيث عسكرت

كتيبته . ومضى شتوكمان يدخن سيكارا خفيفة التبغ بمبسم سيكار عظمى ذى حلقات ، وهو يلقى نظرات سريعة حادة الى فيدوت من عينيه الضيقتين ويبتسم مرارا ، لكن اخدود التقطيب فى جبهته الماثلة البيضاء كان يتحرك ببطء وثقل ، وكأن افكارا خفية تحركه .

وصلوا القرية فى المساء المبكر . وبناء على نصيحة من فيدوت ذهب شتوكمان الى الارملة لوكيشكا واستأجر منها غرفتين .

وسألت النساء فيدوت فيما كان يصل بعربته الى بوابته :

«من ذا الذى جئت به ؟»

— وكيل .

— اى نوع من الوكلاء ؟

— انتن حمقاوات ، هذه لعمرى حقيقتكن ، قلت ، وكيل . يبيع الماكينات . انه يهبها الى الجميلات ، اما لمن كان على شاكلتك ، ايتها العمة ماريا ، فانه يبيعها بثمن .

— انظر الى نفسك ، ايها الشيطان . ان خرطومك الكالميكى قبيح بما يكفى لبث الرعب فى حصان !

فتملص فيدوت قائلا : «الكالميكيون والتتار كانوا اول من قدم الى السهب ، فلا تستهزئى بهم .» نزل الميكانيكى شتوكمان عند لوكيشكا الحولاء ذات اللسان الطويل . ولم تكن الليلة تمضى حتى كانت جميع ألسنة النساء فى القرية تتلمض بالنبأ .

— هل سمعت الخبر ، ياجارتى ؟

— أى خبر ؟

— فيدوت الكالميكى جاء بأجنبى الى القرية .

— حقا ؟

— فليعنّى الله . انه يرتدى قبعة ، واسمه شتوبل او شتوكال . . .

— لعله من رجال الشرطة ؟

— لا ، انه جابى ضرائب .

— كلها أكاذيب ، ياعزيزتى . انه كاتب حسابات ، مثل ابن الاب بانكراتى تماما .

— باشكا ، ياحمامتى ، اجرى الى لوكيشكا واسأليها بهدوء «من ذا الذى ينزل لديك ياعمتى ؟»

— اجرى سريعا ، ياعزيزتى !

فى اليوم التالى ذهب شتوكمان الى اتمان القرية . فقلب فيدور مانيتسكوف ، الذى كان اتمانا للعام الثالث ، جواز مرور القادم الجديد مرة اخرى ، ثم سلمه الى الكاتب الذى جعل يقلبه ، هو الاخر ، مرة اخرى . تبادلا النظرات ، ثم هز الاتمان ، الذى كان رئيس عرفاء ذات يوم ، يده فى حركة متعالية .

— بوسعك ان تقيم .

فانحنى القادم الجديد وغادر الغرفة . وبقى اسبوعا لا يطل بأنفه خارج منزل لوكيشكا ، مثلما ينزوى سنجاب برى فى حجره . وكان بالامكان سماع ضربات فأسه وهو يعد ورشة فى المطبخ الخارجى الصيفى المتداعى . ثم تلاشى اهتمام النساء به ، الا الاطفال ، فقد كانوا يقضون النهار بطوله يسترقون النظر من على السياج ويراقبون الغريب بفضول غير متهيب .

٥

قبل عيد الشفاعة بثلاثة ايام خرج غريغورى وزوجته فى العربة الى السهب للحراثة . كان بانتلاى بروكوفتش متوعك الصحة ،

فناء بكلكله على عصاه فى الحوش ليودعهما وهو يئن من جراء الم فى ظهره .

— احرث الرقعتين الواقعتين على الجانب الاخر من الارض المشاعة ، قرب «الاخدود الاحمر» ، ياغريشا .

فتساءل غريغورى فى همس مبحوح ، اذ اصابه برد اثناء الصيد ، وقد لف بلعومه بقطعة قماش :

— طيب وماذا عن الرقعة الواقعة الى جانب «ضفة الصفصاف» ؟

— يمكن لهذه ان تنتظر الى ما بعد العيد . سيكون لك ما يكفيك من العمل فى الوقت الحاضر ، فلا تكن طماعا .

— وهل سيأتى بيوتر لمساعدتى ؟

— انه ذاهب الى الطاحونة مع داريا . نريد ان ننتهى من الطحن قبل ان تتزاحم الجموع .

وهمست ايلينشنا وهى تضع الفطائر الطازجة فى سترة ناتاليا :

— ربما تريدين ان تصحبى دونيا معكما لتقود الثيران ؟

— اثنان يكفيان .

— طيب ياعزيزتى . ليكن المسيح فى عونكما .

ومرت دونيا فى طريقها الى الدون لشطف الملابس . وقوامها النحيف ينوء تحت الحمل الثقيل للغسيل المبلل ، وبينا كانت تمر صاحت على ناتاليا :

— ناتاليا ياعزيزتى ، هناك الكثير من نبات الحميض فى «الاخدود الاحمر» . اقلعى بعضا منه ، واجلبيه لنا .

— بالطبع .

فقال بانتلاى بروكوفتش وهو يهز عصاه نحو دونيا :

— هيا ، امضى من هنا ، ياثرثارة !

فسحبت ستة ثيران المحراث المقلوب خارج الفناء ، وهى تحفر الارض التى تصلبت من الجدب الخريفى . ومضى غريغورى يسير على امتداد جانب الطريق وهو يسعل ، وما فتىء يعدل منديل رقبته . ومشت ناتاليا الى جانبه ، وعلى ظهرها يتأرجح كيس وضع فيه طعام .

تلفع السهب بسكون بلورى . وكانت التربة ، وراء الارض المشاعة ، على الجانب الاخر من التل المحدودب ، قد مشطتها المحاريث ، وكان السواق يصفرون ، ولكن على امتداد الطريق لم يكن ثمة سوى زرقة شهباء لنبات شيح قمىء ، وبرسيم برى قضمته الاغنام ، تعلوه سماء باردة صافية مرنانة ، تتقاطع عليها خيوط متطايرة لنسيج عنكبوت متلامع .

وحين ابتعد الحارثان الماضيان الى السهب ، استعد بيوتر وداريا للذهاب الى الطاحونة . فغربل بيوتر الحنطة فى مخزن الغلال ، وعبأتها داريا فى زكائب حملتها الى العربة . وشد بانتلاى بروكوفتش الخيل مسويا الاعنة باعتناء .

— هل ستبطئ كثيرا ؟

فاجاب بيوتر من المخزن : «ها انا قادم» .

° ° °

حينما وصلا الطاحونة وجدا الفناء مزدحما بالعربات وكان القبان محاطا بجمع حاشد . فألقى بيوتر الاعنة الى داريا وقفز من العربة . وسأل «الولد» ، القبانى :

— هل سيأتى دورى عما قريب ؟

— سيأتى .

— دور من ، الان ؟ *

— رقم ثمانية وثلاثين .

واستدار بيوتر ليأتى بزكائبه . وبينما كان يفعل ذلك سمع سبابا وراءه . ونبح صوت اجش مغتصب : «انت تستغرق فى النوم اكثر مما يجب ، ثم تريد ان تسبق دورك . تنـــح ، ياخوخول * ، والا سألقنك درسا .»

وتبين بيوتر صوت ياكوف نعل الحصان * * . فتوقف لينصت . علا الصياح فى غرفة القبان . ثم انبعثت طقة لطمة حادة ، واذا باوكرانى كهل ملتح يطير الى الخارج من خلال المدخل ، وقد خبطت قبعته على مؤخرة رأسه .

وصاح ممسكا بخده : «لم هذا ؟»

— سألوى رقبتك !

— لكن ، اسمع . . .

— ميكيفور ، النجدة !

اما ياكوف نعل الحصان ، وهو مدفعى قوى البنية . اكتب كنيته هذه لما تركته رفسة حصان من اثر على وجهه ، فقد اندفع خارجا من غرفة القبان وهو يثنى اكمامه الى الاعلى . وتبعه اوكرانى طويل ، يرتدى قميصا ورديا ، وهوى بضربة ثقيلة عليه . لكن ياكوف صمد على قدميه ، وصرخ :

— ايها الاخوان ، انهم يضربون القوزاق !

فجاء عدد ضخم من القوزاق والاوكرانيين من الطاحونة

---

* خوخول : اصطلاح يقال للاوكرانى يراد به الاهانة . المترجمون.

** نعل الحصان : كنية ياكوف ، كما ان «الولد» كنية دافيد . المترجمون .

يركضون من كل صوب الى الفناء المزدحم بالعربات . وبدأت معركة قرب المدخل الرئيسى ، فانخلعت الباب تحت ضغط الاجسام المتقاتلة . والقى بيوتر زكيبته عنه وحمحم وانطلق بخفة صوب الطاحونة . ورأته داريا ، وهى منتصبة على العربة ، يندفع الى وسط المعركة ، دافعا الاخرين جانبا . وتأوهت لما رأته يُحمل الى حائط الطاحونة ، ويطرح ارضا ويداس تحت الاقدام . وجاء ميتكا من حجرة الماكنة متوثبا حول الزاوية ملوحا بقضيب حديدى . وانطلق الاوكرانى ، الذى ضرب ياكوف من الخلف خارجا من الحشد المقاتل ، وكمه الوردى الممزق يخفق وراءه كجناح طير مهيض . فانثنى على نفسه حتى لامست يداه الارض وجرى الى اقرب العربات وانتزع محورا منها كما لو كان عود ثقاب . وجلجلت صرخات مبحوحة فوق الفناء . صوت تهشيم . ضربات . انين . زئير صياح مستديم .

وجاء الاخوان شوميلين الثلاثة راكضين من دارهم . وتعثرت قدم اليكسى الاقطع بزوج من الاعنة كان ملقيا على الارض ، فوقع ارضا بالقرب من البوابة . ثم قفز واقفا . ومضى ينط عبر محاور العربات المصفوفة ، ضاغطا كمه الايسر الخالى من الذراع على معدته . وانحنى اخوه مارتن ليدس ساق بنطلونه الذى خرج من جوربه الابيض . وارتفع الصياح فى الطاحونة بالغا اوجه . . . واطلق احدهم صرخة علت فوق سقف الطاحونة مثل خيط عنكبوت فى مهب الريح ، واستقام مارتن وراء اخيه .

وقفت داريا تراقب المعركة من العربة ، وهى تلهث وتعصر يديها . ومن حولها كانت نسوة ينحن ويزعقن ، والخيل تنصب اذانها مضطربة ، والثيران تخور وتتدافع على العربات . ومر موخوف وهو يمشى الهوينا ، زاما شفتيه ، شاحب الوجه ، وكرشه يتأرجح ،

صاعدا هابطا ، وكأن بيضة وضعت تحت صدريته . ورأت داريا الاوكرانى ذا القميص الممزق يهوى بالمحور على ميتكا كورشونوف بضربة قاصرة ، وفى اللحظات التالية كان هو نفسه قد تلقى لكمة مسددة من قبضة اليكسى الحديدية طرحته ارضا . ومرت المشاهد امام عينى داريا مثل نتف من سجادة ملونة . ثم رأت ميتكا الجائى ، دون ان تأخذها الدهشة ، يحصد ساقى موخوف من تحته بالقضيب الحديدى ، ففرد موخوف ذراعيه وزحف ، مثل السرطان ، الى سقيفة القبان حيث رفسته الاقدام وداست عليه . . . فضحكت داريا بصورة هستيرية حتى تشرخ القوسان الاسودان لحاجبيها المزججين . لكنها توقفت فجأة حينما وقع نظرها على بيوتر . كان قد افلح فى الخروج مترنحا من بين الغوغاء المتدافعين الزاعقين ، وكان مستلقيا تحت عربة يبصق دما . فهرعت اليه داريا صارخة . ومن القرية جاء القوزاق مسرعين يحملون العصى ، وكان احدهم يلوح بعتلة فى يده واتسع القتال الى حد يفوق التصـــور ، فلم يعد مجرد مشاجرة فى حانة او نزال القبضات الذى يقام فى عيد المرفع بين القرى . فعند باب سقيفة القبان تمدد اوكرانى يافع برأس مكسور فى بركة من الدم ، تحركت قدماه ، وتدلت على وجهه خصلات مدماة . انتهى كما يبدو طريقه فى هذه الارض الزرقاء المرحة . . .

دفعوا الاوكرانيين مثل قطيع الاغنام الى سقيفة التفريغ . وكان ممكنا ان تتخذ الامور شكلا اسوأ لولا ان اوكرانيا عجوزا خطرت له فكرة فمرق الى داخل السقيفة ، وجر عمودا ملتهبا من الاتون وجرى ناحية السقيفة حيث خزنت الحبوب : الف بود واكثر من الطحين . وانساب الدخان فوق كتفه مثل قماش الموسلين ، وشرد يكسفه ضوء النهار ، يتطاير حوله .

وصرخ ، وهو يرفع الشعلة المطقطقة صوب السقف المغطى بالقش : «سأحرقه !»

تلكأ القوزاق ثم توقفوا . كانت ثمة ريح عاصفة جافة تهب من الشرق حاملة الدخان بعيدا عن سطح السقيفة صوب رهط الاوكرانيين . كان يكفى ان تندلع شرارة مناسبة واحدة فى حلفاء السقف لتلتهم النار القرية عن آخرها . . .

ندت همهمة خفيضة عن القوزاق . وبدأ بعضهم يتراجع ناحية الطاحونة بينما صاح العجوز وهو يلوح بالشعلة فوق رأسه ويرسل نثارة من النار : «سأحرقه ! سأحرقه ! اخرجوا من الفناء !»

كان ياكوف نعل الحصان ، الرجل الذى بدأ المعركة ، اول من غادر الفناء وعلى وجهه النديب رضات حمر مزرقة . وجرى القوزاق الاخرون وراءه مسرعين . فأسرع الاوكرانيون بالقاء زكائبهم على عرباتهم وشدوا خيلهم وانطلقوا ينهبون ارض الفناء مبتعدين عن القرية وهم واقفون فى عرباتهم ويلوحون بذوائب اعنتهم الجلدية حول رؤوسهم ويلفحون خيلهم بسياطهم فى جنون .

انتصب اليكسى الاقطع وسط الفناء ، وكمه الفارغ المعقود يتوثب فوق بطنه الخاسف ، وعينه وخده يختلجان كعادتهما :

— الى الخيل ، ايها القوزاق !

— فى اعقابهم !

— لن يبتعدوا !

وتهيأ ميتكا كورشونوف ، ليندفع خارج الفناء . وسرت موجة اضطراب جديدة فوق حشد القوزاق المتجمعين حول الطاحونة . على ان شخصا غير مألوف يرتدى قبعة سوداء ظهر فى تلك اللحظة من غرفة الماكنة وتقدم بخطى عجلى من الحشد ، ولم يلحظه احد من قبل وقد ضاقت عيناه النفاذتان حتى غدتا خطين طويلين

مرقا فوق الحشد فيما رفع يده وصاح :

— قفوا !

فتسائل ياكوف مقطبا حاجبيه :

— من انت ؟

— من اين ظهر ؟

— اضربوه !

— قفوا ، ايها القرويون !

— من انت حتى تدعونا قرويين ، يا ذيلا ابتر !

— يا للسافل !

— هذا الريفى القذر !

— لقنه درسا ، ياياكوف .

— صحيح ، سود له عينيه !

فابتسم الرجل بتواضع ، دون ان تبدو عليه بادرة خوف . خلع قبعته ومسح جبينه بحركة تنم عن منتهى البساطة . وجردت ابتسامته الاخرين من سلاحهم كليا .

وتساءل وهو يشير بقبعته المطوية الى الدماء عند باب سقيفة القبان : «ماذا حدث ؟»

فاجاب اليكسى ذو الذراع الواحدة بلهجة مسالمة ، وعينه وخده يختلجان : «كنا نضربهم .»

— ولكن لم ؟

فأوضح ياكوف نعل الحصان وهو يتقدم ماسحا بذراعه كتلة من الدم عن انفه :

— ارادوا تجاوز دورهم .

— اعطيناهم ما سوف يتذكروننا به .

— من المؤسف اننا لم نطاردهم . . . فليس فى السهب ما

يستطيعون اضرام النار فيه .

— اصابنا الذعر ، فما كان ليجرؤ على اضرام النار فى السقف .

— بل كان سيفعل ذلك ، اذ كان متهورا .

وقال افونكا اوزيروف مبتسما : «ان الخوخول قوم سيئو الطبع جدا .»

فلوح الرجل بقبعته فى اتجاه اوزيروف : «ومن انت ؟»

بصق اوزيروف باحتقار من بين اسنانه المتباعدة ، وهو يراقب طيران البصاق ، وركز قدميه مباعدا بينهما :

— انا قوزاقى . ولكن . . . من انت ، غجرى ؟

— انا وانت كلانا روسيان .

فقال افونكا مقطعا كلماته :

— انت تكذب .

— ينحدر القوزاق من اصل روسى . أتعرف هذا ؟

— وانا اقول لك ان القوزاق هم ابناء القوزاق .

فأوضح الرجل :

— منذ زمن بعيد ، هرب الاقنان من مالكى الارض واستوطنوا على امتداد الدون . ثم عرفوا باسم القوزاق .

فقال اليكسى فى غيظ مكظوم وهو يشد على قبضته الثقيلة ويطرف تباعا : «اذهب الى حال سبيلك ، يارجل !»

— هذا الختزير يريد ان يجعل منا فلاحين !

— من هو يا افاناسى ؟

— انه القادم الجديد الذى يسكن عند لوكيشكا الحولاء .

وهكذا مرت فرصة تعقب اثر الاوكرانيين . وتفرق القوزاق ، وهم يتناقشون حول المعركة بحماس .

وفى تلك الليلة ، فى السهب ، وعلى مبعدة حوالى ثمانية فرستات من القرية ، قال غريغورى لناتاليا بكآبة وهو يلف نفسه بفروته الشائكة الثخينة :

— انت غريبة ، نوعا ما ! انت كذلك القمر ، لا تبعثين البرودة ولا الدفء فى الرجل . انا لا احبك ياناتاليا ، ويجب الا تغضبى . انا لم ارد اثارة الموضوع ، لكن هو ذا يطرح نفسه . نحن لا نستطيع ان نستمر على هذه الحال . اننى حزين عليك . لقد بدا فى الايام الاخيرة كما لو كنا نقترب من بعضنا اكثر من ذى قبل ، لكننى لا استطيع تحس اى شىء فى قلبى . انه فارغ تماما . مثل هذا السهب . . .

تطلعت ناتاليا الى النجوم السارحة المنيعة ، والى عباءة الغيوم السارية فوقها والظليلة كالاشباح ، ولم تنبس بشىء . ومن مكان ما فى الفلاة السوداء الماثلة الى الزرقة ، فى الاعالى ، تنادى سرب متأخر من طيور الغرانيق باصوات مثل اجراس فضية صغيرة .

كان للعشب الذاوى رائحة كئيبة موات . وعلى رابية هناك خفق وهج خضيب من نار احد مضارب الحارثين . . .

استيقظ غريغورى قبيل الفجر . كانت فروته مغطاة بطبقة رقيقة من الثلج . وكان السهب مختفيا تحت الزرقة العذراء باهتة الالق للثلج الجديد . وارتسمت ، على مقربة من الموضع الذى استلقى فيه غريغورى ، اثار واضحة لاقدام ارنب برى كان قد قفز على اول نثة ثلج .

٦

عندما كان القوزاقى يسافر بمفرده فى الطريق الى ميليروفو ويلتقى بالاوكرانيين ، (وكانت القرى الاوكرانية تبدأ فى قرية يابلونوفسكى السفلى وتمتد مسافة خمسة وسبعين فرستا حتى ميليروفو) ، كان عليه ان يفسح لهم الطريق والا هاجموه . هكذا جرت الحال منذ زمن بعيد . ولذلك اعتاد القوزاق ان يذهبوا بالعربات الى محطة القطار جماعات ، فلا يخشون عندئذ ملاقاة الاوكرانيين فى السهب وتبادل السباب :

— انت ياخوخول ! افسح لنا الطريق ! اتظن انك تستطيع ان تحيا على ارض القوزاق ، يا خنزير ، ولا تدعهم يمرون !

ولم يكن الاوكرانيون ، الذين كانوا يضطرون لنقل حبوبهم بالعربات الى سايلو الحبوب فى بارامونوفو على الدون ، فى حال يحسدون عليها . اذ كانت المعارك تنشب لا لشىء الا لانهم «خوخول» ، ومتى ما كان الرجل «خوخول» صار من الواجب اشباعه ضربا .

فمنذ عدة قرون ، بذرت يد ماهرة بذور الحقد الطائفى فى ارض القوزاق ، وتعهدتها بعناية ، وانتجت البذرة ثمارا كبيرة . وسالت الارض بالدم المسفوك فى هذه المعارك بين القوزاق والقادمين الجدد من اوكرانيا وروسيا .

بعد حوالى اسبوعين من معركة الطاحونة وصل الى القرية ضابط شرطة المنطقة يصحبه مفتش . كان شتوكمان اول من استجوب . فسأله المفتش ، وهو موظف شاب من نبلاء القوزاق ، فيما كان ينبش فى حقيبته اليدوية :

— اين كنت تعيش قبل مجيئك هنا ؟

— فى روستوف .

— لماذا سجنت عام ١٩٠٧ ؟

فانحدرت عينا شتوكمان عبر حقيبة المفتش ورأسه المحنى ذى مفرق الشعر المتقشر .

— للاخلال بالنظام .

— هِمْ . . . اين كنت تعمل انذاك ؟

— فى ورش السكة الحديد .

— أى عمل ؟

— ميكانيكى .

— لست يهوديا ، أليس كذلك ؟ ام يهودى متنصر ؟

— كلا . فانا اعتقد . . .

— لا يهمنى ما تعتقد . هل كنت فى المنفى ؟

— نعم كنت .

رفع المفتش رأسه ، وعض شفتيه عديمتى الشارب كثيرتى البثور وقال :

— انصحك بمغادرة هذه المنطقة — ثم اضاف قائلا لنفسه : — سأقوم بهذه المهمة انا نفسى على كل حال .

— لماذا ، ايها المفتش ؟

وكان الجواب سؤالا آخر :

— ماذا قلت للقوزاق يوم معركة الطاحونة ؟

— حسنا . . .

— طيب ، يمكنك ان تذهب .

خرج شتوكمان الى شرفة بيت موخوف (اذ كانت السلطات تتخذ من بيت موخوف مقرا لها على الدوام) والقى نظرة سريعة على الابواب المزدوجة المطلية ، وهز كتفيه .

جاء الشتاء وئيدا . وذاب الثلج بعد عيد الشفاعة واخرجت القطعان الى المراعى من جديد . وظلت ريح جنوبية تهب طوال اسبوع ، فاشاعت الدفء فى الارض ، وانبعث من خضرة متأخرة قميئة اخر وميض لامع فى السهب .

واستمر الذوبان حتى عيد القديس ميخائيل ، ثم عاد الصقيع ، وسقط ثلج غزير ، وصار الصقيع يزداد قوة ، وطبقة الثلج سماكة يوما بعد يوم وتركت اقدام الارانب اثارا متقاطعة على حقول الخضار الفارغة الى جانب الدون حيث تكوم الثلج حتى اعالى الاسيجة . واصبحت الشوارع مقفرة .

علق الدخان ، المنبعث من الجل ، خفيضا فوق القرية ، ومضت طيور الزاغ تنقر فى كومات الرماد المبعثرة على جانب الطريق . وتلوى خلال القرية أثر الزحافات الناعم على شكل شريط ازرق رمادى باهت .

كان هناك اجتماع عقدته القرية لتنظيم توزيع الدغل وقطعه . فاحتشد القوزاق حول درجات عتبة ادارة القرية وهم فى فرواتهم ومعاطفهم الثقيلة وجزماتهم اللبادية تصر فى الثلج ، الى ان دفعهم البرد الى الداخل . وتجمع شيوخ القرية الوجهاء بلحاهم الفضية خلف المنضدة ، والى جانب الاتمان والكاتب . اما القوزاق الشبان ، ذوو اللحى المختلفة الالوان ، والحليقون ، فقد تحلقوا جماعات ، وجعل الواحد يتمتم للاخر من وراء ياقات معاطفهم الدافئة . وكان الكاتب يملأ الصفحة تلو الصفحة بكتابة متلاصقة ، فيما كان الاتمان يراقبه عبر كتفه ، وثمة طنين مكتوم يملأ الغرفة الباردة .

— كان العشب هذا العام . . .

— أى نعم ، عشب المروج جيد ، لكن عشب السهب كله برسيم .

— فى الايام الخوالى كانوا يرعون فى السهب حتى حلول عيد الميلاد .

— كان ذلك حسنا بالنسبة للكالميكيين .

ند سعال مبحوح .

— ان للاتمان رقبة كرقبة الذئب ، سمينة بحيث لا يستطيع ان يدير رأسه .

— يطعم نفسه كالخنزير ، هذا الشيطان !

— ايها الجد ، تحاول ان تهزم الشتاء عنك ؟ يالها من فروة هذه التى عليك !

— آن الاوان لكى يبيع الغجرى معطفه عما قريب .

— هل سمعت بحكاية الصبى الغجرى الذى قضى ليلة فى السهب دون ان يكون عليه غطاء سوى شبكة صيد ؟ وحينما بدأ البرد يزحف حول مصارينه ، استيقظ ، ودفع اصبعه فى ثقب فى الشبكة وقال لامه — «اذن فمن هنا يأتى التيار . ظننت ان الدنيا باردة» .

— اخشى ان تحل علينا بضعة ايام زلقة عما قريب .

— يحسن ان انعل الثيران .

— كنت اقطع اشجار الصفصاف فى «اخدود الشيطان» . شىء نفيس ، هناك .

— زرر سروالك ، يازاخار . لئن اصاب الصقيع . . . ماخلفه ، فستقذف بك زوجتك خارج الدار .

— ما هذا الذى اسمعه ، يا افديبتش ، من انك ستضع

يدك على واحد من الثيران المشاعة ؟ *

— قررت الا افعل ذلك . فتلك المرأة ، بارشا ، ستتعهده بعنايتها . قالت لى : «اننى ارملة ، وكلما كثرت الثيران كثر المرح» . وانا قلت لها : «حسنا ، لعله يضيف فردا جديدا الى العائلة» . . .

— ها — ها — ها !

— والان ، ايها السادة الشيوخ ! ماذا عن قطع الخشب ؟ هدوءا يامن هناك !

— قلت لها نعم ، لئن اضفته الى عائلتك فستحتاجين الى اثنين . . .

— قليلا من الهدوء ، رجاء !

وبدأ الاجتماع . تلا الاتمان الاسماء ، وهو يعبث بعصاه الرسمية ويقطف خيوط الجليد المدلاة من لحيته باصبعه الصغير ويتصاعد البخار منه . ومن حين لاخر كان الباب يصفق فى مؤخرة الغرفة فينحشر الناس وسط سحائب من الهواء البارد . وتتناهى اصوات تمخط الانوف .

وقال ايفان توميلين محاولا ان يطغى بصياحه على صوت الاتمان : «لا يمكنك ان تحدد يوم الخميس لقطع الاخشاب !» ودعك اذنيه الارجوانتين ، مائلا رأسه الذى انداحت عنه قبعة المدفعية الزرقاء .

— لم لا ؟

فصاح احدهم :

— ستخلع اذنيك ، ايها المدفعى !

---

* الثيران المشاعة : لعل المقصود بذلك ثيران السفاد وهى الثيران الاكثر فحولة التى تربى للتناسل . **المترجمون** .

— سنخيط له اذنى ثور !

— يوم الخميس سيخرج نصف القرية لجلب التبن . ان هذا لعمرى اسلوب طيب لتنظيم الامور . . .

— يمكنك ان تؤجل ذلك الى يوم الاحد !

— ايها السادة الشيوخ !

— ماذا ، الان ؟

— حظا سعيدا له !

وارتفعت صيحة استهزاء من الجمع .

فانحنى العجوز ماتفى كاشولين عبر المنضدة المتداعية ، ونعق هائجا وهو يشير ناحية توميلين بعصاه الملساء المقتطعة من شجرة الدردار .

— يستطيع التبن ان ينتظر ! القرار لمجتمع القرية . انك دائما ضد جميع الاخرين . انت احمق صغير ، ياولدى ! وهذا هو كل ما هناك !

فتدخل اليكسى الاقطع وخده المشوه يختلج وطرف بعينه ورفع رأسه بين الصفوف الخلفية ، قائلا : «لا عقل لك تتباهى به ، على اية حال ، وانت عجوز . . .»

فمنذ ست سنوات وهو يتخاصم مع كاشولين على قطعة ارض ، وفى كل ربيع كان يضربه ضربا موجعا ، بالرغم من ان القطعة لم تكن بأية حال لتتسع لارجحة قطة .

— صه ، ياذا الوجه الهلامى !

فتهدده اليكسى :

— من المؤسف انك ابعد من متناول يدى ، والا ادميت لك انفك !

— آه ، يالرعص الوجه يالابتر !

— والان ، كفى تنابزا .

— تعالوا الى الخارج ان كنتم تريدون تجربة قوتكم .

— كفى ياليكسى . الا ترى العجوز قد انتصب شعر رأسه ذعرا ، ستسقط عنه قبعته بعد دقيقة .

— ضعهما فى زنزانة البوليس ان لم يسلكا سلوكا حسنا . وأنت المنضدة حينما هوى عليها الاتمان بقبضته .

— صه ! سأنادى الحارس فى الحال ان لم يعم السكوت .

وبعد ان عادت الامور الى نصابها ، اضاف :

— البدء فى قطع الاخشاب فجر يوم الخميس .

— حسنا ، ما قولكم ، ايها السادة الشيوخ ؟

— حظا سعيدا !

— على بركة الله !

— انهم لا يصغون الى الشيوخ ، هذه الايام !

— سوف يصغون ، على اية حال . ايظنون انهم قادرون على اتيان مايريدون ؟ فهذا الكساندر ، ابنى ، حينما اعطيته حصته اراد ان يشرع بالعراك عليها ، وتجاسر علىّ بالضرب ، أى نعم . لكننى اعدت اليه صوابه . قلت له «سوف اذهب الى الاتمان والشيوخ فى الحال ، واجعلهم يجلدونك . . .» كان هذا كفيلا بتهدئته .

ورفع اتمان القرية صوته ولوى رقبته ، اذ كانت ياقة بزته الصلبة تحز ذقنه .

— لقد حصلنا ايها السادة الشيوخ على امر اتمان المنطقة ، على الشباب ان يذهبوا يوم السبت القادم الى دائرة اتمان المنطقة لاداء القسم . عليهم ان يكونوا هناك بعد الظهر .

كان بانتلاى بروكوفتش يقف عند اقرب نافذة الى الباب ،

رافعا ساقه العرجاء كطير الغرانيق ، والى جانبه كان ميرون غريغوريتش قاعدا على افريز النافذة وهو يبتسم تحت لحيته الحمراء ، وكانت فروته مفتوحة . واهدابه الشقر القصيرة يشوبها صقيع ابيـــض ، ونمشه الاسمر الكبير قد حال لونه رماديا من اثر البرد . وتجمع قربهما شباب القوزاق يتغامزون ويبتسمون فيما بينهم . ووقف وسط الجمع افديبتش سينبلين متمايلا على اصابع قدميه . وكانت قبعته ، ذات السطح الازرق وشرائط قضية ، مسرّحة الى الوراء فوق رأسه الاصلع الاملس ، ووجهه الذى لا يشيخ متوردا ابدا ، كأنه تفاحة شتوية حمراء . كان افديبتش وبانتلاى بروكوفتش فى سن واحدة .

كان افديبتش قد خدم فى حرس الاتمان الخاص ، وعاد يحمل كنية «الكذوب» . وكان اول من اختير من القرية لكتيبة الاتمان * . كان فى فتوته لا يتميز عن الفتيان الاخرين سوى ان عقله كان غريب الاطوار نوعا ما ، فقد وقع له شىء غريب اثناء الخدمة الفعلية . ومنذ يوم عودته شرع فى رواية قصص مذهلة عن خدمته فى البلاط ومغامراته العجيبة فى بطرسبرغ . وقد صدقه سامعوه المندهشون فى البداية ، وهم يكرعون حكاياته بأفواه فاغرة ، ثم اكتشفوا ان افديبتش كان اكبر كذاب ولدته القرية فى تاريخها ، وصاروا يضحكون منه صراحة . لكنه لم يكن ليستحى (وان كان احمر الوجه دائما بحيث لا يستطيع المرء ان يتبين ان كان احمر خجلا ام لا) ولم يتخل عن الكذب . وحينما تقدمت به السن صار يتضايق اذا ما انفضحت كذبة له ، فيلجأ الى استعمال قبضته . اما اذا ضحك سامعوه ولم يقولوا شيئا توسع أكثر فأكثر فى رواية قصصه .

* وهو الحرس القيصرى . اذ كان الاتمان من ألقاب القيصر . المترجمون .

اما من ناحية عمله فى الحقل ، فقد كان قوزاقيا نشطا مجدا ، يتصرف فى كل الامور بصورة معقولة ، واحيانا بدهاء ، ولكن ما ان يعرج الموضوع على خدمته فى الحرس حتى ينشر كل امرىء ذراعيه ويقعد القرفصاء من الضحك .

وقف افديبتش وسط الجماعة متمايلا وعلق ، وهو يجيل بصره فى القوزاق المجتمعين ، بصوته الخفيض الغليظ قائلا :

— بالمناسبة ، القوزاق فى هذه الايام ليسوا كما كانوا من قبل قط . ليسوا سوى روبيان قمئ لا تكاد العين تراه . تستطيع ان تشق ايا منهم الى نصفين بمجرد ان تعطس عليه . لكننى . . . — يصق على الارض وابتسم بازدراء — رأيت بعض هياكل عظمية لقوزاق ، ذات مرة . آه ! كان القوزاق قوزاقا فى تلك الايام !

فسأله انيكوشكا ذو الوجه الناعم وهو يلكز جاره :

— واين نبشت تلك الهياكل العظمية ، يا افديبتش ؟

وقال بانتلاى بروكوفتش ، مجعدا انفه وشادا على قرطه : «لا تبدأ برواية احدى اكاذيبك ، يا افديبتش ويوم العيد المقدس على الابواب» ، اذ لم يكن يحب عادة افديبتش فى المبالغة .

فأجاب افديبتش برزانة ، وهو يحملق مستغربا فى انيكوشكا الذى كان يرتعش كما لو اصابته حمى :

— ليس من طبيعتى الكذب ، ايها الاخ . رأيت تلك الهياكل حينما كنا نبنى دارا لزوج اختى . اذ بينما كنا نحفر الاساس وصلنا الى قبر . لابد ان مقبرة كانت هناك فى الايام الغوابر ، بجانب الكنيسة ، على ضفة الدون .

فتساءل بانتلاى بروكوفتش بلهجة تنم عن عدم رضى وهو يتهيأ للذهاب : «طيب وكيف كانت الهياكل ؟»

فقال افديبتش ناشرا كل ذراعيه الشبيهتين بالمجرفـــة :

«الاذرع ، بهذا الطول . الرأس بحجم القزان . كلامى صحيح كحقيقة وجودى حيا !»

فاقترح ميرون وهو يقوم من افريز النافذة وزرر فروته : «خير لك ان تخبر الشباب كيف قبضت على لص فى سانت بطرسبرغ .»

فاجاب افدييتش وقد اعترته موجة مفاجئة من التواضع : «ليس هناك ما يستحق الرواية .»

— اخبرنا يا افدييتش !

— نرجوك يا افدييتش !

— شرفنا بحكايتك !

— حسنا ، كان الامر كالاتى ، — ونظف افدييتش بلعومه وأخرج كيس تبغه من جيب بنطلونه . واعاد قطعتى النقود النحاسيتين اللتين سقطتا من الكيس ، وصب قبضة من التبغ فى راحته ، واجال عينا متألقة فى سامعيه . — كان احد الاوغاد قد فر من السجن . بحثوا عنه فى كل ارجاء المنطقة . ولكن أتظنون انهم استطاعوا ان يجدوه ؟ لا ، لم يقدروا . وباءت السلطات جميعا بالفشل . حسنا ، ذات ليلة ، يدعونى ضابط الحرس بغتة ويقول : «اذهب الى القصر الامبراطورى . فالقيصر نفسه يدعوك» . فذهبت متهيبا . وقفت للامبراطور وقفة استعداد ، فاذا به يربت على كتفى ويقول : «اسمع يا ايفان افدييتش ، لقد فر وغد فى مملكتنا . اعثر عليه ، حتى لو اضطررت الى الوقوف على رأسك فى سبيل ذلك . ولا تدعنى اراك حتى تكون قد انجزت مهمتك !» فقلت له : «سمعا وطاعة ، يا صاحب الجلالة الامبراطور !» اجل ، يا اولاد ، تلك كانت قضية عسيرة . . . وعلى ذلك اخذت ثلاثة من احسن ما فى اصطبلات القيصر من خيل ، وانطلقت . — تفحص افدييتش رؤوس مستمعيه المطأطأة وهو يشعل سيكارة ،

وانطلق هادرا وسط سحابة الدخان التى كانت تغلف وجهه وقد ازداد حماسه : — مضيت على صهوة الجواد طوال النهار ، طوال الليل ، حتى التقيت فى اليوم الثالث بالوغد على مقربة من موسكو . اقتنصت ذلك الطير وقذفت به داخل عربتى ، وجررته عائدا الى سانت بطرسبرغ . وصلت فى منتصف الليل ، وانا مغمور بالوحل ، ذهبت مباشرة الى صاحب الجلالة الامبراطور نفسه . حاول كل اصناف الامراء والكونتات ان يمنعونى ، لكننى مضيت ، أى نعم . . . طيب ، طرقت الباب . «هل لى ان ادخل ، ياصاحب الجلالة الامبراطور ؟» . «من انت ؟» . «هو انا ، ايفان افدييتش سينيلين» فسمعت ضجة فى الغرفة ، وسمعت جلالته نفسه يصرخ : «ماريا فيودوروفنا ! ماريا فيودوروفنا ! اتهضى بسرعة واعدى سماورا ، فقد وصل ايفان افدييتش» .

انبعث زئير من الضحك من القوزاق السامعين ، وتوقف الكاتب فى منتصف جملة ، وكان يقرأ آنذاك اعلانا عن الماشية السائبة ، ومد الاتمان رقبته كأوزة ، وحملق مغضبا فى المجمع المقهقه . غام وجه افدييتش ، وسحب بطرف قبعته ، وجالت عيناه بحيرة فى الوجوه الماثلة امامه ، وقال : «انتظروا لحظة !»

— ها — ها — ها !

— أوه ، انه سيميتنا !

— اواه يا افدييتش ! اواه يا ابن كلب !

— «اعدى سماورا ، فقد وصل افدييتش !» ها — ها — ها !

بدأ الاجتماع ينفض . وارتفع صرير مستديم من الدرجات المتجمدة لمنزل الادارة . وعلى الثلج الذى وطأته الاقدام فى الخارج ، كان ستيبان استاخوف وقوزاقى طويل القامة والساقين ،

وهو صاحب الطاحونة الهوائية ، يتصارعان ليدفئا نفسيهما . فتحلق القوزاق حولهما يسدون لهما الارشادات بجلبة وصياح .

— اطرحه ارضا ، هذا الزنديق ! اقلع احشاءه ، ياستيبان !

وصاح كاشولين العجوز وهو يتواثب هنا وهناك كالعصفور : «لا تمسكه من هناك ! اتظن انك فطين !» وفى غمرة حماسه ، فاته ان يلاحظ قطرة كبيرة لامعة ، تتدلى باستحياء من ذؤابة انفه المزرق .

٨

حينما عاد بانتلاى بروكوفتش من الاجتماع ذهب فى الحال الى الغرفة التى كان يشغلها هو وزوجته ، فايلينشنا متوعكة منذ بضعة ايام ، ويعكس وجهها المتورم كلالها وألمها . كانت مستلقية على فراش ريشى سميك وقد أُسند ظهرها بوسادة لينتصب مستقيما . وحينما سمعت وقع قدمى بانتلاى بروكوفتش ادارت رأسها نحوه ، فاستقرت عيناها على لحيته التى رطبتها انفاسه ، وعلى شاربيه المتلبدين ، وغشيت نظرها قساوة صارت عادة ملازمة لها ، واختلج منخراها . لكن الشيخ لم تنبعث منه سوى رائحة الصقيع والفروة الحامزة ، فقالت لنفسها : «انه صاح اليوم» ، وهى تستشعر الرضا ووضعت على بطنها السمين ابرة الحياكة والجورب الذى لم تنجز حياكته .

— حسنا ، ماذا عن قطع الاخشاب ؟

— قرروا ان يبدأ يوم الخميس — ومسد شاربه ، وكرر وهو يجلس فوق صندوق الى جانب السرير : «فى يوم الخميس صباحا» ثم اضاف : «حسنا ، أتشعرين بأى تحسن ؟»

غام وجه ايلينشنا وقالت :

— كالسابق . آلام قاتلة فى كل مفاصلى .

استاء بانتلاى بروكوفتش وهو يرسم بعصاه دوائر واسعة على الارض :

— قلت لك الا تدخلى فى الماء ياحمقاء . وفى الخريف ايضا ! كنت تعرفين ما سيصيبك . كان هناك العديد من النساء بوسعهن ان ينقعن ذلك القنب عليه اللعنة . . . على جميعه اللعنة ! اواه يارب !

— لم يكن بوسعى ان ادع القنب يتلف . لم يكن هناك نساء . فغريشا كان يحرث مع امرأته ، وبيوتر وداريا خرجا الى مكان ما .

فنفخ العجوز فى كفيه المضمومتين على شكل قدح ، ومال على السرير .

— وكيف حال ناتاليا ؟

وحين اجابت ايلينشنا كان ثمة نبرة قلق فى صوتها :

— لا ادرى ما العمل . عادت تبكى من جديد قبل ايام . خرجت الى الفناء فوجدت ان احدهم ترك باب المخزن مفتوحا على مصراعيه . مضيت لاغلقه ، فوجدتها واقفة الى جانب مستودع الدخن . سألتها عما حدث ، بيد انها قالت انها تشعر بالصداع وحسب . انا لا استطيع ان اقف على الحقيقة منها .

— لعلها مريضة ؟

— كلا . سألتها . اما انها اصيبت بالعين ، اواختلفت مع غريشا . . .

— لعله لم يستأنف علاقته بتلك المرأة بشكل من الاشكال ؟

فهتفت ايلينشنا وهى تلوح بذراعيها فى ذعر :

— يالهى ، لا ! ما هذا الذى تقول ؟ ماذا تظن ستيبان . . . احمق ؟ كلا ، انا لم الاحظ شيئا من هذا القبيل .

جلس العجوز الى زوجته قليلا ، ثم خرج .

كان غريغورى فى غرفته يسن صنارات الصيد بمبرد . وكانت ناتاليا تدهنها بشحم الخنزير وتلف كل واحدة منها فى خرقة بعناية . وحينما مر بانتلاى بروكوفتش بها وهو يعرج ، حدجها متفحصا . كان خداها الشاحبان متوردين كورقة خريفية . لقد امست اكثر نحولا ، بصورة جلية ، خلال الشهر الاخير ، وكانت فى عينيها نظرة بائسة لم يألفها من قبل . فتمهل العجوز عند الباب ، وقال لنفسه فيما نظر وراءه الى رأس ناتاليا الناعم المنحنى فوق المصطبة : «انه يقتل البنت !»

كان غريغورى جالسا على مقربة من الشباك ، وكانت ناصية شعره الشعثاء السوداء تهتز لكل شحذة مبرد .

صاح العجوز وقد قتم وجهه بسورة غضب مفاجىء : «دع هذا ، ليأخذ الشيطان روحك !» وشد على عصاه لكى لا يضرب ابنه فاهتز غريغورى ورفع نظره مندهشا .

— لدى سنان اخران اشحذهما ، يا ابتاه .

— دعه ، قلت لك ! استعد لقطع الاخشاب .

— حالا .

ثم اضاف العجوز بلهجة اهدأ :

— الزحافات غير معدة مطلقا ، وانت جالس تسن الصنارات . — وتلكأ عند الباب اذ كان واضحا انه يريد ان يقول شيئا آخر . لكنه خرج . وسمعه غريغورى ينفث بقية غضبه على بيوتر .

بينما غريغورى يرتدى معطفه سمع اباه يصيح فى الحوش :

— الم تروى الماشية بعد ، ايتها الكسول ! ومن عبث بكومة التبن بجانب السياج ؟ ألم اقل الا تمسوها ؟ ستأتون على كل التبن الجديد ، لعنة الله عليكم ، فماذا ستطعمون الثيران فى الربيع اثناء الحراثة ؟

فى يوم الخميس ، وقبل ساعتين من بزوغ الفجر ، ايقظت ايلينشنا داريا : «انهضى ! حان وقت اشعال النار !»

فجرت داريا فى قميص نومها الى الموقد ، ووجدت بعض عيدان الثقاب ، واشعلت واحدة .

استحث بيوتر زوجته ساعلا وهو يشعل سيكارة : «تحركى !» فحمحمت داريا بامتعاض وهى لما تزل نصف مستيقظة : «لا يذهبون لايقاظ ناتاليا تلك . يشفقون عليها بينما هى نائمة بلا حياء . هل ينبغى علىّ ان اقطع نفسى نصفين ؟» فنصحها بيوتر : «اذهبى وايقظيها بنفسك .» لكن النصيحة كانت غير ضرورية ، اذ ان ناتاليا قد استيقظت سلفا ، وخرجت لتحضر الوقود للنار وهى ترتدى بلوزتها .

فقالت عديلتها آمرة : «اجلبى بعض الحطيبات .»

وصاحت ايلينشنا بصوت مبحوح وهى تمشى فى المطبخ ذهابا وايابا بمشقة : «اخبرى دونيا ان تجلب الماء ، يادارياً ، أتسمعين ؟»

وانبعثت من المطبخ رائحة حشائش الدينار الجديدة ، وعدة الخيل ودفء الاجسام البشرية . وتنقلت داريا هنا وهناك بجزمتها اللبادية . وهى تطقطق بالاوانى ، ونهداها الصغيران يرتعشان تحت قميصها الوردى باكمامه المشمرة ، اذ لم تفسد جسمها الحياة الزوجية ولا اذبلته . وكانت تبدو كفتاة يافعة ، طويلة ، هيفاء ، لدنة كعود الصفصاف . كانت تمشى هازة كتفيها ، وتضحك من

صباح زوجها ، فيتكشف صف راسخ من الاسنان المتراصة تحت الحافة الرقيقة لشفتيها الشرهتين .

ودمدمت ايلينشنا بامتعاض : «كان عليك ان تجلبى خشبا للوقود قبل ليلة ، اذن لكانت قد جفت فى الموقد .»

فأجابت داريا : «نسيت ياأماه . لاحيلة لى فى ذلك .»

تنفس الفجر اثناء اعداد الطعام ، فأسرع بانتلاى بروكوفتش فى افطاره وهو ينفخ فى العصيدة . وأكل غريغورى العابس ببطء واكتئاب ، وعضلات فكيه تختلج صاعدة هابطة ، وتسلى بيوتر ، دون ان يلاحظه ابوه ، باغاظة دونيا التى كانت تعانى من وجع الاسنان وقد ربطت وجهها برباط .

كان صوت مزالق الزحافات يصل من الشارع . وكانت زحافات الثيران تمضى نازلة الى النهر فى الفجر الرمادى . خرج غريغورى وبيوتر لشد الخيل الى زحافتيهما . وفيما كان غريغورى خارجا لف حول رقبته لفاحا ناعما ، وهو هدية عروسته قبل الزواج ، وكان يتنفس بنهم فى الهواء الزمهرير الجاف . وطار غراب فوق الفناء مطلقا صرخة قوية . وكان بالامكان سماع حفيف جناحيه الخافقين على مهل ، بصورة واضحة خلل السكون الصقيعى . راقب بيوتر طيرانه وعلق قائلا : «يطير الى الجنوب ، الى الدفء .»

ومن وراء غيمة وردية صغيرة ، مرحة كابتسامة صبية ، تلألأت بخفوت شقفة صغيرة من القمر . وارتفع الدخان من المداخن ، اعمدة مستقيمة منطلقة صوب النصل الذهبى المذيب ، النائى المنيع ، للقمر الافل .

لم يكن النهر متجمدا تماما قبالة دار ميليخوف . وعلى امتداد حافتى المجرى كان الجليد قويا اخضر تحت الثلج المنجرف . وتحت الجليد تقبقب وتتفقئ الفقاقيع ، ولكن ما وراء الوسط حيث

انسابت العيون بالقرب من الضفة اليسرى ، كانت ثمة ثغرة فاغرة فاها ، مرعبة داكنة وسط البياض المتآكل . وكان السماء مرقطا بالبط البرى الذى يقضى شتاءه هناك .

وبدأ الطريق الى النهر من ميدان القرية . مضى بانتلاى بروكوفتش اولا بالثورين الكبيرين تاركا ولديه ليلحقا به فيما بعد . وعلى المنحدر ، عند تقاطع النهر ، لحق بيوتر وغريغورى بأنيكوشكا الذى كان يمشى الى جانب ثيرانه ، ومقبض فأس جديدة يبرز من زحافته ، وكان مرتديا نطاقا عريضا اخضر ، بينما كانت زوجته القميئة المعلولة تمسك بالاعنة . صاح بيوتر عليه من بعيد :

— ايها الجار ، لا بد انك اخذت امرأتك معك ؟

فابتسم انيكوشكا ، وهو يتوثب ليحتفظ بدفئه ، ومضى الى الاخوين .

— اخذتها لكى تدفئنى .

— لن تكسب منها دفئا ، فهى هزيلة جدا .

— هذا صحيح . انا اطعمها الشوفان ، ومع ذلك فهى لا تسمن !

وتساءل غريغورى قافزا من الزحافة :

— هل ستقطع الخشب فى الموضع نفسه ؟

— اجل ، اذا اعطيتنى سيكارة .

— لقد كنت طول عمرك تحب العيش على حساب الاخرين .

فقهقه انيكوشكا قائلا ، مجهدا وجهه الانثوى الحليق بابتسامة :

— احلى الاشياء فى الحياة ما يسرق ويستجدى .

ومضى الثلاثة معا . كانت الغابة موشاة بالصقيع الناصع ، وذات بياض عذرى . ركب انيكوشكا فى المقدمة ضاربا بسوطه

الاغصان فوقه فراحت بلورات الثلج المدببة تزخ على رأس زوجته .

فصاحت به وهى تنفض الثلج عنها : «لا تعبث ، ايها الشيطان !»

فقال بيوتر ناصحا ، وهو يحاول ان يوصل سوطه الى ما تحت بطن الثور ليستحث الخطى : «القها فى الثلج» .

التقوا بستيبان استاخوف ، عند احد منحنيات الطريق ، وهو يسوق ثورين مشدودين الى نير ، عائدا الى القرية . وكان النعلان الجلديان فى جزمته اللبادية يصرفان على الثلج فيما كان يمشى بخطوات واسعة وخصلته المجعدة مدلاة تحت قبعة الفرو المائلة الى جانب كعنقود من العنب الابيض .

صاح انيكوشكا ، اثناء مروره :

— هى ، ستيبان ، أضللت طريقك ؟

— اللعنة على ضلال الطريق ! اصطدمت العربة بجذع شجرة فانشطر حديد الزحافة الى نصفين . ولذا يتعين علىّ ان اعود .

وصب ستيبان سيلا من السباب البذىء ، وضاقت عيناه الفاتحتان الشقيتان حينما مر ببيوتر .

فسأله انيكوشكا متلفتا : «خلفت زحافتك وراءك ؟»

فتجاهل ستيبان السؤال ملوّحا بيده ، ثم رفع سوطه على الثيران التى كانت تحيد عن الممشى ، ورمق غريغورى بنظرة طويلة حينما مر به . وعلى مبعدة قليلة وصلت الجماعة الى زحافة متروكة فى وسط الطريق . وكانت اكسينيا تقف الى جانبها ، تشخص ببصرها على امتداد الطريق فى اتجاههم ، وهى تمسك طرف فروتها بيدها اليسرى .

فزأر انيكوشكا :

— تنحى عن الطريق والا سحقتك . ها — ها ، انت التى تصلحين زوجة لى !

فتنحت اكسينيا جانبا وهى تبتسم ، واقتعدت الزحافة المكسورة .

— ها هى زوجتك تجلس معك .

— اجل انها تلتصق بى مثلما تلتصق شوكة بذيل خنزير ، والا لاوصلتك .

— شكرا جزيلا .

وحينما وصل بيوتر اليها القى نظرة سريعة الى الوراء نحو غريغورى . اما غريغورى فكان يبتسم مترددا ، والاضطراب والترقب ظاهران فى كل حركاته . حياها بيوتر وهو يمس قبعته بقفازه غير المصبع :

— اتمنى ان تكون صحتك طيبة ، ايتها الجارة .

— الحمد لله .

وسألها بيوتر :

— ماذا ، الزحافة مكسورة ؟

فأجابت ببطء دون ان تنظر الى بيوتر : «نعم ، انها كذلك» واستدارت صوب غريغورى وهى تنهض على قدميها وقالت حينما اقترب منها : «غريغورى بانتلاييفتش ، لى كلمة معك» .

استدار غريغورى اليها قائلا لبيوتر :

— راقب ثيرانى .

— ها — ضحك بيوتر ضحكة ذات مغزى ، ومضى وهو يعض على طرف شاربه المرير الطعم من دخان التبغ .

وقف الاثنان فى صمت احدهما قبالة الاخر . تلفتت اكسينيا حولها بقلق ثم ادارت عينيها الشفافتين السوداوين نحو

وجه غريغورى من جديد . كان الخجل والفرح يلتهبان فى خديها وقد أيبسا شفتيها . وصارت انفاسها شهقات حادة .

وعند احد منحنيات الطريق ، اختفى بيوتر وانيكوشكا وراء جذوع البلوط البنية اللون . نظر غريغورى مباشرة فى عينى آكسينيا ورأى فيهما شرارة داعبة جريئة .

وقالت بثبات :

— حسنا ياغريشا ، افعل ما تشاء ، ولكننى لا استطيع الحياة بدونك ، — وضغطت شفتيها معا منتظرة جوابه .

لم يجب غريغورى . كان الصمت مطبقا على الغابة . ون فراغ زجاجى فى اذنيه . سطح الطريق اللامع الصقيل بفعل مزالق الزحافات ، خرقة السماء الرمادية ، الغابة ، خرساء ، وسنانة موات . . . وانبعثت صرخة مفاجئة لغراب قريب بدت كأنها ايقظت غريغورى من سباته الطارىء . فرفع رأسه وراقب الطير الاسود المزرق يخفق بجناحيه مودعا مبتعدا فى طيران صامـــــت . واصابته الدهشة حين سمع نفسه يقول : «سيصبح الجو دافئا . انه يطير صوب الدفء .» وبدا كأنه ينفض نفسه ، فضحك بصوت اجش . «حسنا» . وادار عينيه الثملتين خلسة الى آكسينيا ، وفجأة جذبها اليه .

٩

فى امسيات الشتاء اعتادت جماعة صغيرة من القرويين ان تلتئم فى غرفة شتوكمان بمنزل لوكيشكا . كان بينهم كريستونيا ، و«ولد» الطاحونة وقد تدلت سترة ملطخة بالدهان على كتفيه ، ودافيد دائم الابتسام (الذى امضى حتى الان ثلاثة اشهر فى

التسكع) ، ومشغل الماكنة ، ايفان كوتلياروف ، واحيانا فيلكا الاسكافى ، ودائما ميشا كوشيفوى وهو قوزاقى شاب لم يـــؤد بعد خدمته العسكرية النظامية .

فى البدء ، كانت الجماعة تلعب الورق . ثم احضر شتوكمان عن غير طريق المصادفة كتابا يضم شعرا لنيكراسوف . وبدأوا يقرأون الكتاب بصوت مسموع ، واحبوه . ثم انتقلوا الى نيكيتين ، وقبل عيد الميلاد اقترح شتوكمان قراءة كتيب مثنى الزوايا ، غير مجلد . فنظر كوشيفوى باحتقار الى الصفحات المدهنة ، وكان قد تخرج من مدرسة الكنيسة وفى مقدوره ان يقرأ بصوت عال . وقال :

— تستطيع ان تصنع منه شعرية ، انه مدهن جدا .

فزأر كريستونيا بالضحك ، وابتسم دافيد ابتسامة مشرقة لكن شتوكمان انتظر حتى خبا المرح ، ثم قال :

— اقرأه ، يا ميشا . انه ممتع . كله عن القوزاق .

فامال كوشيفوى رأسه بذؤابته الشقراء فوق المنضدة وقرأ مقطعا الكلمات : «موجز تاريخ قوزاق الدون» ، ثم أجال بصره على الجميع مضيقا عينيه فى انتظار . وقال له ايفان الكسييفتش : «اقرأ» . وانكبوا على الكتاب ثلاث امسيات ، يقرأون عن الحياة الطليقة فى الماضى ، عن بوكاتشوف وستنكا رازين وكوندراتى بولافين واخيرا وصلوا الى العصور المتأخرة . وصب المؤلف المجهول ازدراءه على حياة القوزاق البائسة ، وسخر من السلطات والنظام القائم ، وحكومة القيصر ، ومن النظام القوزاقى نفسه الذى جعل من القوزاق مسخرين تابعين للملوك . فسرت فى السامعين موجة انفعال وجعلوا يتجادلون فيما بينهم . وتكلم كريستونيا بصوته الهادر ، ورأسه يلامس عمود السقف ، بينما جلس شتوكمان قرب الباب يدخن سيكارته بمبسم من العظم وعيناه تبتسمان .

انفجر كريستونيا :

— انه على حق ! كله صحيح !

— ليس ذنبنا ان يتزل هذا العار على القوزاق . — ونشر كوشيفوى ذراعيه فى حيرة ، وجعد وجهه الوسيم ذى العينيـــن الداكنتين . كان مكتنز البدن ، عريض المنكبين والردفين ، يكاد يكون مربع الشكل . ومن قاعدة جسده الحديدية ارتفعت رقبة راسخة حمراء بلون الطابوق ، بدا عليها رأسه الصغير المهيب غريبا عما يحيط به ، بوجنتيه الناعمتين الانثويتين ، وفمه الصغير العنيد ، وعينيه الداكنتين تحت الواجهة الذهبية لشعره المجعد . اما مشغل الماكنة كوتلياروف ، وهو قوزاقى نحيل طويل ، فقد كان غارقا حتى العظم فى تقاليد القوزاق ، وكانت عيناه الجاحظتان المستديرتان تومضان وهو يدافع عن القوزاق فى نقاش عنيف مع كريستونيا :

— انت تميل الى الفلاح ، ياكريستونيا ، وليس لديك سوى قطرة واحدة من الدم القوزاقى مقابل دلو من الماء . لقد تزوجت امك فلاحا من فورونيج .

فهدر كريستونيا :

— انت احمق ، احمق ، ايها الاخ ! انا ادافع عن الحقيقة .

فقال كوتلياروف متخابثا :

— لم اكن فى الحرس الملكى . فكل من هناك احمق .

— وهناك اشخاص ميئوس منهم ، فى بقية الجيش ، ايضا .

— صه يا فلاح !

— أليس الفلاحون رجالا بقدر ما انت رجل ؟

— انهم مصنوعون من قشور الاشجار ومحشوون بالدغل .

فقال كريستونيا ، ولهجته الجنوبية تبرز بقوة :

— حينما كنت فى بطرسبورغ ، ايها الاخ ، رأيت اشياء عديدة . حدث ذات مرة ان كنا فى نوبة حراسة فى قصر القيصر ، من الداخل والخارج . اعتدنا ان نمضى على خيلنا حول القصر ، اثنين من هنا ، واثنين من هناك . وحين كنا نلتقى ، اعتدنا ان نسأل : «اكل شىء هادئ ، لا اضطراب فى اى مكان ؟» ثم نمضى . لم يكن يسمح لنا بالتوقف والكلام . لقد اختارونا بسبب من ملامحنا . وحين كان علينا ان نأخذ نوبة حراستنا عند الابواب كانوا يختارون كل زوج منا بحيث يتشابهان فى الوجه والقوام والشعر . حتى ان الحلاق اضطر ذات مرة ان يصبغ لحيتى بسبب هذه الحماقة . كان علىّ ان اخذ نوبة حراستى مع قوزاقى فى سريتنا ، له لحية بلون الحصان الاحمر ، نوعا ما . ليحل بى الطاعون إن كنت ادرى من اين جاء بمثل تلك اللحية ، لا بد ان نارا لفحتها او شيئا من هذا القبيل . بحثوا فى كل الكتيبة ولم يكن ثمة من يشبهه . وهكذا ارسلنى آمر الرعيل الى الحلاق ليصبغ لى لحيتى وشاربى . ولما نظرت الى نفسى فى المرآة فيما بعد ، كاد قلبى ان ينفطر . كنت ابدو كما لو كانت النار تلتهمنى . صدقونى . كان لمس لحيتى كفيلا بسلق اصابعى !

فقاطعه كوتلياروف :

— ها انه يخرج عن الصدد ، هذا المهذار العتيق ، ولكن عم كنا نتكلم ؟

— عن الناس .

— طيب فأخبرنا عنهم . ماذا ، بحق الجحيم ، عسانا نريد من سماعك تتحدث عن لحيتك !

— حسنا ، وكما كنت على وشك ان اقول . كان علىّ

ذات مرة ان اخذ نوبة حراسة خارج القصر . كنا راكبيـــن ، انا ورفيقى ، حينما جاء غوغاء من الطلاب يركضون من منعطف القصر . كانوا محتشدين كأنهم ذباب ! وحالما رأونا زأروا : هاه ! مرة اخرى : هاه ! وقبل ان ندرك ما العمل احاطوا بنا وسألنا احدهم : «ماذا تفعلون ايها القوزاق ؟» فقلت «نقوم بالحراسة ، وانت ايها الفتى ، ارفع يدك عن الاعنة» ، وصفقت يـــدى على سيفى . فقال : «لا تسىء فهمى ، ايها القوزاقى ، فانا ايضا من منطقة كامنسكايا ، ادرس فى الجامعة ، او الجومعة» ، او اى اسم تطلقون عليها . تهيأنا للمضى ، فاذا بأحدهم ، كان ذا انف كبير يخرج قطعة من فئة العشرة روبلات ويقول : «اشربا نخب صحة والدى الميت .» ثم اخرج صورة من جيبه وقال : «انظر ، هو ذا ابى . خذها تذكارا .» حسنا ، اخذناها ، لم نستطع ان نرفض . ثم ابتعدوا وزأروا من جديد هاه ! واتجهوا نحو شارع نيفسكى . وفى تلك اللحظة ، جاء ملازم اول خارجا من بوابات القصر الخلفية على حصانه يصحبه رعيل من الرجال . صاح : «ماذا حدث ؟» فأخبرته ان طلابا قد اتوا واحاطوا بنا وشرعوا يتحدثون الينا ، واننا اردنا ان نضربهم بالسيف حسب التعليمات ، ولكن بما انهم تركونا فقد مضينا فى طريقنا . وحينما انهينا واجبنا فيما بعد ، اخبرنا نائب العريف اننا قد حصلنا على عشرة روبلات ونريد ان نشرب بها فى ذكرى الرجل العجوز ، واريناه الصورة . وفى المساء ، جاء نائب العريف بشىء من الفودكا ، فقضينا وقتا طيبا طيلة يومين . لكننا اكتشفنا فيما بعد اين كانت الخدعة . اذ تبين ان هذا الطالب ، هذا السافل ، كان قد اعطانا صورة اكبر مثير للاضطرابات فى ألمانيا . صدقته وعلقت الصورة فوق سريرى للذكرى . كانت له لحية شهباء ، ويبدو رجلا معتبرا .

واغلب الظن انه من التجار . لكن الملازم الاول حين رآها سأل : «من اين حصلت على هذه الصورة ، يا ابن الحلال ؟» فاخبرته ، فاذا به يسبنى ويلكمنى على وجهى : «أتعرف من هذا ؟ انه أتمانهم كارل . . .» اللعنة ، لقد نسيت اسمه ، هيا ، ما كان اسمه ؟ . .

فقال شتوكمان مبتسما : «كارل ماركس ؟»

فصاح كريستونيا جذلا :

— هو ذاك ، كارل ماركس . لقد سبب لى متاعب ، حقا . كان حتى ولى العهد اليكسى ومعلموه قد اعتادوا ان يدخلوا غرفة الحرس . فكان من المحتمل ان يروها . ماذا كان يمكن ان يحدث ؟

فقهقه كوتلياروف :

— وتظل تمتدح الفلاحين . كانوا سيشبعونك ضربا .

— لكننا شربنا بالعشرة روبلات . ولو نخب كارل الملتحى ولكن شربنا !

فابتسم شتوكمان وهو يعبث بمبسم سيكارته وقال :

— يستحق الشرب نخبه .

فتساءل كوشيفوى :

— لماذا ، اى خير فعل ؟

— سأخبرك فى مناسبة اخرى ، فالوقت متأخر الان .

وامسك شتوكمان المبسم بين اصابعه ، وقذف عقب السيكارة المطفأ بضربة من يده الاخرى .

بعد غربلة واختبار طويلين ، بدأت جماعة صغيرة قوامها عشرة قوزاق تجتمع بانتظام فى ورشة شتوكمان . كان شتوكمان قلب الجماعة وروحها ، وراح يعمل بعناد فى اتجاه هدف لم يدركه

احد غيره . كان ينخر فى المدركات والمفاهيم البسيطة كما تنخر دودة فى الخشب ، يبث النفور والكراهية ضد النظام القائم . ووجد نفسه فى البداية يواجه فولاذ الشك البارد ، ولكن عزيمته لم تكن لتثبط فحتى الشك يمكن ان يزال .

١٠

على المنحدر الرملى للضفة اليسرى للدون تقع قصبة فيشنسكايا ، اقدم قصبة فى الدون الاعلى . كانت فى الاصل تدعى تشيكوناتسكى ، ثم نقلت الى موضع جديد بعد ان دمرت اثناء حكم بطرس الاول ، وسميت فيشنسكايا . وكانت فى السابق همزة وصل مهمة على الطريق المائى العظيم بين فورونيج وآزوف .

مقابل فيشنسكايا ينحنى الدون كقوس تتارى ، وينعطف بحدة الى اليمين والى جانب قرية بازكى الصغيرة يعود فيستقيم فى جلال وروعة ، حاملا ماءه الازرق المخضوضر مرورا بالشعب الطباشيرية للتلال القائمة على الضفة اليمنى ، ثم يمضى ، وعلى يمناه قرى متراصة ، وعلى يساره قصبات متباعدة ، منحدرا نحو البحر ، نحو بحر آزوف الازرق .

وفى اوست–خوبيرسكايا ، ينضم اليه رافده خوبر ، وفى اوست–مدفديتسكايا الرافد مدفيتسا ، ثم ينساب عميقا غزيرا بين كثرة غير منتظمة من القرى والقصبات الكثيفة السكان .

تقع قصبة فيشنسكايا بين كثبان رملية صفراء . وهى مكان اجرد بائس لا يساتين فيه ، تقوم فى ساحتها كنيسة قديمة ، رمادية من القدم ، وتمتد من الساحة ستة شوارع فى خطوط موازية للنهر . وحيث ينحنى الدون صوب بازكى تتفرع بحيرة بسعة الدون ايام الصيهود ، متوغلة فى اجمة من شجر الحور . وينحدر طرف

فيشنسكايا الى هذه البحيرة ، وفى ساحة اصغر تغطيها اشواك ناتئة ذهبية ، تقوم كنيسة ثانية ، ذات قباب خضر وسقف اخضر ينسجم مع اخضرار اشجار الحور فى الجانب الاخر من البحيرة .

ويمتد وراء القرية ، شمالا ، قفر زعفرانى من الرمال ، ومزرعة صنوبر واطئ ، ومنخفضات ماؤها وردى بسبب من التربة الطينية الحمراء . وتنتشر هنا وهناك فى الفلاة الرملية قرى كالواحات النادرة ، ومروج ونجيل صدىء من الصفصاف .

ذات يوم احد فى كانون الاول ، تجمع فى الساحة خارج الكنيسة القديمة حشد كثيف قوامه خمسمائة شاب قوزاقى جاءوا من جميع قرى المنطقة . انتهى القداس واخذت الاجراس ترن ، واصدر العريف الاقدم أمره ، وهو قوزاقى عجوز شجاع يحمل نياشين خدمة طويلة ، فانتظم الشباب صفين طويلين ملتويين . وتراكض العرفاء جيئة وذهابا لتنظيم اصطفافهم .

وهدر العريف «مراتب !» ، ثم صاح وهو يحرك يده بصورة مبهمة : «تجمع فى اربع !»

ثم دخل الاتمان الى فناء الكنيسة مرتديا بزة المناسبة ومعطف ضباط جديد ، ومهمازاه يجلجلان ، يتبعه شرطى عسكرى .

كان غريغورى ميليخوف واقفا الى جانب ميتكا كورشونوف ، وسمعه يقول بصوت خافت :

— جزمتى تضغط على قدمى . لااستطيع صبرا .

— اثبت ، انهم سيجعلونك اتمانا .

— سوف نمضى عما قريب .

وكما لو تأكد ظنه ، فقد ارتد العريف الاقدم خطوة او خطوتين ، واستدار على عقبيه بحدة ، وصاح :

— الى اليمين ، در . . .

وصلت الى المسامع طقطقة اقدام خمسمئة شخص يستديرون بدفعة واحدة الى اليمين .

— الى الامام ، سر !

ومضى الطابور خلال البوابة المفتوحة للكنيسة ، والتمعت القبعات وهى تخلع عن الرؤوس وتردد صدى وقع الاقدام فى انحاء الكنيسة حتى القبة .

لم يعر غريغورى اى اهتمام لكلمات يمين الولاء الذى تلاه القس . كان ينظر الى ميتكا كورشونوف الذى يحرك قدمه ووجهه يتلوى ألما من جزمته الجديدة الضيقة . واخذت ذراع غريغورى المرفوعة تخدر ، وخليط مؤلم من الافكار يدور فى ذهنه . وحينما وصل الى الصليب وقبل فضته ، تذكر اكسينيا ، وزوجته ، وبفجاءة وميض البرق المتشعب ، لاحت له صورة الغابة ، وجذوعها واغصانها البنية يغطيها زغب ابيض ، والبريق المخضل لعينى اكسينيا السوداوين تحت عصابة رأسها . . .

وحينما انتهى الاحتفال سيقوا الى الساحة ، واصطفوا من جديد ، تمخط العريف ومسح اصابعه خلسة ببطانة معطفه ، وخاطبهم :

— انكم لم تعودوا صبية الان ، لقد غدوتم قوزاقا . لقد اقسمتم اليمين ، وعليكم ان تفهموا ما يعنى ذلك ، لقد صرتم قوزاقا وعليكم ان تحافظوا على شرفكم ، ان تطيعوا آباءكم وامهاتكم وما الى ذلك . كنتم صبية ذات مرة ، وكان لكم هـزلكم والعابكم — اظن انكم اعدتم ان تلعبوا «الحاح» * فى الدروب —

* الحاح : مصطلح عراقى للعبة الاطفال التى يرفع فيها وتد خشبى صغير يوضع على الارض بضربة بطرف عصا ، فاذا ما ارتفع قليلا ضرب بالعصا فى الهواء . **المترجمون** .

لكن الان عليكم ان تفكروا بخدمتكم العسكرية القادمة . وبعد عام من الزمن سيستدعونكم للجيش . . .

هنا تمخط العريف مرة اخرى ، ونفض يده لينظفها من المخاط ، وختم خطبته وهو يلبس قفازيه المصنوعين من فراء الارنب :

— يجب على آبائكم وامهاتكم ان يفكروا باعداد تجهيزاتكم . يجب ان يزودوكم بحصان للجيش ، و. . . . والان ، اذهبوا الى بيوتكم ، والله معكم ، يا اولادى .

بالقرب من الجسر انتظر غريغورى وميتكا بقية اولاد قريتهما ، وانطلقوا اليها سوية . عادوا سيرا على امتداد الدون . كان دخان مواقد الاكواخ ينعقد حزما فوق قرية بازكى ، وكانت ثمة اجراس كنيسة تدق ضعيفة . وكان ميتكا يحجل وراء الاخرين متكئا على عصا معقدة اقتطعها من سياج .

نصحه احد الاولاد :

— اخلع جزمتك .

فأجاب ميتكا مترددا :

— ستصاب قدمى بضربة صقيع .

— تستطيع ان تظل بجوربك .

فجلس ميتكا على الثلج ونزع جزمته بجهد . ثم استأنف سيره ، وهو يخطو بتثاقل على قدمه المجوربة . وكان جوربـــه المحاك السميك يترك اثرا حادا على الثلج الهش .

تساءل اليكسى بيشنياك القمىء :

— اى طريق سنسلك ؟

فاجاب غريغورى عن الجميع :

— على امتداد الدون .

ومضوا ، يتحدثون واحدهم يدفع الاخر خارج الطريق او يوقعه ارضا ، فيتكوم عليه الاخرون . وبين بازكى وكرومكوفسكى كان ميتكا اول من شخص ذئبا يعبر الدون .

— انظروا ، يا اولاد ، ذاك ذئب !

فشرع القوزاق الشباب يصرخون ويزعقون ، فابتعد الذئب ببطء ، ثم توقف فى وضع جانبى ليس بعيدا عن الضفة المقابلة .

— امسكه !

— حقا !

— ليأخذك الشيطان !

— انه ينظر اليك ، يا ميتكا ، انت تمشى فى جوربك .

— يقف فى وضع جانبى لان رقبته لا تسمح له بالاستدارة !

— يا لرقبته الغليظة !

— انظر ، هو ذا يذهب !

وقف الهيكل الرمادى منتصبا لحظة ، كما لو كان منحوتا من حجر الصوان وذيله مرتفع ، ثم قفز قفزة عجلى وانسل مبتعدا داخل الصفصاف المؤطر للشاطئ .

وصلوا القرية فى الغسق . فاتخذ غريغورى طريقه على امتداد الجليد الى الممشى الصاعد الى داره . كانت ثمة زحافة مهملة فى الفناء ، وكانت العصافير ترفرف على كومة من الدغل ملقاة على مقربة من السياج . واستشعر رائحة المنزل ، والهباب المحروق ، ورائحة الاصطبلات الوخمة .

صعد غريغورى درجات الدار ونظر الى الداخل خلال النافذة . كان المصباح المدلى ينشر ضوءا اصفر باهتا فى المطبخ . وكان بيوتر واقفا فى الضوء وظهره الى النافذة . فنفض غريغورى الثلج من جزمته بالمقشة عند الباب ، ودلف الى المطبخ وسط عصفة من البخار .

— حسنا ، ها انذا قد عدت . مساء الخير !

فأجاب بيوتر بلهجة مضطربة مستعجلة :

— لقد عدت بسرعة . احسب انك متجمد .

كان بانتلاى بروكوفتش جالسا ورأسه بين يديه ، ومرفقاه على ركبتيه . وكانت داريا تغزل على الدولاب الطنان وناتاليا تقف الى المائدة وظهرها الى غريغورى ، ولم تستدر لدى دخوله . واجال غريغورى نظره فى ارجاء المطبخ ثم ثبت عينيه على بيوتر . ونمّ وجه اخيه المترقب عن حدوث شىء سئ .

— هل اقسمت اليمين ؟

— نعم .

خلع غريغورى ملابسه ببطء ، محاولا كسب الوقت وهو يقلب بسرعة فى ذهنه كل الاحتمالات التى تكون قد ادت الى هذا الاستقبال البارد الصامت .

وخرجت ايلينشنا من غرفة الزوار بوجه يعبر عن قلقها .

وحدث غريغورى نفسه فيما هو يجلس الى المصطبة الى جانب ابيه : «انها ناتاليا !»

وقالت امه لداريا وهى تشير بعينها الى غريغورى : «احضرى له بعض العشاء» فتوقفت داريا عن اغنية غزلها ، ومضت الى الموقد وقوامها الفتى يتمايل عند الخصر وهى تحرك بكتفيها . كان الصمت مطبقا على المطبخ ، لا يقطعه سوى تنفس ثقيل لعنزة وليدها الجديد التى تتدفأ بالقرب من الموقد .

وبينما كان غريغورى يرتشف حساءه ، اختلس النظر الى ناتاليا بيد انه لم يستطع ان يرى وجهها ، اذ كانت تجلس منحرفة عنه ، ورأسها محنى على ابر حياكتها . وكان بانتلاى بروكوفتش اول من استفزه الصمت الشامل ليتكلم فتنحنح بافتعال ، وقال :

— ان ناتاليا تتحدث عن عودتها الى والديها .

ضغط غريغورى بيده على بعض فتات الخبز وكوره ، ولم يقل شيئا . فتساءل ابوه وشفته السفلى ترتعش ، وهذه اولى علامات النذير بانفجار جنونى مقبل :

— ولم هذا ؟

فأجاب غريغورى وهو ينهض ويرسم علامة الصليب عليه ، ثم ضيق عينيه وابعد قصعته :

— لست ادرى .

فرفع ابوه صوته :

— لكننى ادرى !

فتدخلت ايلينشنا :

— لا تصرخ ، لا تصرخ !

— لكننى ادرى !

وتقدم بيوتر من النافذة الى وسط الغرفة وقال :

— ليس هناك ما يدعو للصراخ . الامر متروك لها . اذا ارادت البقاء يمكنها ان تبقى ، واذا لم ترد ، حسنا . . . فليكن الله معها !

— اننى لا الومها . لا شك انه عار وخطيئة امام الله ان تترك زوجها ، لكننى لا ألومها . ليس الخطأ خطأها ، لكن خطأ ابن القحبة هذا .

واشار الى غريغورى الذى كان متكئا بظهره على الموقد .

فتساءل غريغورى :

— لمن اسأت ؟

— ألا تعرف ؟ ألا تعرف ، ياشيطان ؟

— كلا لا اعرف .

فقفز بانتلاى بروكوفتش ، قالبا المصطبة ، ومضى لصق غريغورى . واسقطت ناتاليا جوربها ، وندَّ صوت عن الابر الساقطة على الارض . وعلى الصوت نطت قطيطة من الموقد وبدأت تطبطب كرة الصوف باتجاه الصندوق ، وقد مال رأسها الى جانب وتقوس مخلبها .

وبدأ العجوز يتكلم مسيطرا على نفسه ومقطعا كلماته :

— ما اريد ان اقوله لك هو : اذا لم تعش مع ناتاليا ، فبوسعك ان تجلو عن هذه الدار وتذهب حيثما تحملك قدماك . هذا ما اقوله لك . اذهب حيثما تحملك قدماك . — كرر العجوز ذلك فى صوت هادئ ، عادى ، ثم استدار وعدّل المصطبة .

كانت دونيا جالسة على الفراش وعيناها المستديرتان المذعورتان تمرقان من واحد الى اخر .

وانبعث صوت غريغورى خاويا فى نبرته :

— ان ما اقوله ، يا ابتاه ، ليس لاثارة غضبك . انا لم اتزوج باختيارى ، انت الذى زوجتنى . اما بشأن ناتاليا فلست اقف فى طريقها . تستطيع ان تذهب الى ابيها اذا شاءت .

— اخرج من هنا !

— سأفعل !

— اذهب الى الشيطان !

— انا ذاهب ، انا ذاهب ، لا تستعجل .

ومد غريغورى يده الى كم سترته الفرو ، الموضوعة على السرير ، وتوسع منخراه ، وكل بدنه يرتجف غضبا فائرا كأبيه تماما . ففى عروقهما جرى ذات المزيج من الدم التركى والقوزاقى ، كان تشابهما فى تلك اللحظة خارقا للعادة .

وتأوهت ايلينشنا وهى تمسك بذراع غريغورى : «اين ذاهب ؟»

لكنه دفعها عنه بقوة ، وامسك بقبعته التى كانت تسقط من السرير .

فأرعد العجوز دافعا الباب على مصراعيه :

— دعيه يذهب ، هذا الخنزير الاثيم ! دعيه يذهب ، عليه اللعنة ! امض ، امض ، اخرج .

فجرى غريغورى الى درجات العتبة ، وكان اخر صوت سمعه ، بكاء ناتاليا المرتفع المتفجر .

اطبقت الليلة الزمهرية قبضتها على القرية ، وكان هناك ثلج ابرى سقط من السماء السوداء ، وتشقق الجليد على الدون مرسلا صدى كطلقات مدفع . ركض غريغورى لاهثا خارج البوابة . وفى طرف القرية البعيد كانت الكلاب تنبح متنافرة ، ونقاط من الضوء صفر ، تشع خلال الغبش الصقيعى .

سار فى الشارع بلا هدف . كان سواد نوافذ استاخوف يتلألأ فى لمعان ماسى .

وتناهت الى سمعه صرخة ناتاليا اللهفى من البوابة : «غريشا !»

— اذهبى الى الجحيم ، لم اعد احبك ! — وصر غريغورى على اسنانه واستحث خطاه .

— عد ، ياغريشا !

ودلف ، متعثرا كالسكران ، فى اول تقاطع طريق ، وتناهت اليه للمرة الاخيرة صرختها النائية الملتاعة :

— غريشا ، يا حبيبى . . .

اجتاز الساحة مسرعا ، ثم توقف عند مفترق طريق ، مفكرا عند مَنْ يقضى الليلة . واستقر رأيه على ميشا كوشيفوى . كان ميشا يعيش مع امه واخته واخويه الصغيرين فى دار منفردة مسقوفة بالقش تقع الى جانب التل مباشرة . دخل غريغورى الى حوشهم ونقر على النافذه الصغيرة .

— من هناك ؟

— هل ميشا هنا ؟

— نعم ، من يريده ؟

— انا ، غريغورى ميليخوف .

وبعد لحظة فتح ميشا الباب وقد اوقظ من بداية نومه العميق :

— اهذا انت ، غريشا ؟

— هو انا .

— ماذا تريد فى هذا الوقت من الليل ؟

— دعنى ادخل ، وسنتحدث فى الداخل .

وفى الممر ، امسك غريغورى بمرفق ميشا ، وهمس ، وهو يلعن نفسه لانه لم يستطع ان يجد الكلمات المناسبة :

— اريد ان اقضى الليلة عندك . لقد تعاركت مع اهلى . ألديك مكان لى ؟ اى مكان سيكون صالحا .

— سنجد لك مكانا . وعلام تعاركت ؟

— ساخبرك فيما بعد . . . اين الباب ؟ هنا ؟ انا لا استطيع ان اراه .

اعدوا فراشا لغريغورى على المصطبة . فاستلقى ، ورأسه مدسوس تحت فروته لكى لا يسمع همس ام ميشا التى كانت تنام مع ابنتها فى فراش واحد . ساءل نفسه عما عسى ان يحدث فى البيت انذاك ؟ هل ستعود ناتاليا الى ابيها ام لا ؟ حسنا ، لقد اتخذت الحياة منحى جديدا . اين عليه ان يذهب ؟ وجاءه الجواب سريعا . سيستدعى اكسينيا فى الغد ، ويذهب معها الى الكوبان ، بعيدا من هنا . . . بعيدا ، بعيدا جدا . . .

طافت امام عينى غريغورى المغمضتين سهوب متموجة ، قرى ، قصبات مجهولة لا يشعر نحوها بحب . وراء التلال

المتموجة ، وراء الدرب الرمادى الطويل ، كان تمتد ارض ذات سماوات زرق ، ترحب به ، ارض اسطورية ، مصحوبة بحب اكسينيا ، بكل عنفوانه المتمرد والمتفتح فى وقت متأخر ، ليضفى عليها فتنة اشد .

اقض المستقبل المجهول مضجعه . وقبل ان يغفو فى النهاية ، حاول جاهدا ان يتذكر ما كان يضايقه . كانت افكاره ، وهو وسنان تنساب بسهولة ويسر ، كما ينساب زورق مع التيار ، ثم ترتطم فجأة بشىء ما ، كما يرتطم الزورق بضفة رملية ، فيتقلب من جنب الى جنب شاعرا بضغط على صدره وتساءل نفسه . تـــرى ، ما كان ذلك الشىء الذى اعترض دربه ؟

استيقظ فى الصباح وتذكر فى الحال ما هو ــ انه الخدمة العسكرية ! كيف يستطيع ان يرحل مع اكسينيا ؟ فثمة فى الربيع معسكر التدريب ، وفى الخريف تجنيده فى الجيش . ذلك هو العائق فى دربه .

تناول بعض الافطار ، ثم نادى ميشا الى الممر ، وقال له :

ــ ميشا ، اذهب الى دار استاخوف من اجلى ، رجاء ؟ قل لاكسينيا ان توافينى عند الطاحونة الهوائية هذا المساء بعد حلول الظلام .

فقال ميشا مترددا :

ــ ولكن ماذا عن ستيبان ؟

ــ قل انك جئت لامر او لاخر .

ــ حسنا ، سأذهب .

ــ اخبرها ان لابد من المجىء .

ــ حسنا .

وفى المساء ، ذهب غريغورى الى الطاحونة وجلس هناك

يدخن ، وهو يخبئ سيكارته بكمه ، كانت الريح تتعثر ، وراء الطاحونة بعيدان الذرة الذاوية . وخفقت خرقة ممزقة من الجنفاص على شراع الطاحونة الساكن المقيد . وبدا لغريغورى كأن طائرا كبيرا يرفرف فوقه ، دون ان يقوى على الطيران . لم تظهر اكسينيا . كانت الشمس قد غابت فى المغرب بلون بنفسجى مذهب ذاو ، ومن الشرق شرعت الريح تهب منعشة . وكانت الظلمة تستبق القمر المضفور بين اوراق الصفصاف . وفوق الطاحونة ، كانت السماء المخضبة ، ذات الخطوط الزرق ، مظلمة كالموت . وحومت على القرية اخر اصوات النهار الملىء بالعمل .

دخن ثلاث سكاير متوالية ، ودس العقب الاخير فى الثلج الذى وطئته الاقدام ، وتفرس حوله بحقد وقلق . وبدت فى الثلج اثار دكناء نصف مذابة لعربات مرت من هناك . لم يكن ثمة انسان على مرمى البصر . قام ، وتمطى ، وتحرك صوب الضياء المتلألىء فى نافذة ميشا الذى كان يدعوه اليه . وكان يتقدم ناحية الحوش ، وهو يصفر بين اسنانه ، فاذا به يصطدم باكسينيا وجها لوجه . يبدو انها كانت تجرى او كانت تمشى بسرعة ، اذ كانت مبهورة النفس ، تنبعث من فمها البارد المنعش نفحة من ريح الشتاء او ربما رائحة عشب السهب النضر .

ــ انتظرت وانتظرت حتى ظننت انك لن تأتى .

ــ كان علىّ ان اتخلص من ستيبان .

ــ لقد تجمدت بسببك ايتها البائسة !

ــ انا دافئة ، سأدفئك .

ونشرت معطفها المبطن بالصوف ، ولفت نفسها حول غريغورى كما يلتف نبات متسلق على شجرة بلوط .

ــ لماذا ارسلت علي ؟

— ارفعى ذراعيك عنى ، فقد يمر شخص من هنا .

— لعلك تعاركت مع اهلك ، اليس كذلك ؟

— لقد تركتهم . قضيت الليلة عند ميشا . وانا الان كلب ضال .

— وما الذى ستفعل الان ؟

وارخت اكسينيا ذراعيها ، وسحبت معطفها باحكام وهى ترتعش بردا .

— لنذهب الى السياج ، ياغريشا . لا نستطيع ان نظل واقفين هنا فى وسط الطريق .

وانعطفا عن الطريق ، واستند غريغورى الى سياج من الاسفندان ، صقيعى مطقطق ، وهو يشق طريقه فى الثلج المتكوم .

— هل ذهبت ناتاليا الى اهلها ام لا ؟

— لا اعرف . . . واتوقع ان تذهب . كيف يمكنها ان تبقى هناك ؟

ودس غريغورى يد اكسينيا المتجمدة فى كم معطفه ، وقال وهو يعتصر رسغها النحيف :

— وماذا بشأننا ؟

— لا ادرى ، ياعزيزى . الرأى ما ترتأي .

— هل تتركين ستيبان ؟

— بلا اهة ندم . هذا المساء ، ان شئت .

— وسنجد عملا فى مكان ما ، وسوف نعيش بشكل من الاشكال .

— عسى ان يشدنى الى عريش العربة ، ما دمت معك ، ياغريشا . ارضى بأى شىء فى سبيل ان ابقى معك .

وقفا متلاصقين ، يدفئ احدهما الاخر . لم يشأ غريغورى

ان يذهب ، كان يقف مواجها الريح ، ومنخراه يرتعشان ، وجفناه مطبقان وجعلت اكسينيا ، وجهها فى ابطه ، تتنسم رائحة عرقه المألوفة المسكرة ، وعلى شفتيها الشرهتين بلا حياء ، ارتعشت ابتسامة جذلى بسعادة متحققة اخفتها عن عينى غريغورى .

وقال غريغورى وهو يغير موضع قبضته على رسغ اكسينيا الذى صار رطبا بالعرق تحت اصابعه :

— ساذهب فى الغد لأرى موخوف . قد يستطيع ان يسند الىَّ عملا .

لم تتكلم اكسينيا او ترفع وجهها . وانداحت الابتسامة من وجهها كريح تتبدد . واضفى على عينيها المتسعتين القلق والخوف الكامنان فيهما ، صورة حيوان مذعور . وقالت لنفسها حينما تذكرت بأنها حبلى : «هل اخبره ام لا ؟» وقررت : «يجب ان اخبره» لكنها ، فى الحال ابعدت الخاطر الفظيع وهى ترتعش خوفا . فقد تحست بغريزة المرأة بان هذه ليست اللحظة المناسبة لاخباره ، وادركت انها قد تفقد غريغورى الى الابد . وادخلت فى حسابها انها غير متأكدة ما اذا كان الجنين المتوثب تحت فؤداها ابن غريغورى او ستيبان ، فراوغت ضميرها ولم تخبره .

سألها غريغورى وهو يلف معطفه حولها : — لم ترتعشين ؟ انت بردانة ؟

— قليلا . . . ويجب ان اذهب ، ياغريشا . سيعود ستيبان ولا يجدنى .

— اين ذهب ؟

— الى بيت انيكاى ليلعب الورق . ارغمته على ذلك .

وافترقا . وبقيت نفحة شفتيها المثيرة على شفتى غريغورى . . .

نغمة الريح الشتائية ، او ربما تلك الرائحة النائية التى تنبعث من العشب غب زخة مطر ربيعية على السهب .

انعطفت اكسينيا فى درب جانبى ، ومضت ، منحنية بشدة وهى تكاد تعدو . وبالقرب من بئر ، حيث كانت القطعان قد خلطت الوحل الخريفى ، تعثرت بارتباك وزلت قدمها فوق كتلة متجمدة ، فأحست بالم حاد فى بطنها وتعلقت بالسياج . ثم تلاشى الألم ، لكن فى جنبها كان ثمة شىء ما ، حى مختلج ، يدفر ، بغضب وقوة ، مرة تلو الاخرى .

١١

فى الصباح التالى ، ذهب غريغورى ليرى موخوف . وكان موخوف قد عاد لتوه من الحانوت ، وكان يجلس مع اتيوبين فى غرفة الطعام ، ذات الحيطان المغطاة بورق نفيس بلوطى اللون ، وهو يرتشف شايا ثقيلا ، بنفسجيا محمرا ترك غريغورى قبعته فى الردهة ودخل .

— لى كلمة معك ، يا سيرغى بلاتونوفتش .

— اه ، ابن بانتلاى ميليخوف ، اليس كذلك ؟

— نعم .

— ماذا تريد ؟

— جئت اسألك ان كنت تستطيع ان تسند لى عملا .

وبينما كان غريغورى يتكلم ، صر الباب فادار رأسه ورأى ضابطا شابا يرتدى سترة عسكرية خاكية وعلى كتفه شارات ملازم اول وفى يده جريدة مطوية . وتبين غريغورى فيه ليستنتسكى الشاب الذى غلبه ميتكا كورشونوف فى سباق الخيل فى الصيف الماضى .

فقدم موخوف كرسيا للضابط ، والتفت ثانية الى غريغورى ، وتساءل :

— هل جارت الدنيا على ابيك ليدفع ابنه للعمل ؟

— انا لم اعد اعيش معه .

— تركته ؟

— نعم .

— حسنا ، كان بودى لو اخذك . اننى اعرف ان عائلتك اناس مجدون لكننى اخشى ان ليس لدى اى عمل لك .

فتساءل ليستنتسكى جالسا وناظرا الى غريغورى :

— ما الامر ؟

— هذا الفتى يبحث عن عمل .

فسأل الضابط وهو يحرك ملعقته فى فنجانه :

— اتستطيع ان تعنى بالخيل ؟ اتستطيع ان تقودها مشدودة على العربة ؟

— استطيع . فقد كنت اعنى بخيولنا الست .

— اريد حوذيا . ما هى شروطك ؟

— لا اطمع بالكثير .

— فى هذه الحالة ، تعال الى والدى فى ضيعتنا غدا . أتعرف البيت ؟

— اجل ، اعرف ذلك .

— حوالى اثنى عشر فرستا من هنا . اذن ، تعال غدا صباحا وسنسوى الامر .

مضى غريغورى الى الباب . وفيما ادار المقبض ، تردد ، وقال :

— بودى ان اسر اليك بشىء فيما بيننا ، يا صاحب السعادة .

فتبع ليستنتسكى غريغورى خارجا الممر المعتم . كان ثمة

ضياء وردى يترشح باهتا خلال الزجاج الفينيسى فى الباب المؤدى الى الشرفة .

— حسنا ، ماذا تريد ؟

— لست وحدى . . . — واحمر وجه غريغورى بشدة — معى امرأة . . . ربما تستطيع ان تجد شيئا ما تعمله ؟

فاستفهم ليستتسكى مبتسما ورافعا حاجبيه اللذين صبغهما الضوء الضوء الوردى .

— زوجتك ؟

— زوجة شخص اخر . . .

— اوه ، هكذا . حسنا ، سنجعلها طاهية للخدم . ولكن اين زوجها ؟

— هنا فى القرية .

— اذن فقد سرقت زوجة رجل اخر ؟

— هى ارادت ان تأتى .

— قصة غرام ! حسنا ، تعال غدا . تستطيع ان تذهب الان .

وصل غريغورى الى الضيعة ياغودنويه حوالى الساعة الثامنة صباح اليوم التالى .

وكان الفناء الكبير محاطا بحائط من طابوق متقشر تناثرت عليه مختلف البنايات . كان هناك جناح ذو سقف قرميدى ، سجل تاريخ ١٩١٠ على قرميدة من لون اخر فيه ، وهناك جناح للخدم ، وحمام ، واصطبلات ، وبيت للدجاج وحظيرة للماشية ، ومخزن طويل للحبوب ومأوى للعربات . كان البيت واسعا وقديما ، وقد استقر وسط بستان . وراء البيت ارتفع جدار رمادى من اشجار

الحور الجرد وصفصاف المروج ، تتأرجح من قممها البنية اعشاش زاغ فارغة .

ما ان دخل غريغورى الى الفناء حتى استقبله حشد من الكلاب السوداء القرمية * . وكانت ثمة كلبة عجوز ، دبقة العينين ، عرجاء اول من تشممته وتبعته مدلاة الرأس . وفى جناح الخدم كانت طباخة تتشاجر مع خادمة نمشاء شابة . وكان يجلس على عتبة الباب عجوز ريفى غليظ الشفتين ، تلفه سحابة من دخان التبغ . قادت الخادمة غريغورى الى البيت . وفاح البهو برائحة الكلاب والفراء الرطب . وعلى منضدة هناك كانت حقيبة بندقية ذات ماسورتين وحقيبة صيد ذات كشكش حريرى اخضر تآكلت اطرافه .

قالت الخادمة لغريغورى خلال باب جانبى : «السيد الشاب يدعوك للدخول» .

فنظر غريغورى بقلق الى جزمته الموحلة ، ودخل . كان ليستتسكى مستلقيا على سرير الى جانب النافذة . وكانت على اللحاف المحشو بريش البط القطبى ، علبة تحتوى تبغ وادوات تدخين . اعد الضابط سيكارة له ، وزرر ياقة قميصه الابيض ، وقال :

— جئت قبل الموعد . انتظر فسيراك ابى هنا خلال دقيقة .

وقف غريغورى بجانب الباب . وسرعان ما سمع وقع اقدام فى غرفة الانتظار وصوتا عميقا يتساءل خلال الباب : «انائم انت ، يا يفغينى ؟»

— ادخل .

---

* كلاب صيد روسية يؤتى بها من شبه جزيرة القرم . المترجمون .

ودخل عجوز يرتدى حذاء لباديا اسود قفقاسيا . فرمقه غريغورى بنظرة جانبية . وسرعان ما اصطدم بالانف المعقوف الاقنى ، والقوس الابيض لشاربه ذى البقعة الصفراء تحت الانف من اثر التبغ . كان ليستتسكى العجوز طويلا ، عريض المنكبين ، الا انه ضامر . كان يرتدى قمصلة طويلة من وبر الجمال ، تدلت فى انسياب ، وياقتها تلتف كالانشوطة على رقبته المجعدة السمراء . وكانت عيناه الذابلتان قريبتين الى جسر انفه .

— بابا ، ها هو الحوذى الذى حدثتك عنه . الفتى من عائلة محترمة .

فتساءل العجوز بصوت هادر :

— ابن من هو ؟

— ابن ميليخوف .

— اى ميليخوف ؟

— ابن بانتلاى ميليخوف .

— كنت اعرف بروكوفى . واتذكر بانتلاى ايضا . اعرج ، أليس كذلك ؟

فأجاب غريغورى ، وهو ينتصب كوتر .

— اجل ، يا صاحب المعالى .

واستعاد غريغورى حكايات ابيه عن الجنرال المتقاعد ليستتسكى ، احد ابطال الحرب الروسية التركية .

تساءل العجوز :

— لماذا تبحث عن عمل ؟

— انا لا اعيش مع ابى ، يا صاحب المعالى .

— اى قوزاقى ستكون اذا اجرت نفسك للغير ؟ ألم يزودك ابوك بشىء حينما تركته ؟

— لا ، يا صاحب المعالى .

— هذا امر اخر . تريد عملا لزوجتك كذلك ؟

صر سرير ليستتسكى الشاب بقوة ، فنظر غريغورى باتجاهه ورأى الضابط يغمز له ، ويحرك رأسه بالايجاب .

— هذا صحيح ، يا صاحب المعالى .

— بلا «معاليك» هذه ، انا لا احبها . ستكون اجرتكما ثمانية روبلات شهريا ، ستطهو زوجتك الطعام للخدم والشغيلة الموسميين . ايرضيك هذا ؟

— نعم .

— انتقل الى هنا صباح الغد . ستشغلان جناح الحوذى السابق .

وسأل ليستتسكى اباه ، وهو ينزل قدميه الضيقتين الى السجادة :

— كيف كان الصيد يوم امس ؟

— بدأنا بمطاردة ثعلب وطاردناه الى الغابة ، لكنه كان عجوزا واستطاع ان يخدع الكلاب .

— اما يزال كازبك يحجل ؟

— لا بد ان عظام قدمه قد انخلعت . هيا ، يغفنى ، الفطور سيبرد .

واستدار العجوز نحو غريغورى وطق اصابعه الهزيلة .

— عادة سر ! كن هنا فى الثامنة .

وخرج غريغورى . فى الطرف البعيد لمخزن الحبوب ، كانت كلاب الصيد تتشمس على رقعة من الارض عارية من الثلج . وجاءت الكلبة العجوز تخب نحو غريغورى ، فتشممته من الخلف وتبعته قليلا وراسها ما يزال مدلى بشكل يدعو للأسى ، ثم قفلت عائدة .

فرغت اكسينيا من المطبخ مبكرة . جرفت الجمر واغلقت المدخنة ، وغسلت الصحون ، والقت نظرة عجلى خلال الشباك المطل على الحوش . كان ستيبان يقف الى جانب كومة الخشب الملاصقة للسياج الذى يفصل حوشهم عن حوش ميليخوف ، وقد تدلت من زاوية شفتيه الصارمتين سيكارة دخنت الى النصف . كانت زاوية الحظيرة اليسرى قد تهدمت ، وكان يجب وضع عمودين متينين .

عملت اكسينيا ذلك الصباح ووجنتاها موردتان وفى عينيها بريق فتى . ولاحظ ستيبان التحول عليها ، ولم يستطع اثناء فطوره ، الا ان يتساءل : «ماذا بك ؟»

فرجعت اكسينيا صداه ، متوردة الوجه «ماذا بى ؟»

— ان وجهك يتلامع وكأنك لطخته بالدهن .

— انها حرارة النار .

واشاحت وجهها عنه واختلست نظرة عبر الشباك لترى ان كانت اخت ميشا كوشيفوى قادمة .

لكن الفتاة لم تصل الا عند الغروب . وكان الانتظار قد امض اكسينيا ، فأبتدرتها قائلة :

— اتريدينني ، يا ماشوتكا ؟

— تعالى لحظة .

كان ستيبان واقفا امام قطعة مرآة مثبتة على الموقد المبيض بالجبس يمشط خصلته وشاربه الكستنائى بمشط قصير مصنوع من قرن الثور . نظرت اكسينيا نحوه فى قلق .

— اتريد ان تخرج ؟

لم يجب فى الحال ، بل وضع المشط فى جيب بنطلونه ، والتقط علبة ورق وكيس تبغه اللذين كانا ملقيين على حافة الموقد . ثم قال :

— انا ذاهب الى انيكوشكا لبعض الوقت .

— ومتى بقيت فى البيت ؟ انت تقضى كل ليلة فى لعب القمار . وطوال الليل ، ايضا . حتى صياح الديوك .

— حسنا ، لقد سمعت هذا الكلام من قبل .

— هل ستلعب البونثون من جديد ؟

— اوه ، كفى ، اكسينيا . انظرى ، ثمة من جاء ليراك .

فتراجعت اكسينيا الى الممر . حيتها ماشوتكا النمشاء ذات الوجه الوردى وهى تتبسم .

— عاد غريشا .

— طيب ؟

— طلب منى ان ابلغك بالحضور الى منزلنا حالما يحل الظلام .

فأمسكت اكسينيا يد الفتاة وسحبتها صوب الباب الخارجى وقالت :

— على مهلك ، على مهلك ، يا عزيزتى ! هل طلب ان تقولى شيئا آخر ؟

— قال ان عليك ان تجمعى حوائجك ، وتأخذيها معك .

فألقت اكسينيا نظرة سريعة ناحية باب المطبخ وهى تلتهب وترتعد دون ان تستطيع تثبيت قدميها على الارض .

— يا الهى ، كيف يمكننى ان . . . بهذه السرعة ؟ طيب . . . اسمعى . اخبريه اننى سأحضر حالما استطيع . ولكن اين سيلقانى ؟

— عليك ان تأتى الى منزلنا .

— اوه ، لا !

— حسنا ، سأخبره ان يخرج وينتظرك .

كان ستيبان قد ارتدى سترته حينما دخلت اكسينيا ، ومد جسمه الى مصباح متدل من السقف ليشعل سيكارته ، فسألها بين نفثتين من سيكارته :

— ماذا تريد ؟

— من ؟

— ابنة كوشيفوى .

— اوه ، جاءت تسألنى ان افصل لها تنورة .

اتجه ستيبان الى الباب وهو ينفض رماد سيكارته . وقال فيما مضى خارجا : «لا تنتظرى رجوعى ونامى» .

جرت اكسينيا الى النافذة المغطاة بالجمد وجثت على ركبتيها امام المصطبة . خشخشت اقدام ستيبان على الممشى المسحوق بالاقدام وهو يتجه الى البوابة . وحملت الريح شرارة من سيكارته وعادت بها الى النافذة . واختطفت اكسينيا نظرة فى ضوء سيكارته الى قبعته الفرو ومخطط وجنته السمراء ، خلال دائرة على الزجاج ذاب عنها الجمد .

وبحركة محمومة اخرجت السترات والتنورات وعصابات الرأس — اى جهاز عرسها — من الصندوق الكبير والقت بالجميع فى شال واسع . وعبرت خلال المطبخ للمرة الاخيرة ، لاهثة ، متوحشة العينين ، واطفأت الضياء وجرت الى درجات العتبة . ظهر شخص ما من بيت ميليخوف ليرى الماشية . فتريث حتى تلاشى وقع اقدامه ، وقيدت الباب بالسلسلة ، ثم جرت هابطة الى الدون . ونفرت خصلات ملفوفة من شعرها من عصابة رأسها

وجعلت تدغدغ وجنتيها ، وبينما كانت تتلمس دربها عبر ازقة جانبية نحو كوخ كوشيفوى ، ممسكة بصرة حوائجها ، اضمحلت قواها وصارت قدماها تشحطان ثقيلتين كالرصاص . كان غريغورى ينتظرها عند البوابة . اخذ الصرة ومضى بها نحو السهب ، صامتا .

بعد ساحة درس الحبوب ، ابطأت اكسينيا خطاها وجذبت غريغورى وقالت : «انتظر لحظة .»

— لماذا ؟ سيتأخر القمر الليلة ، يجب ان نسرع .

— انتظر ، غريشا !

وتوقفت ، وهى تتلوى من الالم . فاستدار غريغورى نحوها .

— ما بك ؟

— شىء ما . . . فى احشائى . لا بد اننى رفعت شيئا ثقيلا .

لعقت شفتيها الجافتين ، وهى تضيق عينيها من الالم وكأنها ترى ابرا من النار ، واطبقت يديها على بطنها . ووقفت لحظة ، مقوسة وبائسة ، ثم استأنفت سيرها وهى تدس شعرها تحت عصابتها .

— حالتى حسنة الان ، هيا بنا .

— لم تسألى الى اين انا ماض بك . ربما اقودك الى اقرب منحدر لالقيك من فوقه .

— سيان لدي الان . انتهت لعبتى .

وكان صوتها يرتعش بضحكة بائسة .

فى تلك الليلة عاد ستيبان فى منتصف الليل كعادته . ذهب بادىء الامر الى الاصطبل ، واعاد التبن المتناثر الى المعلف ، وحل مقود الحصان ، ثم مضى الى الدار . وقال فى نفسه وهو يحل السلسلة : «لا بد انها خرجت لتزجية المساء» . دخل المطبخ

واغلق الباب باحكام ، واشعل عود ثقاب . كان حظه فى اللعب مؤاتيا ذلك المساء ، ولهذا كان هادئا نعسان . اضاء المصباح ، وفغر فاه ازاء اضطراب المطبخ ، دون ان يخمن السبب . وبشىء من الاستغراب ، مضى الى حجرة كبيرة . كان الصندوق المفتوح متثائبا واعماقه سودا ، وعلى الارض سترة عتيقة نسيتها اكسينيا فى غمرة استعجالها . نزع ستيبان فروته عنه وركض الى المطبخ ليحضر الفانوس . حملق ببصره فى ارجاء الغرفة ، واخيرا ادرك ما حدث . القى الفانوس من يده ، ومن غير ان يعى ما يفعل ، انتزع سيفه من الحائط ، وضغط على مقبضه حتى انتفخت العروق فى اصابعه ورفع على نصله سترة اكسينيا الزرقاء والصفراء ، وطوح بها فى الهواء ، وبأرجحة قصيرة من سيفه شطرها نصفين اثناء سقوطها .

وفى غمرة حزنه الذئبى الذى احال ملامحه رمادية ، متوحشة قذف شقتى السترة العتيقة الى السقف مرة بعد مرة ، والفولاذ الحاد يصفر وهو يمزقها فى الهواء .

ثم مزق شرابة السيف والقى به الى الزاوية ، ومضى الى المطبخ ، وجلس الى المائدة منكس الرأس ، وباصابع حديدية مرتجفة جعل يخط على وجه المائدة المتسخ .

١٣

ان المتاعب لا تأتى فرادى ابدا . ففى الصباح الذى تلا رحيل غريغورى ، مزق ثور ميرون غريغوريتش الاصيل بقرنيه بلعوم احسن فرس لديه ، بسبب من اهمال هيت-بابا . فهرع هذا راكضا الى البيت ، شاحبا ، مذهولا مرتعدا :

— مصيبة ، يا سيدى ! الثور ، عليه اللعنه ، الثور الملعون . . .

فتساءل ميرون غريغوريتش فزعا :

— طيب . ماذا عن الثور ؟

— قتل الفرس . نطحها . . .

فجرى ميرون غريغوريتش ، الى الفناء دون ان يكمل ارتداء ملابسه . كان ميتكا الى جوار البئر يضرب العجل ابن الخمس سنوات بعصا . وكان الثور منكس الرأس يجر جلد رقبته المتغضن على الثلج ، وهو يدفر الثلج باظلافه ناثرا مسحوقا فضيا على ذيله المرفوع ، ولم يحاول ان يتحاشى الضرب . كان يخور بين الفينة والفينة بصوت ابح قصير . ويركز قدميه الخلفيتين كما لو انه سيقفز .

كان خواره على وشك ان يتحول الى زئير مدو . ضربه ميتكا على انفه وجنبيه ، وهو يسب طوال الوقت ، غير عابئ بميخى الذى كان يحاول جره الى الوراء من نطاقه .

— ابتعد ، يا ميتكا . . . لخاطر الله ، سيقرك ! يا سيدى ، ماذا تنتظر ؟

ركض ميرون الى البئر . كانت الفرس واقفة الى جانب السياج ورأسها مدلى بشكل يستدعى الأسى وكان جنباها المعتمان بالعرق يرفعان ويهبطان ، والدم ينهمر من رقبتها على صدرها . وكان ظهرها الفاقع وجنباها يرتجف مسببا رعشات قوية فى حقوها .

جرى ميرون غريغوريتش ليرى رقبتها . كان ثمة جرح فاغر فى رقبتها ، وردى اللون ، يسع يد انسان ، ويكشف عن قصبتها الهوائية . امسكها ميرون غريغوريتش من ناصيتها ورفع رأسها ، فثبتت الفرس عينيها البنفسجيتين اللامعتين فى سيدها وكأنها تسأله فى خرس : «ماذا بعد ؟» وصاح ميرون غريغوريتش وكأنه يرد على سؤالها : «اجر وقل لاحدهم ان يسلق شيئا من لحاء البلوط . اسرع !»

فركض هيت–بابا ، وجوزة عنقه ترتجف فى رقبته القذرة ، ليكشط بعض اللحاء من شجرة ، ومضى مبتكا صوب ابيه ، واحدى عينيه مثبتة على الثور ، وهو يدور ويخور فى ارجاء الفناء .

امره ابوه : «امسك الفرس من ناصيتها . ليركض شخص فيجلب خيطا من القنب بسرعة ! ام تراكم تريدون صفعة على وجوهكم ؟»

ربطوا الخيط باحكام حول شفة الفرس العليا ، المخملية ذات الشعر القليل ، لكى لا تشعر بالالم .

وجاء غريشاكا العجوز يحجل . وجيء بمحلول ، بلون ثمر البلوط فى طاس مصبوغ .

— دعوه يبرد . انه شديد الحرارة ، اليس كذلك ؟ ميرون ، اتسمعنى ؟

— ادخل ، يا ابناه . سيصيبك البرد هنا .

— اقول لك دعه يبرد . اتريد ان تقتل الفرس ؟

غسلوا الجرح . وبأصابع متجمدة ، نظم ميرون غريغوريتش خيطا من القنب الخام فى ابرة للرتق ، ودرز الحواف ، بشكل نظيف ، وما كاد يخطو عدة خطوات مبتعدا من البئر حتى جاءت زوجته تعدو من البيت ، والذعر بارز على خديها المترهلين الشاحبين . ودعته وانتحت به جانبا .

— ميرون ، ناتاليا هنا . . . آه ، يا ربى !

فتساءل ميرون غريغوريتش شاحب الوجه :

— والان ، ماذا حدث ؟

— انه غريغورى . . . لقد ترك بيته !

ونشرت لوكينشنا ذراعيها كزاغ يتهيأ للطيران وصفقت يديها على تنورتها ، وانفجرت تعول :

— يا لفضيحتنا امام القرية كلها ! يا آلهى ، اية نازلة ! آه ! . .

وجد ميرون غريغوريتش ناتاليا واقفة وسط المطبخ ، وعليها شال ومعطف شتائى قصير ، وفى عينيها نبعت دمعتان ، وكان خداها متوردين بلون عميق .

قال ابوها معتدا وهو يجرى الى الغرفة :

— ماذا تفعلين هنا ؟ هل ضربك زوجك ؟ الا تستطيعان العيش معا !

— رحل !

وانّت ناتاليا ، وهى تبلع دمعات جافة ، وترنحت وارتمت على ركبتيها امام ابيها .

— ابى ، حياتى تهدمت . . . اعدنى اليك . . . غريغورى رحل مع تلك الامرأة . هجرنى . ابى ، سحقنى فى التراب !

تمتمت بسرعة ، وهى تحدق فى لحية ابيها الحمراء فى الاعلى متضرعة .

— مهلا ، مهلا ، الآن . . .

— ليس ثمة لى ما اعيش من اجله هناك . اعدنى اليك !

وزحفت على ركبتيها الى الصندوق والقت رأسها على ذراعيها . وسرحت عصابتها عن رأسها فسقط شعرها الاسود السبط الاملس فوق اذنيها الشاحبتين . والدموع فى مثل هذه الحالات كالمطر فى جدب ايار . ضغطت الام رأس ابنتها على بطنها الخاسفة ، هامسة بكلمات امومية حمقاء للتهدئة ، لكن ميرون غريغوريتش جرى هائجا ، الى درجات العتبة ، وصاح :

— اعدوا زحافتين !

وكان ثمة ديك على الدرجات قد حط ، منكبا ، على ظهر

دجاجة ، فطار على الصيحة وقفز مبتعدا ، وسار متئدا نحو مخزن الحبوب وهو يصيح فى سخط .

— اعدوا زحافتين !

وجعل ميرون غريغوريتش يرفس مرة واخرى على الدرابزين المنقوش لسلم الباب حتى هشمه بصورة بائسة . ولم يعد الى البيت الا بعد ان هرع هيت–بابا خارجا من الاصطبلات بزوج من الخيل وهو يعدهما اثناء عدوه .

ركب ميتكا وهيت–بابا عربة الى آل ميليخوف لاحضار ما يخص ناتاليا . واطار هيت–بابا فى شروده خنزيرا صغيرا فى الطريق . كان يقول لنفسه : «ربما سينسى السيد كل شىء حول الفرس ، هو الآن مهتم بأمر ابنته» ، وارخى العنان فى بهجة ثم تجهم وجهه وتلوت شفته حين تغير مجرى افكاره : «لكنه شيطان عجوز لن ينسى .» وحث الخيل بصياحه وحاول ان يصفع بسوطه أرق اجزاء بطن الحصان .

١٤

كان يفغينى ليستنتسكى يشغل رتبة ملازم اول فى كتيبة حرس الاتمان الخاص . وحينما كبا اثناء سباق الموانع للضباط وكسرت ذراعه اليسرى ، اخذ اجازة طويلة بعد خروجه من المستشفى وذهب ليقيم مع ابيه مدة ستة اسابيع .

وكان الجنرال العجوز يعيش بمفرده فى ياغودنويه ، وكان قد فقد زوجته اثناء ركوبها عربتهما فى ضواحى وارشو فى ثمانينات القرن التاسع عشر ، اذ لم تصبه الطلقات التى وجهت اليه ، انما اخترقت العربة وصرعت زوجته والحوذى وبقى ليستنتسكى وابنه

يفغينى ابن العامين على قيد الحياة . وسرعان ما اعتزل الجنرال منصبه بعد هذا الحادث . وهجر ضيعته فى اقليم ساراتوف ، وكانت قد منحت لجده الاكبر مكافأة لخدماته اثناء حرب عام ١٨١٢ ، وانتقل الى ياغودنويه حيث عاش حياة متقشفة صارمة .

ارسل ابنه يفغينى الى الكلية العسكرية وهو فى سن المراهقة ، واشغل نفسه بشؤون المزرعة . فابتاع خيولا اصائل من الاصطبلات الامبراطورية ، وهجنها باحسن الجياد المستوردة من انكلترا ومن اصطبلات بروفالسكى المشهورة ، وربى سلالة جديدة . وجعل يربى ماشية وقطعانا على ارضه الخاصة وعلى الارض التى اشتراها ، ويبذر الحبوب مستخدما عمالا اجراء ، ويذهب للصيد مع كلابه فى الخريف والشتاء ، ومن حين لاخر يغلق على نفسه القاعة البيضاء ويظل يشرب عدة اسابيع بلا انقطاع . وكان يكدره ألم فى معدته ، فمنعه طبيبه منعا باتا من ابتلاع اى شىء صلب ، فكان عليه ان يمتص الخلاصة من طعامه مضغا ، ثم يبصق الفضلات على طبق فضى يمسكه خادمه الخاص فينيامين الواقف الى جانبه دائما .

وكان فينيامين فلاحا اسمر متوسط الذكاء ، ذا شعر اسود غزير منفوش ، عمل فى خدمة ليستنتسكى ست سنوات . وفى البدايه كان عليه ان يقف فوق الجنرال وفى يده صحن فضى ، كان يشعر بالتفزز كلما رأى العجوز يبصق الطعام الممضوغ . لكنه اعتاد ذلك بمرور الزمن .

اما قاطنو الضيعة الاخرون فهم لوكيريا الطاهية ، وساشكا ، سائس الخيل الهرم ، والراعى تيخون وغريغورى الذى اخذ يشتغل حوذيا ، واكسينيا . ومنذ اليوم الاول ، لم تكن لوكيريا ذات الوجه المجدور التى بدت بعجيزتها الكبيرة مثل قرص من العجين المفروش ،

لتسمح لاكسينيا بالاقتراب من الموقد .

— يمكنك ان تطبخى حينما يستخدم السيد عمالا اضافيين فى الصيف . اما الان فأستطيع ان ادبر الامور بنفسى .

انطلقت اكسينيا فى عملها ، تغسل ارضيات البيت ثلاث مرات فى الاسبوع ، وتطعم العدد الذى لا يحصى من الدواجن ، وتنظف بيت الدجاج . كانت تعمل دؤوبة ، وتحاول ارضاء الجميع ، بمن فيهم الطاهية ، اما غريغورى فكان يقضى جزء كبيرا من وقته مع السائس ساشكا ، فى الاصطبلات الفسيحة المبنية من جذوع الخشب . وكان العجوز كتلة من الشعر الاشيب ، لكن الجميع ظلوا ينادونه بألفة : «ساشكا» . ولم يخاطبه احد باسمه الكامل واسم ابيه كما يتطلب الاحترام . اما لقبه فربما ليستنتسكى العجوز نفسه ، الذى اشتغل ساشكا عنده اكثر من عشرين عاما ، كان قد نساه . وكان ساشكا قد عمل فى شبابه حوذيا ، ولكن ما ان تقدمت به السن ووهت قواه وامسى بصره ضعيفا ، حتى صار سائسا . وهو الان قصير القامة ، يغطى جسمه شعر اشيب مخضوضر (حتى شعر يديه كان اشيب) ، وله انف قد فرطحته هراوة فى شبابه ، وكانت له ابتسامة طفولية خالدة ، ناظرا الى العالم بعينيـــن ساذجتين تطرفان على الدوام . وكان التعبير الملائكى المرتسم على وجهه يشوهه انفه المكسور وشفته السفلى المدلاة المشقوقة . حينما كان ساشكا فى الجيش ، ثمل ذات مرة واخذ جرعة من «الماء الملكى» بدلا من الفودكا ، فلحم السائل المحرق شفته السفلى بذقنه ، مخلفا ندبة ملتوية ذات وهج وردى كما لو ان وحشا مجهولا لحس ذقن ساشكا بلسانه الرقيق اللاذع . كان ساشكا مغرما بالفودكا ، فاذا انتشى راح يتبختر فى ارجاء الحوش كما لو كان سيدا . فيدق قدمه على الارض ويقف تحت نوافذ غرفة نـــوم

ليستنتسكى العجوز ويصيح بصوت عال ، وفى تجهم وهو يحرك سبابته امام انفه :

— ميكولاى ليكسيتش * ! ميكولاى ليكسيتش !

فاذا كان ليستنتسكى العجوز فى غرفة نومه مصادفة اتى الى النافذة وارعد صائحا :

— انت سكران ، يا عديم النفع !

فيشيل ساشكا بنطاله الى اعلى ، ويغمز ويبتسم فى مكر . وتتراقص ابتسامته منحرفة عبر وجهه ، ومن عينه اليسرى المغمضة ، الى الندبة الوردية اللون الممتدة من زاوية فمه اليمنى . كانت ابتسامة عوجاء الا انها بهيجة .

ويهز اصبعه القذر النحيل متوعدا وهو يقفز فى مكانه :

— ميكولاى ليكسيتش ، يا صاحب المعالى ، اننى اعرفك !

فيبتسم سيده مهدئا ، وهو يفتل شاربه المتدلى بكل اصابعه الخمس التى بقعها النيكوتين :

— اذهب واغرق سكرك فى النوم !

فيضحك السائس ، وهو يتقدم حتى سكة السياج :

— لن تستطيع ان تخدعنى ! ميكولاى ليكسيتش ، انت وانا — يعرف احدنا الاخر كما تعرف السمكة الماء . انت وانا ، نحن اغنياء . واى غنى ! — وهنا ، يبسط ذراعيه على امتدادهما ليصور مقدار غناهما . — نحن ، كما يعرفنا الجميع ، فى كل ارجاء منطقة الدون . نحن . . . — ويمسى صوت ساشكا على حين غرة مستكينا اسيان : — انا وانت — يا صاحب المعالى ، كل

---

* يقصد نيكولاى اليكسيتش **المترجمون** .

شيء حسن سوى ان لكلينا انفا متعفنا !

فيسأله سيده رافعا شاربه ، يستحيل وجهه قرمزيا من شدة الضحك :

— ولم ذلك ؟

فيقول ساشكا مقطعا الكلمات ، وهو يطرف بعينيه بسرعة ويلعق لعابه الذى ينزل على ندبته :

— بسبب الفودكا ! لا تشرب ، يا ميكولاى ليكسييتش ، والا انتهينا الى الافلاس — انت وانا . سنضيع كل ما لدينا على الشراب !

— رح واشرب بهذه عن آخرها ! — ويلقى اليه ليستتسكى العجوز بقطعة من فئة العشرين كوبيكا ، فيلتقطها ساشكا ويخفيها فى قبعته ، ويقول متنهدا :

— حسنا ، مع السلامة ، يا جنرال .

فيسأله سيده مبتسما ، وهو يعرف ما سيلى ذلك :

— هل اوردت الخيل ؟

— آه ، ايها الشيطان القذر ! يا ابن الخنزير ! — ويستحيل وجه ساشكا ازرق ، ويقرقع صوته مغضبا : — أينسى ساشكا ان يورد الخيل ؟ حتى لو كنت ميتا ، سأزحف أتلمس سطلا من الماء لاورد الخيل . ويتصور انني . . .

ويمضى السائس مغتاظا من اللوم الذى لا يستحقه ، وهو يصب اللعنات ملوحا بقبضته . كان كل ما يفعله ساشكا يقابل بالغفران ، حتى ادمانه على الشرب وزوال الكلفة بينه وبين سيده . فقد كان سائسا لا يمكن الاستغناء عنه . وكان ينام فى الاصطبل صيفا وشتاء ، فى معلف فارغ . لم يكن احد يضاهيه فى عمله . كان سائسا وبيطارا للخيل معا ، يجمع العقاقير لها فى الربيع ،

ويثقب عن الجذور الطبية فى السهب والوديان . وكانت حزم الاعشاب معلقة فى اعالى جدران الاصطبل : فثمة الحنزبل لشفاء لهاث الخيل ، وحشيشة عين الحية كترياق لعضة الافاعى السامة ، والورق الاسود للحوافر ، وعشب صغير ابيض ينمو قرب جذور الصفصاف لعلاج القرح ، والعديد من العقاقير الاخرى التى لا يعرفها الا القليل من الناس يستعملها لعلاج جميع ما يصيب الخيل من اوجاع وامراض .

وفى الصيف والشتاء ، ثمة فوق المعلف الذى ينام فيه ساشكا رائحة نفاذة ذكية ، تدغدغ البلعوم ، معلقة كنسيج عنكبوت ذى غزل رقيق . وهناك قش مضغوط ، كاللوح فى صلابته ، تغطيه مرشحة حصان ، ومعطف ساشكا الذى تفوح منه رائحة عرق الخيل ، اتخذهما حشية وفراشا لسريره العارى ، وكان المعطف والفروة هما كل ما يملك العجوز من متاع الدنيا .

اما تيخون ، وهو قوزاقى بليد ضخم ، فقد كان يعيش مع لوكيريا ، ويضمر فى دخيلته غيرة عليها من ساشكا ، لا مبرر لها اطلاقا . وكان يقود العجوز ، مرة كل شهر ، من زر قميصه المدهون الى ما وراء الفناء .

— ايها العجوز ، لا تحاول ان تستميل امرأتى .

فيغمز ساشكا غمزة ذات مغزى :

— ان ذلك يتوقف على . . .

فيرجوه تيخون :

— ابتعد عنها !

— انى احبهن مجدورات ، ايها الصبى . لن احتاج الى الفودكا اذا استطعت ان تهبنى بنتا مجدورة . كلما ازدادت بثور الجدرى عليهن ازددن شغفا بنا نحن معشر الرجال . اولاء السفيهات !

— يجدر ان تخجل من نفسك فى سنك هذه . . . عيب عليك . . هذا وانت رجل طبيب : تعنى بالخيل ، وتعرف جميع الاسرار .

فأصر ساشكا :

— انا قادر على كل انواع التطبيب .

— ابتعد عنها ، يا جد . انها لخطيئة .

— سأستحوذ على تلك اللوكيريا يوما من الايام ، ايها الصبى ، وسأمتلكها ، ياولدى . يمكنك ان تقول مع السلامة للوكيريا ، فاننى سأنتزعها منك . انها مثل فطيرة الزبيب ، سوى ان الزبيب منتزع منها . انها الصنف الذى اشتهيه !

فيقول تيخون متنهدا وهو يخرج بعض قطع النقود النحاسية من كيس النقود : «خذ هذه ، ولا تدعنى اقبض عليك والا قتلتك !»

وهذا ما كان يحدث كل شهر .

كانت الحياة تبلى اوراقها فى خدر ناعس في ياغودنويه . اذ كانت الضيعة تقع فى واد ناء عن جميع الدروب المطروقة ، ومنذ الخريف تنقطع كافة المواصلات مع القرى المجاورة . وفى ليالى الشتاء تخرج قطعان الذئاب من مرابضها فى الغابة لتشيع الفزع فى الخيل بعوائها . وقد اعتاد تيخون ان يذهب الى المرج ليخيفها ببندقية سيده ذات الماسورتين ، فتظل لوكيريا ، وهى تلف عجيزتها الضخمة ببطانيتها الخشنة ، تنتظر مترقبة صوت الاطلاقات ، وعيناها الصغيرتان المختفيتان فى وجنتيها المجدورتين المدهونتين تتطلعان فى الظلام . وفى مثل تلك الاوقات ، اعتاد خيالها ان يجعل من تيخون القبيح الاصلع ، شابا وسيما جريئا ، وحينما ينصفق باب جناح الخدم ويدخل تيخون فى سحابة من البخار ، تفسح له المجال على السرير ، وتحتضن عشيرها المتجمد ، بدفء وهى تناغيه فى وله .

وفى الصيف ، تظل ياغودنويه تطن بأصوات العمال الى وقت متأخر من الليل . فقد زرع السيد اربعين دسياتينا بشتى الحاصلات ، وكان يؤجر عمالا لحصدها . ومن حين لاخر كان يفغينى يأتى صيفا الى الضيعة ، وقد يروح يتمشى خلال البستان وعلى المروج ، فيصيبه الملل . وكان يقضى الصباح فى صيد السمك فى البركة . وكان ذا صدر ممتلىء متوسط الطول ، يصفف شعره على الطريقة القوزاقية فيجعل له خصلة على الجانب الايمن لرأسه . اما سترته العسكرية فقد اتسقت عليه بشكل انيق .

خلال الايام الاولى من حياة غريغورى مع اكسينيا فى الضيعة ، وكان يأتى فى كثير من الاحيان يتردد على جناح السيد الشاب . كان فينيامين يأتى مبتسما الى جناح الخدم ويقول لغريغورى ، وهو يحنى رأسه الاشعث :

— السيد الابن يريدك ، ياغريغورى .

فكان غريغورى يذهب الى غرفة يفغينى ، ويقف عند الباب . فيشير السيد الى كرسى مبتسما كاشفا عن اسنانه النادرة العريضة ، ويجلس غريغورى على حافته تماما .

— كيف تجد خيلنا ؟

— خيل جيدة . والاشهب بديع .

— عليك بتمرينه كثيرا ، ولكن لا تجعله يجرى سريعا .

— هذا ما اخبرنى به الجد ساشكا .

— وماذا عن «همام» ؟

— الكميت ؟ انه حصان بديع على ان نعله مقلقل ، وسيتعين علىّ ان ابدله بنعل اخر .

ثم قال السيد الابن وهو يخاوص عينيه الرماديتين النفاذتين :

— عليك ان تذهب الى معسكر التدريب فى ايار ، اليس كذلك ؟

— اجل .

— سأكلم الاتمان فى ذلك . لن تضطر الى الذهاب .

— شكرا لك ، سيدى .

ران الصمت لحظة . فك السيد ازرار ياقة بزته وجعل يحك صدره الانثوى الابيض .

— الا تخشى ان يأخذ اكسينيا زوجها منك ؟

— لقد تخلى عنها ، لن يستعيدها .

— وكيف تعرف ذلك ؟

— رأيت رجلا من القرية قبل ايام حينما ذهبت الى هناك طلبا للمسامير . اخبرنى ان ستيبان يسرف بالشراب . ويقول انه لم يعد يريد اكسينيا ، ويتصور انه سيجد امرأة اخرى اكثر حرارة .

فعلق ليستتسكى متفكرا ، وهو يحدق عبر رأس غريغورى وفى ابتسامته شىء من التهتك :

— اكسينيا أمراة جميلة .

فقال غريغورى موافقا : «لا بأس بها» ، وغام وجهه .

اوشكت اجازة يفغينى على الانتهاء ، فلم يعد يحمل ذراعه على حمالة وصار بامكانه ان يثنيها مثلما يشاء .

وفى خلال الايام القليلة الاخيرة من بقائه ، كان يقضى وقتا طويلا فى حجرة غريغورى . وكانت اكسينيا قد بيضت الحيطان القذرة وجلت اطر النافذة وحكت الارضية بكسرة من الطابوق . فكان ثمة دفء واناقة نسائيان فى الحجرة الخالية البهيجة وكان الموقد يبث الدفء . وكان الضابط يختار لزياراته اوقاتا يكون غريغورى خلالها مشغولا بالخيل . فيذهب فى بادئ الامر الى المطبخ ، وسترته القصيرة الزرقاء ملقاة على كتفيه ، ويلبث يمازح لوكيريا دقيقة او دقيقتين ، ثم يذهب الى الغرفة الاخرى ، فيجلس على

مقعد بلا مسند بالقرب من الموقد محدبا كتفيه ، ويركز على اكسينيا نظرة مبتسمة بلا حياء . فتتحرج اكسينيا من وجوده ، وترتعش ابر الحياكة فى اصابعها .

ويسألها ، وهو ينفض دخان سيكارته حتى تمتلىء الغرفة بدخان ازرق :

— كيف حالك ياعزيزتى اكسينيا ؟

— حسنا جدا ، اشكرك .

وترفع اكسينيا عينيها فتلتقى بنظرة الملازم النفاذة الفاضحة رغبته فى صمت ، ويستحيل لونها قرمزيا . فقد كانت نظرته تلك كريهة ومزعجة . وكانت تجيب على اسئلته بشكل غير مترابط ، متحاشية عينيه ومتحينة الفرصة لتترك الحجرة .

— علىّ ان اذهب لاطعم البط ، الان .

— لا داعى للعجلة . عندك متسع من الوقت .

وابتسم ، وارتجفت ساقاه فى سروال ركوب الخيل الضيق ، ومضى فى الحافه عليها بالاسئلة التى تخص حياتها الماضية وهو يضرب على اوتار صوته العميق الذى يشبه صوت ابيه ، ويسعى الى استمالتها فى مجون بعينيه الصافيتين كالبلور .

وحين دخل غريغورى ، انطفأت النار فى عينى يفغينى نيكولايتش ، فقدم له سيكارة ، وما لبث ان ترك الغرفة . فسأل غريغورى بصوت اجش اكسينيا دون ان ينظر اليها :

— ماذا اراد ؟

— كيف لى ان اعرف ؟ — واذ تذكرت نظرة الضابط ضحكت بافتعال واضافت : — دخل وقعد ، هنا بلاسبب ، ياغريشا — وارته كيف كان الضابط جالسا محدودب الظهر ، — قعد حتى استبد بى الضيق منه . وهز ركبته الحادة .

فضاقت عينا غريغورى غضبا :

ـــ هل دعوته للدخول ؟

ـــ وما حاجتى اليه ؟

ـــ حاذرى ، والا سأركله يوما من اعلى السلم .

فحدقت اكسينيا فى غريغورى بشفتين مبتسمتين ، دون ان تتبين ما اذا كان هازلا ام جادا .

١٥

انقضى الشتاء فى الاسبوع الرابع من الصوم الكبير . وبدأت المياه الخالية من الجليد تطرز حوافى الدون ، واستحال لون الجليد الذائب من القمم رماديا وانتفخ كالاسفنج . وفى المساء ، كانت دمدمة خفيضة تُسمع من التلال ، تشير ـــ كما كان الشيوخ يقولون ـــ الى سقوط الصقيع اما فى الواقع فكان ذوبان الجليد على الابواب . فى الصباح يرن الهواء بفعل الصقيع الخفيف ، ولكن ما ان يحل الظهر حتى تصبح الارض جرداء مبقعة ، وتنفذ الى الانوف الرائحة الزكية لشهر اذار ولحاء اشجار الكرز المتجمد والقش المتعفن .

اعد ميرون غريغوريتش عدته للحراثة على مهله وهو يقضى الايام المستطيلة فى المأوى يشحذ اسنان المسالف ويصلح عجلات العربة . وكان غريشكا العجوز يصوم فى الاسبوع الرابع من الصوم الكبير ، فيعود من الكنيسة ، ازرق من البرد ، ويشتكى لكنته لوكينشنا :

ـــ ان ذلك القس يرهقنى . لا خير فيه فهو بطىء فى قداسه كمن يدفع عربة مليئة بالبيض .

ـــ لو صمت خلال اسبوع الالام لكنت اكثر حكمة . كان الجو ادفأ انئذ .

فأجاب :

ـــ نادى ناتاليا . سأجعلها تصنع لى زوجا من الجوارب اكثر دفئا .

كانت ناتاليا لا تزال تعيش على امل ان يعود اليها غريغورى ، وكان قلبها يتشوق اليه وينتظر رجوعه ، غير ابهة لهمسة التحذير التى يبديها العقل الواعى ، فراحت تقضى لياليها فى حنين مرهق ، متقلبة على فراشها ، وقد سحقها عار غير متوقع لم تكن تستحقه . وحلت بها مصيبة فوق مصيبتها الاولى ، فجعلت تنتظر مآلها فى رعب بارد ، وهى تخفق فى غرفة صباها كطير زقزاق جريح ملقى على درب غابة . فمنذ الايام الاولى من عودتها ، بدأ اخوها ميتكا يرميها بنظرات غريبة ، وسألها ذات يوم وهو يمسك بها فى سقيفة الباب :

ـــ ما زلت تواقة لغريشا ؟

ـــ وما دخلك انت بذلك ؟

ـــ اريد ان اونسك .

ونظرت ناتاليا الى عينيه وارعبها ما رأت فيهما . اذ التمعت عينا ميتكا الخضراوان ، الشبيهتان بعينى القط ، وومضت فتحتاهما بلزوجة فى ضوء السقيفة الخافت . فصفقت ناتاليا الباب ومضت الى غرفة جدها ، حيث وقفت فترة طويلة تتسمع الى ضربات قلبها العنيفة . وفى اليوم التالى جاءها ميتكا الى الفناء . كان يقلب تبنا جديدا للماشية ، وقد تدلت من شعره السبط وقبعته الفرو عيدان خضر من العشب . وكانت ناتاليا انذاك تطرد الكلاب من معلف الخنازير .

ـــ لا ترهقى نفسك ، يا ناتاليا . . .

فصرخت ، رافعة يديها لتحمى نفسها :

— سأخبر ابى .

— انت بلهاء !

— لا تقترب ، ايها الوحش !

— لماذا تصيحين ؟

— ابتعد ، باميتكا ! سأذهب فى الحال لأخبر أبى . كيف تجرؤ على النظر اليَّ هكذا ؟ ألا تخجل ؟ اعجب ان الارض لا تنشق وتبتلعك .

— انها لا تنشق ! — وضرب ميتكا الارض بجزمته ليؤكد قوله ، ووضع يديه على خصره .

— لا تقترب منى ، باميتكا !

— لن افعل الان ، لكننى سآتى فى الليل . والله ، سآتى !

فتركت ناتاليا الفناء وهى ترتجف . وفى ذلك المساء اتخذت من الصندوق سريرا لها ، واخذت اختها الصغرى لتنام معها . وظلت طوال الليل تتقلب باضطراب ، وعيناها الملتهبتان تحاولان اختراق الظلمة ، واذناها مرهفتان لاصغر نامة ، وهى متحفزة لتملأ البيت صراخا . لكن شيئا لم يمزق الصمت سوى شخير جدها النائم فى الغرفة المجاورة ، ودمدمة تند من اختها بين حين وآخر .

ومضى عقد الايام ينفرط مع ذلك الحزن المقيم الذى لا عزاء فيه ، والذى لا تعرفه الا النساء .

لم يكن ميتكا قد تغلب على الخزى الذى سببته له محاولة الزواج الاخيرة ، وصار مهموما سيء الطبع ، يخرج كل مساء ولا يعود الى البيت قبل الفجر الا لماما . اقام له علاقات مع نحو غادر ازواجهن الى الجندية ، وذهب الى دار ستيبان استاخوف ليراهن يلعب الورق . وكان ابوه يراقب سلوكه ، الا انه لم يقل له شيئا فى ذلك الوقت .

قبيل عيد الفصح التقت ناتاليا بيانتلاى بروكوفتش خارج حانوت موخوف . فناداها :

— انتظرى لحظة !

فتوقفت . واحست بقلبها يغص بالحنين وهى ترى الى وجه حميها ، الذى يذكرها بغريغورى . سألها العجوز ، وهو يرمقها بنظرة سريعة فى ارتباك ، كما لو كان هو نفسه قد اقترف اساءة ضدها :

— لم لا تأتين احيانا لزيارتنا ، نحن العجوزين ؟ الزوجة تفتقدك . . . حسنا ، كيف حالك ؟

وافاقت ناتاليا من اضطرابها وقالت :

— شكرا لك . . .

وبعد لحظة من التردد ، اذ ارادت ان تقول : «يا ابتاه !» ، اضافت :

— يا بانتلاى بروكوفتش ، لقد كنت مشغولة جدا فى المنزل .

فهز العجوز رأسه بمرارة :

— ان ابننا غريشا . . . آه ! خدعنا ، السافل . لكم كنا نعيش معا على خير ما يرام .

فأجابت ناتاليا متحشرجة وفى صوتها غصة :

— اوه ، يا ابتاه . اظن ان ذلك لم يكن مقدرا له ان يدوم .

فتململ بانتلاى بروكوفتش حينما رأى عينى ناتاليا تمتلئان بالدموع ، وهى تزم شفتيها محاولة حبس دموعها . وقال لها :

— مع السلامة ، يا عزيزتى . لا تحزنى عليه ، ابن العاهرة ! انه لا يستحق ظفرا من اصبعك الصغير . لعله سيعود . ليتنى أراه ليتنى امسك به .

وابتعدت ناتاليا ورأسها غارق فى صدرها . ووقف بانتلاى بروكوفتش يحجل من قدم الى آخر وكأنه على وشك ان ينطلق راكضا . وحينما انعطفت ناتاليا عند زاوية الشارع ، نظرت الى الخلف . كان العجوز يعرج عبر الساحة ، وهو يتكىء بثاقل على عصاه .

١٦

عندما دنا الربيع قلت الاجتماعات فى ورشة شتوكمان ، اذ كان القرويون يتهيأون للعمل فى الحقول ، فلم يأت من الطاحونة سوى ايفان اليكسيفتش الميكانيكى و«الولد» ، مصطحبين معهما دافيد . وفى خميس اسبوع الآلام اجتمعوا فى الورشة فى المساء الباكر . كان شتوكمان جالسا على منضدة البرادة يبرد حلقة فضية منحوتة من قطعة نقدية من فئة الخمسين كوبيكا . انسلت حزمة من اشعة الشمس الغاربة خلل النافذة ، تاركة بقعة غبراء من الضوء الوردى المصفار على الارض . وتناول الميكانيكى كماشة وقلبها بيده وقال :

— منذ ايام ذهبت الى صاحب الطاحونة لاكلمه عن مكبس . ارى انه لا معدى من اخذه الى ميليروفو ، فلا يمكننا اصلاحه هنا . ان به صدعا هذا طوله .

وقاسه ايفان اليكسيفتش بخنصره .

فقال شتوكمان وهو ينثر غبارا فضيا رقيقا يتطاير من القطعة النقدية التى يبردها :

— توجد ورشة فى ميليروفو ، أليس كذلك ؟

— مصهر فولاذ . كان علىّ ان اقضى بضعة ايام هناك فى العام الماضى .

— عمال كثيرون ؟

— استطيع ان اقول اربعمائة او نحو ذلك .

فتساءل شتوكمان بلهجة متأنية وهو يهز رأسه فى اتساق مع حركاته :

— وكيف يبدون ؟

— انهم فى وضع حسن . ولكنهم ليسوا من جماعتك البروليتاريين ؛ انهم حثالة .

فقال «الولد» الجالس الى جانب شتوكمان وشابكا اصابعه القصيرة الغليظة تحت ركبتيه :

— ولم ذلك ؟

كان دافيد عامل الطاحونة يمشى ذهابا وايابا فى الورشة بشعره الذى غدا اشهب بفعل نثار الطحين ، ويتسمع جذلا الى خشخشة النشارة التى كان يحركها بجزمته . وتصور انه كان يسير فوق هوة كستها طبقة كثيفة من اوراق قرمزية ، وكانت الاوراق اللينة تندعك تحت قدميه بخفة مختبئة التربة الرطبة المرنة .

— لانهم على احسن حال . فلكل منهم بيته الصغير ، وزوجته ، وكل وسائل الراحة . ومعظمهم معمدانيون علاوة على ذلك . والاسطة نفسه هو الذى يعظهم ، ولكنهم ينهشون بعضهم بعضا ، اما القذارة التى تعلوهم فهى من السمك بحيث من الصعب ان تكشطها بمعزقة .

فانبرى دافيد وقد انقض على الكلمة الغريبة :

— ومن يكون هؤلاء المعمدانيون ، يا ايفان اليكسييفتش ؟

— معمدانيون ؟ انهم يعبدون الله على طريقتهم الخاصة . شيعة ما ، مثلهم كمثل «المؤمنين القدامى» .

وعلق «الولد» :

— الجنون فنون .

ثم واصل ايفان اليكسيتش حكايته :

— لقد ذهبت لرؤية سيرغى بلاتونوفتش ، كما قلت . ولكن اتيوبين كان هناك ، فطلب منى الانتظار فى الممر . فجلست انتظر واستمع الى حديثهم عبر الباب . كان موخوف يقول ستندلع حرب ضد الالمان قريبا جدا ، لقد قرأ ذلك فى كتاب . غير ان اتيوبين قال انه لن تكون حرب بين المانيا وروسيا .

كان ايفان اليكسيتش يقلد لثغة اتيوبين بمهارة جعلت دافيد يطلق ضحكة قصيرة ، ولكنه توقف فى الحال عندما لمح امارات السخرية على وجه «الولد» .

ومضى ايفان اليكسيتش ينقل الحديث الذى سمعه :

— «لن تكون هناك حرب ضد المانيا ، لان المانيا تقتات من حبوبنا» ثم سمعت صوتا ثالثا ، لم اميز صاحبه ، اتضح بعد ذلك ، انه الضابط ، ابن العجوز ليستنتسكى . قال : «سوف تندلع حرب بين المانيا وفرنسا من اجل حقول الكروم ، ولكن لا علاقة لها بنا» .

فتساءل الميكانيكى وقد التفت الى شتوكمان :

— ماذا تظن يا اوسب دافيدوفتش ؟

فأجاب شتوكمان وهو يحدق بنظرة ثابتة فى الحلقة التى امسكتها يده المبسوطة :

— انا لا احسن النبوءات .

فقال «الولد» :

— سنجد انفسنا فى وسط المعمعة حالما يبدأونها . وسواء شئنا ام ابينا ، فسوف يجرونا اليها من شعورنا .

فقال شتوكمان وهو يتناول الكماشة من يد الميكانيكى برفق :

— ساحدثكم ايها الاولاد كيف هو الامر . . .

وراح يتكلم بجد وهو يسعى لشرح المسألة بالتفصيل . واسترخى «الولد» فى جلسته على منضدة البرادة بينما فغر دافيد فاه مكشرا عن اسنانه الحادة . ولخص شتوكمان بأساوبه المركز المشوق الصراع بين الدول الرأسمالية حول الاسواق والمستعمرات . وعندما فرغ من حديثه ، قال ايفان اليكسيفتش مغضبا :

— ولكن ما دخلنا نحن فى ذلك ؟

فابتسم شتوكمان :

— سوف يصيب رؤوسكم الصداع جراء عربدة الاخرين .

وقال «الولد» متهكما :

— لا تتكلم مثل الاطفال ، لعلك سمعت بهذا المثل : «عندما يتشاجر السادة ، ترتج نواصى الفلاحين» .

— أف !

قال ذلك ايفان اليكسيفتش مقطبا كمن يحاول اجتلاء كتلة هائلة مستعصية من الافكار .

وتساءل دافيد :

— لماذا يتردد ليستنتسكى ذاك دائما على موخوف ؟ اتراه يسعى وراء ابنته ؟ هاه ؟

فاعترض «الولد» بخبث :

— لقد كان لابن كورشونوف اللعين شأن هناك من قبل .

فكرر دافيد :

— الا تسمع ايفان اليكسيفتش ؟ لايما غاية يتردد الضابط الى هناك ؟

فجفل ايفان اليكسيتش متسائلا وكأنه لفح بسوط فى قفا ركبتيه :

— ايه ؟ ماذا كنت تقول ؟

— لقد اخذته سنة من النوم ! كنا نتكلم عن ليستنتسكى .

— كان فى طريقه الى المحطة . نعم ، وهاكم المزيد من الاخبار ، عندما خرجت من الدار شاهدت . . . من تظنون ؟ غريغورى ميليخوف ! كان واقفا فى الخارج وبيده سوط . قلت له «ماذا تفعل هنا يا غريغورى ؟» فأجاب «اوصل السيد ليستنتسكى الى محطة ميليروفو» .

واوضح دافيد :

— انه حوذى ليستنتسكى .

— يلتقط الفتات من موائد الاغنياء .

— انك اشبه بكلب مربوط يا «ولد» ، تنبح عـلى كل انسان .

ثم فتر النقاش ، ونهض ايفان اليكسييتش ليغادر المحل . فنهش «الولد» نهشة اخيرة :

— مستعجل للصلاة ؟

— انى اتعبد كثيرا كل يوم .

ورافق شتوكمان ضيوفه الى الباب ، ثم اغلق الورشة ودلف الى البيت .

كانت السماء فى الليلة السابقة لاحد الفصح قد غشيتها كتل من الغيوم السود ، وبدأ المطر يتساقط . واناخت عتمة رطبة على القرية . وعند الغسق بدأ الجليد على الدون يتصدع بأنين مضطرب طويل . واذ تراصت كتل الجليد المتكسر انطلقت من الماء اولى الطوافى . فتصدع الجليد دفعة واجدة على مدى اربعة فرسخات ، وانجرف مع التيار . وتلاطمت الطوافى مع بعضها وارتطمت بالضفتين ، ومن بعيد كان ناقوس الكنيسة يقرع للصلاة بانتظام .

وفى العطفة الاولى ، حيث ينحدر الدون الى اليسار ، تراكم الجليد ، وكان هدير الطوافى واحتكاكها يسمع فى القرية . وفى ساحة الكنيسة التى انتشرت فيها البرك كان عدد من الفتيان مجتمعين ، وكان صوت الصلاة الخفيض يتناهى الى الاسماع خلل الابواب المفتوحة . وسطعت الانوار تتراقص اشعاعاتها على النوافذ المشبكة ، بينما كان الصبية يعابثون الفتيات الصائحات بصوت مكتوم ويقبلونهن ، ويتهامسون معهن بحكايات ماجنة .

وكان منزل قيم الكنيسة مزدحما بالقوزاق القادمين من شتى قرى المنطقة لحضور صلاة العيد . ونام الناس على المقاعد وعلى الارض بعد ان هدهم التعب والازدحام فى الغرفة .

جلس الرجال على الدرجات المتداعية ، وهم يدخنون ويتحدثون عن الطقس ومحاصيل الشتاء .

— متى ستخرج جماعتك الى الحقول ؟

— ينبغى ان نبدأ فى الاسبوع الاول بعد الفصح ، كما احب .

— هذا حسن . تربتكم رملية .

— نعم ، وفى الجهة القريبة من الاخدود يوجد مستنقع مالح .

— ستكسب الارض كثيرا من الندى الآن .

— عندما حرثنا السنة الماضية كانت مثل الغظروف ، صلبة وجافة فى كل مكان .

وصاح صوت عالى الدرجة من جهة المنزل :

— اين أنت يا دونيا ؟

ومن باب باحة الكنيسة سمع صوت جهورى غليظ يجأر :

— خير مكان للقبل ، يا . . . اخرجوا من هنا ، ايها العصبة القذرون . يالها من بدعة !

فانبرى صوت راعش يقول عبر الظلام :

— الا تستطيع ان تجد لنفسك رفيقة ؟ اذهب وقبل الكلبة فى زريبتنا .

— كلبة ؟ ! سوف اعلمك .

ثم سمع وقع خافت لاقدام تهرول ، وحفيف تنورات .

وتساقط الماء من السقف بجرس بلورى ، وهدر ثانية الصوت البطىء اللزج كأنه التربة الطينية السوداء :

— كنت اسعى لشراء محراث بروخر ، كنت مستعدا لدفع اثنى عشر روبلا له ولكنه لا يرضى بها . ذلك الرجل لا يبيع الاشياء رخيصة . . .

يسمع من الدون حفيف وجلبة ، لكأنه غانية طروب قد خطرت بحلتها القشيبة وقوامها الذى يضاهى شجر الحور وخلفت تنورتها حفيفا مثيرا .

وفى منتصف الليل ، مر ميتكا مخبا على فرس حاسر الظهر فى العتمة الدبقة متجها صوب الكنيسة . فاوثق العنان بعرف الفرس الجامح ، وصفعها على خاصرتها واصاخ الى وقع الحوافر هنيهة ، ثم سوى حزامه ، ومضى الى الكنيسة . وعند المدخل رفع قبعته ، واحنى رأسه بورع ، ونحى عن طريقه النساء ومضى الى المذبح . كان القوزاق محتشدين فى كتلة سوداء الى اليسار ، والى اليمين كان ثمة حشد نسائى يزخر بالالوان . ووجد ميتكا اباه فى الصف الامامى ، فأمسك بمرفقه وهو على وشك ان يرسم علامة الصليب وهمس بأذنه :

— ابتى ، تعال الى الخارج لحظة واحدة .

وارتعش منخرا ميتكا ، فيما افسح لنفسه المجال للخروج من الكنيسة بين ستار كثيف من خليط الروائح . وضاق بدخان

الشمع المشتعل ، ورائحة اجساد النساء العرقة ، وروائح الملابس الكريهة النتنة التى لا ترتدى الا فى اعياد الميلاد والفصح ، ورائحة الاحذية الرطبة ، والنفتالين ، ورياح البطون التى اجاعها الصيام .

وفى المدخل ضم ميتكا صدره الى كتف ابيه وقال : «ناتاليا تحتضر» .

١٧

عاد غريغورى فى عيد احد الشعانين من رحلته الى المحطة ، فوجد الثلوج قد تآكلها الذوبان ، وقد انقطع الطريق منذ يومين .

وفى احدى القرى الاوكرانية على مبعدة خمسة وعشرين فرسخا من المحطة كاد ان يفقد الحصانين وهو يعبر نهرا . لقد وصل القرية فى المساء الباكر وكان الجليد فى الليلة الفائتة قد تكسر وبدأ يتحرك ، وكان النهر الهادر المزبد بالماء الطينى الخابط يهدد الشوارع .

كان النزل الذى توقف عنده ليعلف الحصانين فى ذهابه يقع على الجانب الاخر من النهر . وكان من المحتمل ان يرتفع الماء اثناء الليل ، ولهذا قرر غريغورى عبوره دونما انتظار .

فساق العربة الى النقطة التى شق طريقه منها فوق الجليد عند الذهاب ، فوجد النهر قد طغى على ضفتيه . وكان جزء من سياج ونصف عجلة من عجلات العربات يدوران فى دوامة عكرة فى الوسط . وكانت هناك اثار حديثة لمزالق زحافات على الرمل الاجرد فى الجرف . فكبح الحصانين اللذين كانا يرشحان من العرق ، وقفز مترجلا ليتفحص الاثار عن كثب . كانت الاثار تتجه قليلا الى اليسار عند حافة الماء وتختفى فى مجرى النهر . قاس المسافة

الى الجانب الاخر بعينيه : خمسون خطوة على اكبر تقدير . ثم عاد الى الحصانين ليتفحص العدة . وفى تلك اللحظة اقترب منه عجوز اوكرانى قادم من اقرب كوخ وعلى رأسه قبعة من فرو الثعلب . فسأله غريغورى ، ملوحا بعنانه نحو الماء الخابط الهادر :

— هل يوجد مكان صالح للعبور من هنا ؟

— بعض الناس عبر من هنا هذا الصباح .

— اهو عميق ؟

— كلا . ولكن قد يغمر عربتك .

فسحب غريغورى العنان ولوح بسوطه ، وجعل يحث الحصانين ويستنفرهما بنبرات صارمة . فتحركا مرغمين ، وجعلا ينخران ويتشممان الماء . ولفح غريغورى الهواء بسوطه ، ورفع جسمه قليلا من على المقعد .

نفر الكميت المربوط الى اليسار برأسه وسحب سيور الجلد على حين غفلة . والقى غريغورى بنظرة الى قدميه ، فوجد الماء يدوّم فوق مقدمة العربة . كان الحصانان فى بادئ الامر يخوضان الى ركبتيهما ، ولكن سرعان ما ارتفع التيار الى صدريهما . فحاول غريغورى ان ينكص بهما الى الوراء بيد انهما لم يستجيبا للعنان وجعلا يسبحان . ودارت مؤخرة العربة بفعل التيار ، فى حين كان الحصانان يبذلان جهدهما للارتفاع برأسيهما عن التيار . وجرت امواج المياه فوق ظهزيهما ، واخذت العربة تتمايل ويسحبها التيار الى الخلف بقوة .

فصاح الاوكرانى وهو يهرول على الضفة ويلوح بقبعته الفرو :

— آ . . . آ . . .

ومضى غريغورى يصرخ بغضب جامح ويحث الحصانين . كان الماء يزبد بدواماته خلف المركبة الغائرة . اصطدم المزلاقان

بركام ناتئ من بقايا الجسر الذى اكتسحته المياه ، وانقلبت المركبة بسهولة عجيبة . فغطس رأس غريغورى فى الحال وهو يتأوه ، ولكن العنان لم يفلت من يديه . وفيما كانت المركبة تتأرجح راح الماء يجذبه من ساقيه وذيل فروته جذبا هينا ويجعله يدور . افلح فى ان يمسك بمزلاق ، وترك العنان واخذ يضع يدا فوق اخرى لاهثا ، متجها صوب عريش العربة وقد اوشك ان يمسك بنهايته الحديدية ، واصابته رفسة فى ركبته من الكميت الذى كان يقاوم التيار ، فمد غريغورى يديه ، وهو يغص بالماء ، وامسك باسار العربة . ولم يجد نفسه الا وقد ابتعد عن الحصانين ، وارتخت قبضته . وكانت عضلات جسمه ترتعد من البرد ، ولكنه افلح فى الوصول الى رأس الحصان ، فسلط الحيوان عليه نظرة مجنونة مفعمة بالفزع من الموت ، تشع من عينيه الدمويتين .

وبين لحظة واخرى كان يمسك بالعنان الجلدى اللزج ، ولكنه ظل يفلت من بين اصابعه ، وبطريقة ما استطاع ان يمسك به اخر الامر . وعلى حين غرة وجد ساقيه تحكان القاع . اندفع الى الامام بكل قواه يحث الحصانين بصراخه فأطاح به صدر الحصان وهو فى طريقه الى الشاطئ خلل الماء الضحل .

جر الحصانان العربة من الماء بعنف وهما يدوسان عليه ، ثم وقفا على بعد بضع خطوات منه . وكان البخار يتصاعد منهما وهما يرتعشان وقد اضناهما التعب .

استوى غريغورى على قدميه ، وهو لايكاد يشعر بالالم ، لقد لفه البرد وكأنه وضع فى عجينة ساخنة لا تحتمل . وكان يرتجف اكثر من الحصانين ، واحس بضعف فى ساقيه مثل رضيع لم يبلغ الفطام . واستعاد صوابه شيئا فشيئا ، فقلب العربة على مزلاقيها ، وساق الحصانين فى عدو سريع ليبعث فيهما الدفء . وطار فى

شارع القرية وكأنه يغير على عدو ، وانعطف نحو اول بوابة مفتوحة دون ان يخفف من سرعته .

برهن المضيف على اريحية ، فقد ارسل ابنه ليعتنى بالحصانين بينما ساعد هو غريغورى فى خلع ملابسه . وبلهجة لا تتحمل الرفض طلب من زوجته ان تشعل الموقد . فتمدد غريغورى فوق الموقد بسروال رب المنزل فيما كانت ملابسه تجف . وبعد ان تناول عشاء من حساء الكرنب الخالى من اللحم استغرق فى النوم .

ثم انطلق ثانية قبل الفجر بوقت طويل . لقد بقيت امامه مسافة تربو على المائة والخمسة والثلاثين فرستا ، لذا كانت لكل دقيقة قيمتها . وامام ناظريه سهب ضاعت معالم طرقه بفعل فيضان الربيع ، وقد احال الثلج الذائب كل وهدة صغيرة او اخدود الى سيل متدفق هادر .

انهك الطريق الاجرد المعتم الحصانين . ومضى يسير على اديم تصلب بفعل صقيع الصباح الباكر ، حتى وصل قرية تبعد أربعة فرستات عن طريقه ، وتوقف عند مفترق طرق . كان العرق يتبخر من الحصانين ، وخلفه يلوح اثر مزلاقى العربة اللامع على الارض . ترك العربة ثم انطلق ثانية ، ممتطيا صهوة جواد حاسر الظهر ويقود الجواد الاخر من عنانه . فبلغ ياغودنويه صباح عيد احد الشعانين .

انصت ليستتسكى العجوز باهتمام الى وقائع رحلته ، وذهب ليرى الحصانين . كان ساشكا يقودهما جيئة وذهابا فى الساحة ، وينظر بغضب الى خواصرهما الغائرة .

سأله السيد :

— كيف هما ؟

فأجاب ساشكا دون ان يوقف الحصانين ويهز لحيته الشيباء :

— لا بأس .

— هل انهكهما ؟

— كلا . الكميت مصاب بحكة فى صدره من احتكاك رقابيته ، ولكنها ليست ذات أهمية .

فأومأ ليستتسكى بيده لغريغورى :

— اذهب لتستريح .

فذهب غريغورى الى غرفته ، ولكنه لم يسترح سوى ليلة واحدة . فقد دخل فينيامين الغرفة فى الصباح التالى بقميص جديد من الساتان الازرق ، ووجهه سمين متألق ، وأستدعاه :

— السيد يريدك يا غريغورى فى الحال .

كان الجنرال يتمشى فى الصالة بخفين من اللباد . ولم يلتفت الا بعد ان تنحنح غريغورى مرتين مراوحا قرب الباب :

— ماذا تريد ؟

— لقد ارسلت فى طلبى .

— آه ، نعم ! اذهب واسرج الفرس وكريبيش . وقل للوكيريا الا تطعم الكلاب . فسوف نأخذها للصيد .

استدار غريغورى ليترك الغرفة . بيد ان سيده اوقفه هاتفا :

— اسمعت ؟ وسوف تذهب انت معى .

دست اكسينيا قطعة من الفطيرة فى جيب غريغورى وتمتمت :

— انه لا يدع المرء يتناول حتى طعامه ، فليأخذه الشيطان ، تلفع بلفافك على الاقل يا غريشا .

قاد غريغورى الحصانين المسرجين الى السياج ، وصفر للكلاب . وخرج ليستتسكى مرتديا سترة قصيرة زرقاء حزمت بنطاق جلدى مزخرف . وقد تدلت من ظهره قارورة معدنية موضوعة فى حافظة من الفلين ، وخلفه سوط مدلى من يده مثل الحية .

امسك غريغورى باللجام ودهش لما رأى ليستنتسكى العجوز ينهض بجسمه العظمى بسهولة ويستوى على السرج . وامر الجنرال باقتضاب ، وهو يمسك العنان برقة بيد مقفزة :

— كن قريبا ورائى .

وامتطى غريغورى الجواد الفتى المضطرب الذى رفع رأسه الى الاعلى . لم يكن حافراه الخلفيان قد نعلا ، فكان يتزحلق ويقعى على مؤخرتيه كلما يطأ بقعا من الجليد . اما الجنرال فقد استوى محدوديا ، ولكنه ثابت فى سرجه فوق ظهر حصانه العريض . لحق غريغورى الجنرال وسأله :

— الى اين نذهب ؟

— الى وادى اولشانسكى — اجاب ذاك بصوت عميق .

كان الحصانان يخبان بخطى معتدلة . شد الجواد على اللجام وقوس رقبته القصيرة ، وازور نحو راكبه وحاول ان يعض ركبتيه . وعندما بلغا اعلى المرتفع ، حث ليستنتسكى فرسه على العدو السريع . فتبعت سلسلة كلاب الصيد غريغورى ، وكانت الكلبة السوداء تركض وقد لامس خطمها أسفل ذيل الجواد . فحاول الجواد ان يبلغها عندما أقعى الى الوراء بساقيه الخلفيتين ، غير ان الكلبة صدت عنه الى الخلف وصعّدت الى غريغورى عندما التفت الى الوراء نظرات مستجدية كأنها امرأة عجوز .

بلغا وادى اولشانسكى ، بعد نصف ساعة . ومضى ليستنتسكى بين الاحراش على امتداد حافة المنحدر ، بينما انحدر غريغورى الى قاع الوادى المغسول بالمطر ، متحاشيا الحفر العديدة بحذر . وجعل ينظر الى الاعلى بين لحظة واخرى ، فرأى هيئة ليستنتسكى الظاهرة بدقة من خلل الزرقة الفولاذية لغيضة بيلسان جرداء مضللة . وعندما انحنى العجوز الى الامام ، ونهض على الركاب ، تجعدت

من الخلف سترته الزرقاء ذات النطاق . كانت الكلاب تعدو على حافة الوادى فى جماعة متراصة . اجتاز غريغورى حفرة عميقة ومال جسمه الى جانب .

وقال فى ذات نفسه : «بوسعى ان ادبر حالى بسيكارة . سأطلق العنان واتناول كيس تبغى» . ونزع قفازه وجعل يبحث عن ورق اللف .

ندت صرخة من الجانب الاخر للشفير كأنها طلقة مسدس :

— تعقبه !

رفع غريغورى رأسه بحدة الى الاعلى ، فرأى ليستنتسكى يخب صعد السفح ملوحا بسوطه . . .

— تعقبه !

كان ثمة ذئب اغبر ساقط الشعر يعدو بسرعة خاطفة مارقا عبر قعر الوادى الذى يتخلله أسل المستنقعات والقصب ، حتى ليكاد يلامس جسمه الارض . وعندما نط عبر احد الاخاديد ، توقف والتفت بسرعة ، فلمح الكلاب . كانت تتعقبه على هيئة حذوة الفرس لتقطع عليه طريق الغابة فى نهاية الوادى .

وقفز الذئب بظفر الى تلة صغيرة واتجه صوب الغابة . ولكن الكلبة العجوز كانت تقطع عليه الطريق مضاعفة بأسها بخطوات قصيرة . وكان كلب اخر يدعى بالصقر ، وهو من اجود واشرس الكلاب يتعقبه من الوراء . فتلكأ الذئب لحظة ، واختفى من بصر غريغورى عندما اجتاز غريغورى الوادى صعدا . وعندما اشرف ثانية على منظر لاحب من التلة كان الذئب قد ابتعد فى السهب مندفعا الى واد مجاور . واستطاع ان يرى الكلاب السوداء تعدو خلل الاعشاب الجافة خلف الذئب ، وليستنتسكى العجوز يستحث حصانه بعقب سوطه ملتفا حول الوادى . وبدأت الكلاب تدرك

الذئب عندما بلغ الوادى ، ولاح الصقر كخرقة ضاربة الى البياض مدلاة من حقوى الذئب .

هبت الصيحة من جديد على اذنى غريغورى :

— تعقبه !

فهذب غريغورى بجواده باذلا جهده بلا طائل ليرى ما يجرى امامه . كانت عيناه تسحان بالدموع ، واذناه قد اصمهما عزيف الريح . لقد الهبه حماس الصيد . فانحنى على رقبة الجواد ، وطار يعدو عدوا جنونيا . وعندما بلغ الوادى ، لم ير الذئب ولا الكلاب . وبعد لحظة لحق به ليستنتسكى . وصاح وهو يكبح فرسه بشدة :

— اين ذهبت ؟

— الى الوادى كما اعتقد .

— الحق بها من اليسار . تعقبها !

ونخس العجوز خاصرتى الفرس بمهمازيه ومضى نحو اليمين . هبط غريغورى فى الوادى مشدا عنانه ، صرخ وصعد الى الجانب الاخر من الوادى . فالحف على حصانه المتصبب عرقا بالسوط والصياح ، وقطع مقدار فرست ونصف . فكانت التربة الرطبة اللزجة تتطاير تحت الحوافر وتلطمه على وجهه . انعطف الوادى الطويل الى اليمين وتشعب الى ثلاثة فروع ، ولما اجتاز غريغورى الفرع الاول لمح السلسلة الداكنة من الكلاب تطارد الذئب عبر السهب . كان الحيوان قد جوبه من قلب الوادى المكتظ باشجار البلوط والحور ، فاندفع الى وهدة يكتنفها دغل جاف ونبات شائك .

راح غريغورى يراقب الكلاب والطريدة وهو يستوى واقفا على الركابين ويمسح بكمه الدموع من عينيه الملفوحتين بالريح . وادرك وهو ينظر بين لحظة واخرى صوب اليسار ، انه فى السهب القريب

من قريته . وقطعة الارض غير المستوية التى حرثها مع ناتاليا فى الخريف ليست بعيدة . فقاد الجواد عن قصد عبر الارض المحروثة ، وفتر حماسه للصيد ، عندما كان الحيوان يتعثر اثناء ذلك وتزل حوافره فوق الطين . واخذ يحث الجواد المتعسر الانفاس بلا حماس ، وينظر الى سيده ، ليرى ان كان ليستنتسكى يتلفت الى الخلف ، ثم مضى يخب على مهله .

وعلى مبعدة يسيرة استطاع ان يرى مضارب الحارثين المهجورة ، وابعد من ذلك بقليل شاهد ثلاثة ازواج من الثيران تجر محراثا فوق التربة المخملية الغضة .

«انهم من قريتنا ، بلا شك . ولكنها ارض مَنْ ياترى ؟ انها لانيكوشكا كما اعتقد» وخاوص غريغورى عينيه محاولا تمييز الرجل الذى يتعقب المحراث . فى تلك اللحظة سمع غريغورى صوت ليستنتسكى يصرخ :

— امسكوه .

فرأى فوزاقيين اثنين يتركان المحراث ويهرعان ليقطعا الطريق على الذئب المندفع نحو الوهدة . كان احدهما يرتدى قبعة مدببة ذات شريط احمر ، وقد شد سيرها الى ذقنه ، يلوح بعصا حديدية . وعلى حين غرة اقعى الذئب فى اخدود حراثة عميق . فقفز الصقر فوقه وهوى وقد انثنت قادمتاه تحته ، وحاولت الكلبة العجوز المقتفية اثره التوقف فجرفت قائمتاها الخلفيتان التربة الطينية المحروثة ، وتكومت على الذئب فاقدة توازنها . فجعل الحيوان الطريد يهز رأسه بعنف . فارتدت عنه الكلبة . فحاقت كتلة الكلاب بالذئب ، وراحت جميعها تجرجر بالحيوان بضع خطوات على الارض المحروثة . ترجل غريغورى من على جواده قبل سيده بنصف دقيقة . وجثا على ركبتيه ممسكا بيده سكينة الصيد .

صاح القوزاقى ذو العصا الحديدية بصوت يعرفه غريغورى كل المعرفة :

— هيا ! من بلعومه ! — وحط وهو يلهث لهاثا شديدا الى جانب غريغورى ، وقبض على قادمتى الذئب بيد واحدة ، وهو يجر الكلب الذى تمكن من بطن الفريسة . وتحسس غريغورى قصبته الهوائية من تحت فرائه الخشن ، وحزه بالسكين .

فزعق ليستنتسكى العجوز المزرق الوجه وهو يهبط من السرج :

— الكلاب ! الكلاب ! اطردها .

واستطاع غريغورى ان ينحى الكلاب بعد لأى ، ثم دنا من سيده .

على مقربة منهما كان ستيبان استاخوف واقفا بقبعة شد سيرها الى ذقنه . كان يقلب العصا الحديدية بيديه وقد اختلج وجهه على نحو غريب .

التفت ليستنتسكى نحو ستيبان وقال :

— من اين انت ، يا صاحبى ؟

فاجابه ستيبان بعد لحظة تلكؤ ، وقد اقترب خطوة نحو غريغورى :

— من تاتارسكى .

سأله ليستنتسكى :

— وما اسمك ؟

— استاخوف .

— ومتى تعود الى قريتك ؟

— الليلة .

فاشار ليستنتسكى بقدمه الى الذئب . كان فكا الحيوان يختلجان واهنين اختلاجة الموت ، وتشنجت الى الاعلى احدى

ساقيه الخلفيتين وارتفعت وقد علقت بها خصلة رمادية من الفرو .

وقال :

— اجلب لنا الجثة . سوف ادفع لك .

ومسح العرق من وجهه الارجوانى بوشاحه ، واستدار ، وانزل من كتفه السير الضيق المشدود الى القارورة .

مضى غريغورى الى جواده . وعندما وضع قدمه فى الركاب ، رنا الى الخلف . فرأى ستيبان قادما نحوه يختض بصورة لا ارادية ، وقد شد قبضتيه الضخمتين الثقيلتين على صدره .

١٨

تجمعت النسوة مساء الجمعة الحزينة فى دار بيلاغيا مايدانيكوفا المجاور لدار كورشونوف ، للمسامرة . وكان زوجها غافريلا قد كتب اليها من لودز يخبرها انه يسعى للحصول على اجازة بمناسبة عيد الفصح . فبيضت بيلاغيا الجدران ورتبت الكوخ منذ الاثنين السابق لعيد الفصح ، ولبثت تنتظر بترقب منذ يوم الخميس ، وتهرع الى الباب لتقف امام السياج حاسرة الرأس شاحبة وقد بدت على وجهها امارات الحمل . وتتطلع الى الطريق واضعة كفها فوق عينيها علها ترى بعلها قادما . كانت حاملا من زوجها الشرعى الذى عاد من كتيبته فى صيف العام الماضى وجلب معه قماشا بولنديا هدية لها . وقضى معها اربع ليال ، وفى الخامسة سكر ، وجعل يسب بالبولندية والالمانية ، وجلس يغنى والدموع تترقرق فى مآقيه ، اغنية قوزاقية قديمة عن بولندا ، تعود الى عام ١٨٣١ . جاء اصدقاؤه واخوته لتوديعه وجلسوا معه يغنون ويشربون الفودكا قبل الغداء .

يقولون ان بولندا بلاد غنية جدا ؛
لكننا وجدناها فقيرة كمن نزلت عليهم اللعنة .
وفى بولندا هذه يوجد نزل ،
نزل بولندى ، يعود لملك بولندا .
وفى هذا النزل كان ثلاثة فتيان يشربون ،
بروسى ، وبولندى ، وروسى من قوزاق الدون .
شرب البروسى الفودكا ودفع ما عليه .
وشرب البولندى الفودكا ودفع اكثر بقليل .
وشرب القوزاقى ، فعاد النزل فقيرا كما كان .
ثم جعل يتخطى فيسمع صليل مهمازيه
ورأت ساقية المقصف عينيه مسمرتين فى عينيها .
«آه ، يا سيدتى العزيزة ، تعالى لتعيشى معى ،
تعالى لتعيشى معى فى الدون الهادئ
فالناس فى الدون لا يحيون حياتكم ،
لا ينسجون ، لا يغزلون ، لا يبذرون ، لا يحصدون ،
لا يبذرون ، ولا يحصدون ، ولكنهم يرتدون ملابس انيقة جدا»

وبعد الغداء ودع غافريلا عائلته ومضى راكبا . وشرعت بيلاغيا من يومها ذاك ترقب بطنها .

شرحت لناتاليا كورشونوفا كيف حملت . وقالت «لقد شاهدت حلما قبل وصول زوجى بيوم او بيومين ، كنت اسير خلال المرج ، فرأيت بقرتنا العجوز قبالتى ، بقرتنا التى بعناها فى الصيف الماضى . كانت تسير والحليب يقطر من حلمات ضرعها . فقلت فى ذات نفسى «يا الهى ، اترانى لم احسن حلبها» . وفى اليوم التالى جاءت دروزديخا العجوز تطلب حشيشة الدينار ، فقصصت عليها الحلم . فنصحتنى بان اقتطع قطعة من الشمع وألكها على هيئة كرة وآخذها وادفنها فى روث البقر ، لان سوء الطالع كان مطلا من النافذة .

فهرعت لافعل كما قالت . ولكنى لم اجد الشمعة . لقد كانت لدى واحدة بالتأكيد ، ولا بد ان الاطفال قد اخذوها ليصطادوا ابا شبث . ثم جاء غافريلا ومعه المتاعب . وقبل ذلك كنت قد امضيت ثلاثة اعوام بلا متاعب ، اما الان فانظرى الىّ ! — ونخست بطنها المنتفخة .

وبرمت بيلاغيا من انتظار زوجها . لقد سئمت وحدتها ، ومن ثم دعت صديقاتها لزيارتها يوم الجمعة وقضاء الامسية معها . وجاءت ناتاليا وبيدها جورب لم تنته بعد من حياكته ، ذلك ان الجد غريشاكا اشتد عليه البرد عند حلول الربيع . وكانت مرحة على غير عادتها ، وضحكت اكثر مما ينبغى لدعابات الاخريات ، محاولة اخفاء اشتياقها لزوجها . وكانت بيلاغيا جالسة على الموقد وقد تدلت ساقاها العاريتان بعروقهما البنفسجية ، وجعلت تمازح فروسيا الشابة السليطة :

— كيف ضربت زوجك يا فروسيا ؟

— ألا تعرفين كيف ؟ على ظهره ، على رأسه ، وعلى أى مكان استطيع ان ابلغه بيدى .

— لم اقصد ذلك ، انما كنت اتساءل كيف حصل ذلك .

فأجابت فروسيا برمة :

— لقد حصل وحسب .

فعلقت امرأة نحيلة طويلة قائلة بتأن :

— ولكن هل سيهدأ لسانك اذا ما كبست زوجك مع امرأة اخرى ؟

— حدثينا عن كل ذلك يا فروسيا .

— ليس لدى ما اقوله . . .

— اوه ، هيا فكلنا هنا صديقات .

فتبسمت فروسيا قائلة وهى تنفل قشور عباد الشمس فى كفها :

— حسنا ، لقد لاحظت نزواته منذ وقت طويل ، ثم اخبرتنى احداهن انه كان يتردد على الطاحونة مع فاجرة تأتى من الجانب الاخر من الدون . فذهبت ووجدتهما فى الطاحونة .

فقاطعتها المرأة الناحلة ملتفتة الى ناتاليا :

— هل من اخبار عن رجلك يا ناتاليا ؟

فاجابت هامسة :

— انه فى ياغودنويه .

— وهل تفكرين فى العيش معه ؟

فتدخلت مضيفتهن :

— قد تفكر فى ذلك ، ولكنه لا يفعل .

فأحست ناتاليا بالدم الحار يفور فى وجهها . واحنت رأسها فوق جوربها وجعلت تنظر الى النسوة من تحت اهدابها . واذ ايقنت انها لا تستطيع ان تخفى عنهن حميا خجلها ، اسقطت كرة الصوف عن عمد وبارتباك فطن له الجميع . فتدحرجت من حضنها ثم انحنت وراحت تتلمس بأصابعها ارض الحجرة الباردة .

فنصحتها امرأة بنبرة رثاء ظاهر :

— ابصقى عليه ، ايتها المرأة ! سوف تجدين لك نبرا آخر ما دامت لك رقبة .

واختفت حيوية ناتاليا المصطنعة كما تتوارى الشرارة فى الريح . وانتقل حديث النسوة الى الثرثرة والقال والقيل . ومضت ناتاليا تحيك بصمت . واجبرت نفسها على الجلوس حتى انفرط عقد السامرات ، ثم ذهبت اخيرا الى البيت . وفى ذهنها قرار لم يختمر تماما . فقد دفعها الخزى من مصيرها المجهول الى خطوة اخرى . ذلك انها ما زالت لا تريد ان تصدق ان غريغورى قد

هجرها الى الابد ، وهى مستعدة لان تغفر له وتستعيده . لقد قررت ان ترسل له خطابا بصورة خفية ، لتتأكد ما اذا كان قد هجرها الى الابد او انه قد يغير رأيه . وعندما عادت الى البيت فى ساعة متأخرة وجدت غريشاكا العجوز جالسا فى غرفته الصغيرة يقرأ فى نسخة قديمة بالية من الانجيل مجلدة بجلد مدهون . وكان ابوها فى المطبخ يصلح شبكة لصيد الاسماك ويصغى الى قصة يرويها ميخاى عن جريمة قتل قديمة . وكانت والدتها قد ارقدت الطفلتين فى الفراش ونامت على حافة الموقد ، وقد واجه عقبا قدميها المسودان الباب . فخلعت ناتاليا سترتها وجالت فى الغرف دونما هدف . وفى احد اركان الغرفة الكبيرة كانت ثمة كومة من القنب المعد للبذر ، وكان بالوسع سماع الفئران تتراكض وتصئ .

توقفت هنيهة فى غرفة جدها بالقرب من طاولة صغيرة وهى تتفرس باكتئاب فى كومة الكتب الدينية تحت الايقونات .

— جدى ، هل لديك شىء من الورق ؟

فتساءل الجد مقطب الجبين ناظرا اليها فوق النظارة : — اى صنف من الورق ؟

— ورق للكتابة .

فتلمس العجوز كتابا للتراتيل وجر منه طبقة مدعوكة من الورق انبعثت منها رائحة البخور القوية .

— وقلم ؟

— اسألى اباك . ابتعدى يا عزيزتى ، ولا تزعجينى .

وحصلت على عقب قلم من ابيها ، وجلست الى المنضدة تتصارع فى ذهنها الافكار التى سامتها العذاب ردحا طويلا من الزمن ، الافكار التى اهاجت ألما يخدر قلبها ويتآكله .

ومضت تكتب :

«غريغورى بانتلاييتش !

قل لى كيف لي ان اعيش ، وهل ضاعت حياتى ام لا . لقد رحلت دون ان تقول لى كلمة واحدة . لم اقترف ذنبا بحقك ، ولقد لبثت انتظرك لكى تطلق اسارى ، لكى تقول انك رحلت الى غير رجعة ، ولكنك مضيت عنى وها انت صامت لا تريم كالقبر .

ظننت انك رحلت فى لحظة انفعال ، وانتظرت عودتك ، ولكننى لا اريد ان احشر نفسى بينكما . ان يسحق انسان واحد فى الارض خير من ان يسحق اثنان . ارحمنى لاخر مرة واكتـــب . وساعلم آنذاك ما هو مصيرى ، فأنا الان اقف فى منتصف الطريق .

لا تغضب منى ، ياغريشا ، بحب المسيح .

ناتاليا» .

وفى الصباح التالى ، «عدت هيت-بابا ان تعطيه فودكا واقنعته بالشخوص الى ياغودنويه حاملا الرسالة . فقاد هيت-بابا حصانا الى ساحة درس الحبوب ، وقد استبد به ترقبه لنوبة السكر وانطلق على الحصان غير المسرج الى ياغودنويه دون ان يخبر سيده بذلك . كان يبدو اخرق فوق حصانه ، كأى غريب بين فرسان قوزاق . كان مرفقاه الممزقان يرتجان اثناء خببه . وكان اطفال القوزاق الذين يلعبون فى الشارع يلاحقونه بصيحات السخرية :

— الاوكرانى القذر !

— حاذر الا تقع !

— كأنه كلب على سور !

وعاد عشية الليل ، وقد جلب معه ورقا زرقاء مما يلف به السكر القند ، وغمز لناتاليا وهو يخرج الورقة :

— كان الطريق فظيعا . لقد رجنى حتى كاد ان يخلع كبدى .

قرأت ناتاليا الجواب واستحال وجهها قاتما . لقد نفذت الكلمات الاربع المخربشة على الورقة الى قلبها كأسنان حادة . . . «عيشى وحيدة . **غريغورى ميليخوف»** .

وبسرعة ، كما لو لم تكن لتثق بقواها ، مضت ناتاليا الى البيت وارتمت على سريرها . كانت امها تشعل الموقد استعدادا لتلك الليلة ، لكى تطبخ فى بكرة صباح احد الفصح ولتكون كعكة العيد جاهزة فى الوقت المناسب .

نادت على ناتاليا :

— ناتاليا ، تعالى ساعدينى .

— ألم بى صداع ، يا ماما . سأضطجع قليلا .

فأطلت امها برأسها خلال الباب وقالت :

— اشربى شيئا من ماء الكامخ . وسيشفيك فى الحال .

فلعقت ناتاليا شفتيها بلسانها الجاف ولم تجب .

لبثت مستلقية حتى المساء ، ورأسها مغطى بشال صوفى دافىء وجسمها المتكوم يهتز بقشعريرة خفيفة . وكان ميرون غريغوريتش وغريشاكا على وشك ان يمضيا الى الكنيسة حينما نهضت وذهبت الى المطبخ . كانت حبات العرق تلمع على صدغيها تحت شعرها الناعم السبط وقد ترقرقت عيناها بغشاوة لزجة غير طبيعية .

وبينما كان ميرون غريغوريتش يشد أزراره الكثيرة على سرواله العريض رنا الى ابنته وقال :

— وقت غير مناسب لمرضك ، ايتها البنت . تعالى معنا الى القداس .

— اذهبوا ، وسآتى فيما بعد .

— لعلك ستأتين حينما نكون على اهبة الرجوع ؟

— لا ، سآتى حينما اتم ارتداء ملابسى .

فخرج الرجلان ، وتركا لوكينشنا وناتاليا فى البيت .وجعلت ناتاليا فى البيت تروح وتغدو على غير هدى بين الصندوق والسرير ، وتحملق بعينين شاردتين فى كومة الملابس المبعثرة فى الصندوق ، وتنـد عـن شفتيهـا همهمـة ، وتـدور فى ذهنهـا نفـس الافكار الموجعة . وظنت لوكينشنا ان ناتاليا لم تستطع ان تقرر اى لباس تلبس ، فاقترحت عليها بحنان امومى : «ارتدى تنورتى الزرقاء يا عزيزتى . ستناسبك تماما . أتريدين ان احضرها لك ؟»

لم يكن لدى ناتاليا ملابس جديدة لعيد الفصح ، وحين تذكرت لوكينشنا كيف كانت ابنتها قبل زواجها تحب فى الاعياد ان ترتدى تنورتها الضيقة ذات اللون الازرق الغامق ، الحت عليها ان تأخذها وهى تعزو قلقها الى حيرتها حول ما سترتديه .

— كلا ، سأمضى بهذه ! — واخرجت ناتاليا بعناية تنورتها الخضراء ، وتذكرت فجأة انها كانت ترتديها يوم زارها غريغورى اول مرة كعريسها المقبل ، وحين اخجلها بتلك القبلة الطائرة الاولى قرب مخزن الحبوب . وانكفأت على غطاء الصندوق المرفوع وهى تختض بالنشيج .

فصاحت امها ضاربة يدا بيد :

— ناتاليا ، ما خطبك ؟

فخنقت ناتاليا رغبتها فى العياط ، واستعادت سيطرتها على نفسها واطلقت ضحكة غليظة متخشبة .

— لا ادرى ما ألمّ بى اليوم . . .

— آه ، ناتاليا ، لقد لاحظت . . .

فصرخت بغيظ مفاجئ ، وهى تدعك تنورتها الخضراء بأصابعها :

— حسنا ، وماذا لاحظت ، يا ماما ؟

— انت لا تستطيعين المضى على هذا المنوال ، انت بحاجة الى زوج .

— كفانى ما لقيت من زوج واحد !

ومضت الى غرفتها ، وبسرعة عادت الى المطبخ مرتدية ملابسها ، نحيفة كالفتيات الصغيرات ، وعلى وجنتيها الشاحبتين تورد اسيان قاتم .

فقالت لها امها :

— امضى قبلى ، فلست مستعدة بعد .

فدست ناتاليا منديلا فى كمها وخرجت ، وحملت الريح اليها هدير الجليد الطافى والمذاق الدبق لرطوبة الذوبان . ومضت رافعة تنورتها قليلا بيدها اليسرى متلمسة طريقها عبر البرك الزرق اللؤلوية حتى وصلت الكنيسة . وكانت خلال الطريق تحاول ان تستعيد هدوءها النسبى السابق بالتفكير فى العيد ، وفى كل شىء بشكل مبهم وخاطف . غير ان افكارها ارتدت بعناد الى قطعة الورق المخبأة فى صدرها ، والى غريغورى والمرأة السعيدة التى كانت آنئذ تضحك منها ملء قلبها ، ولربما فى اشفاق عليها . . .

وحينما دلفت الى باحة الكنيسة اعترض طريقها بعض الفتيان ، فمالت عنهم وتناهى الهمس الى اذنها :

— من تكون ؟ أرأيتها ؟

— ناتاليا كورشونوفا .

— يقولون انها مفتوقة . ولهذا هجرها زوجها .

— غير صحيح . كانت تعبث مع حميها ، بانتلاى الاعرج .

— ها ، هكذا ! ولهذا هرب غريغورى من منزله ؟

— صحيح . وهى لا تزال على علاقتها ببانتلاى . . .

ووصلت الى سقيفة باب الكنيسة وهى تتعثر على حجارة الارض الوعرة يتبعها الهمس الداعر القذر . وهاهات الفتيات الواقفات فى السقيفة حينما استدارت وغذت السير الى البوابة الاخرى . وهرعت الى البيت وهى تترنح كأنها ثملة . وعند بوابة الفناء جذبت نفسا سريعا ثم دخلت تتعثر باذيال تنورتها وتعض على شفتيها حتى نز منهما الدم . وكان باب الحظيرة المفتوح فاغرا فاه عن سواد مظلم خلل العتمة البنفسجية . وبارادة صلبة استجمعت بقية قواها وركضت الى الباب وخطت مسرعة عبر العتبة . كانت الحظيرة باردة جافة ، تفوح منها رائحة الجلد فى عدة الخيل والتبن الزنخ . وتلمست طريقها مترنحة الى احدى الزوايا ، من غير احساس او تفكير ، يستحثها تشوق مظلم انشب مخلبه فى روحها اليائسة المهانة . وهناك التقطت محشا من مقبضه ، ورفعت الشفرة — وكانت حركاتها تنم عن ثقة واحكام — والقت برأسها الى الوراء ، وفى فورة جذلى من العزم ، فجائية ، شرطت بلعومها بنصله . فهوت كما لو ضربتها ضربة وصعقها الم وحشى لهاب ، ولما ادركت على نحو مبهم انها لم تنجز ما عزمت عليه كل الانجاز ، تحاملت على الاربع ، ثم على ركبتيها . وبسرعة فكت ازرار سترتها باصابع مرتعشة ، وقد افزعها الدم المنهمر على صدرها ، وازاحت جانبا صدرها القوى النافر ، بيد وبالاخرى سددت رأس الشفرة . وزحفت على ركبتيها نحو الحائط ، ودفعت عليه الطرف غير الحاد للشفرة . والقت ذراعيها وراء رأسها ، ودفعت صدرها بثبات الى الامام ، الى الامام . . . وشعرت وسمعت بوضوح بالحسحسة المقززة ، التى تشبه حسحسة الكرنب ، وهى تنبعث من اللحم المتمزق ، وسرت موجة متزايدة من الالم الحاد على صدرها والى بلعومها ، غارزة ابرا تطن فى اذنيها . . .

صر باب البيت . وتلمست لوكينشنا طريقها هابطة درجات الباب ومن برج الكنيسة انبعثت دقات ناقوسها المنتظمة . وكانت الطافيات الضخمة الجامحة تنحدر على الدون ، وينبعث منها هدير كاسح مستديم . وكان النهر الفياض ، الطلق الطروب ، يحمل اصفاده الجليدية بعيدا الى بحر آزوف .

١٩

تقدم ستيبان من غريغورى ، والتصق بخاصرة الحصان العرقة وقد امسك بركابه .

— كيف حالك ، يا غريغورى ؟

— الحمد لله !

— فيم تفكر ؟ ها ؟

— فيم عساى ان افكر ؟

— لقد انتزعت زوجة رجل آخر . . . اتقضي وطرك منها ؟

— دع الركاب .

— لا ترتعب ! لن اضربك .

فاحمر وجه غريغورى وعلا صوته :

— لست خائفا . اقلع عن هذا !

— لن اقاتلك اليوم . لا اريد . . . ولكن تذكر كلماتى ياغريغورى ، لسوف اقتلك عاجلا او آجلا .

— «سنرى !» كما يقول الاعمى !

— تذكر كلماتى جيدا . لقد اسأت اليّ . لقد خصيت حياتى كما يخصى خنزير . انظر هنالك . . .

ونشر يديه ، وراحتاه الخشنتان مبسوطتان الى اعلى . — انا

احرث ، ويعلم الله لأيما غاية . أأنا بحاجة الى ذلك لنفسى ؟ بوسعى ان ادبر حالى قليلا ، واقضى الشتاء بهذه الوسيلة . انها الوحدة ، وحدها هى ما يرهق كاهلى . لقد اسأت اليّ اساءة بالغة ، ياغريغورى .

— لا جدوى من شكواك اليّ . فالشيطان لا يفهم الجوعان .

فقال ستيبان موافقا وهو يحدق فى وجه غريغورى :

— هذا صحيح .

وعلى حين غرة انشق فمه عن ابتسامة صبيانية ساذجة ثنت زوايا عينيه الى شقوق صغيرة :

— اننى آسف لشىء واحد فقط ، ايها الفتى ، آسف جدا . . . اتذكر السنة ما قبل الاخيرة ، قتال القرية فى عيد المرفع ؟

— لا ، لا اذكر .

— يوم قتلوا قصار الاقمشة . وحين قاتل العزاب المتزوجين ، الا تتذكر ، هل تذكر كيف طاردتك ؟ كنتَ صغيرا وضعيفا آنذاك ، كنبتة اسل خضراء بالقياس لى . تخليت عنك حينئذ ، ولو كنت قد ضربتك اثناء هربك ، لكنت قد شطرتك نصفين . عدوتَ بسرعة ، كأنك قطعة من المطاط . ولو كنتُ قد لطمتك بقوة على اضلاعك لما كنت اليوم حيا ترزق فى هذه الدنيا .

— لا تجعل هذا يقلقك ، فلسوف ننازل بعضنا مرة اخرى .

ومسح ستيبان جبينه كمن يحاول ان يستذكر شيئا ما . ونادى ليستتسكى العجوز غريغورى وهو يقود حصانه من عنانه . ومشى ستيبان الى جانب الجواد وهو ما يزال ممسكا الركاب بيده . ولبث غريغورى يراقب كل حركة تبدر منه ، ولاحظ شارب ستيبان الكستنائى المتهدل ، والدغلة الكثيفة فى ذقنه الذى لم يحلق منذ اجل بعيد ، والسير الجلدى المتشقق فى قبعته العسكرية .

كان وجهه حزينا غريبا بصورة مذهلة ، وقد تركت مسارب العرق البيض آثارها عليه . وفيما كان غريغورى ينظر ، احس وكأنه يشخص من قمة تل الى السهب البعيد الملفع بضباب ممطر . كان ثمة كلال وفراغ يغشيان قسمات ستيبان الذى تخلف وراء غريغورى دون كلمة وداع ، فمضى غريغورى بحصانه متمهلا .

— انتظر قليلا . وكيف . . . كيف حال اكسينيا ؟

فاجاب غريغورى وهو يضرب بسوطه كتلة من التراب من على جزمته :

— لا بأس .

ثم اوقف الجواد ونظر خلفه . كان ستيبان واقفا وقدماه منفرجتان عن بعضهما كثيرا ، يلوك عودا بين اسنانه . واحس غريغورى على حين غرة باشفاق عليه لا حد له ، وما هى الا لحظة حتى طغت الغيرة عليه . فصاح وهو يستدير على سرجه :

— انها لا تفتقدك ، فلا تقلق !

— أهو كذلك ؟

وهوى غريغورى بسوطه على الجواد فيما بين اذنيه وابتعد يجرى به دون ان يجيب .

٢٠

لم تبح اكسينيا بحملها لغريغورى الا فى الشهر السادس ، حينما لم يعد فى مقدورها ان تخفيه عنه . لقد ظلت صامتة طيلة ذلك الوقت لانها كانت تخشى الا يصدق بأن الجنين الذى تحمله هو ابنه . كانت تتريث كما لو تنتظر شيئا وكان قلبها ينقبض من نوبات الاسى والرعب .

وخلال الاشهر الاولى كان الغثيان ينتابها من اللحم دون ان يلحظ غريغورى ، وحتى لو لحظه لما قدر بواعثه .

واعتمل النبأ فى سريرتها ذات مساء فاخبرته به ، وهى تتفرس قلقة فى وجهه طيلة الوقت تتلمس اى تبدل فى قسماته . غير انه استدار نحو النافذة وتنحنح متضايقا .

— لم تخبرينى من قبل ؟

— كنت خائفة ، ياغريشا . ظننت انك قد تلفظنى . . .

فسأل وهو ينقر باصابعه على ظهر السرير :

— اسيكون ذلك قريبا ؟

— بداية آب ، على ما اظن .

— اهو ابن ستيبان ؟

— كلا ، انه ابنك !

— هكذا تزعمين ؟

— فلتقدر انت بنفسك . انه من يوم قطع الاخشاب . . .

— لا تصطنعى الاشياء ياآكسينيا ! حتى لو كان ابن ستيبان ، فما عساك ان تفعلى ؟ ان ما اريد هو جواب صادق .

فجلست آكسينيا على المصطبة وهى تذرف دموعا مغضبة ، وانفجرت فى همس ضار :

— لقد عشت معه سنين عديدة ، ولم يحصل شىء ابدا ! فكر بنفسك ! اننى لم اكن امرأة عليلة . . . لا بد انه جاءنى منك . . . وها انك . . .

لم يتحدث غريغورى باكثر من ذلك عن الموضوع . وطرأ على موقفه من آكسينيا خيط جديد من الترفع الحذر والشفقة المشوبة بشىء من السخرية ، فانطوت على نفسها لا تسأله معروفا . وفى اشهر الصيف فقدت ملامحها الجميلة ، لكن الحمل لم يؤثر على

قوامها البديع الا قليلا ، فقد اخفى امتلاؤها العام وضعها الجديد ، وبالرغم مما بدا على وجهها من نحول فقد اكتسب جمالا جديدا بعينيها المتألقتين بدفء . واستطاعت ان تدبر بسهولة عملها ، كطاهية ، لا سيما وان عدد العمال الذين استخدموا فى الضيعة كان اقل من السابق .

صار ساشكا العجوز مولعا بآكسينيا ، ذلك الولع المتقلب الذى يميز الشيخوخة . ربما لانها كانت ترعاه كما ترعى البنت اباها ، فكانت تغسل له اغطيته ، وترتق قمصانه وتمنحه لقما سهلة المضغ على المائدة . وكان ساشكا حينما ينتهى من رعاية الخيل ، يذهب الى المطبخ ، ليجلب الماء ويعصد البطاطة للخنازير ، ويقوم بشتى الاعمال الصغيرة متوثبا حولها وملوحا بيديه وهو يكشف عن لثته الجرداء ويقول :

— انت تحسنين اليّ ، ولسوف اكافئك . سأفعل اى شىء من اجلك ، يا آكسينيا . لقد تلفت حياتى من غير امرأة تعنى بى ، كان القمل يلتهمنى . لو احتجت الى اى شىء ، فما عليك الا ان تسأليني .

كان يفغينى نيكولاييفتش قد رتب امر اعفاء حوذيه من معسكر التدريب الربيعى . فعمل غريغورى فى الحش ، ومن حين لاخر كان يوصل ليستنتسكى العجوز بمركبته الى مركز المنطقة ، ويمضى بقية وقته مع سيده فى صيد طيور الحبارى . وبدأت الحياة السهلة الرضية تفسد طباعه ، فأمسى كسولا بدينا ، وبدا اكبر سنا من حقيقة عمره . وكان الشىء الوحيد الذى يسبب له القلق هو التفكير بخدمته العسكرية المقبلة ، فلم يكن لديه حصان ولا عدة ، ولم يكن ليأمل ان يحصل على اى شىء من ابيه . فجعل يدخر الاجر الذى يستلمه عن عمله وعمل آكسينيا ، حتى حرم نفسه التبغ آملا ان

يستطيع ابتياع حصان دون اضطراره الى الاستجداء من ابيه . وكان ليستنسكى العجوز قد وعده خيرا كذلك . وسرعان ما تحقق هاجس غريغورى بأن اباه لن يعطيه شيئا . ففى اواخر حزيران جاء بيوتر لزيارة اخيه ، وذكر فى مجرى الحديث ان اباه لم يزل غاضبا كالسابق ، وانه اعلن الا يساعده فى الحصول على حصان ، وقال : «فليذهب الى القيادة المحلية ليحصل على حصان .»

فقال غريغورى :

— ليس ثمة ما يدعوه للقلق ، فسأذهب لاداء خدمتى العسكرية على حصانى الخاص ، — وشدد على كلمة «الخاص» .

فسأله بيوتر مبتسما وهو يلوك شاربه :

— وكيف ستحصل عليه ؟ هل ستشتغل راقصا للحصول على ثمنه ؟

— سارقص من اجله ، او استجدى ، واذا لم استطع الحصول عليه بهذه الوسيلة فسوف اسرقه .

— ياللفتى الشاطر !

فقال غريغورى بلهجة اكثر جدية :

— سابتاع حصانا بأجورى .

ومضى بيوتر فى جلسته على درجات العتبة يسأل غريغورى عن عمله وطعامه واجوره ، وهو يلوك شاربه ويهز رأسه استحسانا ، وبعد ان اتم استفساراته قال لاخيه وهو يستدير لينصرف :

— خير لك ان تعود ، فلا جدوى من عنادك . اتحسب انك ستحصل على اجر اعلى بهذه الطريقة ؟

— لا ، لا اظن .

— اتنوى البقاء معها ؟

— مع من ؟

— مع هذه المرأة ؟

— اجل . ولم لا ؟

— اوه ، كنت اتساءل وحسب .

وبينما مضى غريغورى ليودع اخاه ، سأله اخيرا :

— وكيف الاحوال فى البيت ؟

فتضاحك بيوتر فيما كان يحل فرسه من درابزين الدرجات ، وقال :

— لك بيوت بقدر ما للارنب من جحور ! كل شىء على ما يرام . امى تفتقدك . وقد حششنا ثلاثة احمال من التبن .

وتفرس غريغورى بانفعال فى الفرس العجوز التى كان يمتطيها اخوه :

— ألم تلد مهرا هذا العام ؟

— كلا ، ايها الاخ ، فهى عاقر . ولكن الكميت التى اشتريناها من كريستونيا ولدت .

— وولدها ؟

— فحل جيد طويل الساق قوى الرسغ ، وذو صدر متين . وسيغدو جوادا جيدا .

فتنهد غريغورى ، وقال :

— اننى افتقد القرية يا بيوتر . افتقد الدون . فلست تجد ماء يجرى هنا . انه جحر موحش !

فاجاب بيوتر وهو يلقى بطنه على ظهر الفرس الهزيل :

— تعال زرنا .

— يوما ما .

— حسنا . مع السلامة .

— رحلة طيبة .

وكان بيوتر قد ابتعد من الفناء حينما تذكر شيئا وصاح على غريغورى الذى كان لا يزال واقفا على الدرجات :

— ناتاليا . . . لقد نسيت . . . شيء فظيع . . .

لكن الريح التى كانت تحوم فوق الفناء مثل النسر حملت نهاية الجملة بعيدا عن اذنى غريغورى . وتلفع بيوتر وفرسه بغبار مخملى ، فلوّح غريغورى بيده ومضى الى الاصطبلات .

كان الصيف جافا كالعظام . ثم سقط مطر قليل فنضج القمح مبكرا . وما ان تم خزن الذرة ، حتى نضج الشعير واصفر لونه ، فخرج غريغورى والعمال المياومون الاربعة لحصاده .

وكانت اكسينيا قد انهت عملها مبكرة ذلك اليوم فسألت غريغورى ان يصطحبها معه . وحاول ان يثنيها عن عزمها قائلا :

— الافضل ان تبقى فى البيت فما الحاجة اليك هناك ؟

ولكنها الحت والقت العصابة على رأسها بسرعة ، وخرجت تعدو حتى لحقت بالعربة التى ركب فيها الرجال .

وقد وقع اثناء الحصاد الحادث الذى كانت تتطلع اليه اكسينيا بتلهف ونفاد صبر مشوب بالفرح ، والذى كان غريغورى يتوقعه بخوف مبهم . واذ شعرت بالاعراض ، القت عنها المجرفة واستلقت تحت كومة من حزم الشعير . وسرعان ما جاءها المخاض . فتمددت متفلطحة على الارض وهى تعض على لسانها المسود مر بها العمال وهم على آلة الحصاد عند المنعطف ، وحثوا الخيل صارخين . وصرخ بها احدهم ، وهو شاب تعلو انفه دملة متقيحة وقد امتلأ وجهه الاصفر بتجاعيد لا حصر لها بدت كحفر على الخشب :

— هى ، انت ! انهضى والا ذبت !

فاناب غريغورى احد الرجال محله على الالة وعبر اليها .

— ما الخبر ؟

فقالت بصوت مبحوح وشفتاها تلتويان بغير ارادتها :

— جاءنى المخاض . . .

— قلت لك الا تأتى ، يا قحبة الشيطان ! ما عسانا ان نفعل الآن ؟

— لا تغضب منى ، ياغريشا ! . . آه ! . . آه . . غريشا ، شد الحصان الى العربة . لا بد ان اذهب الى البيت . . . كيف يمكننى ، هنا . . . والقوزاق .

وند عنها انين حينما اعتصرها الالم مثل طوق حديدى .

فركض غريغورى ليأتى بالحصان الذى كان يرعى فى منخفض على بعد قليل ، وحينما عاد بالعربة ، كانت اكسينيا قد زحفت جانبا وحبت على اطرافها الاربع ، والقت برأسها فى كومة من الشعير المغبر ، وجعلت تبصق السنابل الشائكة التى كانت قد مضغتها فى معاناتها . وركزت عينيها المتسعتين على غريغورى فى غيبوبة ، وغرزت اسنانها فى صدريتها المدعوكة كى لا يسمع العمال صراخها المريع النفاذ .

ورفعها غريغورى الى العربة وساق الحصان مسرعا صوب الضيعة . انبعث من اكسينيا صراخ فيما كان رأسها يرتطم بقاع العربة : «آه ! لا تسرع . . آه ، الموت ! انـــــك . . . ترجـ . . . نى . . .»

واعمل غريغورى السوط بصمت ، ولوح بالاعنة فوق رأسه دون ان ينظر الى الوراء ، حيث كان يزحف الى سمعه عويل مبحوح متقطع .

وجعلت اكسينيا تتوثب هنا وهناك فى العربة المترنحة من

جانب لاخر على الطريق غير المطروق ، والملىء بالعثرات ، وهى تضغط براحتيها على خديها ، وعيناها الجزعتان الجاحظتان تدوران فى محجريهما بصورة وحشية . ابقى غريغورى الحصان على سرعته ، وقوس عريش العربة يتأرجح صاعدا هابطا امام عينيه ، حاجبا على سحابة بيضاء ناصعة كانت تتدلى من السماء كأنها بلور مصقول . ومضت لحظة توقفت خلالها اكسينيا عن عويلها الصارخ ، فتعالت قرقعة العجلات ، ومضى رأسها يرتطم بشدة على خشبة الارضية . لم ينتبه غريغورى لصمتها فى البداية ، لكنه عاد فنظر الى الخلف . كانت اكسينيا مستلقية وقد تشوه وجهها بصورة مرعبة ، وانضغط خدها بقوة على جانب العربة ، وفكاها يعتملان مثل سمكة ملقاة على الشاطئ . وكان العرق يسيل من جبينها الى محجرى عينيها الغائرين . فرفع رأسها واضعا تحته قبعته المدعوكة . فقالت وهى تنظر اليه بطرف عينيها :

— سأموت ، ياغريشا . وينتهى امرى !

فارتعش غريغورى ، وسرت قشعريرة باردة فى جسده حتى اصابع قدميه . وراح ينقب دون جدوى عن كلمات تشجيع وطمأنينة . فالتوت شفتاه بقوة وانفجر : «كفى هراء ، ايتها الحمقاء !» ثم هز رأسه ، ومال الى الامام وجعل يعصر قدمها المثنية : «اكسينيا يا حمامتى الصغيرة . . .»

خبا الالم وانجاب عن اكسينيا لحظة ، ثم عاودها بقوة مضاعفة . تقوس جسمها واذ شعرت بشىء يمزق بطنها ، ارسلت صرخة مدوية مرعبة اخترقت اذنى غريغورى . فألهب الحصان بسوطه فى نوبة من جنون .

ثم تناهى اليه صوتها ضعيفا واهنا فوق قرقعة العجلات :

— غريشا .

فكبح جماح الحصان ، وادار رأسه . كانت اكسينيا متمددة فى بركة من الدم وذراعاها منشوران ، وتحت تنورتها شىء حى يتململ ويوصوص . فقفز غريغورى كالمجنون من العربة وكبا على مؤخرتها . وعندما حدق فى فم اكسينيا اللاهث الملتهب استطاع ان يخمن هذه الكلمات اكثر مما سمعها :

— اقصم الحبل . . . اربطه بخيط . . . من قميصك .

وباصابع مرتعشة مزق خصلا من الخيوط من كم قميصه القطنى ، ثم قصم حبل المشيمة ، وهو يغلق عينيه بقوة حتى آلمتاه ، وربط بعناية طرفه النازف بالخيط .

٢١

كانت ضيعة ياغودنويه ناتئة كالورم بجانب الوادى الفسيح الجاف . والريح تهب متغيرة الاتجاه ، من الشمال او الجنوب ، وتطفو الشمس فى بياض السماء الحائل الى الزرقة ، ويحل الخريف بخفيفه للاوراق الساقطة فى اعقاب الصيف ، وينهال الشتاء بصقيعه وثلجه ، غير ان ياغودنويه تبقى فى احضان الملل الهامد . هكذا مرت الايام ، واحدا تلو الاخر ، متشابهة كالتوائم ، والضيعة ترزح منقطعة عن العالم كعهدها .

ما فتىء البط الهامس الاسود ، تحيط بعيونه حلقات حمر كالعوينات ، يتهادى فى ارجاء الفناء ، والدجاج الحبشى منتشرا كالمطر المنفوط ، والطواويس زاهية الريش تتصادح مبحوحة الصوت كالقطط فوق سطح الاسطبل ، كان الجنرال العجوز مولعا بشتى انواع الطيور ، حتى انه يحتفظ بكركى كسيح . وفى شهر تشرين الثانى ، حين يتناهى اليه نداء الكراكى الخافت ، وهى طائرة

نحو الجنوب ، يعتصر الكركى الكسيح نياط القلب بصيحات الحنين النحاسية الجرس . ولكنه لم يقو على الطيران ، فقد تدلى احد جناحيه الى جنبه دونما نفع . وفيما كان الجنرال يقف الى النافذة ويرقب الطير وهو يمد عنقه ويقفز مرفرفا على الارض ، يقهقه فاغرا فمه الكبير تحت شاربه المتهدل الاشيب ، وكانت نبرة ضحكاته العميقة تتجاوب فى القاعة الخاوية ذات الجدران البيض .

ومضى فينيامين شامخا برأسه الاشعث كدأبه ابدا ، ينفق اياما بطولها وحيدا فى غرفة الانتظار يلعب الورق مع نفسه . وكان تيخون كعهده يغار على خليلته ذات الوجه المجدور ، من ساشكا ، والعمال المياومين ، وغريغورى ، ورب البيت ، وحتى من الكركى الذى خصته لوكيريا بالرقة التى تفيض من قلبها الارمل . وكان ساشكا العجوز يسكر بين آونة واخرى ، فيستجدى قطعا من فئة العشرين كوبيكا تحت نافذة ليستنتسكى .

وطوال الوقت الذى امضاه غريغورى فى ياغودنويه لم يقع سوى حادثين اشاعا الحركة فى السبات الذى ينيخ بكلكله على حياة الضيعة الرتيبة الوسنانة : مولد طفلة اكسينيا ، وفقدان ذكر الاوز النفيس . وقد الف سكان ياغودنويه الطفلة بسرعة ، وحين عثروا على ريش الاوز فى المرج ، استنتجوا ان ثعلبا قد اختطفه ، ثم ما لبثوا ان استكانوا من جديد الى حياتهم الوادعة .

كان رب البيت ، حين يستيقظ صباحا ، يستدعى فينيامين ويسأله :

— هل رأيت حلما فى الليلة الماضية ؟

— ماذا ، طبعا رأيت حلما رائعا .

فيأمره ليستنتسكى باقتضاب وهو يلف لنفسه سيكارة :

— قصه علي .

فيروى فينيامين الحلم . واذا ما تبين ليستنتسكى انه غير ماتع او مرعب ، فان الغضب ينتابه ، ويقول :

— ايها الابله ! ان الاحلام السخيفة تراود الحمقى .

وشرع فينيامين يلفق احلاما مرحة ماتعة . ولكن ذلك كان عليه عسيرا . فبدأ يختلق الاحلام قبل موعدها ببضعة ايام ، جالسا على صندوقه يخلط الورق ، وكان منتفشا دهينا كخدى لاعبه . وكانت عيناه تحدقان ساهمتين ، فيرهق ذهنه الى حد انه لم يعد يرى احلاما حقيقية على الاطلاق . وحين كان يفيق فى الصباح يجهد ذاكرته فى محاولة استعادة ما رآه فى الحلم ، ولكنه لا يرى الا ظلاما ، ظلاما دامسا . انه لم ير حلما ، لم ير فى نومه اى وجه .

وسرعان ما نضبت جعبة فينيامين من الاكاذيب الساذجة فصار الغضب ينتاب سيده حين يمسك به متلبسا بتكرار ما رواه :

— لقد رويت لى يوم الخميس الماضى ذلك الحلم حول الحصان ، لعنة الله عليك !

فيكذب فينيامين بهدوء :

— لقد رأيته فى الحلم ثانية ، يا نيكولاى اليكسييتش ! انى صادق والله ، لقد رأيته ثانية .

وفى كانون الاول استدعى غريغورى الى ادارة المنطقة فى فيشينسكايا . واستلم هناك مئة روبل لشراء حصان ، وطلب اليه ان يحضر الى مركز التجنيد فى قرية مانكوفو بعد عيد الميلاد بيومين .

عاد الى ياغودنويه وقد انتابه اضطراب ملحوظ . كان عيد الميلاد على الابواب ، ولم يكن لديه شىء جاهز . فاشترى حصانا بمئة واربعين روبلا من المال الذى تسلمه من السلطات

اضافة الى ما ادخره . وقد اصطحب ساشكا معه فاشتريا حصانا لا بأس بمظهره ، كميتا ، له من العمر ست سنوات ، فيه عيب خفى . ومرر ساشكا العجوز اصابعه فى ثنايا لحيته وقال :

— لن تحصل على واحد ارخص منه ، ثم ان السلطات لن ترى العيب فيه ! فليس لديهم مهارة كافية .

وعاد غريغورى الى ياغودنويه على ظهر الحصان ، فعجم عوده . وعلى غير انتظار قدم بانتلاى بروكوفتش الى ياغودنويه قبل عيد الميلاد باسبوع . لم يدخل عربته الى الفناء ، بل ربط حصانه والعربة قرب البوابة ، ثم ظلع الى جناح الخدم ، سالخا بلورات الثلج عن لحيته التى تدلت كالخشبة السوداء فوق ياقة معطفه . وكان غريغورى يتطلع خلال الشباك صدفة فرأى والده قادما . فارتبك واندهش :

— يا للعجب . . . انه ابى !

ولامر ما ، هرعت اكسينيا الى المهد ودثرت الطفلة . دخل بانتلاى بروكوفتش الغرفة آتيا معه بنفحة من الهواء البارد . ورفع قبعته الفرو ورسم اشارة الصليب على نفسه امام الايقونة ، ثم أجال بنظراته فى ارجاء الغرفة ببطء :

— صحة طيبة !

فاجابه غريغورى وهو ينهض من المصطبة ويخطو الى وسط الغرفة قائلا : «صباح الخير ، يا ابتى .» مد بانتلاى بروكوفتش الى غريغورى يدا باردة ، وجلس على حافة المصطبة وهو يلف نفسه بالفروة ، دون ان ينظر الى اكسينيا التى وقفت قرب المهد ساكنة لا تأتى حراكا .

— هل تتهيأ للجندية ؟

— بالطبع .

ثم صمت بانتلاى بروكوفتش وهو يحدق فى غريغورى بنظرات متفحصة .

— اخلع عنك ثيابك ، يا ابتى ، لا بد انك متجمد .

— لا يهم ذلك .

— سنعد السماور .

— شكرا لك — ثم حك العجوز بظفره بقعة وحل متيبسة من معطفه ، واضاف : — جلبت تجهيزاتك : معطفين ، وسرجا ، وسراويل ، ستجدها كلها هناك فى الزحافة .

فخرج غريغورى وحمل كيسى التجهيزات من الزحافة . وحين عاد نهض ابوه من مقعده . وسأل ابنه :

— متى ترحل ؟

— فى اليوم التالى لعيد الميلاد . أتذهب الان يا أبتى ؟

— اود ان اعود مبكرا .

ثم ودع غريغورى ، وهو ما يزال يتحاشى النظر الى اكسينيا ، ومضى صوب الباب . وفيما هو يرفع السقاطة ادار عينيه صوب المهد وقال :

— امك تخصك بالسلام : انها تلازم الفراش لألم فى ساقيها — ثم صمت لحظة ، وقال بتثاقل : — سوف ارافقك الى مانكوفو . كن على استعداد حين آتى .

خرج وهو يدس يديه فى قفازين دافئين منسوجين . كانت اكسينيا شاحبة من المذلة التى عانتها ، فلم تقل شيئا . وراح غريغورى يقطع الغرفة ذهابا وايابا ، وهو ينظر الى اكسينيا من زاوية عينيه فيما كان يمر بها ويطأ ألواحا تصرف تحت قدميه .

ويوم عيد الميلاد ساق غريغورى العربة بسيده الى فيشينسكايا . فحضر ليستنتسكى القداس ، وتناول طعام الافطار مع ابنة عمه ،

وهى من ملاكات المنطقة ، ثم امر غريغورى ان يعد العربة لرحلة الاياب . فنهض غريغورى فى الحال رغم انه لم ينته من تناول حساء الكرنب ولحم الخنزير الدسم . ومضى الى الاسطبل ، واخرج منه الحصان الرمادى الارقط الخباب معلقا به عنانه وشده الى الزحافة الخفيفة فى عجلة .

كانت الريح تنخل ندف الثلج الناعمة المرنانة ، وكان زبد فضى يرسل هسيسه خلال الفناء ، وقد تدلى من الاشجار خلف السياج هداب هش من الثلج الابيض . كانت الريح تنفض هذا الهداب ، فيتناثر ، ويعكس من نور الشمس تشكيلة ثرة من الالوان القزحية . وكانت الغربان المستبردة تلغط عاليا على السطح قرب المدخنة التى كان يتصاعد منها الدخان . واذ افزعها وقع الاقدام طارت وحامت فوق الدار كندف رمادية ، ثم اتجهت صوب الغرب ، صوب الكنيسة ، وهى ترى واضحة امام سماء الصباح البنفسجية .

نادى غريغورى الخادمة التى جاءت الى درج البيت :

— اخبرى السيد اننا على استعداد .

خرج ليستنتسكى واستقل المركبة ، وقد دفن عذاريه فى ياقة معطفه المصنوع من فراء حيوان الراكون . ودثر غريغورى ساقيه وعدل فروة الذئب المبطنة بالمخمل . قال ليستنتسكى وهو يلقى نظرة الى الحصان :

— ابعث الدفء فيه .

جلس غريغورى مائلا الى الوراء فى مقعده ، ويداه تمسكان بقوة على الاعنة الراعشة ، يراقب حفر الطريق وهو يستعيد بقلق ذكرى تلك اللكمة التى لم تكن بالواهنة يوم كالها له سيده على الاذن بسبب هفوة فى سياقة المركبة فى اوائل الشتاء . وحين انحدرت المركبة شطر الدون ارخى غريغورى العنان من قبضة يده ،

وذلك بقفازه خديه المتيبسين من الريح الباردة اللاذعة .

بلغا ياغودنويه فى غضون ساعتين . كان ليستنتسكى صامتا طوال الرحلة ، وبين آونة واخرى ، يربت على ظهر غريغورى باصبعه اشارة له بالتوقف ريثما يلف لنفسه سيكارة ويشعلها مديرا ظهره عكس الريح . ولم يتوجه اليه بالسؤال الا وهما يهبطان التل صوب البيت .

— صباح غد الباكر ؟

فالتفت غريغورى جانبا فى مقعده ، وجر شفتيه المتجمدتين عن بعضهما بمشقة . كان لسانه المتخشب من البرد ، يبدو وكأنه قد تورم والتصق بظهر اسنانه ، واستطاع اخيرا ان يجيب :

— اجل .

— تسلمت كل نقودك ؟

— اجل .

— لا تقلق على زوجتك ، سوف تكون بخير معنا . كن جنديا حسنا ، لقد كان جدك فوزاقيا طيبا . وينبغى لك — ثم خفت صوت ليستنتسكى اذ اخفى وجهه من الريح تحت ياقة معطفه : — ينبغى لك ان تسلك سلوكا يليق بجدك وابيك . لقد نال ابوك الجائزة الاولى فى ألعاب الفروسية فى الاستعـــراض الامبراطورى ، اليس كذلك ؟

— اجل .

— حسنا اذن !

هكذا ختم الشيخ كلامه بنبرة شديدة فى صوته ، فكأنه يحذر غريغورى ، ثم دفن رأسه ثانية فى معطف الفرو .

سلم غريغورى الحصان الى ساشكا فى الفناء ، وتوجه الى جناح الخدم ، فصاح ساشكا وراءه :

— لقد جاء ابوك — وغطى الحصان بشرشف .

والفى غريغورى اباه جالسا الى المائدة يتناول مرق اللحم . وحين لمح غريغورى وجه والده المحمر قرر ان والده قد «شرب قليلا» .

— ها قد عدت ، يا جندى ؟

فاجابه غريغورى : «لقد تجمدت اوصالى .» وصفق يديه والتفت الى اكسينيا ، واردف : «فكى ازرار قلنسوتى ، اصابعى متخشبة جدا .»

فحمحم والده وهو لا يتوقف عن المضغ :

— لا بد ان الريح كانت تعاكسك .

كان ابوه ، وقد بدا هذه المرة ارق مزاجا ، يصدر الى اكسينيا اوامره وكأنه فى بيته . قال لها : «لا تبخلى هكذا بالخبز ، اقطعى المزيد منه .»

وحين فرغ من طعامه ، نهض من المائدة وتوجه الى الباب ليدخن فى الفناء . وحين مر بالمهد هزه مرة او مرتين ، متظاهرا بان هذا حدث عرضا ، ثم دس رأسه تحت الغطاء وسأل : «هو قوزاقى ؟»

فاجابت اكسينيا عن غريغورى : «انها بنت» ، ولما لاحظت عدم الرضى الذى ارتسم على وجه الشيخ ، اردفت على عجل :

— انها صورة لغريشا !

تفحص بانتلاى بروكوفتش باهتمام ذلك الرأس الداكن الصغير الذى كان يبرز من بين الملابس ، ثم اعلن بلهجة لا تخلو من فخر : «انها من دمنا ! . . هكذا اذن !»

سأله غريغورى :

— كيف جئت ، يا ابتى ؟

— بالفرس وحصان بيوتر .

— كان يلزمك حصان واحد ، وبامكاننا شد حصانى فى الرحلة الى مانكوفو .

— ليذهب خفيف الحمل . اتدرى ، انه حصان ليس بالردىء .

— هل رأيته ؟

— اجل .

كانت فكرة واحدة تضايقهما معا ، ولكنهما تحدثا فى شتى الامور التافهة . ولم تشاركهما اكسينيا الحديث بل لبثت جالسة على السرير حزينة مكتئبة وثدياها الممتلئان قد كبرا فشدا على قميصها . لقد ازدادت اثر ولادتها اكتنازا بشكل ملحوظ ، وبدت عليها سيماء جديدة من الثقة والسعادة .

ولم يأووا الى مضاجعهم الا فى وقت متأخر ، وحين لاذت اكسينيا بجانب غريغورى بللت قميصه بدموعها وفيض الحليب الذى ينز من ثدييها .

— سأذوب اسى . ماذا افعل بدونك ؟

فدمدم غريغورى :

— ستكونين بخير .

— الليالى الطوال . . . وتفيق الطفلة . . . فكر فى ذلك فقط ، ياغريشا ! اربع سنوات !

— يقال ان الجندية فى غابر الايام كانت تستغرق خمسا وعشرين سنة .

— ما شأنى فى غابر الايام ؟

— اهدأى الان ، كفاك ذلك !

— اقول تبا لخدمتك العسكرية . هى تفرق بيننا !

— ساعود فى الاجازة .

— فى الاجازة ! — وأنت اكسينيا ، وهى تشهق وتمسح انفها بقميص نومها : — ستجرى مياه كثيرة فى الدون حتى ذلك الحين .

— كفاك نشيجا ! ما اشبهك بالمطر ايام الخريف ، انه يرذ على الدوام .

— ينبغى ان تكون فى مكانى .

واستسلم غريغورى للنوم قبيل الفجر . ونهضت اكسينيا فارضعت الطفلة ، واستلقت من جديد . واتكأت على مرفقيها ، وراحت تحدق فى وجه غريغورى ، بعين لا تطرف وهى تطيل نظرة الوداع فيه . وعادت بها الذاكرة الى الليلة التى حاولت فيها اقناعه بالهرب معها الى الكوبان ، كانت اشبه بتلك الليلة ، ما خلا قمرا كان يغمر الفناء خارج النافذة بنوره الابيض . انها اشبه بتلك الليلة ، وغريغورى ما يزال هو نفسه ، ولكنه ليس كذلك تماما . فأن وراءهما طريقا طويلا مهدته الايام العابرة .

انقلب فى فراشه ، وتمتم شيئا حول قرية اولشانسكى ، ثم صمت . وحاولت اكسينيا ان تنام ، الا ان افكارها شتت النوم عنها ، كما تذرو الريح القش . ورقدت حتى انبثاق الفجر تفكر بالكلمات المتقطعة التى فاه بها فى نومه عن قرية اولشانسكى ، جاهدة ان تجد لها معنى . واستيقظ بانتلاى بروكوفتش حالما بدأ ضوء النهار الوليد يزبد على النوافذ التى علاها الجمد .

— غريغورى انهض ، طلع النهار .

ركعت اكسينيا على السرير وارتدت تنورتها ، وشرعت تبحث عن الثقاب مدة طويلة وهى تتنهد .

وما ان تناولا الفطور ، وحزما متاعهما ، حتى كان الفجر قد انبلج تماما ، وكان ضوء النهار يتموج بتلاوين زرقاء ، فبدت معالم

الواح السياج السود واضحة ولاح سقف الاسطبل معتما على صفحة السماء البنفسجية الغبشاء .

وذهب بانتلاى بروكوفتش ليشد حصانيه ، فيما انتزع غريغورى نفسه من قبلات اكسينيا المحمومة اليائسة وذهب ليودع ساشكا والخدم الاخرين .

دثرت اكسينيا طفلتها ، واخرجتها معها للوداع الاخير . فلمس غريغورى جبين ابنته الندى بشفتيه لمسة خفيفة ، ثم ذهب الى حصانه . قال ابوه وهو يحث حصانيه :

— ادخل الى المركبة .

— كلا سأمتطى حصانى .

شد غريغورى حزام سرجه ببطء متعمد ، ثم امتطى الحصان ، ولمّ العنان فى يده ، فلمست اكسينيا الركاب بيدها وراحت تردد :

— انتظر ، ياغريشا . . . هناك شىء اردت ان اقوله . . .

وقد حاولت ان تتذكر ذلك الشىء فجعدت حاجبيها وهى ترتجف مذهولة .

— حسنا ، وداعا . . . اعتنى بالطفلة . . . يجب ان امضى ، انظرى كم ابتعد ابى .

— انتظر يا اعز حبيب !

وامسكت اكسينيا بيسراها الركاب الحديدى البارد كالثلج ، وشدت يمناها الطفلة الى صدرها ، ولم تبق لها يد طليقة تمسح بها الدموع المتدفقة من عينيها الواسعتين المحملقتين .

وجاء فينيامين الى درج الدار وقال :

— غريغورى ، السيد يريدك .

فاطلق غريغورى لعنة ، ثم لوح بسوطه ، واندفع خارج الفناء . فجرت اكسينيا وراءه ، متعثرة بالثلج المتكوم ورافعة عاليا قدميها بجزمتها اللبادية .

ادرك اباه على قمة التل . والتفت ينظر وراءه بحركة لا ارادية . كانت اكسينيا واقفة عند الباب ، والطفلة ما زالت مشدودة الى صدرها ، وطرف خمارها الاحمر يرفرف فى الريح .

وسار على جواده بجانب مركبة ابيه . وبعد بضع لحظات ادار الشيخ ظهره الى حصانيه وسأله :

ـــ اذن انت لا تفكر بالعودة الى زوجتك ؟

ـــ القصة القديمة نفسها ؟ لقد فرغنا منها .

ـــ اذن فلن تعود .

ـــ كلا ، لن اعود !

ـــ الم تسمع انها حاولت قتل نفسها ؟

ـــ بلى سمعت .

ـــ من قال لك ؟

ـــ ذهبت مع سيدى الى مركز المنطقة والتقيت هناك صدفة برجل من القرية .

ـــ وامام الله ؟

ـــ لماذا ، يا ابتى ، على كل حال . . . لا جدوى من البكاء على الحليب المراق .

فغضب بانتلاى بروكوفتش :

ـــ لا تقل لى قول الشياطين هذا . ما أقوله لك ، أقوله من أجلك .

ـــ لدى طفلة تركتها ورائى . فما جدوى الكلام ؟ ليس بوسعك ان تقحم الاخرى علىّ الان . . .

ـــ هل انت واثق من انك لا تقوم بتربية طفلة رجل آخر ؟

فامتقع وجه غريغورى ، لقد نكأ ابوه جرحا متقيحا . فمنذ ان ولدت الطفلة اعترى الشك المرير افكاره ، فاخفاه عن اكسينيا

وعن نفسه . ففى الليل ، واكسينيا نائمة ، كان يذهب الى المهد اكثر من مرة ليتفرس فى الطفلة ، متلمسا تقاطيع وجهه فى وجهها الاسمر الوردى ، ويعود الى فراشه والشك ذاته يراوده . كان ستيبان ذا بشرة كستنائية تكاد تشبه بشرة غريغورى ، فانى له ان يعرف دم مَنْ ذاك الذى يجرى فى عروق الطفلة ؟ كان فى بعض الاحيان يحسب ان الطفلة تشبهه ولكنه يراها ، فى احيان اخر ، شبيهة بستيبان الى حد مؤلم . لم يكن غريغورى يشعر ازاءها بعاطفة ، اللهم الا العداء حين يذكر اللحظات التى عاناها يوم عاد باكسينيا من السهب وهى تقاسى آلام المخاض . وذات مرة ، حين كانت اكسينيا منهمكة فى المطبخ ، كان عليه ان يغير حضائن الطفلة المبتلة . وفيما كان يقوم بذلك احس بعاطفة حادة ملتهبة فانحنى على المهد خلسة وعض باسنانه على اصبع قدم الطفلة الصغير المتصلب الاحمر .

لقد نكأ ابوه الجرح دون رحمة ، فرد عليه غريغورى ، وراحته على قربوس السرج ، قائلا بصوت مبحوح :

ـــ أيا كان ابوها ، فانى لن اتخلى عنها .

فلوح بانتلاى بروكوفتش بسوطه على الحصانين دون ان يلتفت :

ـــ لقد شوهت ناتاليا جمالها . انها تميل برأسها الى احد الجانبين وكأنها مشلولة . يبدو انها قطعت وتر العضلة . فالتوت رقبتها .

ثم خلد الى الصمت . كان مزلاقا الزحافة يصران خلال الثلج ، وكانت حوافر حصان غريغورى تتكتك وهى تصطفق .

سأل غريغورى وهو يلتقط بعناية خاصة من عرف حصانه شوكة :

ـــ وكيف هى الآن ؟

— ابلت من الجرح بشكل او بآخر . وقد لازمت الفراش طيلة اشهر سبعة . وفى احد الثالوث حسبنا انها ستلفظ انفاسها . فجاء الاب بانكراتى لتلاوة الصلوات . ولكنها بدأت تتماثل للشفاء . لقد حاولت ان توجه الضربة بالمحش الى قلبها ، ولكن يدها ارتجفت ، فأخطأت القلب قليلا . ولولا ذلك لقضت نحبها . . .

— لنسرع فى هبوط التل !

قال غريغورى ذلك ، وهو ينهض فى ركابيه ويعمل بسوطه ، فبدأ الحصان يخب مرسلا بحوافره رشاشا من الثلج على المركبة . وحين وصل بانتلاى بروكوفتش الى محاذاته قال :

— اننا سنتعهد ناتاليا . فالمرأة لا تريد العيش مع اهلها . وقد رأيتها قبل ايام وقلت لها ان تأتى الينا .

لم يجب غريغورى بشىء . وسارا حتى بلغا اول قرية دون ان يتبادلا كلمة واحدة ، ولم يعد ابوه الى الموضوع .

قطعا فى ذلك اليوم سبعين فرسخا . وبلغا مانكوفو مساء اليوم التالى عند الغسق (الاضواء مشتعلة فى البيوت) .

سأل بانتلاى بروكوفتش اول مار فى الشارع :

— فى اى حى ينزل القادمون من فيشنسكايا ؟

— اذهب الى الشارع الكبير .

لقد وصلا الى البيت الذى نزل فيه خمسة مجندين مع ابائهم . سأل بانتلاى بروكوفتش وهو يقود الحصانين الى سقيفة الحظيرة :

— من اين جئتم ؟

جاء صوت عميق من الظلام مسميا القرى التى جاءوا منها .

تلمس غريغورى ظهر حصانه المتصبب عرقا بعد ان نزع السرج منه ورد ضاحكا ردا مازحا عن السؤال الموجه اليه من اية قرية وصل .

وفى صباح اليوم التالى اصطحب اتمان المنطقة مجندى فيشنسكايا الى اللجنة الطبية . فرأى غريغورى فتيان قريته الاخرين . وفى الصباح مر ميتكا كورشونوف متوجها الى البئر وممسكا بيده اليسرى قبعته المائلة الى جانب ، على ظهر كميت طويل مجهز بسرج وعدة جديدين مزركشين زركشة بهيجة ، دون ان يقول كلمة تحية لغريغورى الذى كان واقفا على باب الجناح .

تعاقب الرجال يخلعون ملابسهم فى الغرفة الباردة الخاصة بالادارة المحلية المدنية . وضج الكتاب العسكريون بالحركة هنا وهناك ، وهرول مساعد رئيس الشرطة ، ومر مساعد الاتمان المحلى مسرعا بجزمة قصيرة من الجلد اللماع . واحد اصابعه مزدان بخاتم ذى حجر اسود وكان له وجه ابيض بعينين سوداوين جميلتين . تناهت اليهم من الغرفة الداخلية اوامر الاطباء ، ونتف من الحديث :

— واحد وستون .

ونق صوت مخضل بالخمر قرب الباب :

— بافل ايفانوفتش ، ناولنى قلما لا يمحى اثره .

— عرض الصدر . . .

— اجل ، من الواضح انه وراثى . . .

— سجل السفلس . . .

— ارفع يدك . لست فتاة .

— بنية سليمة .

— . . . ينقل العدوى الى القرية برمتها . يجب اتخاذ اجراءات خاصة . لقد اخبرت صاحب السعادة بالموضوع .

— بافل ايفانوفتش ، انظر الى جسد هذا الرجل . يا لها من بـ . .

— آه !

خلع غريغورى ملابسه بجانب فتى احمر الشعر من قرية اخرى . وخرج اليهما كاتب ، فعدل كتفيه بحيث تغضنت قمصلته عند الظهر ، ثم اصدر الى غريغورى والفتى الاخر امرا مقتضبا بأن يدخلا غرفة الفحص . فهمس ذو الشعر الاحمر فى ذعر وقد تورد وجهه وكان ينزع جوربه :

— هيا اسرع !

دخل غريغورى ، وقد تقلص جلد ظهره من البرد . وكان جسده الاسمر بلون البلوط . وقد احس بالحرج وهو يخفض عينه الى ساقيه المكسوين بالشعر . وكان يقف على الميزان فى الزاوية فتى عار مربوع القامة . وكان احدهم ، ويظهر انه مساعد الطبيب ، يدفع العيار الى الامام والى الخلف ، ثم نادى بالرقم ، وامره بالنزول .

تضايق غريغورى من اجراءات الفحص الطبى المهينة . لقد فحصه بالسماعة طبيب اشيب الرأس يرتدى سترة بيضاء وقلب طبيب اصغر سنا جفون عينيه ونظر الى لسانه وانشغل وراءه ثالث يرتدى نظارة ذات اطار قرنى ، وكان يفرك يديه بكميه المطويين . وامره ضابط :

— على الميزان !

فخطا غريغورى على الكفة الباردة .

— خمسة بودات * ونصف .

فهتف الطبيب الاشيب ، وهو يدير غريغورى من ذراعه .

— م . . . ا . . . ذا ، انه ليس طويلا جدا .

فقال الطبيب الاصغر سنا متلعثما :

---

* البود : وحدة وزن روسية قديمة تعادل ١٦ كغ تقريبا . المترجمون.

— مدهش !

وسأل ضابط يجلس عند الطاولة بعجب :

— كم ؟

فاجابه الطبيب الاشيب ولا يزال حاجباه مرفوعان :

— خمسة بودات ونصف .

فاحنى قوميسار المنطقة العسكرى رأسه الاسود الاملس نحو جاره على المنضدة سائلا :

— ما رأيك لو ينسّب الى الحرس الخاص ؟

— ان له وجه قطاع الطرق . . . انه وحشى المنظر جدا .

— ياانت ، استدر ! ما تلك التى على ظهرك ؟

هكذا صاح ضابط تعلو كتفه شارة عقيد ، وهو يخبط اصبعه على المنضدة بفراغ صبر . فغمغم الطبيب الاشيب بشىء ما ، وادار غريغورى ظهره الى المنضدة ، وهو يجاهد للسيطرة على جسمه المرتجف ، ثم اجاب :

— اصبت ببرد فى الربيع . انها بثرة .

وحين انتهى الفحص قرر الضباط الجالسون عند الطاولة ان غريغورى ينبغى ان يعين فى كتيبة اعتيادية . فقيل له : «الكتيبة الثانية عشرة ، يا ميليخوف . هل سمعت ؟» وفيما كان سائرا نحو الباب سمع همسا ينم عن اشمئزاز :

— هذا مستحيل . حسبك ان تتصور لو رأى الامبراطور وجها كهذا ؟ عيناه وحدهما . . .

— انه هجين . من الشرق دون ريب .

— وجسده ليس نظيفا . تلك البثور . . .

وتجمهر حوله رجال اخرون من قريته كانوا فى انتظار ادوارهم :

— كيف كانت النتيجة ، يا غريشا ؟

— اى كتيبة ؟

— الحرس الخاص ، هاه ؟

— كم كان وزنك على الميزان ؟

وتواثب غريغورى على قدم واحدة وهو يرفع ساق بنطاله ، وقال غاضبا : «أف ، اذهبوا الى الجحيم ! اى كتيبة ؟ الثانية عشرة .»

صاح الكاتب وهو يمد رأسه من الباب :

— كورشونوف ، ديمترى ، كارغين ايفان .

واسرع غريغورى هابطا الدرج وهو يحكم ازرار سترته .

كانت الريح الدافئة تعبق برطوبة ذوبان الجليد ، وكان الطريق اجرد من الثلج فى بعض اجزائه والبخار يتصاعد منه . كانت الدجاجات المقوقئة ترفرف عبر الشارع ، والبط يخبط فى بركة ، وتبدو اقدامه فى الماء برتقالية وردية ، كاوراق الخريف التى قضى عليها الصقيع .

جرى فحص الخيل فى اليوم التالى . صفت فى الساحة صفا طويلا عند جدار الكنيسة . وانهمك الضباط رائحين غادين ، ومر بيطرى ومساعده امام صف الخيل الطويل . وكان اتمان فيشنسكايا يتراكض بين الميزان والمنصدة التى توسطت الساحة ، حيث تسجل نتائج الفحص . ومر ضابط من الانضباط العسكرى ، وكان منهمكا فى الحديث مع رئيس شاب .

وحين جاء دور غريغورى قاد حصانه الى الميزان ، فقاس البيطرى ومساعده كافة اجزاء بدن الحصان ، ثم وزناه . وقبل ان يساق الحصان من على الميزان ، امسك البيطرى من شفته العليا بمهارة ونظر الى اسنانه ، وتحسس عضلات صدره ، ومضت اصابعه القوية تتلمس جسم الحصان ، كالعنكبوت ، حتى وصلت

الى سيقانه . ثم تحسس مفاصل الركبتين ، ودق على العصب واعتصر العظم فوق الثنية . وحين فرغ من فحصه تعداه ، ومثزره الابيض يخفق فى الريح وينشر رائحة حامض الكاربوليك .

رفض حصان غريغورى ، وثبت خطل آمال ساشكا . كان البيطرى الخبير من الذكاء بحيث اكتشف العيب الخفى الذى تحدث عنه الشيخ ، وعقد غريغورى فى الحال مشاورات منفعلة مع ابيه ، وما ان انقضت نصف ساعة حتى قاد حصان بيوتر الى الميزان ، فقبله البيطرى دونما فحص تقريبا .

ثم عثر غريغورى على بقعة يابسة نوعا ما ، فنشر مرشحة سرجه على الارض ووضع عليها عدته ، وامسك ابوه بالحصان ، وانصرف الى الحديث مع شيخ آخر جاء ايضا ليودع ابنه .

ومر بهم جنرال مديد القامة اشيب الرأس ، يرتدى عباءة رمادية فاقعة وقبعة فضية استراخانية ، كان يعرج قليلا بقدمه اليسرى ملوحا باليد بقفاز ابيض . فلكز بانتلاى بروكوفتش غريغورى ، من الخلف وهمس :

— اتمان المقاطعة .

— كأنه جنرال .

— انه امير اللواء ماكايف . انه شيطان صارم .

وسار خلف الاتمان حشد من الضباط من مختلف الكتائب والبطاريات . وكان مقدم مدفعى عريض المنكبين والفخذين يتحادث بصوت مرتفع مع ضابط وسيم طويل من الحرس التابع لكتيبة الاتمان :

— . . . ياللشيطان ! اتدرى ، كم كان الفارق كبيرا ! قرية استونية ، وغالبية الناس هناك شقر ، ولكن تلك الفتاة ، باللغرابة ! اضف الى ذلك انها لم تكن الوحيدة ! قلبنا شتى

الظنون حول الموضوع ، ثم علمنا انه قبل عشرين عاما . . . — ثم سار الضابطان مبتعدين عن المكان حيث كان غريغورى يرتب عدته على مرشحة السرج فحملت اليه الريح الكلمات الختامية وسط ضجة من قهقهات الضابطين : — . . . يبدو ان سرية من حرسكم كانت معسكرة فى القرية .

وجرى من امامهم كاتب وهو يزرر سترته باصابع مرتجفة ملطخة بالحبر ، وكان معاون رئيس شرطة المنطقة يصيح وراءه بغضب :

— قلت لك ثلاث نسخ . لعنة الله عليك !

راح غريغورى يتطلع بفضول الى وجوه الضباط والموظفين التى لم يألفها من قبل . وقد سمر احد المساعدين نظرة ضجرة عليه . ثم اشاح بوجهه بعد ان التقت عيناه بعينى غريغورى باديتى الاهتمام . ومر بهم رئيس عجوز وهو يكاد يركض ، وقد بدا الانفعال عليه لامر ما ، وكان يعض على شفته العليا بأسنانه الصفر. فلحظ غريغورى عرقا ينبض فوق حاجب الرئيس ذى اللون الزنجبيلى.

نشر غريغورى على مرشحة سرجه الجديدة السرج ذا الرمانة الخضراء ، وخرجيه الامامى والخلفى ، ومعطفين عسكريين ، وبنطالين ، وقمصلة ، وجزمتين طويلتين ، وتبديلة من الملابس الداخلية ، وكيس البقسماط ، وعلبة من لحم البقر المقدد ، وانواع اخرى من الطعام حسب المقادير المعينة .

وكان فى خرجى السرج المفتوحين اربعة من نعال الخيل ، ومسامير ملفوفة بخرقة مزيتة ، ومحفظة فيها بضع ابر وخيط ، ومناشف .

القى الى عدته نظرة اخيرة ثم جلس القرفصاء ليزيل بكمه بعض الوحل من طرفى شريط الحزم . وجاءت اللجنة العسكرية من طرف الساحة تسير ببطء امام صفوف القوزاق المصطفين وراء

مراشح السروج ، وكان الضباط والاتمان يتفحصون العدد عن كثب ، رافعين اذيال معاطفهم ذات الالوان الفاتحة فيما كانوا ينحنون للبحث فى زكائب السروج ، ويمعنون النظر الى محتويات المحافظ ، ويقدرون وزن اكياس البقسماط بايديهم .

قال قوزاقى شاب يقف بجانب غريغورى ، مشيرا الى آمر انضباط المنطقة العسكرى :

— انظروا ، ياشباب الى ذلك الطويل هناك ، انه يخمش مثل كلب وراء ابن عرس .

— الق نظرة واحدة الى الشيطان . انه يقلب الكيس على بطنه !

— لا بد ان هناك شيئا ليس على مايرام ، والا لما فعل ذلك .

— انه بالتأكيد يعد مسامير الحذاء .

— يا للشيطان !

وتلاشى الكلام تدريجيا مع اقتراب اللجنة . ولم يبق الا بضعة رجال الى ان يأتى دور غريغورى . كان اتمان المنطقة يحمل قفازا بيسراه ويهز يمناه ، دون ان يثنيها عند المرفق . اعتدل غريغورى فى وقفته . وسعل ابوه من ورائه . وحملت الريح رائحة بول الخيل والثلج الذائب فى الساحة . وبدت الشمس مغتمة ، كما يشعر الانسان بعد نوبة سكر .

توقفت ثلة الضباط عند الرجل الواقف بجانب غريغورى ثم تقدموا واحدا فواحدا .

— لقبك ، واسمك ؟

— ميليخوف ، غريغورى .

والتقط ضابط الانضباط المعطف من حزامه ، وشم البطانة

وعد الازرار باستعجال وتقدم آخر على كتفه شارة نائب ضابط ، فتلمس قماش البنطالين الجيد بين اصابعه . وتوقف ثالث وراح ينبش فى الخرجين ، منحنيا الى درجة ان الريح قلبت ذيل معطفه على ظهره . وراح ضابط الانضباط يبحث بابهامه وخنصره بحذر فى الخرقة التى تحوى مسامير الحذاء وكأنه يخشى ان يلفاها حارة ، وعد المسامير هامسا .

قال بغضب وهو يجر طرف الخرقة :

ـــ لماذا ثلاثة وعشرون مسمارا فقط . وما هذا ؟

ـــ كلا ، ياصاحب السعادة . اربعة وعشرون .

ـــ ماذا ، هل انا اعمى ؟

فأسرع غريغورى يقلب زاوية ملتفة من الخرقة فكشف عن المسمار الرابع والعشرين ، وفيما كان غريغورى يفعل ذلك لمست اصابعه الخشنة السمر يد الضابط البيضاء كالسكر لمسة خفيفة ، فنتش الضابط يده وكأن احدا وخزها ، ثم مسحها بطرف معطفه ، وهو يعبس بتقزز ، ثم ارتدى قفازه .

لاحظ غريغورى حركته فاعتدل فى وقفته وهو يبتسم بحنق والتقت عيناهما ، فاحمر وجه الضابط ورفع صوته :

ـــ ما كل هذا ، ما كل هذا ، ايها القوزاقى ؟ لماذا لم ترتب شرائط الحزم ؟ لماذا لم تعدل الشكيمة ؟ وما معنى هذا ؟ انت قوزاقى ام فلاح ؟ اين ابوك ؟

جر بانتلاى بروكوفتش عنان الحصان وخطا الى الامام خطوة ضاربا الارض بساقه العرجاء .

ـــ الا تعرف الانظمة القوزاقية ؟

كان الضابط سىء المزاج صباح ذلك اليوم بسبب خسارته فى القمار فافرغ جام غضبه على بانتلاى بروكوفتش .

ثم جاء اتمان المنطقة فهدأ الضابط . دس الاتمان رأس جزمته فى حشية السرج ، ثم ند عنه فواق ، ومضى الى الرجل التالى وتفحص ضابط تجنيد الكتيبة التى نسب غريغورى اليها حاجياته كلها بما فيها محتويات المحفظة بشكل مؤدب ، ثم مضى الى الرجل التالى وهو يمشى القهقرى كى يقى من الريح الثقاب الذى اشعل منه سيكارته .

وفى اليوم التالى غادر القرية قطار من الشاحنات الحمر ، محمل بالخيل والقوزاق والعلف الى فورونيج .

وقف غريغورى فى احداها متكئا بظهره الى طرف المعلف الخشبى وكانت تزحف عبر الباب المفتوح مناظر غريبة لارض مستوية ، ودوم فى المدى خيط غابة رقيق ازرق ، وكانت الخيل وراءه تلوك القش وتنقل ثقلها من حافر الى آخر ، وهى تحس بحركة القاع من تحتها . كانت الشاحنة تعج برائحة الشيح ، وعرق الخيل ، وذوبان الربيع ، وثمة غابة تلوح كالخيط فى الافق ، زرقاء كئيبة ومنيعة كنجم المساء خافت الوميض .

الجزء الثالث

١

كان يوما ربيعيا دافئا بهيجا من ايام آذار عام ١٩١٤ حين عادت ناتاليا إلى بيت حميها . كان بانتلاى يصلح سياج الاسفندان الذى كسره الثور ، باغصان غزيرة الوبر بلون الحمام . وكانت القطرات تتساقط من بلورات الثلج الفضية المتدلية من السقوف . وتبدو آثار المسارب القديمة وكأنها لطخات قطران سود تحت حواشي السقوف .

وراحت شمس اشد توردا ودفئا منها في آذار تداعب التلال التي يذوب من عليها الجليد . وكانت الارض منتفخة ، وبدا العشب المبكر كمعدن المالاكيت الاخضر على الرؤوس الطباشيرية الجرد الناتئة من التلال على شاطئ .

تقدمت ناتاليا صوب حميها من الخلف ، وقد بدت اكثر نحافة واعتراها تغير كبير واحنت رقبتها المائلة قليلا وقد شوهها اثر الجرح .

— صحة طيبة ، يا أبتي !

فهتف بانتلاى في عجلة والعيدان تسقط من يده :

— ناتاليوشكا ! مرحبا يا عزيزتي ، مرحبا ! لماذا لم تأتي لزيارتنا ؟ ادخلي ، ستسر الوالدة لرؤيتك كل السرور .

— لقد جئت ، يا أبتي . . . — ثم مدت يدها وهي غير واثقة ، واشاحت بوجهها . واضافت : — ما لم تطردوني ، فانا ارغب في البقاء معكم على الدوام .

— لم لا تبقين ، يا عزيزتي ؟ اتراك غريبة عنا ؟ أنظرى ، لقد كتب عنك غريغورى في رسالته . طلب منا ان نسأل عنك .

دخلا المطبخ . وراح بانتلاى يظلع هنا وهناك ، وقد تملكه انفعال طروب . وبكت ايلنشنا وهي تعانق ناتاليا وهمست قائلة ، وهي تتمخط :

— انت بحاجة إلى طفل . ان ذلك كان سيسحره . اجلسي ، ساجلب لك بعض الفطائر ، أليس كذلك ؟

— حفظك الله يا امي . . . لقد جئت اليكم . . .

وجرت دونيا إلى المطبخ راكضة ، متوردة الوجه باسمة ، واحنت ناتاليا من ركبتيها . وعاتبتها قائلة : «يا لك من قليلة حياء ! لقد نسيت كل شيء عنا» .

فصاح فيها ابوها بصرامة مصطنعة :

— كفاك ، ايتها الطائشة !

غمغمت ناتاليا وهي تنشر ذراعي دونيا وتنظر في عينيها :

— لشد ما كبرت .

وتحدث الكل معا ، يقاطع بعضهم بعضا . واسندت ايلنشنا خدها براحة يدها ، وقد غمرها الاسى إذ تطلعت إلى ناتاليا ، وقد تغيرت كثيرا عما عهدتها

امسكت دونيا بيدى ناتاليا وسألتها قائلة :

— جئت لتقيمي ؟

— من يدرى . . .

فقالت ايلنشنا بصورة حاسمة وهي تدفع طبقا كبيرا من الفطائر عبر المائدة :

— ماذا ، في اى مكان آخر يمكن لكنتي ان تعيش ؟ انك ستبقين معنا .

جاءت ناتاليا الى اهل زوجها بعد تردد دام طويلا . وكان ابوها قد رفض في بداية الامر ان يسمح لها بالذهاب ، فقد صرخ في وجهها بحنق حين اقترحت ذلك ، وجرب ان يقنعها بالعدول عن هذه الخطوة . ولكن شق عليها ان تنظر في وجوه اهلها ، فمنذ ان حاولت الانتحار وهي تشعر وكأنها غريبة بين اهلها . وكان بانتلاى ، من جهته ، يلحف عليها بالعودة طوال الوقت ، فمنذ ان ودع غريغورى الذاهب إلى الجندية عقد العزم على اعادتها ومصالحة غريغورى معها .

ومنذ ذلك اليوم في آذار عاشت ناتاليا مع آل ميليخوف . كان بيوتر يقف منها موقفا وديا اخويا ، ولم يبد على داريا الا قليل من عدم الرضا ، وكان مما يعوض عن نظراتها الشزر العارضة ولع دونيا بها وموقف العجوزين الابوى منها .

وفي اليوم التالي لمجيء ناتاليا اليهم امر بانتلاى دونيا ان تكتب الرسالة التالية الى غريغورى :

«تحية ، يا ولدنا العزيز ، غريغورى بانتلايفتش ! تبعث اليك بانحناءة عميقة ، ونمنحك بركة ابوية من صميم قلب الوالد ومن املك فاسيليسا ايلنشنا . ان اخاك بيوتر بانتلايفتش وزوجته داريا ماتفييفنا يبعثان تحياتهما لك بالعافية والرفاه ، وكذلك اختك دونيا وكل اهل البيت يحيونك ، لقد تسلمنا رسالتك المرسلة في خامس يوم من شهر شباط ، ونشكرك عليها من كل جوارحنا . انت تقول ان الحصان تصطك ساقاه . ادهنهما ببعض السلاء ، وانت تدرى كيف تفعل ذلك ، ولا تنعل حافريه الخلفيين حيث لا زلق او جليد اجرد . ان زوجتك ناتاليا ميرونوفنا تعيش الآن معنا ، وهي

مرتاحة وبصحة جيدة . والدتك ترسل اليك بعضا من الكـــرز المجفف ، وزوجا من الجوارب الصوفية ، وشيئا من لحم الخنزير ، واشياء اخرى . كلنا احياء بصحة جيدة . ولكن طفل داريا قد مات . قبل ايام سقفنا المأوى ، انا وبيوتر ، وهو يأمرك بالعناية بحصانه والمحافظة على سلامته . لقد ولدت البقرات ، ويبدو ان الفرس العجوز ملقحة ، فقد عرضناها على فحل من اسطبلات المنطقة . وننتظر ولادة مهرها في الاسبوع الخامس من الصوم الكبير . يسعدنا ان نسمع اخبار خدمتك العسكرية وان الضباط راضون عنك . فاخدم كما ينبغي . ان خدمة القيصر لا تذهب سدى . وناتاليا ستعيش معنا ، وعليك ان تفكر بالامر جيـــدا . وثمة مشكلة اخرى ، لقد قضى ذئب على ثلاث شياه قبل الصوم الكبير . والآن ، اعتن بصحتك في رعاية الله . لا تنس زوجتك ، هذا ما آمرك به . انها امرأة طيبة وهي زوجتك الشرعية . لا تتعد الحدود ، واصغ الى ما يقوله والدك .

ابوك

العريف الاقدم بانتلاى ميليخوف»

كانت كتيبة غريغورى معسكرة في موقع صغير يدعى رازيفيلوفو على بعد اربعة فرسخات عن الحدود الروسية النمساوية وكان نادرا ما يكتب الى اهله . وقد رد على الرسالة التي ذكرت ان ناتاليا تعيش معهم برسالة انتقى كلماتها بحذر ، والتمس اباه ان يحييها بأسمه . ولم يلزم نفسه بشيء في كل رسائله التي كانت غامضة المعنى . وكان بانتلاى يطلب الى دونيا او بيوتر ان يقرأها له عدة مرات ، ويتأمل الافكار المستترة بين اسطرها . وقبل عيد الفصح بقليل كتب الى غريغورى يسأله ما اذا كان عازما لدى عودته من

الخدمة العسكرية ان يعيش مع زوجته او مع اكسينيا كالسابق .

تلكأ غريغورى في جوابه . فلم يتلقوا منه الا رسالة مقتضبة بعد ان انصرم احد الثالوث . فقرأتها دونيا بسرعة ، وهي تبتلع نهاية الكلمات ، ووجد بانتلاى مشقة في تلمس بيت القصيد بين زحام التحايا والاستفسارات . وعالج غريغورى موضوع ناتاليا في نهاية الرسالة اذ قال :

«سألتني أن اقول لك ما اذا كنت سأعيش مع ناتاليا ام لا ، وها انا اقول لك ، يا أبتي ، ان ما انفصم لا يمكن لك ان تربطه ثانية . كيف لي ان اتصالح مع ناتاليا ، وانت نفسك تعلم ان لدى طفلة ، وليس في مقدوري ان اعد بشيء ، وانه لمما يؤلمني ان اتحدث في هذا الموضوع . قبل ايام القي القبض على رجل وهو يهرب بضائع عبر الحدود ، وقد التقينا به صدفة ، فقال ان الحرب مع النمسا ستندلع عما قريب ، وان قيصرهم قدم إلى الحدود ليعرف من اى موقع سيشنون الهجوم ، واى ارض يستولي عليها . واذا اندلعت الحرب فقد لا ابقى على قيد الحياة ، وليس في الامكان ان نقرر قبل ذلك شيئا» .

• • •

اشتغلت ناتاليا بجد للعجوزين وعاشت يحدوها امل مقيم في عودة زوجها . لم تكتب إلى غريغورى رسالة قط ، إلاّ ان احدا في العائلة لم يحن إلى رسالة منه بمثل ما فى حنينها إليها من ألم وشوق .

جرت الحياة في القرية وفق نظامها الذى لا محيد عنه ، فعاد القوزاق الذين انهوا خدمتهم العسكرية إلى اهليهم ، وكان

الكدح الممل ايام العمل يبتلع الوقت دون ان يشعر به احد . والقرية ايام الآحاد تتدفق إلى الكنيسة ، كل عائلة بسربها : القوزاق بقمصلاتهم وبنطالات الاعياد ، والنساء بتنورات ملونة طويلة تكنس الغبار ، وقمصان مطرزة منتفخة الاكمام .

تقف في ساحة القرية عربات خاوية ترفع عرائشها في الهواء ، وتتصاهل خيولها ، ويمر الناس من مختلف النحل ذهابا وايابا . وكان المستوطنون البلغار يبيعون الخضر عند مأوى عربات الحريق فيعرضونها صفوفا طويلة ، وكان الاطفال من خلفهم يتراكضون عصابات ويحملقون في الجمال التي جردت من عددها فراحت تشرف على ساحة السوق بشموخ . وكان ثمة حشود من الرجال بقبعات ذوات شرائط حمر في كل مكان ونسوة ارتدين عصابات زاهية . وراحت الجمال ، وقد التمعت عيونها بلون اخضر هامد ، تجتر وهي ترتاح من عنائها المستديم على النواعير .

وكانت الطرقات تئن تحت وقع الاقدام ، والاغاني ، والرقصات على انغام الاوكورديونات ، فلا تتلاشى آخر الاصوات في ضواحي القرية الا فى وقت متأخر من الليل .

كانت ناتاليا ، التي لا تخرج الى لقاءات المساء ابدا ، يسرها ان تجلس لتصغي الى حكايات دونيا الساذجة . وكانت هذه قد شبت دون ان يشعر احد بذلك ، فغدت فتاة جميلة القوام ، مليحة الوجه بما يلائمها . وقد نضجت قبل اوانها كتفاحة مبكرة . وفي تلك السنة تناست صديقاتها اللائي تقدمنها في السن انهن بلغن سن المراهقة قبلها ، فادخلنها الى حلقتهن . وكانت دونيا سمراء متينة كأبيها .

وقد بلغت آنذاك الخامسة عشرة من عمرها ، وما زالت تقاطيع بدنها صبيانية خشنة ، وكانت خليطا ساذجا ، يكاد يبعث

على الرثاء ، من الطفولة والشباب المتفتح ، وقد تنامى ثدياها وراحا يدفعان قميصها بشكل ملحوظ ، وصار كتفاها اعرض مما كان عليه ، وكانت عيناها السوداوان ، بشقيهما الطويلين المائلين بعض الشيء ، تتقادحان خجلا ودعابة . كانت تعود بعد امسياتها فتقص على ناتاليا اسرارها البريئة :

— ناتاليا ، حمامتي ، اريد ان اخبرك شيئا . . .

— حسنا ، هيا ، اخبريني !

— البارحة جلس ميشا كوشيفوى طوال المساء معي على الجذمة عند مخازن القرية .

— لماذا احمر وجهك ؟

— اوه ، لم يحمر وجهي !

— انظرى في المرآة ، غدوت شعلة كبيرة .

— حسنا ، انت السبب .

— لا بأس ، استمرى ، لن اقول اى شيء .

فدلكت دونيا وجنتيها اللاهبتين براحتيها السمراوين ، وشدت اصابعها على صدغيها ، ورنت ضحكاتها الفتية بدون سبب :

— قال اني اشبه بزهرة لازوردية صغيرة .

— طيب ، استمرى !

شجعتها ناتاليا ، وقد سرتها سعادة فتاة اخرى ، ناسية ماضيها وسعادتها المحطمة .

— قلت له : «لا تكذب ، يا ميشا !» فأقسم ان ذلك صحيح .

وارسلت دونيا ضحكاتها تجلجل في ارجاء الغرفة هازة رأسها . وراحت جدائلها الفاحمة الغليظة تنزلق على كتفيها وظهرها كالعضايات .

— واى شيء آخر قاله ؟

— رجاني ان اعطيه منديلي تذكارا .

— وهل اعطيته ؟

— كلا . قلت له انني لن افعل ذلك . قلت له : «اذهب واطلب من امرأتك» فقد شوهد مع كنة يروفي ، وهي امرأة سيئة تعبث مع الرجال . زوجها في الجيش .

— خير لك ان تبتعدى عنه .

فمضت في قصتها وهي تجاهد لاخفاء ابتسامة قفزت الى شفتيها :

— سوف افعل هذا ! وبعد ذلك ، حين كنا ثلاثتنا عائدات الى البيت ، انا وفتاتان اخريان ، لحق بنا الجد ميخي العجوز وهو سكران ، وصاح : «قبلنني ، يا عزيزاتي ، وسأدفع لكن كوبيكين عن كل قبلة» وهجم علينا فضربته نيورا على وجهه بعسلوج ، وهربنا .

كان الصيف جافا . وبات الدون حيث يمر بالقرية ضحلا ، وحينما كان التيار الصاخب ينطلق متدفقا ، لم تبق سوى مخاضة ضحلة ، حتى صار بمقدور الثيران ان تعبر الى الضفة الاخرى دون ان تبلل ظهورها . واثناء الليل كانت ثمة رطوبة ثقيلة خانقة تنحدر على القرية من سلسلة التلال . فتملأ الريح هواءها بالعطر النفاذ للاعشاب الملفوحة . وكانت النباتات الجافة على السهب قد اضطرمت فيها النار ، فعلق فوق المنحدرات على جانبي الدون ضباب ذو رائحة عليلة . وفي الليل كانت السحب تتكاثف فوق النهر وتهدر السماء بقصف الرعد المنذر ، دون ان ينزل مطر لينعش التربة الجافة ، مع ان البرق كان يمزق صفحة السماء شظايا مهلهلة دكناء .

وكانت ثمة بومة تنعب من قبة الكنيسة ليلة اثر ليلة ، فتنفذ صرخاتها المرعبة فوق القرية ، وتطير البومة الى المقبرة لتنوح فوق

أكمات القبور البنية اللون التي عشش عليها الحشيش .

ويتنبأ الكهول وهم يستمعون للبومة تنعب من المقبرة : «هناك متاعب تختمر» .

— ان الحرب على الابواب .

— لقد نعبت بومة كهذه قبل الحرب التركية .

— لعلها الهيضة من جديد .

— لا تتوقع خيرا حينما تطير من الكنيسة الى حيث يرقد الاموات . — ارحمنا يا نيكولاى العجائبي !

وكان مارتن ، اخو اليكسي مبتور اليد ، الذى يسكن قريبا من المقبرة ، قد اضطجع الى جانب سورها مترصدا البومة اللعينة ، لكن الطائر الغامض الذى لا يرى طار فوقه دون ان يحدث صوتا ، وحط على الصليب في الطرف الاخر للمقبرة ومضى يرسل نعيبه المرعب فوق القرية الغافية . فهدر مارتن سبابا مقذعا ، واطلق النار على بطن غيمة سوداء عالقة ، وقفل راجعا . ولدى عودته الى البيت استقبلته زوجته بالتقريع ، وهي امرأة كثيرة الهواجس ، عليلة ، ولود كأنثى الارنب . فقالت له :

— انت احمق ، احمق ميئوس منه ! هل تدخل الطير في شؤونك ، ها ؟ ماذا تقول لو عاقبك الله ؟ ها انا في شهرى الاخير ، وقد لا الد بسببك انت .

— صه ، يا امرأة ! ستكونين بخير ، فلا تخافي مطلقا ! ماذا يفعل ذلك الطير هنا ، يبث فينا جميعا رعدات باردات ؟ انه يستنزل الويل علينا ، والعياذ بالله ! لو انفجرت الحرب ، فسينتزعونني . حسبك ان تنظرى الى هذا الذراق الذى خلفته لي ! — ولوح بيده صوب الزاوية حيث كان الاطفال نائمين وكان شخيرهم يمتزج مع صأصأة الفئران .

كان بانتلاى يتحدث مع الشيوخ في السوق ، فقال بوقار :

— كتب ابننا غريغورى يقول ان القيصر النمسوى قد قدم الى الحدود ، واصدر اوامره لتحشيد جميع قواته في مكان واحد والزحف على موسكو وبطرسبرغ .

فاستعاد الشيوخ ذكريات الحروب الماضية وتبادلوا مخاوفهم . وقال احدهم معترضا :

— ولكن الحرب لن تنشب . أنظروا الى الحاصل .

— لا دخل للحاصل بالحرب .

— هم الطلاب الذين يثيرون القلاقل ، على ما اتوقع .

— مهما يكن ، فسنكون نحن آخر من يسمع بها .

— مثلما كان في الحرب مع اليابان .

— وهل اشتريت الحصان لابنك ؟

— لا اريد ان افعل قبل الاوان . . .

— ان هذا كله من أكاذيب !

— ولكن ضد من ستكون الحرب ؟

— ضد الاتراك ، حول مشكلة البحر . لم يستطيعوا ان يتوصلوا الى اتفاق حول تقسيم البحر .

— وهل هذا امر صعب ؟ ليقسموه قسمين ، كما نفعل نحن بأرض المروج .

وانقلب الحديث الى مزاح ، ثم انصرف الشيوخ الى اعمالهم .

كان عشب المرج الذى نما مبكرا ينتظر حشه . اما العشب الذابل فيما وراء الدون ، والذى لم يكن جزءا من عشب السهب ، فقد كان ذاويا لا رائحة له ، مع ان الارض واحدة ، الا ان العصارات التي تمتصها الاعشاب كانت متباينة . ففي السهب كانت التربة سوداء غنية وراسخة بحيث لا تترك القطعان عليها اثرا حينما

تمر . فكان العشب قويا زكي الرائحة عاليا . لكن التربة على امتداد ضفتي الدون كانت رطبة متعفنة ، فنما عليها عشب هزيل قميء حتى ان الماشية لم تكن لتلتفت اليه ابدا .

كانت القرية تستعد لحش العشب : شحذ القوزاق مناجلهم وصنعوا المجارف ، اما النساء فنقعن الشراب المحلى للحصادين . وكان حش العشب على وشك ان يبدأ حينما وقعت حادثة هزت القرية من اقصاها الى ادناها . فقد وصل رئيس شرطة المنطقة يصحبه مفتش وضابط اسود الاسنان يرتدى بزة لم تر مثلها القرية من قبل . وارسلوا في طلب اتمان القرية وجمعوا الشهود ثم مضوا مباشرة الى منزل لوكيشكا الحولاء . وساروا على ممشى جانب الشارع الذى يغمره ضياء الشمس ، واتمان القرية يهرول امامهم مثل ديك صغير . كان المفتش يحمل بيده قبعته عليها الشارة الرسمية وسأل الاتمان ، وجزمته المتربة تصفق بقع ضياء الشمس :

— هل شتوكمان في المنزل ؟

— اجل ، يا صاحب السعادة .

— كيف يتكسب عيشه ؟

— انه مجرد حرفي . يشتغل على منضدة عمل . . .

— الم تلاحظ عليه اى شيء يجلب الشبهة ؟

— لا ، مطلقا .

وفيما كان رئيس الشرطة يسير جعل يعتصر بثرة على جسر انفه ويلهث داخل بزته السميكة . وكان الضابط الصغير ينظف اسنانه السود بقشة ويجعد عينيه المحمرتي الحوافى . ومد المفتش يده الى الامام ليزيح الاتمان وواصل يسأله :

— هل يستقبل اى زوار ؟

— اجل ، يلعبون الورق احيانا .

— من ؟

— عمال من الطاحونة في الغالب .

— من هم بالضبط ؟

— مشغل الماكنة ، والقباني ، عامل الدواسة دافيد ، واحيانا بعض القوزاق الاخرين .

توقف المفتش ومسح بقبعته العرق على قصب انفه وانتظر الضابط الذى كان قد تخلف وراءه . فقال له شيئا ما ، وهو يلوى زرا في قمصلته ، ثم اشار الى الاتمان . فهرول هذا على اطراف اصابعه ، قاطعا نفسه . واختلجت العروق المعقدة في رقبته وارتعشت .

— خذ اثنين من الحراس والق القبض على الاشخاص الذين ذكرتهم . احضرهم الى الادارة ، سنكون هناك بعد دقيقة او دقيقتين . اتفهم ؟

فشد الاتمان قامته حتى انتفخت عروقه فوق ياقته العالية ، وند عنه شيء مثل الغمغمة ، واستدار لينفذ التعليمات .

كان شتوكمان يجلس وظهره الى الباب وصدريته مفتوحة الازرار ، وهو ينحت نموذجا على قديدة من الخشب بمنشار رفيع .

— قم ، من فضلك . فأنت معتقل .

— لاى سبب ؟

— اتشغل غرفتين ؟

— نعم .

— سنفتشهما .

تعلق مهماز الضابط بممسحة الارجل عند الباب . ومضى الى المنضدة والتقط اول كتاب وقعت عليه يده وهو مقطب الوجه .

— اريد مفتاح تلك الحقيبة .

— ما سبب زيارتكم هذه لي ؟

— سيتسنى الوقت للحديث معك فيما بعد . تعال هنا يا شاهد !

ونظرت زوجة شتوكمان خلال فرجة الباب من الغرفة الاخرى ، ثم ارتدت . فتبعها المفتش وكاتبه الى الغرفة الاخرى .

وسأل الضابط شتوكمان بهدوء وهو يمسك بكتاب اصفر الغلاف :

— ما هذا ؟

فاجاب شتوكمان هازا كتفيه :

— كتاب .

— بوسعك ان تحتفظ بحذلقتك الى فرصة اكثر ملائمة . اجب على السؤال كما ينبغي .

فمال شتوكمان بظهره على الموقد وهو يحاول كتمان ابتسامة هازئة . ونظر رئيس شرطة المنطقة الى الكتاب عبر كتف الضابط . ثم استدار الى شتوكمان :

— أتدرس في هذا ؟

فاجاب شتوكمان بجفاء وهو يفرق بمشط صغير لحيته السوداء الى خصلتين متساويتين :

— انني مولع بالموضوع .

— هكذا !

والقى الضابط نظره في صفحات الكتاب ثم رماه على المنضدة . ونظر في كتاب آخر ، ثم نحاه جانبا . واذ اتم قراءة غلاف الثالث ، التفت الى شتوكمان من جديد :

— اين تحتفظ ببقية هذا النمط من الأدب ؟

فخاوص شتوكمان احدى عينيه كما لو يسدد ضربة نحو هدف ما ، واجاب :

— امامك كل ما لدي .

فرد الضابط ملوحا بالكتاب عليه :

— انت تكذب .

— انني اطالب . . .

— فتشوا الغرفتين !

ومضى رئيس الشرطة ، ممسكا بقبضة سيفه ، الى الحقيبة حيث كان حارس قوزاقي مجدور ينبش في الملابس والمفارش وقد ظهر عليه الرعب مما كان يحدث .

واخيرا استطاع شتوكمان ان يقول ، وهو يضيق عينه ويصوبها نحو جسر أنف الضابط :

— انني اطالب بمعاملة مؤدبة .

— اسكت ، يا هذا !

قلب الرجال كل ما كان من الممكن تقليبه . ثم جرى التفتيش في الورشة ايضا ، حتى ان رئيس الشرطة المتحمس نقر على الجدران بعقلات اصابعه .

وحينما انتهى التفتيش . اقتيد شتوكمان الى مكتب الادارة . فسار في وسط الطريق امام الحارس القوزاقي ، وقد دس احدى يديه في طية معطفه القديم ، والاخرى تتأرجح ، وكأنه ينفض وحلا عن اصابعه . ومشى الاخرون حذاء الاسيجة على الممشى المتلامع بضياء الشمس ، ومن جديد مضى المفتش يدوس على بقع ضياء الشمس بجزمته التي اضحت الآن خضراء من الحشيش . ولم يعد حاملا قبعته في يده ، بل شبكها باحكام فوق اذنيه الغضروفيتين .

كان شتوكمان آخر من استجوب بين المعتقلين . وحشر الباقون معا في غرفة الانتظار يحرسهم قوزاق ، وقد تم استجوابهم سلفا .

وكانوا : ايفان اليكسييفتس وبداه ما زالتا ملطختين بالزيت ، وداڤيد البسام ، و«الولد» وقد القى سترته على كتفيه ، وميشا كوشيڤوى .

سأل المفتش شتوكمان وهو ينبش في محفظة اوراقه :

— حينما استجوبتك حول مجزرة الطاحونة لم اخفيت حقيقة كونك عضوا في حزب العمال الاشتراكي–الديمقراطي الروسي ؟

كان شتوكمان واقفا الى الجانب الاخر من الطاولة وحدق بصمت فوق رأس المحقق . فصرخ الاخير وقد اغاظه سكوت السجين :

— ان هذا ثابت لدينا . وستلقى جزاء مناسبا لفعلك .

— ارجو ان تبدأ بأستجوابك ، — قال ذلك شتوكمان بلهجة ملول ، واذ رأى مقعدا طلب السماح له بالجلوس . فلم يجب المفتش بل القى نظرة شزراء الى شتوكمان فيما كان يجلس بهدوء .

— متى قدمت الى هنا ؟

— في العام الماضى .

— بناء على تعليمات من منظمتك ؟

— بدون اية تعليمات .

— منذ متى وانت عضو في حزبك ؟

— عم تتحدث ؟

— انا اسألك ، منذ متى وانت عضو في حزب العمال الاشتراكي–الديمقراطي الروسي ؟

— اعتقد ان . . .

— انا لا آبه بما تعتقد ، اجب على السؤال . فالانكار لا يجدى ، بل انه خطر . — وسحب المفتش وثيقة من محفظته ودبسها على المنضدة بابهامه . — لدى هنا تقرير من رستوف يؤكد عضويتك في الحزب المذكور .

فادار شتوكمان عينيه سريعا نحو الوثيقة وركز عليها نظره لحظة ، ثم اجاب بثبات وهو يربت على ركبته :

— منذ ١٩٠٧ .

— هكذا ! اتنكر انك قد ارسلت الى هنا من قبل حزبك ؟

— نعم .

— اذن ، ما الذى اتى بك الى هنا ؟

— بدا لي ان المكان هنا يفتقر الى ميكانيكيين .

— ولكن لمَ اخترت هذه المنطقة بالذات ؟

— لنفس السبب .

— ألديك الآن ، او هل كان لديك في اى وقت مضى ، اتصال بمنظمتك ، اثناء فترة اقامتك هنا ؟

— كلا .

— ايعرفون انك قد قدمت هنا ؟

— اظن ذلك .

فبرى المفتش قلمه بمبراة ذات مقبض لؤلؤى ، ماطا شفتيه الى الامام ، وتحاشى النظر الى السجين .

— اتراسل ايا من اعضاء حزبك ؟

— كلا .

— اذن فما قولك بالرسالة التي اكتشفناها اثناء التفتيش ؟

— انها من صديق ليس له اى ارتباط مهما كان نوعه بأية منظمة ثورية .

— هل تلقيت اية تعليمات من روستوف ؟

— كلا .

— لمَ كان عمال الطاحونة يجتمعون في حجرتك ؟

فهز شتوكمان كتفيه كالمندهش من غباء السؤال :

— اعتادوا المجيْ في اماسي الشتاء لقضاء الوقت . كنا نلعب الورق . . .

فاضاف المفتش :

— وتقرأون الكتب التي يحرمها القانون ؟

— كلا . فقد كانوا جميعا اميين تقريبا .

— مهما يكن . فمشغل ماكنة الطاحونة والاخرون كذلك لا ينكرون هذه الحقيقة .

— ذلك غير صحيح .

— يبدو انك لا تتمتع بأبسط عناصر الادراك بأن . . . — وابتسم شتوكمان لذلك ، فنسي المفتش ما كان سيقوله ، وانهى كلامه بغيظ مكتوم : — انت ، ببساطة لا عقل لك . انك تصر على الانكار الذى يضر بك . فمن الواضح جدا انك قد ارسلت الى هنا من قبل حزبك لكي تمارس نشاطات مثبطة لهمم القوزاق ، لينقلبوا ضد الحكومة . انا عاجز عن فهم ما يحدوك الى تمثيل لعبة التضليل هذه . فهي لا تستطيع ان تمحو ذنبك . . .

— كل هذه ظنون من جانبك . اتسمح لي بالتدخيـــن ؟ شكرا . وهي ظنون لا اساس لها البتة .

— هل قرأت هذا الكتاب على العمال الذين زاروا حجرتك ؟ — ووضع المفتش يده على كتاب صغير وغطى عنوانه . لكن اسم «بليخانوف» كان ظاهرا فوق يده .

فاجاب شتوكمان : «كنا نقرأ شعرا» ونفث سيكارته وهو يشدد قبضته على المبسم العظمي بين اصابعه . في صباح اليوم التالي الماطر خرجت عربة البريد من القرية وقد جلس شتوكمان في مقعدها الخلفي يغالبه النعاس ، ولحيته مدفونة فى ياقة معطفه . وعلى كلا جانبيه انحشر على المقعد قوزاقيان تسلح كل منهما بسيف .

وكان احدهما ، وهو مجدور الوجه مجعد الشعر ، يقبض بقوة على مرفق شتوكمان باصابعه المعقدة ، ويرميه بنظرات جانبية متهيبة ، مبقيا يده الاخرى على قرابه المتآكل .

ومضت العربة تقرقع مسرعة في الشارع . وكانت ثمة امرأة صغيرة تقف بجانب فناء درس الحبوب العائد لآل ميليخوف ، ملفعة بشال ، تنتظر العربة وقد اسندت ظهرها الى سياج الاسفندان .

مرت العربة مسرعة ، فألقت المرأة الصغيرة نفسها وراءها وهي تضغط بيديها على صدرها .

— اوسيب ! اوسيب دافيدوفتش ! آه ، ما عساني ان افعل . . .

فحاول شتوكمان ان يلوح لها بيده ، لكن القوزاقي المجدور قفز وامسك بذراعه ، وصاح بصوت متوحش اجش :

— اجلس ، والا مزقتك اربا !

فللمرة الاولى في كل حياته البسيطة ، يرى رجلا جرؤ على ان يعمل ضد القيصر نفسه .

٢

كان الطريق الطويل من مانكوفو الى بلدة رادزيفيوفو الصغيرة قد تغلف في موضع وراء غريغورى بضباب رمادى لا يميز . حاول غريغورى بين الحين والحين ان يتذكر الطريق ، غير انه لم يستطع سوى ان يستعيد صورا باهتة لابنية المحطات ، وعجلات القطار تقرقع تحت ارضية الشاحنات المرتجفة ، وروائح روث الخيـــل والعشب ، وخيوطا لا متناهية من خطوط السكك الحديد تحتها ، والدخان المائج من الماكنة ، والوجه الملتحي لاحد افراد الجندرمة

الواقف على رصيف محطة فورونيز او كييف . لا يدرى بالضبط ايهما .

وفي المكان حيث نزلوا من القطار ، كانت ثمة حشود من الضباط ورجال حليقي الوجه في معاطف رمادية ، يتحدثون بلغة لم يستطع فهمها . استغرق انزال الخيل وقتا طويلا . وحين فرغوا من ذلك امر مساعد قائد القدمة * بامتطاء الخيول وقاد الثلاثمائة قوزاقي ، او اكثر ، الى المستشفى البيطرى ، حيث كان ينتظرهم اجراء طويل لفحص الخيل . ثم توزيع القطعات . لغط ضباط الصف وهم يغدون ويروحون هنا وهناك . فتكون الرعيل الاول من خيل سمر فواتح ، والثاني من حمر وكميت ، والثالث من سمر غامقة . والحق غريغورى بالرابع الذى اشتمل على خيل سمر وذهبية . وتكون الخامس كله من خيل شقر والسادس من خيل دهم . ووضعت الرعائل تحت امرة رؤساء عرفاء ، والحقوها بسرايا الخيالة المعسكرة في القرى والضياع القريبة .

مر امام غريغورى رئيس عرفاء متهتك ذو عينين منتفختين على حصانه وقد حمل شارات الخدمة الطويلة ، وسأله :

— من أى ناحية انت ؟

— فيشنسكايا .

— هل انت مقصوص الذيل ؟ **

فضحك القوزاق القادمون من نواح اخرى ، وازدرد غريغورى الاهانة وهو صامت .

---

* القدمة — ترتيب فى اصطفاف القطعات فى تقسيمات متوازية مع فراغ بين كل قسم وآخر . **المترجمون** .

** كان لكل ناحية كنية . وكان اهل فيشنسكايا يكنون بـ«الكلاب» . **(ملاحظة المؤلف)** .

كان الطريق الذى اتخذه رعيل غريغورى يمضي بهم على امتداد الطريق العام . وفي البداية ، كانت خيل الدون ، التي لم تر طرقا مرصوفة من قبل ، تخطو بحذر ، وكأنها تسير على نهر متجمد السطح ، وتنصب آذانها وتنخر ، ولكنها لم تلبث ان اعتادت الطريق ومضت حوافرها ذوات الحدوات الجديدة تطرق باصوات حادة وهي تغذ السير . كانت الارض البولندية غير المألوفة تقطعها شرائح من الغابات غير الكثيفة . وكان النهار دافئا معتما ، وبدت الشمس الحائمة خلف ستار سميك من السحب غريبة غير مألوفة هي الاخرى .

كانت ضيعة رادزيفيلوفو تبعد عن المحطة باربعة فرسخات تقريبا ، فوصلوا اليها فى نصف الساعة . وقد سبقهم فى الطريق مساعد قائد القدمة مع مرافقه وهما يخبان خببا .

سأل قوزاقي شاب رئيس العرفاء وهو يشير الى ذؤابات الاشجار الجرد من الحديقة :

— اية قرية هذه ، ايها العم ؟

— اية قرية ؟ عليك ان تنسى قراك القوزاقية وانت هنا ، يا اخي ، فلست في اقليم الدون .

— فما هي اذن ، ايها العم ؟

— انا ، عمك ؟ اى ابن اخ لي انت ! تلك ، يا اخي ، هي ضيعة الاميرة يوروسوفا . وان سريتنا الرابعة مقرها هنا .

حدق غريغورى ، وهو يمسد بقنوط على رقبة حصانه ، في البيت ذى الطابقين والبناء الانيق ، والسياج الخشبي ، وفي النمط غير المألوف لابنية الضيعة . ولكن حينما مروا بالبستان تهامست الاشجار

الجرد بذات اللغة التي تتهامس بها الاشجار في بلاد الدون البعيدة .

تكشفت الحياة الآن للقوزاق عن اكثر جوانبها املالا وارهاقا . واذ كان الشباب محرومين من العمل فسرعان ما اضحوا صرعى الحنين الى وطنهم ، وراحوا يقضون وقت فراغهم في الكلام . وقد انزل رعيل غريغورى في جناح كبير من البيت ، سطحه من القرميد ، لينامو على الواح خشبية تحت النوافذ . وفي الليل كان الورق الملصق على شروخ النافذة يبعث صوتا في مهب النسيم كبوق راع بعيد ، واذ كان غريغورى يتسمع اليه خلال شخير النائمين تتملكه رغبة قوية لا تقاوم في ان ينهض ويذهب الى الاصطبلات ، ويسرج حصانه ويمتطيه ويمضي عليه الى ان يصل قريته من جديد . وكان قلبه ينقبض بالحنين والاسى .

نفخ بوق النهوض في الخامسة ، وكان الواجب الاول في النهار تنظيف الخيل وحسها ، وفي خلال نصف الساعة الوجيزة التي تطعم خلالها الخيل سنحت الفرصة لتبادل حديث مشتت :

— هذه حياة جهنمية ، يا اولاد !

— انا لا استطيع تحملها .

— اما رئيس العرفاء ! فأى خنزير ! يجعلنا نغسل حوافر الخيل !

— انهم يعدون الفطائر الآن في بيوتنا . . . جاء عيد المرفع .

— حسبى ان يكون لى مكان اقبل فيه فتاة واحضنها .

— رأيت حلما ليلة البارحة ، يا اولاد . حلمت بانني وامي نحش العشب في المرج ، وكان اهل القرية متناثرين حولنا كما تتناثر ازهار الاقحوان على ساحة درس الحبوب — . قال ذلك بروخورزيكوف ، هو فتى هادئ له عينان وديعتان كالعجل :

— ولم نفعل سوى ان مضينا نحش ونحش . . . مما اشاع في نفسي الحبور .

— اراهن ان زوجتى تقول الآن : ترى ، ما ذا يعمل زوجى نيكولاى الآن ؟

— هو — هو — ! اغلب الظن انها تحاكك اباك الآن !

— ما هذا الكلام . . .

— ليس في العالم امرأة لا تحاول مع رجل آخر في غياب زوجها .

— وفيم القلق ؟ ليست المرأة جرة من اللبن . سنجد ما يكفينا منهن حينما نعود .

وهنا تدخل في الحديث يغور زاركوف غامزا ومبتسما ابتسامة ذات مغزى . وهو اكثر الرجال مرحا ومجونا في السرية ، ولم يكن ليشعر ازاء اى انسان الا باحترام قليل وحياء اقل :

— هذا شيء اكيد : فلن يدع ابوك زوجتك وشأنها . انه كلب فحل لا يكل .

واضاف كاسحا سامعيه بنظرته المتلامعة :

— سأقص عليكم حكاية . كان هناك عجوز رعديد ظل يلاحق كنته ، لا يدعها ترتاح ، لكن ابنه كان يعترض طريقه دائما . اذن ، ماذا يعمل العجوز ؟ في الليل ذهب الى الفناء وفتح البوابة ، فخرجت جميع الماشية . ثم قال لابنه : «ماذا فعلت ، يا كسول ويا كيت وكذا ؟ لماذا لم تسد البوابة ؟ أنظر ، لقد هامت جميع الماشية في الخارج . اذهب وعد بها» . فقد ظن ، كما ترون ، انه ما ان يذهب ابنه حتى يتسنى له قضاء وطره من كنته . على ان الابن كان كسولا ، فهمس لزوجته : «اذهبى انت وارجعيها» . وهكذا خرجت ، واستلقى هو هناك يستمع . فانسل الاب نازلا من الموقد وزحف على يديه وركبتيه صوب السرير . لكن ابنه لم يكن بالرجل الاحمق ، فقد اخذ شوبكا من الارض ولبث

ينتظر . وما ان زحف ابوه صاعدا الى السرير ووضع يده عليه حتى هوى عليه بضربة من شوبكه اصابت رأسه الاصلع في وسطه تماما . وصاح : «ابتعد عني ، ولا تمضغ بطانيتي ، عليك اللعنة» . لقد كان لديهم في البيت عجل من عادته ان يمضغ الاشياء ، ولهذا تظاهر الابن انه قد ضرب العجل . اما الاب فقد افلح في العودة الى الموقد زاحفا وتمدد هناك وهو يتحسس باصبعه برفق التورم الذى كان بحجم بيضة اوزة . واخيرا قال : «ايفان . مالذى ضربت لتوك ؟» فأجاب ايفان : «العجـــل ، بالطبع» فقال العجوز وهو يكاد يبكي : «اى مزارع ستكون ان كان دأبك ضرب الماشية على هذا النحو ؟»

— انت كذاب كبير ! ، اف منك يا مجدور الوجه !

فصاح رئيس العرفاء وهو يدنو منهم :

— ما هذا ، هل انتم في سوق ؟ تفرقوا !

فمضى القوزاق الى خيولهم يضحكون ويهزلون . وبعد تناول الشاى مضوا لاجراء التدريب الذى رؤوساء العرفاء يتفنن خلاله فى الاوامر والسباب :

— شد بطنك يا خنزير !

— الى اليسار سر !

— ماهذه الوقفة يا ملعون !

وقف الضباط ، خلال التدريب ، يدخنون في جانب الفناء لا يتدخلون الا من حين لاخر . وحينما كان غريغورى ينظر الى الضباط المهذبين المتأنقين في معاطفهم الرمادية الجميلة وبزاتهم اللصيقة بابدانهم ، خامره شعور بأن ثمة جدارا منيعا بينه وبينهم . اذ كانت حياتهم الرغدة المنتظمة ، والمتميزة جدا ، والتي لم تكن لتشبه باية حال حياة القوزاق ، تنساب بهدوء لا يكدرها

الوحل أو القمل أو الخوف من قبضة رئيس العرفاء .

في اليوم الثالث لوصولهم الى الضيعة وقع حادث ترك اثرا اليما في نفس غريغورى ، وفي نفوس جميع القوزاق الشباب . كانوا يتلقون التعليمات اثناء تدريب الخيالة ، وكان الحصان الذى يركبه بروخور زيكوف ، الفتى ذو العينين الوديعتين الذى طالما حلم بقريته القوزاقية النائية ، حيوانا نافرا متوحشا ، وحدث ان رفس هذا الحصان رئيس العرفاء اثناء مروره . لم تكن الضربة قوية جدا ، اذ كشطت الجلد في ساق الحصان الايسر ، وحسب . لكن رئيس العرفاء هوى بسوطه على وجه بروخور . وصرخ وهو يندفع صوبه على حصانه :

— لماذا بحق الجحيم لا تتبين طريقك ، يا ابن القحبة ! سوف اريك . . . سوف تقضي الايام الثلاثة القادمة في الواجب !

وحدث ان شهد المنظر امر السرية ، الا انه ادار ظهره وهو يعابث عقدة سيفه باصابعه ويتثائب مللا . ومسح بروخور ، وشفتاه ترتجفان ، خطا من الدم كان يسيل من وجنته المتورمة .

فنظر غريغورى الى الضباط ، وهو يجر حصانه الى الصف ، غير انهم مضوا في حديثهم كما لو ان شيئا أليما لم يقع . وبعد ذلك بخمسة ايام ، اسقط غريغورى دلوا في البئر ، فانقض عليه رئيس العرفاء كالصقر ورفع قبضته .

— لا تلمسني . — قال ذلك غريغورى بصوت اجش وهو ينظر الى الماء المتماوج تحته .

— ماذا ؟ انزل الى البئر واخرجه ، يانغل ! لسوف احطم رأسك هذا !

فقال غريغورى ببطء دون ان يرفع رأسه :

— سأخرجه لكن لا تلمسني .

لو كان هناك اى قوزاق الى جانب البئر ، لما تردد رئيس العرفاء لحظة في ضرب غريغورى ، لكنهم كانوا يسوسون خيولهم عند السياج فلم يسمعوا ما كان دائرا . وتقدم رئيس العرفاء من غريغورى ، متلفتا صوب القوزاق ، وقد جنت عيناه بالهياج ، وقال في صوت كالفحيح :

ـــ ماذا تظن نفسك ؟ كيف تجرؤ على مخاطبة رئيسك بهذه الصورة ؟

ـــ لا تبحث عن المتاعب ، يا سيمون يغوروف .

ـــ أتهددنى ؟ سوف أ . . .

فقال غريغورى رافعا رأسه من البئر :

ـــ اسمع ، لئن ضربتني . . . فسأقتلك . اتفهم ؟

ففغر رئيس العرفاء فمه الشبيه بفم الشبوط ، منذهلا ولكن لم يند عنه أى جواب . فقد فلتت فرصة العقاب . ولم يكن وجه غريغورى الداكن ليبنىء بخير . واعترت رئيس العرفاء الحيرة ، فمشى مبتعدا عن البئر ، متزحلقا في الوحل بالقرب من المزراب الذى كان يسيل فيه الماء الى احواض خشبية ، وحينما اصبح على مبعدة ما استدار وهز قبضته ، وصاح :

ـــ سوف ارفع تقريرا عنك الى امر السرية . اجل ، سأرفع عنك تقريرا .

ولأمر ما ، مع ذلك ، لم يرفع تقريره عن غريغورى . ولكنه شاكس غريغورى خلال اسبوعين وجعل يتسقط اخطاءه دائما ويوكل اليه واجب الخفارة في غير دوره ويتحاشى ان تلتقى نظراتهما .

سحق نظام الحياة الموحش الرتيب نفسية القوزاق الشباب . كانوا يشتغلون بصورة مستديمة وحتى افول الشمس بالتمرينات ، على الاقدام وعلى ظهور الخيل ؛ ويسوسون الخيل ويطعمونها . في

الساعة العاشرة ، وبعد تلاوة الاسماء وتوزيع الحرس ، كانوا يصفونهم للصلاة ، ورئيس العرفاء يرتل صلاة المولى وعيناه تجولان على المراتب الماثلة امامه .

وفي كل صباح كانت الامور تدور على المنوال ذاته كرة اخرى ، وتمر الايام متشابهة كما تشابه حبات الحمص .

لم يكن في كل الضيعة سوى امرأتين : زوجة الوكيل * العجوز وخادمته الشابة الجميلة ، فرانيا ، وهي فتاة بولندية . تثير اعجاب الجنود والضباط على السواء . وكانت كثيرا ما تجرى من المنزل الى المطبخ حيث يعمل طباخ الجيش العجوز الذى لا حاجب له . فكانت الرعائل التي تتدرب في ساحة العرض تراقب كل حركة في تنورة الفتاة الرمادية اثناء هرولتها عبر الفناء ، وهم يتغامزون ويطلقون التنهدات المبالغ في علوها . واذ كانت الفتاة تستشعر حملقة القوزاق والضباط ، راحت تسبح في جداول الشبق الذى انبعث من ثلاثمائة زوج من العيون ، ومضت تؤرجح ردفيها بشكل مثير فيما كانت تجرى ذاهبة آتية بين المطبخ والمنزل ، تمنح الابتسام لكل رعيل بالتناوب ، وللضباط بصورة خاصة . وبالرغم من ان الجميع ناضلوا لاجتذاب اهتمامها بهم ، الا ان الشائعات ذهبت الى ان آمر السرية الاجعد الشعر وحده قد ظفر بها .

وذات يوم في مستهل الربيع ، كان غريغورى مكلفا بالعمل في الاصطبلات فقضى معظم وقته في طرف واحد منها حيث شاع الهياج بين جياد الضباط لوجود فرس بينها . حان وقت الغداء . وكان قد اذاق غريغورى حصان آمر السرية طعم السوط لتوه ، وشرع يعني بحصانه هو . فألقى هذا نظرة جانبية الى سيده

---

* اى وكيل الضيعة . المترجمون .

ومضى يلوك التبن ، وقد رفع ساقه الخلفية المضروبة اثناء التدريب .

وبينما كان غريغورى يصلح من وضع الرسن ، سمع صوت اصطراع وصرخة مكتومة ، انبعث من الزاوية الدكناء للطرف الاخر من الاصطبل . فانتابته دهشة من الصوت الغريب ، وهرع الى هناك عبر المعالف . وعلى حين غرة غشى على بصره ظلام لزج غطى على الممر فجأة وصفق احدهم باب الاصطبل ، فسمع غريغورى صوتا مكتوما ينادى همسا :

— اسرعوا ، يا اولاد !

فأسرع غريغورع خطاه ، وصاح :

— من هناك ؟

وفي اللحظة التالية اصطدم بعريف كان يتلمس طريقه الى الباب ، فهمس هذا وهو يضع يده على كتف غريغورى : «أهذا انت ، يا ميليخوف ؟»

— قف ! ماذا هناك ؟

فانفجر العريف في قهقهة آثمة وامسك بكم غريغورى : «يا من . . . هناك ، اين ذاهب ؟» اذ كان غريغورى قد انتزع ذراعه ، وجرى ثم دفع الباب . كان ثمة في الفناء المهجور دجاجة مقصوصة الذيل ، لا تدرى بما اعد الطباخ لها من خطط تتعلق بحساء الوكيل لليوم التالي ، فكانت تنبش في شيء من الروث باحثة عن موضع تضع فيه بيضتها .

اعشى الضياء بصر غريغورى لحظة ، فظلل عينيه بيده واستدار وهو يستمع الى الجلبة تتعالى في زاوية الاصطبل الدكناء . فجرى ناحية الصوت مضيقا عينيه واذا به يلقى زازكوف يزرر سرواله ويهز رأسه .

— ماذا بحق . . . ماذا تفعل هنا ؟

فهمس زازكوف وهو يطلق زفيرا كريها في وجه غريغورى :

«اسرع انه لشيء رائع . . . لقد جروا الفتاة فرانيا الى الداخل هنا . . . ومددوها !» وانقطعت قهقهته الخليعة فجأة حينما اطاح به غريغورى على حائط الاصطبل الخشبي . واعتادت عينا غريغورى الظلمة شيئا فشيئا وكان ثمة رعب فيهما وهو يعدو صوب الجلبة . ووجد غريغورى في الزاوية حشدا من قوزاق الرعيل الاول . فشق طريقه بينهم بصمت . ورأى فرانيا راقدة على الارض بلا حراك ، وقد لف رأسها بمراشح الخيل ، وثوبها ممزق ومرفوع الى ما فوق ثدييها ، وساقاها الابيضان وسط العتمة منفرجان بشكل داعر فظيع . وكان قوزاقي قد قام لتوه من فوقها ، وهو يبتسم ابتسامة معوجة ويتراجع ليفسح المجال لمن يليه . فشق غريغورى طريقه خلال الحشد عائدا ، وركض الى الباب ينادى على رئيس العرفاء . ولكن القوزاق الاخرين جروا خلفه وامسكوا به عند الباب ، وسحبوه الى الوراء واضعين ايديهم على فمه ، فمزق قمصلة احدهم من طرفها الى ياقتها وركل آخر على معدته ، لكن الاخرين استطاعوا ان يشلوا حركته . ومثلما فعلوا بفرانيا ، اوثقوا رأسه بمرشحة حصان وقيدوا يديه خلف ظهره ، ثم القوا به فى معلف خال ، وهم صامتون لكيلا يشخصهم من اصواتهم ، وحاول ان يصيح ومرشحة الحصان تخنقه ، وجعل يرفس الفاصل في هياج . وكان يسمع الهمس يتناهى من الزاوية ، والباب تصر مع دخول القوزاق وخروجهم . ثم اطلق سراحه بعد عشرين دقيقة تقريبا . وكان رئيس العرفاء وقوزاقيان من رعيل آخر يقفون عند الباب .

قال له رئيس العرفاء ، وهو يطرف بعينه بشدة دون ان ينظر اليه :

— ما عليك الا ان تقفل فمك !

وقال دوبوك مبتسما ، وهو قوزاقي من رعيل آخر :

— لا تثرثر والا صلمنا اذنيك . .

ثم رأى غريغوري قوزاقيين رفعا الكومة الساكنة التي كانت فرانيا ، وقد انفرجت ساقاها بشكل متصلب تحت تنورتها ، وارتقيا معلفا ودفعاها خلال فجوة في الحائط احدثتها عارضة خشبية سائبة . كان الحائط يحاذي البستان . وفوق كل معلف نافذة صغيرة مسودة . فتسلق بعض القوزاق فوق فواصل المعالف ليروا ما ستفعله فرانيا ، بينما هرع آخرون خارج الاصطبلات . وتملك غريغوري فضول حيواني ، هو الاخر ، فامسك بعارضة سقفية ، وشد قامته الى احدى النوافذ ووجد ما اعتمد عليه بقدميه وجعل ينظر من هناك . كانت عشرات من العيون تحملق خلال النوافذ الوسخة في الفتاة الراقدة تحت الجدار . كانت ممدة على ظهرها ، وساقاها يتقاطعان وينفرجان مثل شفرتي المقص ، واصابعها تنبش في الثلج عند الجدار . لم يستطع غريغوري ان يرى وجهها لكنه سمع الانفاس المكتومة للقوزاق الاخرين المتطلعين من النوافذ ، وخشخشة التبن الناعمة المريحة .

لبثت راقدة وقتا طويلا ، واخيرا همت على يديها وركبتيها . وارتعشت ذراعاها ، تكادان لا تقويان على حملها . ورأى غريغوري ذلك بوضوح . ثم قامت على قدميها وهي تترنح ، ومرت بعينيها على النوافذ بحملقة طويلة بطيئة ، وقد بدت شعثاء ، غريبة ، عدائية . ثم ابتعدت متأرجحة وهي تقبض بيد شجيرات زهر العسل وبالاخرى تتحسس الجدار .

فقفز غريغوري من الفاصل وحك بلعومه يخامره شعور بالاختناق الوشيك . وعند الباب قال له احدهم ، لم يستطع حتى تذكره فيما بعد ، بلهجة جلية قاطعة :

— لئن فهت بكلمة . . . قتلتّاك ، وحق المسيح !

وفي ساحة العرض لاحظ آمر السرية انقطاع احد ازرار معطف غريغوري . فسأله :

— من كنت تصارع ؟ اى هندام يمكن ان تسمى هذا ؟

فنظر غريغوري الى الثقب الصغير المستدير الذى خلفه الزر المفقود ، وجاشت به الذكرى ، فأحس ، للمرة الاولى منذ فترة طويلة ، من الزمن بالرغبة في البكاء .

٣

انتشر فوق السهب هواء ساخن اصفر . وتعالى غبار اصفر من بحار القمح الناضج غير المحصود . واضحى معدن آلات الحصاد حارا جدا بحيث لا تستطيع يد ان تلمسه . وصار النظر الى السماء الصفراء–المزرقة الملتهبة شيئا موجعا . وحيث انتهت حقول القمح ، بدأت حقول زعفرانية من البرسيم .

وانتقلت القرية عن بكرة أبيها الى السهب لقطع الذرة . وكانوا يختنقون بالحر والغبار الحريف ، ويرهقون الخيل وهي تجر الحاصدات . ومن حين لآخر ، كانت موجة من الهواء القادم من النهر تثير هبة من الغبار على السهب ، فتتغلف الشمس بغشاوة مخدرة .

وكان بيوتر قد شرب نصف دلو من الماء منذ الصباح الباكر حتى الآن ، وهو يجرف القمح من ناحية الحاصدة . فما ان تمضي دقيقة على شربه السائل الدافئ الكريه حتى يجف ريقه من جديد . كان قميصه وسرواله مبللين كلهما ، والعرق يتصبب من وجهه ، وفي اذنيه رنين متواصل ، وكل كلمة يقولها تخربش بلعومه . وكانت

داريا تجمع القمح حزما ، وقد لفعت رأسها ووجهها بعصابتها ، وفكت ازرار قميصها . وانحدرت حبات رمادية كبيرة من العرق بين نهديها الاغبشين . وكانت ناتاليا تقود الخيل ، وقد التهبت وجنتاها حتى صارتا بلون البنجر ، وادمعت الشمس المتوهجة عينيها . وكان بانتلاى يروح ويغدو بين حزم القمح ، وقميصه المبتل يلسع جسده . وبدت لحيته كسيل من دهن العربات الاسود الذائب ، ينساب فوق صدره .

صاح كريستونيا من عربة عابرة :

— جعلوك تعرق ؟

— مبتل عن آخرى ! — ومضى بانتلاى يعرج ، ماسحا بطنه العرق بذيل قميصه .

وصاحت داريا :

— بيوتر ! لنتوقف .

— تريثي قليلا ، سنفرغ من هذه المسافة .

— لننتظر حتى يبرد الجو . كفاية الى هذا الحد .

اوقفت ناتاليا الخيل ، وكان صدرها يلهث كما لو كانت هي التي تسحب الحاصدة . ومضت داريا نحوهما متلمسة طريقها في حذر بقدميها المحترقتين الداكنتين على الحنطة المحصودة .

— بيوتر ، ليست البركة بعيدة من هنا .

— ليست بعيدة ! ثلاثة فرستات او نحوها ، لاغير !

— لو قمنا بغوصة واحدة فيها !

وبدأت ناتاليا تقول متنهدة :

— وحينما تصلين الى هناك وترجعين . . .

— لماذا ، بحق الشيطان ، علينا ان نمشي على ارجلنا ! سنحل الخيل ونركبها .

فنظر بيوتر قلقا الى أبيه الذى كان يربط حزمة ، ولوح بيده .

— حسنا ، حلوا الخيل .

فحلت داريا العدة وقفزت ببراعة على ظهر الفرس . وقادت ناتاليا حصانها الى الحاصدة ، وشفتاها المشققتان تبتسمان ، وحاولت ان تمتطيه من مقعد القيادة . فمضى اليها بيوتر واعان ساقها على الصعود الى ظهر الحصان . ثم انطلقوا . ومضت داريا تخب في المقدمة ، وهي تركب حصانها على الطريقة القوزاقية ، وقد شمرت تنورتها الى ما فوق ركبتيها العاريتين ، واندفعت عصابتها الى ما وراء رأسها . ولم يستطع بيوتر ان يمنع نفسه من الصياح عليها :

— حاذرى الا يتقرح ظهر الحصان !

فردت عليه داريا بصيحة غير مبالية :

— لا حاجة الى ان تقلق !

وبينما كانوا يعبرون طريق الحقل ، نظر بيوتر الى شماله فلاحظ غمامة صغيرة من الغبار تتحرك بسرعة على امتداد الطريق العام البعيد من القرية .

فعلق محدثا ناتاليا ، وهو يخاوص عينيه :

— ثمة خيّال قادم !

فأجابت ناتاليا دهشة :

— ومسرع ، ايضا ! انظر الى الغبار !

— لعمرى ، من عساه يكون ! — ونادى بيوتر على زوجته : — داريا ! شدى الزمام لحظة ، ودعينا نراقب ذلك الخيّال !

هبطت غمامة الغبار في منخفض واختفت ، ثم ارتفعت من جديد على الجانب الاخر . وصار الآن بالمستطاع رؤية شبح الخيال خلل الغبار . فلبث بيوتر يحدق وراحته الوسخة على حافة قبعته القش .

— ليس من حصان يستطيع ان يتحمل هذا العدو مدة طويلة . لسوف يقتله ! — وتجهم وابعد يده ، واجتاح وجهه تعبير قلق .

اصبح الآن بالامكان رؤية الخيال بجلاء تام . كان يركب حصانا بسرعة جنونية ، ويده اليسرى تمسك بقبعته ، وفي يمناه علم احمر صغير مغبر . مرق على الطريق على مقربة دانية منهم حتى ان بيوتر سمع انفاس الحصان اللاهثة . وصاح الرجل وهو يمر بهم :

— انذار !

وتطاير من الحصان نثار من زبد صابوني اصفر وتساقط على اثر حافره . وتابع بيوتر الخيال بعينيه . وانطبعت في ذاكرته نخرة الحصان القوية وصورة كفله ، مبتلا ومتلألئا كالفولاذ ، حينما رآه وهو يحدق في الشبح المبتعد .

وتفرس بيوتر ببلادة في الزبد المرتعش في الغبار ، وهو لما يزل عاجزا عن ادراك طبيعة الكارثة التي حلت بهم ، فثم أجال بصره في السهب المتموج المنحدر صوب القرية . كان القوزاق يتراكضون من جميع الجهات فوق الصفوف الصفر لجذامة الحنطة ، متجهين صوب القرية ، وكانت ترى عبر السهب ، حتى النجد البعيد ، غمامات صغيرة من الغبار تنم عن فرسان مسرعين . وتحرك قطار طويل من الغبار على الطريق المؤدى الى القرية . اما القوزاق الذين كانوا في قائمة الخدمة الفعلية ، فقد تركوا عملهم واخرجوا الخيل من الحاصدات وانطلقوا سراعا الى القرية . وشاهد بيوتر كريستونيا يحل حصانه ، التابع لفصيلة الحرس ، من عربة وينطلق عليه بسرعة جنونية ، وهو ينظر الى بيوتر عبر كتفه .

وقالت ناتاليا فيما يشبه العويل ، وهي تنظر الى بيوتر بذعر :

«فيم كل ذلك ؟» . وحفزته نظرتها ، نظرة الارنب الواقع في فخ ، فعاد مسرعا الى الحاصدة ، وقفز من حصانه قبل ان يتوقف ، وحشر ساقيه في بنطاله الذى خلعه اثناء العمل ، وانطلق ، ملوحا بيده لابيه ، ليضيف غمامة اخرى من الغبار الى تلك الغمامات التي تناثرت قبله فوق السهب المنبسط فى وقدة القيظ .

٤

وفي ساحة القرية وجد حشدا رماديا كثيفا ، وقد ارتدى الكثيرون بزاتهم العسكرية وحملوا عدتهم . وكانت القبعات العسكرية الزرق لرجال كتيبة الاتمان ترتفع بمقدار رأس عن بقية القبعات ، مثل اوز هولندى بين دواجن الحقل الصغيرة .

كانت حانة القرية مغلقة . وكانت نظرة ضابط الانضباط العسكرى كئيبة مثقلة بالهموم . واصطفت النساء اللواتي ارتدين ثياب الاعياد حذاء الاسيجة على امتداد الشارع . وكانت ثمة كلمة واحدة على كل شفة : «النفير» . والوجوه مأخوذة ، قلقة . وسرى القلق السائد الى الخيل ، فجعلت ترفس وتثب وتنخر غاضبة . وانتشرت في الساحة قنان فارغة واوراق حلوى رخيصة ، وكانت غمامة من الغبار قد تعلقت في الجو منخفضة .

قاد بيوتر حصانه المسرج من عنانه . وعلى مقربة من سور الكنيسة وقف قوزاقي اسمر ضخم ، من كتيبة الاتمان ، يزرر بنطلونه الازرق ، وفمه ينفرج عن ابتسامة ناصعة الاسنان ، فيما كانت امرأة صغيرة قوية البنية ، زوجته أو حبيبته ، تتفجر بوجهه :

— لسوف القنك درسا لذهابك مع تلك السفيهة !

كانت ثملة ، وقد انتشرت على شعرها الاشعث قشور بذور

عباد الشمس ، وانهدلت عصابتها الزاهية ، فشد جندى الحرس نطاقه ، وانحنى ، وعلى وجهه ابتسامة عريضة ، وساقاه طويلتان وطيات سرواله العريضة يمكن ان تمرر عجلا حوليا دون ان يعصى فيها .

— ابتعدى عني ، يا ماشكا .

— يا للوحش ! يا زير النساء !

— وماذا في ذلك ؟

— يا عديم الحياء !

وعلى مقربة منه كان رئيس عرفاء احمر اللحية يناقش مدفعيا . وكان يؤكد له :

— لن يؤدى ذلك الى شيء ما ! سوف نقضى هناك يوما ، ثم نعود الى بيوتنا من جديد .

— ولكن لنفرض ان الحرب وقعت ؟

— ياه ، يا صديقي ! اين هو البلد الذى يستطيع ان يصمد امامنا ؟

وفي الحشد القريب يجرى حديث لا ترابط فيه وكان ثمة قوزاقي مسن وسيم يتجادل في حماس :

— لا مصلحة لنا فيها . فليقاتلوا هم فنحن لم نحصد قمحنا بعد .

— يا للمصيبة ! ها نحن واقفون هنا ، بينما في الحصاد كل دقيقة لها وزنها !

— ستنفذ الماشية الى الحزم !

— قبل قليل فقط شرعنا فى حصاد الشعير !

— يقولون ان القيصر النمسوى قد قتل .

— كلا ، ولي عهده .

— يا صديق من اية كتيبة انت ؟

— ها ! يا عزيزتي ومن اين انت ؟

— لكن الاتمان يقول انهم استدعونا لمواجهة ما قد يحدث لا غير .

— انتهينا ، يا اولاد !

— سنة اخرى ، وأكون قد خرجت من وجبة الاحتياط الثالثة .

— ما عساهم يريدون منك ، ايها الجد ؟

— لا عليك ، فما ان يشرعوا بتقتيل الرجال حتى يستدعوا الشيوخ ، ايضا .

— الحانة مغلقة !

— وماذا ؟ في وسعنا ان نذهب الى منزل مارفوتكا ، ستبيعنا برميلا !

ثم بدأ التفتيش . واقتاد ثلاثة من القوزاق رابعا ، مضرجا بالدم وفي حالة سكر تام ، الى ادارة القرية . فارتمى الى الخلف ، وشق قميصه ، وصاح وهو يجول بعينيه الصغيرتين :

— سأعلم الفلاحين ! سأنال من دمهم ! سيعلمون من هم قوزاق الدون !

فتضاحكت حلقة الرجال المحيطة به استحسانا :

— صحيح ، لقنهم درسا !

— لمَ قبضوا عليه ؟

— هاجم بعض الفلاحين !

— حسنا ، يستحقون ما فعل .

— سنريهم أكثر من هذا !

— ساهمت في قمعهم عام ١٩٠٥ . كان ذلك منظرا جديرا بالمشاهدة !

— ستنشب الحرب . وسيرسلوننا من جديد لقمعهم .

— كفى ما لاقينا . فليؤجروا لتلك المهمة ، او فلتقم بها الشرطة . من العار علينا ان نفعل ذلك .

كان حانوت موخوف مكتظا بالناس . وكان في وسطهم ايفان توميلين يناقش صاحبي الحانوت ، وهو سكران ، وموخوف يسعى لتهدئته . وكان شريكه اتيوبين قد ارتكن عند الباب . وقال متبرما : «علام كل هذا ؟ في رأيي ان هذا انتهاك للحرمة ! يا ولد ، اجر في طلب الاتمان !»

ضغط توميلين بصدره على التاجر المتجهم ، وهو يمسح يديه المعروقتين ببنطاله ، وقال متهكما :

— لقد عصرتنا وعصرتنا بالفائدة التي تفرضها علينا ، ايها الختزير ، والآن طاش صوابك . سوف احطم وجهك ! انت تنهب حقوقنا القوزاقية ، ايها الثعبان الغليظ !

كان اتمان القرية منهمكا في صب سيل من الكلمات المهدئة لطمأنة القوزاق المحيطين به : «حرب ؟ كلا ، لن تكون هناك اية حرب . فقد قال سعادة آمر الانضباط العسكرى ان النفير لم يكن الا من قبيل التمارين . لا حاجة للتطير» .

— حسنا ! فلنعد الى الحقول فور عودتنا الى بيوتنا !

— وكيف لا ! الحصاد لا ينتظر !

— ماذا يدور في خلد السلطات ؟ لديَّ اكثر من مائة ديسياتين يتعين عليَّ حصادها .

— تيموشكا ! قل لاهلينا اننا سنعود غدا .

— يبدو انهم علقوا بيانا . لنذهب ونلقي نظرة عليه .

وهكذا ظلت الساحة دائبة الحركة والصخب بالحشود القلقة حتى ساعة متأخرة من الليل .

* * *

بعد اربعة ايام ، كانت الشاحنات الحمر للقطارات العسكرية تحمل كتائب وبطاريات القوزاق باتجاه الحدود الروسية — النمسوية .

— الحرب . . .

ومن المعالف انبعثت حمحمة الخيل ورائحة الروث الكريهة الرطبة .

وفي العربات دار نفس النمط من الحديث ، واغلب الاغاني من هذا النوع :

الدون يقظان يتململ ،
الدون الهادئ المسيحى .
اطاعة للنداء ،
نداء الملك ، يغذ الدون مسيرته .

في المحطات ، كان القوزاق يقابلون بنظرات فضولية عطوف . وكان الناس يحدقون بفضول في شرائط سراويل القوزاق ، وفي وجوههم التي لم تزل داكنة من اثر العمل الاخير في الحقول .

— الحرب . . .

وانطلقت صرخات الجرائد بالنبأ . وفي المحطات ، لوحت النساء بمناديلهن ، وابتسمن ، وتثرن السكاكر والحلـــوى . مرة واحدة فقط ، قبيل ان يصل القطار فورونيج دس عامل سكك عجوز ، نصف سكران ، رأسه في الشاحنة حيث انحشر بيوتـــر ميليخوف مع ثلاثين قوزاقيا آخرين ، وتساءل :

— انتم ذاهبون ؟

فأجابه احد القوزاق :

— نعم . ادخل وامض معنا ، ايها الجد .

فرد العجوز وهو يهز رأسه لائما :

— يا ابني . . . ما انتم الا ثيران للذبح !

٥

خلال الاسبوع الرابع من حزيران ١٩١٤ ، نقلت هيئة اركان الفرقة كتيبة غريغورى ميليخوف الى مدينة روفنو لتشترك في المناورات . وكانت ثمة فرقتان من المشاة قد عسكرتا على مقربة من روفنو ، اضافة الى بعض وحدات الخيالة . وكان ان عسكرت السرية الرابعة في قرية فلاديسلافكا . وبعد أسبوعين ، وبينما كان غريغورى وقوزاق السرية الرابعة مضطجعين في خيامهم وقد هدت قواهم المناورات المستديمة دخل آمر السرية ، الرئيس بولوكوفنيكوف على غفلة مسرعا وعائدا من هيئة اركان الكتيبة على حصانه المغطى بالزبد .

اضطرب القوزاق في الفناء فقال بروخور زيكوف متهكما : «ستتحرك من جديد ، على ما اظن» . وارهف سمعه ينتظر صوت البوق .

وغرز عريف الرعيل الابرة التي كان يرتق بها بنطلونه في بطانة قبعته ، وعلق قائلا :

— يبدو كذلك .

— لن يدعونا نرتاح لحظة .

— قال رئيس العرفاء ان آمر اللواء سيزورنا .

في هذه اللحظة نفخ البوقي اشارة الانذار . فقفز القوزاق على اقدامهم .

وصاح بروخور وهو ينقب في جنون : «اين ولّى كيس تبغي ؟»

— اسرجوا حصنكم !

وصاح غريغورى وهو يعدو الى الخارج :

— فليذهب كيسك الى الجحيم .

جرى رئيس العرفاء الى الفناء ، واتجه ناحية مرابط الخيل ماسكا مقبض سيفه . وكانوا قد اسرجوا خيلهم خلال المهلة النظامية . وبينما كان غريغورى ينتزع اوتاد الخيام ، استطاع العريف ان يجمجم :

— انها الحرب هذه المرة ، يا بني !

— انت تهزل !

— وحق الرب ! لقد اخبرني رئيس العرفاء .

وانتظمت السرية في الشارع وعلى رأسها الآمر على صهوة حصان هائج . وحوم ايعازه على رؤوس المراتب :

— ارتال ، اصطفاف !

وقرقعت الحوافر فيما مضت الخيل خارجة من القرية الى الطريق العام . ومن قرية مجاورة ظهرت للعيان السريتان الاولى والخامسة متجهتين على الخيل صوب المحطة .

وفي اليوم التالي انزلت الكتيبة من القطار في محطة تبعد ، حوالي خمسة وثلاثين فرستا عن الحدود النمسوية . كان الفجر ينسلخ من وراء اشجار البتولا في المحطة . وبدا الصباح مبشرا بتحسن . ضجت الماكنة وعجت فوق خطوط السكك ، وتلألأت القضبان تحت دهان من الندى ، وهبطت الخيل من الشاحنات على الالواح الخشبية وهي تنخر . ومن وراء برج الماء تناهى خليط من الاصوات والاوامر .

وقاد قوزاق السرية الرابعة خيولهم من اعنّتها عبر تقاطع السكك .

وبدت اصواتهم متطيرة في العتمة البنفسجية المتكسرة . وبزغت الوجوه وهياكل الخيل من الظلمة بشكل مبهم .

— اية سرية تلك ؟

— ومن انت ؟ من اين انت ؟

— سأريك من انا ! كيف تجرؤ على التحدث الى ضابط على هذا النحو ؟

— آسف ، يا صاحب السعادة ، لم اتبينكم .

— اذهب ! اذهب !

— فيم تكاسلكم ؟ تحركوا . ها هو القطار قادم .

— اين رعيلكم الثالث ، يا رئيس العرفاء ؟

— سرية ، تراصفى !

همسات تتمتم في الرتل :

— اللعنة ، كيف نتراصف ونحن لم نعرف النوم منذ ليلتين .

— هات نفسا ، يا سيومكا ، لم ادخن سيكارة منذ البارحة .

— اذهب الى الجحيم . . .

— عض حزام سرجه ، هذا الشيطان .

— فقد حصاني نعلا من ساقه الامامية .

وعلى مبعدة قليلة ، كان الرعيل الرابع قد اوقف قليلا لان الرعيل الاخر اعترض طريقه . كانت اشباح الفرسان السود بارزة بوضوح قبالة صفحة السماء الرمادية المزرقة ، كما لو رسمت بحبر هندى . في كل صف اربعة فرسان . تأرجحت رماحهم كعيدان عباد الشمس الجرد . ومن حين لاخر جلجل ركاب او صر سرج .

— يا اخوان ، الى اين ذاهبون ؟

— الى الاشبين لحفلة التعميد !

— ها — ها — ها !

— صه ! ما هذا الكلام الفارغ !

كان بروخور زيكوف راكبا الى جانب غريغورى ، حدق بروخور في وجهه وهمس :

— ميليخوف ، لست خائفا . أليس كذلك ؟

— ما الذى يدعو للخوف ؟

— قد نلتحم اليوم في معركة .

— حسنا ، وما في ذلك ؟

فاعترف بروخور واصابعه تعبث بالاعنة الندية في عصبية :

— لكنني خائف . لم انم طرفة عين طوال الليل .

ومرة اخرى تقدمت السرية ، وتحركت الخيل بخطى رتيبة . واهتزت الرماح وانسابت في ايقاع منتظم . فالقى غريغورى الاعنة ، وغفا . وبدا له ان الذى كان يتقدم على سيقانه الى الامام بليونة ، فيؤرجحه على السرج ، لم يكن الحصان ، بل هو نفسه سائرا على طريق مظلم دافئ ، يمشي في يسر غريب ، وفي فرح لا يقاوم . ومضى بروخور يثرثر الى جانبه . لكن صوته اختلط بصرير السرج وقرقعة الحوافر ، فلم يكدر اغفاءته الهنية .

انعطفت السرية في طريق جانبي . وكان الصمت يرن في آذانهم ، والشوفان الناضج يتدلى على جانب الطريق ، ومن ذؤاباته يتبخر الندى . وحاولت الخيل ان تبلغ السنابل الخفيضة ، فكانت تجذب الاعنة من ايدى راكبيها . زحف ضوء النهار اللطيف تحت جفني غريغورى المنتفختين من جراء الارق . فرفع رأسه وسمع صوت بروخور الرتيب ، كأنه صرير عجلة في عربة .

ايقظه رعد قاصف شديد ، تماوج بغتة عبر حقول الشوفان .

— رمي مدافع !

كاد بروخور ان يصيح ، وغام الرعب بعينيه اللتين تشبهان

عيني العجل ، فرفع غريغورى رأسه . كان امامه المعطف الرمادى لعريف الرعيل ، يرتفع ويهبط في الوقت نفسه مع ظهر الحصان . وعلى كلا الجانبين امتدت حقول القمح غير المحصودة ، وتراقصت قبرة في السماء على علو عمود تلغراف . وهبت جميع السرية ، اذ سرى صوت الرمي خلالها سريان التيار الكهربائي . ودفع الرئيس بولوكوفنيكوف السرية الى عدو سريع ، وقد اثاره الرمي . وبعد مفترق طريق حيث قامت حانة مهجورة ، بدأوا يصادفون عربات اللاجئين ومرت بالقوزاق سرية من الفرسان المتأنقين . وحدق قائدهم ، الذى كان يمتطي حصانا اصيلا اشقر ، في القوزاق باحتقار وهمز حصانه . ثم التقوا ببطارية من مدافع القوس جنحت في منخفض نقع موحل . كان الراكبون يلهبون خيولهم بالسياط ، بينما يعالج المدفعيون عجلات العربة . ومر مدفعي ضخم مجدور حاملا ضمة الواح خشبية يبدو انه انتزعها من سياج الحانة .

وبعد ذلك بقليل لحقوا بكتيبة من المشاة . كان الجنود يمشون مسرعين وقد لفت معاطفهم فوق ظهورهم . والتمعت الشمس على صحائف طعامهم المصقولة وانسابت من حرابهم . وقذف نائب عريف قميء نشط من السرية الاخيرة بكتلة من الطين الى غريغورى وقال :

— هاك ، تلقف ! اقذف النمسويين بها !

فرد غريغورى :

— لا تتعابث ، ايها الجندب ! — وفتت كتلة الطين اثناء طيرانها بسوطه .

— قولوا لهم «مرحبا» عن لساننا ، ايها القوزاق !

— ستسنح لكم الفرصة لذلك بانفسكم .

انطلق احدهم في بداية الرتل يردد اغنية بذيئة ، وجعل

جندى ذو ردفين انثويين سمينين يمشى الى جانب الرتل وظهره الى الامام وهو يصفع ربلتي ساقيه القصيرتين ، فضحك الضباط ، اذ كان الاحساس القوى بالخطر المحدق قد قربهم اكثر الى الجنود وصاروا اكثر تسامحا .

ومن ذلك الحين اخذ الرتل يمر باستمرار بكتائب من المشاة تتزاحف مثل دود القز ، وبطاريات مدفعية ، وعربات شحن ، وعربات الصليب الاحمر . وشاعت في الهواء الرائحة المميتة للمعركة الوشيكة الوقوع .

بعد ذلك بقليل ، وبينما كانت السرية الرابعة تدخل احدى القرى ، لحق بها آمر الكتيبة ، العقيد كاليدين ممشوق القدّ ، يصحبه معاونه . وحينما مرا بغريغورى وسمع الاخير يقول لكاليدين باضطراب : «هذه القرية ليست مؤشرة على الخريطة ، يا فاسيلي ماكسيموفتش ! وقد نجد انفسنا في موقف حرج» .

لم يتبين غريغورى رد العقيد . وانطلق المساعد يهذب حتى لحق بهما . كان حصانه يعرج على ساقه الخلفية اليسرى ، ولاحظ غريغورى بصورة آلية خصائصه البديعة . وظهرت على البعد اكواخ قرية صغيرة راقدة تحت منحدر يسير . كانت الكتيبة تعدو عدوا سريعا . وجعلت الخيل تعرق ومسح غريغورى براحة يده على رقبة حصانه التي صارت قاتمة ، والقى النظرات فيما حوله . والى الجانب الاخر من القرية كانت ثمة غابة ، وذؤابات اشجارها الخضر تخترق قبة السماء الزرقاء . ومن وراء الغابة اختلطت انفجارات قنابل المدفعية بقرقعة طلقات البنادق المتوالية . فنصبت الخيل آذانها . وعلى مسافة بعيدة حوم في السماء دخان المنثار المتفجر ، وسرت طلقات البنادق ببطء الى يمين الغابة ، تتلاشى حينا ، وتتعالى حينا .

اصاخ غريغورى السمع لكل صوت ، وقد استحالت اعصابه حزما صغيرة من الاحاسيس المتوترة . وتململ بروخور زيكوف على سرجه ، وهو يتكلم بلا انقطاع .

— غريغورى ، تبدو هذه الطلقات تماما مثل اطفال يقرقعون العصي على السياج ، أليس كذلك ؟

— صه ، يا عقعق !

دخلت السرية القرية . كان الجنود يتدافعون هنا وهناك في الافنية . وكان سكان الاكواخ يحزمون امتعتهم ليلوذوا بالفرار ، وقد انطبع الجزع والحيرة على وجوههم . واذ مر غريغورى لاحظ جنودا يضرمون النار تحت سقف احدى الحظائر ، غير ان صاحبها ، وهو بيلوروسي طويل اشيب الشعر ، قد سحقته الكارثة المفاجئة ، مر بهم دون ان يبدى ادنى اهتمام . وشاهد غريغورى عائلة الرجل تحمل عربة بوسائد حمر الاغطية واثاث متداع ، وكان الرجل نفسه يحمل باعتناء اطار عجلة مكسوزا عديم النفع ، وربما مضت عليه سنوات وهو ملقى في الفناء .

وذهل غريغورى لغباء النساء اللواتي كن يكدسن على العربات مزهريات وايقونات ، ويتركن الحاجات الغالية والضرورية وراءهن في المنزل . وفي بطن الشارع ، تطاير الريش من حشية ريشية ، مثل عاصفة ثلجية ، وكانت ثمة رائحة حريفة في الهواء لهباب محترق وسراديب زنخة . وفي طرف القرية التقوا بيهودى يهرول ناحيتهم ، وقد تمزقت فتحة فمه الضيقة عن صرخة :

— ايها السيد القوزاقي ، ايها السيد القوزاقي ! آه ، يا الهي !

وكان ثمة قوزاقي قصير القامة مدور الرأس يخب على حصانه أمامه ، ملوحا بسوطه دون ان يبالي به اطلاقا .

— قف ! — صاح نقيب من السرية الثانية على القوزاقي .

فانحنى القوزاقي على رمانة سرجه وانطلق في شارع جانبي .

— قف ، ايها الوغد . من اية كتيبة انت ؟

فالتصق رأس القوزاقي الحليق برقبة الحصان ، وانطلق بسرعة جنونية نحو سياج عال فأقعى حصانه ، ثم قفز برشاقة .

فقال العريف :

— ان الكتيبة التاسعة معسكرة هنا ، يا صاحب السعادة . تلك هي كتيبته .

— ليذهب الى الشيطان — وعبس النقيب ، واستدار الى اليهودى الذى كان يمسك بركابه — ماذا اخذ منك ؟

— ايها السيد الضابط . . . ساعتي ، ايها السيد الضابط . — وطرف اليهودى ، مديرا وجهه الوسيم ناحية الضباط المقبلين .

حرر النقيب الركاب بقدمه وشرع يتقدم . وقال مبتسما من وراء شاربه وهو يبتعد :

— على اية حال كان الالمان سيأخذونها حينما يأتون .

وقف اليهودى حائرا وسط الطريق . واعتصر التشنج وجهه .

وصاح آمر السرية بقسوة وهو يرفع سوطه :

— تنح عن الطريق ، يا حسقيل افندى .

مضت السرية الرابعة ، وسنابك الخيل تقرقع والاسرجة تصر . وسخر القوزاق من اليهودى التائه ، وتحدثوا فيما بينهم :

— لا معدى لمن كان على شاكلتنا من السرقة .

— كل شيء يلتصق بيد القوزاقي .

— دعهم يكونون اكثر حرصا على حاجياتهم !

— ولد ماهر ، هو ذاك !

— قفز عبر السياج ، كأنه كلب صيد .

تخلف رئيس العرفاء كاركين وراء السرية ، وبمصاحبة ضحكات القوزاق خفض رمحه وصاح :

— اجر قبل ان اغرزه فيك . . .

ففغر اليهودى فاه في ذعر وجرى . فلحق به رئيس العرفاء وضربه بسوطه . ورأى غريغورى اليهودى يكبو ، ثم يستدير الى رئيس العرفاء وقد غطى وجهه براحتيه . كان الدم يتلألأ خلال اصابعه الهزيلة .

وقال ناشجا :

— لماذا ؟

فصاح رئيس العرفاء وعيناه النفاذتان الشبيهتان بالازرار تتبسمان بلزوجة فيما مضى مبتعدا :

— لا تمش حافيا ، ايها الاحمق !

ووراء القرية ، كانت جماعة من جنود الهندسة تنجز بناء قنطرة عريضة عبر منخفض تغطيه الحلفاء وزنابق الماء الصفر . وعلى بعد قريب كانت سيارة تطن وتقرقع وسائقها يضج حولها . وفي مقعدها الخلفي جنرال قوى البنية ، اشيب الشعر ذو لحية اسبانية وخدين منتفخين ، بين جالس ومضطجع . فوقف العقيد كاليدين وآمر فوج الهندسة وقفة استعداد الى جانب السيارة . وزعق على المهندس ، وهو يقبض على سير محفظة خرائطه :

— لقد امرت باتمام هذا العمل امس . اسكت ! كان عليك أن تجهز المواد سلفا . اسكت ! — وهدر من جديد ، مع ان الضابط لم يحاول ان يفتح شفتيه المرتجفتين — كيف تتوقع ان اعبر الى الجانب الاخر ؟ اجبني ، ايها الرقيب . كيف لي ان اعبر ؟

وكان يجلس الى يساره جنرال شاب اسود الشارب ، ويشعل

عود ثقاب ليدخن سيكارا . وانحنى الرقيب المهندس الى الامام واشار الى جانب من الجسر . وعند الجسر مضت السرية نازلة في المنخفض . وغاصت الخيل حتى ركبها في الوحل الاسود الحائل ، وتناثرت فوقهم من الجسر نشارة خشب رقيقة بيضاء .

عبرت السرية الحدود المتساوية عند الظهر . وقفزت الخيل عبر العمود الاسود–الابيض المكسور لنقطة الحدود . ومن اليمين انبعث قصف المدافع ، ومن بعيد لاحت السقوف القرميدية لمزرعة ما تحت اشعة الشمس العمودية . وجثمت بتثاقل فوق كل شيء غمامة من الغبار مرة المذاق . واصدر آمر الكتيبة اوامره بافراز دوريات الاستطلاع وارسالها الى الامام . فأرسل الرعيل الثالث من السرية الرابعة تحت قيادة الملازم الاول سيمينوف . وتخلفت الكتيبة في ضباب رمادى ، وقد قسمت الى سرايا . وركبت مفرزة تتكون من عشرين قوزاقيا خيلها على الطريق المحفر ، مارة بالمزرعة .

قاد الملازم دورية الاستطلاع حوالي ثلاثة فرسخات ثم توقف ليدرس خريطته فتجمع القوزاق في حلقة يدخنون . وترجل غريغورى عن حصانه ليرخي السرج ، لكن رئيس العرفاء صاح به :

— ماذا تظنك فاعلا ؟ عد الى حصانك .

أشعل الملازم سيكارة ، ومسح منظارته باعتناء . كان هناك واد يمتد أمامهم في قبظ الظهيرة . والى يمينهم برزت خطوط متعرجة لغابة ما يخترقها خط الطريق . وعلى مبعدة حوالي فرست ونصف ، كانت ثمة قرية صغيرة ، وبدت بالقرب منها ضفة نهير طينية متآكلة وصفحة ماء ملساء . فحدق الضابط بامعان خلال منظارته ، متفحصا السكون الميت في شوارع القرية ولكنها كانت مهجورة كمقبرة . كان شريط الماء الازرق وحده يومئ متحديا .

أشار الضابط الى القرية بعينيه ، وقال :

— لابد ان هذه كورولیوفكا .

اقترب رئيس العرفاء بحصانه ، ولم يجب ، لكن التعبير في وجهه أفصح عن قوله : أنت تعلم خيرا مني . انا لا أعني الا بالقضايا الصغرى .

ثم قال الضابط مترددا ، وهو يزيح منظاره عن عينيه ويتجهم كما لو كان يعاني الما من اسنانه :

— سنذهب الى هناك .

— قد نلتقي بهم ، يا صاحب السعادة ؟

— سنكون حذرين . هيا بنا .

ظل بروخور زيكوف قريبا الى غريغورى . مضوا حذر الشارع المهجور في حذر . كانت كل نافذة توحي بكمين ، وكل باب حظيرة مفتوح يستثير احساسا بالوحشة ويبعث في الظهور رعشة مزعجة . وانجذبت كل العيون الى الاسيجة والحُفر ، وكأن فيها مغناطيسا . ومضوا مثل وحوش كاسرة ، مثل ذئاب تقترب من مساكن الناس في ليلة شتائية — لكن الشوارع كانت خالية . كان الصمت مذهلا . ومن نافذة مفتوحة لاحد البيوت انبعث الصوت البريء لساعة تدق . كان وقع الضربات مثل طلقات مسدس ، ورأى غريغورى الضابط الراكب أمامه يرتعش وتنطلق يده الى مسدسه .

لم يكن في القرية كائن ما . وخاضت الدورية النهر حتى بلغ الماء بطون الخيل فغاصت فيه رضية وحاولت ان تشرب منه ، لكن فرسانها جروا الاعنة واستحثوها على المضي . وحدق غريغورى وهو ظمآن في الماء الكدر ، القريب والعزيز المنال . لقد جذبه اليه بصورة تكاد لا تقاوم . ولو كان ممكنا اذن لوثب من سرجه واستلقى بملابسه تحت همهمة التيار حتى يقشعر من البرد صدره وظهره العرقان .

ومن المرتفع الواقع وراء القرية شاهدوا بلدة بعيدة : مجموعة مربعة الشكل من المنازل ، ابنية من الطابوق ، حدائق ، وابراج كنائس . مضى الضابط الى قمة التل ووضع منظـــاره على عينيه . ثم صاح واصابع يده اليسرى تتحرك بعصبية :

— ها هم .

فركب رئيس العرفاء الى القمة التي الهبتها الشمس يتبعه القوزاق الاخرون فرادى ، وجعلوا يحدقون النظر ، فشاهدوا الرجال — الذين يبدون نقاطا سوداء — يهرولون في الشوارع ، والعربات تسد الشوارع الجانبية ، والخيالة يجرون رائحين غادين . واستطاع غريغورى وقد ضيق عينيه وجعل يحدّق من تحت راحته ، ان يميز لون البزات الرمادى غير المألوف . وكانت تمتد امام البلدة خطوط سمر للخنادق التي حفرت توا ، والرجال محتشدون حولها .

قال بروخور شاهقا :

— ما اكثرهم .

وكان الاخرون صامتين ، وقد تملكهم جميعا الاحساس ذاته . وتسمع غريغورى الى ضربات قلبه المتوترة (كأن كائنا حيا صغيرا ثقيلا يقفز في مكانه في الجانب الايسر من صدره) وادرك أن الشعور الذى استشعره عند مرأى هؤلاء الاجانب كان شيئا مغايرا تماما لما كان قد شعر به لدى مواجهة «العدو» أثناء المناورات .

قاد رئيس العرفاء القوزاق بسرعة عائدا بهم الى اسفل المرتفع وامرهم بالترجل وارتفع الى القمة عائدا الى الملازم . ودون الملازم بعض الملاحظات بقلمه في دفتر ملاحظات الميدان ، ثم اشار الى غريغورى باصبعه :

— ميليخوف .

— سيدى .

مضى غريغورى الى الضابط ، وقد تحجرت ساقاه بعد طول الركوب ، فناوله الضابط ورقة مطوية وقال :

— لديك افضل حصان . سلم هذه الى امر الكتيبة . اسرع .

فوضع غريغورى الورقة في جيب صدره وعاد الى حصانه وهو يدس سير قبعته تحت ذقنه فيما كان يمضي . ولبث الضابط يراقبه حتى امتطى حصانه ثم نظر الى ساعة معصمه .

كانت الكتيبة قد بلغت قرية كورولیوفكا حينما وصل اليها غريغورى بالتقرير . وبعد ان قرأه العقيد اصدر امره الى مساعده الذى انطلق الى السرية الاولى .

تدفقت السرية الرابعة خلال كورولیوفكا ، وانتشرت بسرعة وانتظام فوق الحقول الواقعة وراء القرية وكأنها في ساحة تدريب . ووصل الملازم سيميونوف مع رجاله .

واصطفت السرية مراتب وارجحت الخيل رؤوسها لتنفض عنها ذباب الخيل ، وكانت ثمة جلجلة متواصلة تنبعث من الالجمة . وبدت قرقعة السرية الاولى المارة خلال القرية عنيفة في سكون الظهيرة .

ومضى النقيب بلكوفنيكوف على حصانه المتوثب الى مقدمة المراتب والقى يدا على عقدة السيف ، بينما جمع الاعنة باحكام في اليد الاخرى . امسك غريغورى أنفاسه ولبث يترقب الايعاز . وانبعثت قرقعة سنابك من الجناح الايسر فيما كانت السرية الاولى تتخذ موقعها .

استل الضابط سيفه من غمده ، فتوهجت شفرته كضوء ازرق .

— سرية !

وأمال سيفه ذات اليمين ، ثم ذات الشمال ، واخيرا خفضه

امامه ، ولبث يمسك به فوق اذني الحصان . «الى الامام في سيل منتظم» — هكذا فهم غريغورى هذه الاشارة الصامتة .

— بالرماح ، تهيأوا ! استلوا السيوف ! الى الهجوم . . . سر !

قال الضابط ذلك خطفا واطلق العنان لحصانه .

وتأوهت الارض كليلة تحت الضغط الشديد لمئات الحوافر . وما كاد غريغورى ، وهو في الصف الامامي ، يهيئ رمحه استعدادا حتى انطلق حصانه ، وقد جرفه فيضان متلاطم من الخيل الاخرى ، ومضى يعدو بسرعة متناهية . وكان هيكل الضابط الآمر امامه يتوثب صاعدا هابطا ، وصورته بارزة ازاء خلفية الحقل الرمادية . وكان ثمة شق من الارض المحروثة السوداء يندفع باتجاهه بشكل لا يقاوم . اطلقت السرية الاولى صيحة راعشة مائجة ، فالتقطتها السرية الرابعة . بدا وكأن الخيل تطير فوق الارض ترفع ارجلها عاليا ثم تنزلها وتستعجل الارض تحتها . واستطاع غريغورى ان يتبين صوت اطلاق النار البعيد خلال الصفير الهادر في اذنيه . وازّت الرصاصة الاولى على علو شاهق فوقهم ، لتشق قبة السماء الزجاجية . فضغط غريغورى محور رمحه الحار الى جنبه حتى آلمه وعرقت راحته . وجعله صفير الرصاص المتطاير يخفض رأسه على رقبة حصانه المبللة ، فنفذت الى منخريه رائحة عرق الحيوان الحريفة ، ورأى ، وكأنه ينظر خلال زجاجة منظارة مضببة ، حوافي الخنادق البنية اللون ، ورجالات ببزات رمادية يهرعون هاربين الى البلدة . وانطلقت رشاشة ترشق القوزاق بلا كلل بصلية نصف دائرية من الرصاص الصافر ، فصار الرصاص يثير كرات الغبار المتنفشة من امامهم وتحت حوافر الخيل .

أن العضو الذى كان يزيد من سرعة جريان الدم في صدر

غريغورى قبل الهجوم ، قد تحول الآن الى حجر ، ولم يكن ليستشعر سوى الرنين في أذنيه والالم في اصابع قدمه اليسرى . وتجمدت الافكار التي اطاشها الذعر ، فأضحت كتلة ثقيلة داخل رأسه .

وكان الضابط الخيال لياخوفسكي اول من سقط من حصانه . فداسه بروخور .

نظر غريغورى وراءه ، فانطبع فى ذاكرته كسرة مما رأى : كشر حصان بروخور عن اسنانه بعد ان قفز فوق الضابط الصريع ، وهوى على الارض طاويا رقبته . وانقذف بروخور من سرجه بدفعة قوية ومثلما تحفر ماسة على زجاج حفرت فى ذاكرة غريغورى ولمدة طويلة لثة حصان بروخور الوردية المكشورة الاسنان وبروخور الراقد على بطنه وقد داسته حوافر حصان القوزاقي الذى يليه . لم يسمع غريغورى اية صرخة ، ولكنه ادرك من وجه بروخور بفمه المشوه وعينيه الشبيهتين بعيني العجل الجاحظتين من محجريهما انه يصرخ حتما بصورة وحشية . وهوى آخرون ، خيلا وقوزاقا . وحدق غريغورى أمامه ، خلال غشاوة الدموع ، التى استدرّتها الريح من عينيه ، في الكتلة الرمادية الهائجة من النمساويين الهاربين من الخنادق .

اضحت السرية الآن متفرقة ومبعثرة اشتاتا بعد ان كانت قد انطلقت من القرية في سيل منتظم . وبلغ الذين كانوا في الطليعة الخنادق ، وكان غريغورى بينهم ، اما الاخرون فقد كانوا يتلكأون في المؤخرة .

واطلق نمساوى طويل ابيض الحاجبين ذو قبعة مسدولة فوق عينيه ، النار على غريغورى بصورة تكاد تكون افقية . ولفحت حرارة الرصاصة خد غريغورى . فضرب برمحه ، وهو يجر الاعنة بكل قوته فى نفس الوقت . كانت الضربة شديدة حتى ان نصف الرمح اخترق جسم النمساوى . ولم ينتزع غريغورى الرمح بالسرعة الكافية .

فأحس بيده اختلاجة مرتعشة ، ورأى النمساوى يقبض على الرمح وينشب اظفاره فيه ، وقد تقوس الى الوراء تماما حتى لم يعد يرى منه سوى ذؤابة ذقنه غير المحلوق . فأسقط غريغورى الرمح تحت ضغط جسم النمساوى وتلمس أصابع خدرة مقبض سيفه .

فرّ النمساويون الى شوارع البلدة . ومضت خيل القوزاق تشب فوق بزاتهم الرمادية .

وفي اللحظة الاولى بعد أن اسقط غريغورى رمحه ، ادار حصانه ، دون ان يعرف لذلك سببا ، فرأى رئيس العرفاء مارا به وقد انفرجت شفتاه عن اسنانه المكشرة . ضرب غريغورى حصانه ببطن سيفه ، فمضى به في الشارع وقد قوس رقبته .

كان ثمة نمساوى آخر يجرى حذاء السور الحديدى لاحدى الحدائق ، وهو يترنح بلا بندقية ويده متشبثة بقبعته . رأى غريغورى قفاء رأسه وياقة قمصلته المبللة . فلحق به ، ودوم سيفه فوق رأسه وقد اهاجه جنون الموقف . كان النمساوى يجرى لصق السور الحديدى على الجانب الأيسر ، فكان من العسير على غريغورى ان يصرعه بسيفه . لكنه مال فوق سرجه وأمسك سيفه بوضع مائل ، وهوى به على صدغ الرجل . وبدون ان تندّ عن النمساوى صرخة ، ضغط بيده على الجرح واستدار وظهره الى السور . فأجتازه غريغورى وهو يكبح حصانه ، ثم استدار ، ورجع يخب على حصانه . كان وجه النمساوى المربع المشوه بالذعر اسود كالحديد الصب . وكانت ذراعاه مدلاتين على جانبيه ، وشفتاه الرماديتان ترتعشان . كان السيف قد هوى على صدغه بضربة مائلة وسلخ بشرته فتدلت فوق وجنتيه كخرقة قرمزية . وكان الدم يسيل على بزته .

التقت عينا غريغورى بعيني النمساوى المصعوقتين رعبا . كان الرجل يتهاوى ببطء على ركبتيه ، ينبعث من بلعومه انين مقرقر .

فضيق غريغوري عينيه ، وهوى بسيفه . فشطرت الضربة قحف رأسه الى نصفين . فبسط الرجل ذراعيه وهوى ، وارتطمت جمجمته المهشمة بعنف على حجر الطريق . فشب حصان غريغوري وحمله الى وسط الشارع وهو ينخر .

انبعث من الشوارع صوت طلقات متفرقة . ومر بغريغوري حصان مزبد يحمل قوزاقيا ميتا ، علقت احدى قدميه بالركاب ، والحصان يجرجر الجسد المهشم المرضوض فوق الحجارة . ولم ير غريغوري سوى الخط الاحمر على البنطلون والقمصلة الخضراء الممزقة وقد تكومت من الجر فوق رأسه .

أحس غريغوري برأسه ثقيلا كالرصاص . فأنزلق من على حصانه وهز رأسه بشدة . ومر به قوزاق من السرية الثالثة يجرون خيولهم . وحمل رجل جريح على معطف . واقتيد جمع من الاسرى النمساويين خببا . كان الرجال يهربون كقطيع رمادى متزاحم ، وجزمهم ذوات النعال الحديدية تقرقع بأكتئاب على حجارة الشارع . فرأى غريغوري وجوههم مثل كتلة هلامية ، بلون الطين . وتخلى عن اعنة حصانه ومضى لسبب ما الى الجندى النمساوى الذى صرعه . كان الرجل مستلقيا حيث هوى الى جانب نقش السور الزخرفي المصنوع من الحديد ، وقد انبسطت راحته السمراء القذرة كما لو كان يستجدى . القى غريغوري نظرة على وجهه ، فبدا صغيرا ، يكاد يكون طفوليا ، على الرغم من الشارب المتدلي وسيماء العذاب (أتراه من المعاناة البدنية او من ماض مؤلم ؟) المرسوم على فمه الفظ المشوه .

— هي ، انت ! — صاح بذلك ضابط قوزاقي غريب وهو يمضي على حصانه وسط الشارع .

رفع غريغوري بصره الى شارة قبعته المغبرة ، ومضى متعثرا

الى حصانه . كانت خطاه ثقيلة مترنحة ، وكأنه ينوء بحمل على ظهره لا يحتمل . كان الاشمئزاز والذهول يسحقان روحه . امسك بالركاب في يده ، لكنه لبث وقتا طويلا لا يستطيع ان يرفع اليه قدمه الثقيلة .

٦

قضت الوجبة الاولى من القوزاق الاحتياط من تتارسكي والقرى المجاورة الليلة الثانية غب رحيلهم في قرية صغيرة . وتجمع رجال الطرف الادنى لتتارسكي منفصلين عن رجال الطرف الاعلى ، ولهذا آوى بيوتر ميليخوف وانيكوشكا وكريستونيا وستيبان استاخوف وايفان توميلين وآخرون في بيت واحد . وكان القوزاق قد استلقوا للنوم ناشرين بطانياتهم في المطبخ والغرفة الامامية ، وكانوا يدخنون سيكارة الليل الاخيرة . وجلس رب الدار يجاذبهم اطراف الحديث ، وهو عجوز هرم طويل كان قد خدم في الحرب التركية .

— اذن ، فانتم ماضون الى الحرب ، ايها الجنود ؟

— اجل ، ايها الجد ، ماضون الى الحرب .

— لن تكون مثلما كانت الحرب التركية ، لا ، لا اظن ذلك . فلديكم اسلحة مغايرة الآن !

فقبع توميلين مغضبا ، دون ان يعرف احد ممن :

— ستكون مثلها تماما . جهنمية كتلك تماما . مثلما قتلوا الناس آنئذ ، سيكررون ذلك هذه المرة ، تماما .

— هذا كلام احمق ، ايها الشاب . ستكون حربا من طراز مختلف .

فأيد ذلك كريستونيا ، متثائبا في كسل وهو يسحق سيكارة بظفره :

— ستكون مغايرة لا شك .

— سنقاتل بعض الشيء — وتثاءب بيوتر ميليخوف ، ورسم علامة الصليب على فمه ، وغطى رأسه بمعطفه الكبير .

فقال العجوز :

— اولادى ، اسألكم شيئا واحدا . اسألكم جادا ، ولكم ان تتذكروا ما أقول .

ازاح بيوتر طرف معطفه وارهف سمعه . استطرد العجوز يقول :

— تذكروا امرا واحدا : اذا اردتم ان ترجعوا من الصراع المميت أحياء وتنجوا بجلودكم ، عليكم ان تراعوا قانون الانسانية .

فتساءل ستيبان مبتسما في ريبة : «اى قانون ؟» . وكان قد أستأنف الابتسام من جديد منذ ان سمع بالحرب . فقد ايقظته الحرب ، وخفف من قلقه وألمه ما كان سائدا من قلق وألم .

— هو ذا القانون : لا تأخذوا امتعة غيركم . هذا اولا . وبما انكم تخافون الله ، فلا تسيئوا الى أية امرأة . فهذا ثانيا . وبعد ذلك ، عليكم ان تعرفوا ادعية معينة .

فتململ القوزاق ، وتكلموا جميعا في وقت واحد :

— الارجح أننا سنفقد حاجياتنا قبل الحصول على حاجيات الاخرين !

— ولم علينا الا نمس اية امرأة ؟ انت لا تقدر ان ترغمها ، ولكن هب انها كانت راغبة ؟

— من الصعب ان احيا بلا أمرأة .

— كن على ثقة من ذلك !

— ماذا عن الادعية ؟

فركز العجوز عليهم عينيه عابسا ، واجاب :

— عليكم الا تمسوا امرأة . ابدا ! ان لم تستطيعوا كبح جماح انفسكم فسوف تفقدون رؤوسكم ، أو ستجرحون . ستندمون فيما بعد حيث لا ينفع ندم . سأتلو عليكم الادعية . لقد خضت غمار الحرب التركية ، والموت يتعقبني كخرج السرج ، لكنني اجتزتها حيا بفضل هذه الادعية .

ومضى الى الغرفة الاخرى ، وراح ينقب تحت الايقونة ثم عاد بقصاصة ورق بالية مخرقة وقال :

— انهضوا الآن واكتبوها ! سترحلون من جديد قبل صياح الديك غدا ، أليس كذلك ؟

ونشر الورقة على المنضدة وسواها براحة يده وتركها . كان انيكوشكا اول من نهض . وتلاعبت على وجهه الانثوى الناعم الظلال التي كان الضوء الخفاق يلقيها عليه . وقعد الجميع الا ستيبان ودونوا الادعية . ولف انيكوشكا الورقة التي استعملها وربطها الى خيط الصليب في صدره . فسخر منه ستيبان :

— تبنى عشا مريحا للقمل ، لم يكن خيط الصليب ملائما لتكاثرة فتصنع له بيتا ورقيا عال !

فقاطعه العجوز متجهما :

— ايها الشاب ، اذا كنت لا تؤمن ، فأمسك لسانك ! لا تكن حجر عثرة امام الاخرين ولا تسخر من الايمان . انها لخطيئة .

فابتسم ستيبان ، غير انه لاذ بالصمت وسأل انيكوشكا العجوز اذ سعى الى تخفيف تجهمه :

— يتحدث الدعاء عن رماح الدبية واعواد السهام . فما معنى هذا ؟

— هذه الادعية كتبت منذ زمن بعيد . فحصل عليها جدى

الراحل من جده . في الازمنة الغابرة قاتل الرجال باعواد السهام ورماح الدبية .

كانت الادعية التي دونها القوزاق ثلاثة ، وكان بمستطاع المرء ان يختار منها ما يشاء .

دعاء ضد الاسلحة

فليباركنا الله . على الجبل صخرة بيضاء تشبه حصانا . وكما لا ينفذ الماء فى الصخرة ، فعسى الا تنفذ الرصاصة او السهم فيَّ انا عبد الرب ، أو فى رفاقى ، أو فى حصانى . وكما ترتد المطرقة عن السندان ، فلترتد الرصاصة عنى . وكما يدور حجر الرحى ، فليدر السهم فلا يمسنى . وكما تكون الشمس والقمر متألقين ، فلأكن ، انا عبد الرب قويا . خلف هذا الجبل توجد قلعة ، سأغلق هذه القلعة وارمى المفتاح فى البحر . سأضعه تحت الصخرة البيضاء السماة «ألطور» لا يمكن ان يراها سحرة او ساحرات ، ولا رهبان او راهبات . وكما أن مياه المحيط لا تنضب ، وذرات الرمل الصفر لا يمكن ان تحصى ، فعسى الا اصاب ، انا عبد الرب ، بأذى . باسم الاب ، والابن ، والروح القدس . آمين .

دعاء المعركة

يوجد محيط عظيم ، وفى هذا المحيط العظيم توجد صخرة بيضاء ، «ألطور» وعلى تلك الصخرة يوجد رجل صخرى ذو قامة قوية . غطنى ، انا عبد الرب ، ورفاقى بالصخرة من الشرق الى الغرب ، ومن الارض الى السماء . احمنى من السيف والحسام الحادين ، من فيصل الفولاذ ومن رمح الدبية ، من الخنجر ، مسقيا وغير مسقى ، من السكين والفأس ، ومن قذائف المدفع ، من الطلقات المصنوعة من معدن الرصاص ، من الاسلحة الفتاكة ، من جميع السهام المذيلة بريش العقبان والبجع والاوز والرهو

والغربان ، فى جميع المعارك مع الاتراك ، واهل القرم ، والنمساويين ، والتتار ، والليتوانيين ، والالمان ، والكالميكيين . ايها الاباء القديسون والجبروت السماوية ، احمونى ، انا عبد الرب . آمين .

الدعاء وقت الهجوم

ايها الحاكم الاعلى ، ويا ام الرب المقدسة ، ويا سيدنا عيسى المسيح . بارك يا سيدى ، خادمك الداخل فى المعركة ، ورفاقى الذين معى . لفهم بالسحاب ، وأحمهم بصقيعك الحجرى السماوى . يا ديمترى سالونيكا القديس ، دافع عنى ، انا عبد الرب ، ورفاقى من كل الجهات الاربع . لا تدع الاشرار يطلقون الرصاص ، ولا ان يطعنوا بالرمح ، ولا ان يضربوا بالبلطة ، ولا ان يلطموا بأخمص البلط ، ولا ان يشجوا بالفأس ، ولا ان يقطعوا او يطعنوا بالسيف ولا ان يخزوا أو يجرحوا بالسكين ، لا الكبير منهم ولا الصغير ، لا الاسمر ولا الاسود ، لا الزنديق منهم ولا الساحر ، ولا أى مشعوذ بالسحر . امامى الآن كل شىء ، انا عبد الرب ، اليتيم الفانى . فى البحر ، فى المحيط ، وعلى جزيرة «بويان» يقوم عمود حديدى ، يتكئ على عصاة حديدية ، وهو يأمر الحديد والفولاذ والرصاص والصفيح وكل انواع النرباس : «رح ، ايها الحديد الى املك الارض بعيدا عن عبد الرب وعن رفاقى وحصانى . فاذهبى يا أعواد السهام الى الغابة ويا ايها الريش الى املك الطير ، وغراء الى السمك» . احمنى ، انا عبد الرب ، بدرع ذهبى ، من الحديد ومن الرصاص ، من قذيفة المدفع والعتاد ، من الرمح والسكين . فعسى ان يكون جسدى اقوى من السلاح . آمين .

خبأ القوزاق الادعية تحت قمصانهم ، وعقدوها بالايقونات الصغيرة التي باركتهم اماتهم بها ، وبالصرر الصغيرة التي تضم تراب

ارضهم . لكن الموت اجتاح الجميع سواسية ، اولئك الذين لم يحملوا الادعية والذين حملوها . وتعفنت جثثهم في حقول غاليسيا وبروسيا الشرقية ، في جبال الكربات ورومانيا ، وفي كل مكان خفق فيه اللهب الاحمر للحرب وانطبعت على ترابه آثار حوافر خيل القوزاق .

٧

جرت العادة ان يجند قوزاق القصبات العليا من الدون ، بما فيها فيشنسكايا ، في كتيبتي القوزاق الحادية عشرة والثانية عشرة وفي حرس الاتمان الخاص ، ولكن لسبب ما نُسب قسم من وجبة ١٩١٤ الى كتيبة قوزاق الدون الثالثة التي كانت تتألف بصورة رئيسية من قوزاق قصبة اوست–ميدفيدتساكا . وبين هؤلاء كان ميتكا كورشونوف .

عسكرت كتيبة قوزاق الدون الثالثة في فيلنو مع بعض الوحدات من فرقة الخيالة الثالثة . وذات يوم من ايام حزيران خرجت مختلف السرايا من المدينة لتتسلم مقراتها في الريف .

كان النهار معتما الا انه دافئ . وتجمعت السحب السارية في السماء فاخفت الشمس وراءها . وكانت الكتيبة تسير وفق مسيرة الرتل ، وفرقة الكتيبة الموسيقية تجلجل في المقدمة ، بينما تجمع الضباط بقبعاتهم الصيفية الخفيفة وقمصلاتهم الخفيفة في المؤخرة ، وقد علتهم سحابة من دخان السيكاير .

وعلى جانبي الطريق كان الفلاحون ونساؤهم اللابسات حللا بهيجة يقطعون العشب ، ويتوقفون لدى مرور القوزاق ليتأملوا ارتالهم . وعرقت الخيل من الحر ، وظهر بين سيقانها زبد مصفر ، ولم يخفف من الحرارة ذلك النسيم الخفيف الهاب من الجنوب الشرقي ،

بل زاد من شدة الحر اللاهب .

وكانوا قد قطعوا نصف المسافة تقريبا واشرفوا على قرية صغيرة حينما خب مهر صغير من وراء سياج ، واذ رأى الحشد الهائل من الخيل اطلق صهيلا طويلا وجاء يتوثب امام السرية الخامسة . وكان ذيله الصغير ذو الشعر الكث مرفوعا الى جانب واحد . وانتشر الغبار من حوافره البديعة على الحشيش المداس . ومضى يتوثب حتى وصل الى الرعيل الاول ، ودس انفه بغباء في حقو جواد رئيس العرفاء . فجمح الجواد ، لكنه اشفق على المهر كما يبدو ولم يرفسه .

صرخ رئيس العرفاء ملوحا بسوطه : «تنح عن الطريق ، يا مخبول !» . وضحك القوزاق اذ سرّهم المشهد المألوف الذى ذكرهم بالاهل والبيت . ثم حدث شيء غير متوقع . اذ جعل المهر يشق طريقه بين صفوف القوزاق ، فتبعثر الفصيل وفقد تنظيمه المنسق . وحرنت الخيل وامتنعت على راكبيها . انحشر المهر بينها وحاول ان يعض الحصان القريب منه .

وجاء آمر السرية يعدو على حصانه :

— ما الذى يجرى هنا ؟

كانت الخيل تنخر وتلقي نظرات جانبية على المهر الصغير الذى طاش صوابه ، بينما حاول القوزاق المتبسمون ان يبعدوه بسياطهم . وكان الرعيل قد شملته فوضى كاملة فيما كان الاخرون يضغطون عليه من الخلف ، وكان بالامكان رؤية ضابط الرعيل الهائج منطلقا من مؤخرة الرتل .

هدر آمر السرية وهو يدير حصانه صوب الحشد الحاشد :

— ما معنى كل هذا ؟

— انه مهر . . .

— حل بيننا .

— من الصعب التخلص منه ، هذا الشيطان !

— الفحه بالسوط ، ولا تدلله !

وحاول القوزاق ، وهم يبتسمون بحيرة ، ان يشدوا اعنتهم ويكبحوا جماح الخيل الهائجة .

— يا رئيس العرفاء ! يا آمر السرية ، ما الذى يجرى ، بحق الشيطان ؟ نظم رعاتلك ! لا ينقصنا الا هذا !

وتنحى آمر السرية جانبا . وانزلق ساقا حصانه الخلفيتان في منخفض جانب الطريق . فجعل يهمز حتى تسلق الحصان حافة المنخفض الاخرى مغطاة بنبات رجل الاوز واقحوان اصفر . وعلى مبعدة من هناك كانت مجموعة الضباط قد توقفت . وكان رأس العقيد ملقى الى الوراء وهو يشرب من قارورة ، ويده تحط على حنو السرج بتحنان ابوى .

فرق رئيس العرفاء الرعيل وابعد المهر عن الطريق وهو يسب ويشتم هائجا . ثم انتظم الرعيل من جديد وجعلت مائة وخمسون زوجا من العيون تراقب رئيس العرفاء منتصبا على ركابيه فيما كان يطارد المهر . غير ان المهر ظل يحرن ويحاذى جواد رئيس العرفاء العملاق ، ويتوثب منفلتا فلم يستطع رئيس العرفاء ان يصل بسوطه الى ظهر ، فكان سوطه لا ينال غير ذيله الشبيه بالفرشاة ، والذى ما ان يهوى تحت لفح السوط حتى يرتفع في اللحظة التالية ويلوح في الريح بوقاحة .

كان جميع من في السرية يضحك ، بمن فيهم الضباط . حتى ان وجه الرئيس العبوس انثنى بما يشبه ابتسامة معقوفة .

كان ميتكا كورشونوف في الصف الثالث من الرعيل القيادى الى جانب ميخائيل ايفانكوف وكوزما كروتشكوف ، وكلاهما ينحدران

من القصبات العليا للدون . وكان ايفانكوف صامتا طول الوقت ، وهو رجل عريض المنكبين والوجه ، اما كروتشكوف ، الذى كان قوزاقيا مكور الكتفين ، مجدور الوجه قليلا ويكنى بـ«الجمل» ، فقد كان لا يفتأ يشاكس ميتكا . وكان كروتشكوف هذا قوزاقيا «قديما» اى قوزاقيا في عامه الاخير من الخدمة العسكرية ، واستنادا الى قواعد الكتيبة غير المكتوبة ، كان يسهم مع كل القوزاق «القدامى» الاخرين في تعقب الفتيان واصدار الاوامر اليهم والحكم عليهم «بالجلد» لاى ذنب تافه . وكانت العقوبة المقررة لقوزاقي من وجبة ١٩١٣ ثلاث عشرة «جلدة» وللقوزاقي المجند في ١٩١٤ اربع عشرة «جلدة» وكان العرفاء والضباط يشجعون هذا الاسلوب على اساس انه يغرز في القوزاقي الاحترام ، لا للرتبة حسب ، ولكن للسن ايضا .

كان كروتشكوف ، الذى اضحى نائب عريف في المدة الاخيرة ، جالسا على سرجه محدودب الظهر ، كالطائر . وقد ضيق عينيه باتجاه غمامة رمادية منتفخة ، وسأل ميتكا وهو يحاكي لهجة آمر السرية ، النقيب بوبوف :

— آه . . . اخبر . . ر . . رني ، يا كورشونوف ، ماذا لو . . و . . سمي آمر سريـ . . . يـ . . يتنا ؟

فاضفى ميتكا على لهجته سمة الاحترام وهو الذى طالما عرف مذاق السوط لعناده وكراهيته للطاعة .

— النقيب بوبوف ، يا نائب العريف !

— ماذا ؟

— النقيب بوبوف !

— ليس هذا ما اريد معرفته . قل لي ماذا نسميه نحن القوزاق فيما بيننا ؟

فغمز ايفانكوف محذرا ميتكا وابتسم ابتسامة عريضة . تلفت ميتكا ورأى النقيب راكبا خلفهم تماما .

— هيا اجبني !

— انه يدعى النقيب بوبوف ، يا نائب العريف !

— اربع عشرة جلدة لك ، اجبني ، ايها الكلب !

— لا اعلم ، يا نائب العريف .

فقال كروتشكوف ، متحديا بصوته الطبيعي :

— حينما نصل الى المعسكر ، ساسلخ عنك جلدك ، اجب سؤالي !

— لا اعلم .

— الا تعلم الكنية التي نطلقها عليه ، يا وجه الفأر ؟

وتسمع ميتكا الى الخطو المتأتي لحصان الرئيس وراءهم ولزم الصمت . فتجهم كروتشكوف متهيجا وصاح :

— حسنا ؟

وانفجرت قهقهة مكتومة من الصفوف الخلفية . فلم يدرك كروتشكوف سبب الضحك وظن ان القوزاق يتضاحكون منه ، فزمجر قائلا :

— حذار يا كورشونوف ! ساعطيك خمسين من خير الجلدات حينما نبلغ المعسكر !

فهز ميتكا كتفيه باستخذاء وقال :

— الاوز الاسود .

— تلك هي .

— كروتشكوف ! — جاء صوت من الخلف .

فجفل نائب العريف كروتشكوف ، القوزاقي «القديم» ، فوق سرجه واتخذ جلسة الاستعداد .

— ما لعبتك ، ايها الوغد ؟ انت ماذا تلقن هذا القوزاقي الشاب ؟

طرف كروتشكوف ، وغمرت خديه حمرة ارجوانية . وانبعث الضحك من الصفوف الخلفية .

— من ذا الذى علمته في العام الماضي ؟ على من كسرت هذا الظفر ؟ — ومد النقيب ظفر خنصره الطويل المدبب تحت انف كروتشكوف — لا تدعني اسمع هذا ثانية ، قط ! اتفهم ، يا رجل ؟

— اجل ، يا صاحب السعادة .

وانثني النقيب عن الصف كي تمر السرية . اسرع السريتان الرابعة والخامسة سيرهما فأمر النقيب سريته ان تسرع ايضا .

سوى كروتشكوف سير كتفه ، واستدار لينظر الى هيكل الرئيس المتقهقر . فهز رأسه غيظا وهو يصلح وضع رمحه .

— من اين نبع هذا الاوز العجوز ؟

فاخبره ايفانكوف وهو يتصبب عرقا من الضحك :

— كان وراءنا . سمع كل شيء . لا بد انه خمن عم كنتما تتحدثان .

— كان عليك ان تغمز لي ، يا بليد .

— لست بحاجة .

— لست بحاجة ، ها ؟ اربع عشرة على العري .

لدى وصول الكتيبة الى هدفها ، وزّعت سرايا على ضياع المنطقة . وكان القوزاق يقطعون البرسيم وعشب المروج لاصحاب الارض اثناء النهار ، وفي الليل يرعون خيلهم المقيدة في الحقول المخصصة لهم ، ويلعبون الورق ويروون القصص الى جانب دخان نيران المعسكر . وقد تقرر ان تقيم السرية السادسة في ضيعة كبيرة

تعود لمالك ارض بولندى . فكان الضباط يشغلون المنزل ويلعبون الورق ويسكرون ويوجهون اهتمامهم الى ابنة الوكيل ، بينما نصب القوزاق خيمهم على مبعدة ثلاث فرسنات من المنزل . وكان الوكيل يخرج كل صباح راكبا عربة خفيفة الى المعسكر . وكان السيد الممتلئ الوقور ينزل من العربة ويحيي القوزاق بتلويحة لا تتغير من قبعته البيضاء ذات الذؤابة اللامعة .

وكان القوزاق ينادون عليه : «تعال واقطع العشب معنا ، ايها السيد ! فسينقص ذلك عنك بعض شحمك خذ المحش واقطع والا سيثل جسمك» . فيبتسم الوكيل بفتور ، ويمسح رأسه الاصلع بمنديله ، ويمضي مع رئيس العرفاء ليحدد لهم القسم التالي من العشب الذى ينبغي قطعه .

وفي منتصف النهار يصل مطبخ الميدان . فيغتسل القوزاق ويذهبون لاستلام طعامهم .

كانوا يأكلون في صمت ولكنهم يكثرون الاحاديث في فترة الاستراحة القصيرة بعد الغداء .

— شيء عفن ، عشب هذه المنطقة . لا يقارن بالسهب .

— مع ذلك ، لا توجد حلفاء كثيرة .

— لقد اتموا الحش الآن في ديارنا .

— عم قريب ستتم ايضا . هلال جديد بالامس ، ستمطر .

— هذا البولندى عجوز لئيم . كان بمقدوره ان ينفحنا قنينة على اتعابنا .

— هو . . هو ! انه قمين لنهب مذبح الكنيسة ان اراد قنينة لنفسه .

— يا اولاد ما الحكمة فى ان المرء كلما زاد ماله ، زاد جشعه ، ها ؟

— سل القيصر عن ذلك .

— من رأى ابنة رب البيت ؟

— ماذا عنها ؟

— غانية يغطيها لحم كثير !

— آى . . .

— سألتهمها بكل حشاياها .

— لا ادرى كم هو صحيح ، لكنهم يقولون بانها تلقت عروضا بالزواج من العائلة المالكة .

— لن ترض قطعة لدنة مثلها برجل عادى ، أليس كذلك ؟

— سمعت شائعة ، يا اولاد ، بان استعراضا فخما ينتظرنا عما قريب .

— ماذا كنت اقول ، ان لم تجد قطة ما تفعله ، فانها سوف . . .

— كفاية ، يا تاراس !

— اتراك تعطينا نفسا من سيكارتك ، يا ولد ؟

— انت مثل شحاذ في فناء الكنيسة .

— انظروا ، يا اولاد ، ان مبسم فيدوت جيد لكن سيكارته لا تنفع .

— لقد دخنها واحالها رمادا .

— انظر ثانية ، يا رجل ، انها لم تزل متوهجة كأمرأة .

وانبطحوا على بطونهم ، يدخنون . كانت ظهورهم العارية حمراء من لفح الشمس . في جوارهم كان خمسة قوزاق «قدامى» يستجوبون مجندا مستجدا :

— من اين انت ؟

— بلانسكايا .

— من مناجم الملح ، ها ؟

— اجل .

— وكيف يجرون عربات الملح على دروبكم ؟

وعلى مبعدة قليلة ، كان كروتشوكوف مستلقيا على مرشحة حصان ، وهو يفتل بفتور شاربه الخفيف حول اصبعه .

— بالخيل .

— وبأى شيء آخر ؟

— بالثيران .

— وعلى اى شيء يحملون السمك من القرم ؟ على صنف معين من الثيران ، على ظهورها سنامان وتأكل العوسج . ماذا تدعى ؟

— جمال .

— هاو — هاو — هاو !

ونهض كروتشكوف متكاسلا وسار باتجاه المستجد المذنب ، وهو يحدب كتفيه الشبيهين بكتفي الجمل ، ويمد عنقه الاسمر الزعفراني بجوزته الكبيرة .

— احن ظهرك ! — قال ذلك آمرا وهو ينزع نطاقه .

فى غسق امسية حارة من اماسي حزيران ، تحلق القوزاق حول نيران المعسكر وجعلوا يغنون :

سار قوزاقى الى ارض نائية
ممتطيا حصانه عبر السهل ،
وترك قريته الى الابد ،

وينشج صوت صادح ، فضي الرنين ، وحزين ، بينما تعبر الاصوات الجهيرة عن حزن مخملي عميق :

لن يعود ثانية

وهنا يرتفع الصوت الصادح الى طبقة من الحزن اعلى :

عبثا شخصت عروسه القوزاقية الشابة
صوب الشمال ، كل صباح ومساء ،
تنتظر ، يحدوها الامل فى ان حبيبها القوزاقى
سيرجع من الارض التى لن يرحل عنها .

وتبنت الاغنية اصوات عديدة ، وصارت قوية منعشة ، كالجعة البيتية .

لكن خلف التلال حيث يجثم الثلج عميقا
وتنشرح حقول الجليد وتهب الزوابع ،
حيث تنحنى متجهمة ، اشجار الصنوبر والشربين
ترقد عظام القوزاقى تحت الثلج

ومضت الاصوات تحكي قصة حياة القوزاقي البسيطة ، يدعمها الصوت الصادح بنبراته المرتعشة ، مثل قبرة حائمة فوق ارض نيسانية ، ذائبة الجليد :

وبينما رقد القوزاقى يلفظ انفاسه الاخيرة
استصرخ وراح يتوسل
ان تكوم فوقه رابية على قبره ،

وتندمج الاصوات الجهيرة مع الصوت الصادح :

حيث تلوح الى الابد
شجرة بندق من ارض موطنه ، بازهار زاهية

وحول نار معسكر اخرى ، كان الجمع اصغر والاغنية تنساب في نغم مغاير :

من بحر آزوف العاصف ،
تمخر السفن في الدون صعدا ،
لان اتمانا شابا قد عاد
الى موطن اجداده

وحول نار ثالثة ، كان راوية السرية يغزل الحكايات وهو يسعل من الدخان . وكان القوزاق ينصتون باهتمام لا ينثني الا في بعض الاحيان حين كان البطل يتخلص بمهارة من مكيدة تدبرها له الروح الشريرة ، فكانت يد احدهم ، تتوهج بيضاء في ضوء النار ، وهي تنصفق على ساق جزمته ، او يشهق صوت غليظ مبحوح باستحسان جذل . ثم تمضي نبرات الراوية المنسابة المتواصلة .

. . . بعد اسبوع من وصول الكتيبة الى مقرها الريفي ، ارسل آمر السرية في طلب الحداد ورئيس العرفاء .

— كيف حال الخيل ؟

— ليست سيئة جدا ، يا صاحب السعادة ، في حالة طيبة .

فبرم النقيب شاربه الاسود الذى كان سبب كنيته وقال بصوته الصريرى :

— آمر الكتيبة اصدر التعليمات لتبييض جميع الركائب والشكائم . سيجرى استعراض امبراطورى للكتيبة . فليصقل كل شيء حتى يتوهج ، السروج وبقية العدة . على القوزاق ان يصبحوا مشهدا يسر العين . متى يمكنك ان تتم ذلك ؟

نظر رئيس العرفاء الى الحداد ، ونظر الحداد الى رئيس العرفاء . ثم نظرا معا الى النقيب . واقترح رئيس العرفاء :

— ما رأيكم بيوم الاحد ، يا صاحب السعادة ؟ — ولمس باصبعه باحترام ذؤابة شاربه المبيضة مما تناثر عليها من رماد .

فاضاف النقيب متوعدا : «احرص على ان يكون الاحد !» وصرفهما معا .

بدأت الاستعدادات في نفس اليوم . وساهم ايفانكوف ابن حداد السرية ، وهو نفسه حداد ماهر ، في تبييض الركائب والشكائم . وقام القوزاق بحس خيلهم ، وتنظيف اعنتها ، وصقل النضاء والاجزاء المعدنية الاخرى من عدة الخيل بحجر الجلي . وما ان حلت نهاية الاسبوع حتى كانت الكتيبة تشع كقطعة نقود جديدة من فئة العشرين كوبيكا . كان كل شيء يتألق من الصقل ، من حوافر الخيل الى وجوه القوزاق . وفي يوم السبت فتش الكتيبة آمرها وشكر الضباط والقوزاق على استعداداتهم الحماسية ومظهرهم الرائع .

مر الشريط اللازوردى لايام تموز وتلاشى . كانت خيل القوزاق في احسن حال ، سوى ان القوزاق انفسهم كانوا برمين يقلقهم وسواس الحيرة . فلم تند همسة واحدة عن الاستعراض الامبراطورى . ومر الاسبوع في حديث لا ينصرم واستعداد لا ينتهي . ثم جاء امر من الكتيبة ، كصاعقة من السماء ، يقضي بالعودة الى فيلنو .

بلغوا المدينة مساء . وسرعان ما صدر امر ثان الى السرية . كان على الصناديق ان تجمع وتخزن في المستودع ، وان تجرى الاستعدادات لانتقال آخر محتمل .

— يا صاحب السعادة ، فيم كل هذا ؟

هكذا كان القوزاق يتلمسون الحقيقة من ضباطهم . وكان الضباط يهزون اكتافهم . لانهم كانوا انفسهم على استعداد لبذل الكثير في سبيل ان يعرفوا .

— لست ادرى .

— هل ستجرى مناورات في حضور جلالته ؟

— ليست لدى اى انسان فكرة عن الامر ، بعد .

هكذا كانت اجوبة الضباط لما فيه سرور القوزاق . ولكن ، في التاسع عشر من تموز ، افلح مراسل آمر الكتيبة ان يهمس في اذن صديق له وهو قوزاقي في السرية السادسة يعمل في الاصطبل :

— انها الحرب ، يا ولدى !

— انت تكذب !

— وحق الرب ، لكن اصمت ولا تفه بشيء !

وفي الصباح التالي صفت الكتيبة على هيئة سرايا خارج الثكنات ، في انتظار الامر .

كان النقيب بوبوف يركب حصانا بديعا على رأس السرية السادسة ، ويده اليسرى تمسك بالعنان يغطيها قفاز ناصع البياض . وكان حصانه يمسح انفه بعضلات صدره المفتولة ، وهو يقوس عنقه .

وجاء الآمر من وراء ركن بنايات الثكنة ممتطيا حصانه الى مقدمة الكتيبة ، وادار الحيوان جانبا . وسحب مساعد الآمر منديله ، وهو يمد خنصره باناقة ، ليمسح انفه ، ولكن الوقت لم يسمح له بانجاز العملية . فقد قذف العقيد صوته في الصمت المتوتر :

— ايها القوزاق !

وحدث كل إمرئ نفسه : «ها هى قادمة !» وايقاهم التوتر مثل نابض فولاذى . وكان حصان ميتكا يراوح من حافر الى حافر ، فكان ميتكا يضرب خاصرته بكعبه مغتاظا . والى جانبه كان ايفانكوف ممتطيا حصانه بلا حراك ، وهو يستمع وفمه ذو الشفتين الشبيهتين بشفتي الارنب فاغر الفم يكشف عن صف داكن من

الاسنان غير المستوية . وكان كروتشكوف خلفه ، محدودب الظهر متجهما . ثم لابين الذى كان يحرك اذنيه الغضروفتين كالحصان ، بينما كان بالمستطاع رؤية التخطيط المتعرج لجوزة عنق شيكولوف الحليقة النظيفة ، خلف لابين .

— المانيا اعلنت الحرب علينا . . .

وجرت همسة على امتداد الصفوف وكأن دفقة من الريح قد تموجت عبر حقل من الشوفان الناضج الكث السنابل . وشق الهمس صهيل حصان فاستدارت عيون جزعة وافواه فاغرة باتجاه السرية الاولى حيث تجرأ الحيوان على الصهيل .

وقال العقيد مزيدا من الكلام . كان ينتقي الكلمات بتأن ، ساعيا لاستثارة الشعور بالعزة الوطنية . لكن الصورة التي تراءت للقوزاق الالف لم تكن لبيارق اجنبية حريرية تهوى تحت اقدامهم ، بل لحياتهم اليومية هم وقد حلت فيها البلبلة ، لزوجاتهم واطفالهم وحبيباتهم ، وللحبوب التي لم تحصد ، وللقرى اليتيمة التي خيم عليها الغم .

«في غضون ساعتين سنركب القطار . . .» تلك الفكرة الوحيدة التي نفذت الى اذهانهم جميعا .

وبكت زوجات الضباط في مناديلهن ، وكن متجمهرات على مسافة قريبة . وحمل الملازم خوبروف على ذراعيه تقريبا زوجته البولندية الشقراء الحامل وتفرق القوزاق متجهين الى مباني الثكنة .

سارت الكتيبة الى القطار ، تنشد . كانت اصوات القوزاق تطغى على الجوق الموسيقي ، فانكفأ هذا في صمت مرتبك . وكانت زوجات الضباط يركبن عربات مستأجرة ، وحشد ملون يتزاحم على الارصفة ، وحوافر الخيل تثير سحابة من الغبار . وانطلق المنشد الرئيسي باغنية قوزاقية مبتذلة وهو يتضاحك من حزنه وحزن الاخرين ،

نافضا كتفه الايسر بحيث تراقص سير كتفه الازرق بصورة محمومة ، ومضى القوزاق باغنيتهم الى شاحنات المحطة الحمر ، وهم يدغمون الكلمات ، الواحدة بالاخرى ، عن عمد ، فصارت شتائم مسموعة على وقع الحوافر المنعّلة حديثا . وجرى الى المنشدين مساعد الآمر ، وقد اكتسى وجهه لونا ارجوانيا من الضحك والشعور بالحرج . وغمز المنشد الرئيسي متهكما الى جمع النساء اللواتي كن يودعنهم ، ولم يكن الذى سال على خديه البرونزيين الى طرفي شاربيه الاسودين عرقا ، بل العصارة المرة لنبات الشيح .

وعلى الخط الحديدى ، اطلقت الماكنة خوارا محذرا مستعدا للسفر .

• • •

قطارات . . . قطارات . . قطارات لا حصر لها .

على امتداد شرايين ، فوق خطوط السكك المتجهة صوب الحدود الغربية ، كانت روسيا الحائرة المائجة تضخ دمها المتسربل بمعاطف رمادية .

٨

في بلدة تورجوك الصغيرة وزعت الكتيبة الى سراياها الاعتيادية . وبناء على تعليمات هيئة اركان الفرقة وضعت السرية السادسة تحت امرة فيلق المشاة الثالث ، وواصلت السفر الى بليكالييه حيث اقيمت نقاط الحراسة .

كانت الحدود ماتزال تحت حراسة قطعات التخوم . وكانت

وحدات جديدة من المشاة والمدفعية تنقل الى هناك . وفي السابع والعشرين من تموز ارسل آمر السرية في طلب رئيس العرفاء وقوزاقي يدعى استاخوف ، من الرعيل الاول . وعاد استاخوف الى الرعيل عند المغرب ، في اللحظة التي كان فيها ميتكا كورشونوف عائدا بحصانه بعد ورده . فنادى عليه .

— أهذا انت ، يا استاخوف ؟

— نعم ، هو انا . اين كروتشكوف والاولاد ؟

— هناك في الكوخ .

ودلف استاخوف الى الكوخ ، وهو قوزاقي ضخم اسمر ، محاوصا عينيه كأنه لم يقو على الرؤية . والى المنضدة كان شيكولكوف يخيط عنانا مقطوعا على ضوء فانوس . وكان كروتشكوف واقفا حذاء الموقد ويداه الى ظهره ، وهو يغمز لايفانكوف ويومئ الى صاحب الكوخ البولندى الذى استلقى على سريره متورم الجسم بالحبن • . كانت ثمة نكتة قد تبودلت بينهما ، وما فتئت وجنة ايفانكوف تهتز ضحكا .

— غدا ، يا اولاد ، سنخرج مع انبلاج الصبح الى نقطة امامية للحراسة .

سأل شيكولكوف ناظرا اليه وافلت من يديه قطعة جلد :

— الى اين ؟

— الى بلدة ليوبوف .

فتساءل ميتكا الذى دخل في تلك اللحظة ووضع الجرة عند الباب :

• الحبن : مرض يصيب الجسم فيجتمع فيه سائل مائى . المترجمون .

— من سيذهب ؟

— شيكولكوف ، كروتشكوف ، رفاتشيف ، بوبوف ، وايفانكوف .

— وماذا عني ؟

— انت تبقى هنا ، يا ميتكا .

— طيب ، اذن فليأخذكم الشيطان جميعا !

انتزع كروتشكوف نفسه من الموقد وسأل صاحب الكوخ المضيف ، وهو يشد نفسه حتى قرقعت عظامه :

— كم يبعد هذا المكان ؟

— اربعة فرستات .

فقال استاخوف وهو يجلس على مصطبة : «قريب جدا» وخلع جزمته . «اين استطيع ان اعلق جوربى ليجف ؟» .

انطلقوا في الفجر . وعند طرف القرية كانت فتاة عارية القدمين تستقي الماء من البئر . فشد كروتشكوف عنان حصانه وقال لها :

— اسقيني يا عزيزتي !

غطست الفتاة في الوحل بقدميها العاريتين وهي ترفع تنورتها المغزولة في البيت . ومدت الدلو وعيناها الرماديتان تتبسمان وراء اهدابها الكثيفة . فشرب كروشكوف وهو يمسك بالدلو الثقيل من طرفه ، ويده ترتجف من ثقله ، وتقطر الماء وطش على الخطوط الحمر في بنطاله .

— ليحفظك المسيح ، ياذات العينين الرماديتين !

— ليحمد الرب !

واخذت الدلو وخطت مبتعدة وهي تتلفت وتتبسم .

— فيم تتبسمين ؟ تعالي لنزهة على الحصان ! — وتحرك

على سرجه كأنه حاول ان يخلى المكان لها .

فصاح استاخوف وهو يبتعد على حصانه : «تحرك ، لا تقف !»

وتبسم رفاتشيف لكروتشكوف :

— لا تستطيع ان تنتزع نظرك منها ، ها ؟

فقال كروتشكوف متضاحكا : «ساقاها ورديتان كساقي حمامة» والتفت الجميع ، كما لو صدر اليهم امر بذلك .

ومالت الفتاة على البئر ، مظهرة مفرق ردفيها تحت تنورتها الضيقة والربلتين الورديتين لساقيها المنفرجتين .

وتنهد بوبوف : «آه لو استطعنا ان نتزوج فقط» .

فاقترح استاخوف : «هب انني زوجتك بسوطي» .

— لن يجدى ذلك نفعا . . .

— انت متلهف الى الزواج بهذه الدرجة ، الست كذلك ؟

— سيتعين علينا ان نمسك به ونربطه كما نربط الثور .

ومضى القوزاق خببا يتضاحكون فيما بينهم . وبعد ان ساروا سيرا متواصلا بعض الوقت ، ارتفعوا ورأوا قرية ليوبوف الكبيرة تجثم على امتداد وادى احد الانهار . كانت الشمس ترتفع وراءهم . وعلى مقربة منهم صدحت قبرة بشدوة حنون فوق عمود برق .

وكان استاخوف قد عين مسؤولا عن الجماعة لانه كان قد اتم لتوه دورة آمرى الحضائر ، فاختار آخر بيت في القرية ليكون نقطة مراقبتهم باعتباره اقرب موضع الى الحدود . واطلع صاحب البيت القوزاق على سقيفة يستطيعون ايواء خيلهم فيها ، وكان بولنديا حليقا احنف الساقين ، يرتدى قبعة لبادية بيضاء . وكان هناك حقل برسيم اخضر وراء السقيفة . وانحدرت السفوح الى غابة قريبة ، وكان ثمة امتداد ابيض للحنطة يقطعه طريق امتدت وراءه

حقول برسيم . تناوبوا المراقبة بالمنظارة من الحفرة القائمة وراء السقيفة ، بينما اضطجع الاخرون في السقيفة الباردة التي فاحت برائحة الحنطة المخزونة زمنا طويلا ، والتبن المترب ، والفئران ، والشذى العفن الحلو بعض الشيء للارض الرطبة .

واستراح ايفانكوف في ركن مظلم الى جانب محراث ونام حتى المساء . وعند المغرب جاءه كروتشكوف وقال له بمرح وهو يقرص جلد رقبته باصابعه :

— تنام جيدا على زقوم الجيش ، ايها الخنزير ! قم واذهب لمراقبة الالمان !

— كفاك تعابثا ، ياكوزما !

— هيا ، قم !

— هلا كففت ! ها انا ذا قائم .

فتحامل على قدميه ، ووجهه محمر ومنتفخ ، وحرك رأسه من جانب الى آخر على عنقه القوى الذى شد رأسه بثبات الى كتفيه العريضين وتنشق (اذ اصابه برد من الاضطجاع على الارض الرطبة) ، وسوى حزم خرطوشه وخرج من السقيفة ، جارا بندقيته من حمالتها . واخذ مكان شيكولكوف الذى كان يقوم بالمراقبة طوال فترة الظهيرة ، وسوى المنظارة وحدق طويلا في اتجاه الشمال الغربي ، صوب الغابة .

كان في مقدوره ان يرى حقل الحنطة الثلجي يتموج في الريح ، وفيضا احمر من ضياء الشمس يغسل الرأس الاخضر لغابة الشربين . وكان الاطفال يغطسون ويتصايحون في الجدول الذى امتد في حنوة زرقاء بديعة وراء القرية . وانطلق صوت امرأة هادر ينادى : «ستاسيا ، ستاسيا ! تعالي هنا !» اشعل شكولكوف سيكارة ، وقال فيما رجع الى السقيفة : «انظر الى الوهج في ذيلك

الغروب ! سيهب علينا شيء من الرياح» .

فوافق ايفانكوف : «احسب كذلك» .

في تلك الليلة ، ظلت الخيول واقفة غير مسرجة . وفي القرية اطفئت كل الانوار وتلاشت الاصوات . وفي الصباح التالـــي ، نادى كروتشكوف على ايفانكوف من السقيفة :

— لنذهب الى القرية ؟

— لماذا ؟

— نستطيع ان نحصل على شيء ، نأكل وكأس نشرب هناك .

فنظر ايفانكوف اليه في شك :

— انستطيع ذلك ؟

— طبعا نستطيع . سألت مضيفنا . انه هنالك في ذلك البيت . اترى السقف القرميدى ؟ — واشار كروتشكوف باصبعه ذات الاظفر الاسود ، — لدى الحسقيل هناك جعة . لنذهب .

وانطلقا . فنادى استاخوف وراءهما :

— اين تراكما ذاهبين ؟

فاشاح كروتشكوف عنه وهو الذى يعلوه رتبة :

— سنعود عما قريب .

— عودا ، ايها الولدان !

— كفاك نباحا !

انحنى لهما يهودى عجوز ذو جفنين مجعدين وسالفين طويلين وادخلهما .

— ألديك اية جعة ؟

— لم يبق شيء ، ايها السيد القوزاقي .

— سنعطيك ثمنها .

— يا عيسى بن مريم ، هل يعقل انى . . . صدِّق فى ايها السيد القوزاقى كيهودى شريف ، ليست لدى اية جعة !

— انت تكذب ايها الحسقيل !

— ايها السيد القوزاقي ، انني اقول لك . .

فقاطعه كرتشكوف مغتاظا وهو يخرج كيس نقوده مهلهلا من جيب بنطاله :

— اسمع يا انت . هات بعض الجعة والا غضبت .

فضغط اليهودى على قطعة النقود بين ابهامه وخنصره ، وخفض جفنه الملتوى ومضى الى الممر .

وعاد بعد دقيقة يحمل قنينة من الفودكا ، رطبة تعلق عليها قشور الشعير .

— وكنت تقول لنا ليس لديك اى شيء ! ايها العجوز . . . !

— قلت ليس لدى اية جعة .

— هات لنا شيئا نأكله .

ولطم كروتشكوف اسفل القنينة ليخرج السداد الفليني وصب لنفسه قدحا من الفودكا .

خرجا نصف ثملين . ومضى كروتشكوف يتراقص وهو يهز قبضته على النوافذ الخالية كعيون سود غائصة .

كان استاخوف يتثاءب في السقيفة . وكانت الخيل تجتر تبنا وراء الجدار .

مر اليوم بلا عمل . وبعد الظهر ارسل بوبوف الى السرية يحمل تقريرا .

حل المساء . ثم جن الليل ، وسطع الهلال الاصفر في اعالى السماء .

من حين الى اخر كانت تفاحة ناضجة تحدث صوتا عند

وقوعها على ارض الحديقة خلف البيت . بينما كان ايفانكوف فى نوبة حراسته ، سمع صوت خيل في شارع القرية ، فزحف خارج الحفرة ليستطلع الامر ، لكن القمر كان قد تلفع بغيمة ، فلم يستطع ان يرى شيئا خلال العتمة المنيعة . فمضى وايقظ كروتشكوف الذى كان نائما عند الباب .

— كوزما ! خيالة قادمون ! انهض !

— من اى اتجاه ؟

— انهم يدخلون القرية .

وخرجا . كانت قعقعة الحوافر تنبعث بجلاء من الشارع على بعد بضع مئات من الامتار .

— لنذهب الى الحديقة . نستطيع هناك ان نسمع بوضوح اكثر .

ركضا عبر الكوخ الى الحديقة الخلفية الصغيرة ، وجثما حذاء السور . اصوات مكتومة . كان صرير السروج وجلجلة الركائب ينبعثان مقتربين . صار الآن بمقدورهما ان يتبينا الهيكل المعتم للخيالة راكبين في تشكيلة رباعية متوازية .

— من يسير هناك ؟

واجاب صوت بالروسية من الصف الامامي :

— وماذا تريد ؟

— من يسير هناك ؟ ساطلق النار ! — وقعقع كروتشكوف بترباس بندقيته . فشد احد الراكبين عنان حصانه واداره باتجاه السور ، وقال :

— نحن حرس الحدود ، هل انتم نقطة امامية ؟

— نعم .

— من اية كتيبة ؟

— كتيبة القوزاق الثالثة . . .

وانبعث صوت ينادى من الظلمة :

— من تكلم هناك ، يا تريشين ؟

فأجات الرجل :

— توجد نقطة امامية من القوزاق معسكرة هنا ، يا صاحب السعادة .

وتقدم فارس ثان من السور .

— مرحبا ، ايها القوزاق !

فرد ايفانكوف باحتراس :

— مرحبا .

— هل كنتم هنا منذ زمن طويل ؟

— منذ البارحة .

وقدح الراكب الثاني عود ثقاب واشعل سيكارة . وعلى الوهج الخاطف استطاع كروتشكوف ان يتبين ضابطا من حرس الحدود .

قال الضابط ، ساحبا نفسا :

— ان كتيبتنا تنسحب الآن . عليكم ان تدركوا بوضوح انكم ابعد نقطة امامية . وقد يتقدم العدو غدا نحوكم .

وتساءل كروتشكوف واصبعه على الزناد :

— الى اين ذاهبون ، يا صاحب السعادة ؟

— اننا في طريقنا للحاق بسريتنا التي تبعد فرستين من هنا . هيا ، يا اولاد ، لنتحرك . حظا سعيدا لكم ، يا قوزاق !

— حظا سعيدا لكم .

وفي تلك اللحظة ازاحت الريح بلا رحمة نقاب السحاب عن القمر ، وانسكب ضوء مصفر ميت على القرية ، والحدائق ، وسقف الكوخ المنحدر ، ومفرزة حرس الحدود الصاعدة على التل .

في الصباح التالي ذهب رفاتشيف الى السرية حاملا تقريرا . فاتح استاخوف المزارع البولندى ، فوافق الرجل على السماح لهم بقطع البرسيم لخيلهم لقاء بعض النقود . واثناء الليل ظلت الخيل واقفة مسرجة . وكان القوزاق قد افزعهم انهم تركوا الآن لمواجهة العدو . لم يكونوا قد عرفوا الشعور بالعزلة والوحدة طالما كانوا يدركون بأن ثمة حرسا للحدود امامهم ، اما وقد علموا الان بان الحدود مفتوحة ، فقد ترك ذلك النبأ فيهم اثرا بينا .

ولم يكن مرج البولندى بعيدا عن السقيفة . فارسل استاخوف كلا من ايفانكوف وشيكولكوف لقطع البرسيم . وقادهما البولندى ذو القبعة من اللباد الابيض الى حصته ومضى شيكولكوف يحش ، بينما كان ايفانكوف يجرف العشب الرطب الثقيل معا ويربط حزما . وبينما كانوا منهمكين على ذلك النحو ، لاحظ استاخوف خلال المنظارة التي كان يحدق فيها على امتداد الطريق المؤدى الى الحدود ، صبيا يعدو عبر الحقول من الجنوب الغربي . كان الصبي يجرى هابطا مثل ارنب برى بني اللون ، وكان ما يزال على مسافة ما ، حينما صاح ولوح بكم سترته الطويل ، وجرى الى استاخوف مبهور النفس ، زائغ العينين وقال لاهثا :

— ايها القوزاقي ! ايها القوزاقي ! الالمان ! الالمان قادمون !

واشار باصبعه . فامسك استاخوف بالمنظارة ازاء عينيه ورأى جمعا من الفرسان من بعد . وصاح دون ان يرفع منظارته :

— كروتشكوف !

فبرز كروتشكوف من السقيفة وهو يتلفت .

— اجر في طلب الاولاد ! هناك دورية المانية قادمة !

وتسمع الى كروتشكوف ينطلق مبتعدا ، وصار الآن بامكانه ان يرى بوضوح جماعة الفرسان تنساب على امتداد الخط المتعرج

المخضوضر للارض العشبية .

وصار بمستطاعه حتى ان يتبين اللون الاحمر لخيلهم ولون بزاتهم المشرب بالازرق الغامق . كانوا اكثر من عشرين فارسا ، في كتلة متراصة ، قادمين من الجنوب الغربى ، بينما كان قدومهم متوقعا من الشمال الغربي . عبروا الطريق ثم ساروا على امتداد الاخدود الذى يعلو الوادى عند القرية .

ومضى ايفانكوف يحشو كيس علفه بحزمة من العشب ، وهو يجر انفاسه بصعوبة وقد لاح طرف لسانه بين شفتيه المزمومتين ، بينما كان البولندى احنف القدمين واقفا يجر انفاسه من غليونه ، ويداه مدسوستان في حزامه . ومضى يحدق من تحت حافة قبعته في شيكولكوف الذى كان لا يزال يحش العشب .

حمحم شيكولكوف وهو يعمل بشدة بالمنجل الصغير كاللعبة :

— اتسمي هذا منجلا ؟ اتحش انت به ؟

فأجاب البولندى دون ان يخرج غليونه من فمه : «احش به» واخرج اصبعا من حزامه .

— بمنجلك هذا يمكن ان تحش المرأة الشعر الزائد فى موضع معين !

فوافقه البولندى : «ها — ها !»

وقهقه ايفانكوف . وكان على وشك ان يقول شيئا ما ، لكنه ما ان تلفت حتى رأى كروتشوف يجرى عبر الحقل الوعر ، ويده على سيفه . واذ تقدم منهم ، صاح : «اتركا هذا !» فتساءل شكولكوف وهو يغرز رأس المنجل في الارض : «الآن ، ماذا بعد ؟» «الالمان !» فقذف ايفانكوف حزمة العشب . وهرع البولندى نحو البيت مقوسا ظهره كأن الرصاص قد بدأ يثز فوق رأسه .

وما ان بلغوا السقيفة ووثبوا الى خيولهم حتى رأوا سرية من

الجنود الروس تدخل القرية من ناحية بليكالييه . فجرى القوزاق لملاقاتهم . وابلغ استاخوف آمر السرية ان مفرزة المانية كانت تتخذ لها طريقا حول القرية من جهة التل . فتفحص النقيب جزمته العفراء متجهما ، وتساءل :

— كم عددهم ؟

— اكثر من عشرين .

— اقطعوا عليهم خط الرجعة ، وسنطلق نحن عليهم النار من هنا .

واستدار الى سريته ، واصدر اليها امرا بالاصطفاف ، وانطلق يقودهم في مسيرة سريعة .

وحين بلغ القوزاق التل كان الالمان قد اصبحوا بينهم وبين بلدة بليكالييه . كانوا يسيرون خببا ، يقودهم ضابط يمتطي كميتا معقوص الذيل .

اصدر استاخوف امرا : «وراءهم ! سنطاردهم حتى نقطتنا الامامية الثانية» .

وتخلف وراءهم حارس الحدود الخيال الذى انضم اليهم في القرية ، فصاح استاخوف وهو يستدير على سرجه :

— ما الامر ؟ تتركنا ، ايها الاخ ؟

فلوح حارس الحدود بلا اكتراث ومضى نازلا الى القرية متمهلا . وانطلق القوزاق على خيولهم في خبب سريع . صارت البزات الزرق للخيالة الالمان واضحة للعيان . وكان هؤلاء قد لمحوا القوزاق يتبعونهم ، فمضوا يخبون باتجاه النقطة الامامية الروسية الثانية التى كانت معسكرة في ضيعة تبعد حوالي ثلاثة فرسخات من قرية ليوبوف . وتضاءلت المسافة ما بين الفريقين بصورة واضحة .

صاح استاخوف وهو يثب عن سرجه :

— سنطلق النار عليهم !

واطلق القوزاق النار وقوفا ، وقد عقدوا الاعنة على اذرعهم ، وشب حصان ايفانكوف على صوت الاطلاق فاوقعه ارضا . ورأى وهو يسقط ، واحدا من الالمان يميل جانبا في البدء . ثم ينشر ذراعيه ، وينقلب عن سرجه بغتة . اما الاخرون فلم يتوقفوا ولا حتى نزعوا بنادقهم ، بل مضوا في طريقهم هذبا في تشكيلة مفتوحة . وكانت الاعلام فوق رماحهم ترفرف في الريح . وكان استاخوف اول من امتطى صهوة حصانه من جديد . واعمل القوزاق سياطهم في الخيل . وانحرف الالمان الى اليسار ، ومر القوزاق الذين يتعقبونهم على مقربة من الخيال الصريع . وابعد ذلك ، جاءت ارض ريفية متموجة تتخللها شعاب ضحلة المياه . واذ كان الالمان يسيرون حذو الجانب الابعد لكل شعب ، كان القوزاق يترجلون ويطلقون عليهم النار . وبالقرب من النقطة الامامية الثانية هوى الماني آخر . صاح كروتشكوف وهو يضع قدمه على الركاب : «سقط» .

وتمتم استاخوف وهو يحشو مشبكا من الخرطوش فى مخزن بندقيته باصابعه التي اصفرت من التبغ : «لا بد ان قوزاقنا سيأتون بعد لحظة . تلك هي النقطة الامامية الثانية» .

وانطلق الالمان في خبب متواصل . واذ مروا الى جانب الضيعة نظروا اليها ، ولكن الفضاء كان مقفرا . وكانت الشمس تلمع السقف القرميدى بشراهة . وعلموا فيما بعد ان النقطة الامامية كانت قد سحبت في الليلة الماضية ، بعد ان اكتشفوا ان اسلاك البرق قد قطعت على بعد نصف فرست تقريبا .

واطلق استاخوف طلقة اخرى صوب الالمان وهو جالس على سرجه ، فاذا باحدهم ، وكان متخلفا قليلا عن الاخرين ، يهز

رأسه ويهمز حصانه .

وصاح استاخوف مستديرا نحو الاخرين من ورائه : «سنطاردهم الى النقطة الامامية الاولى» . واذ استدار لاحظ ايفانكوف ان انف استاخوف كان يتقشر وثمة قطعة من الجلد مدلاة من منخره .

وتساءل قلقا ، وهو يصلح من وضع بندقيته على ظهره : «لمَ لا يستديرون ويدافعون عن انفسهم ؟» فرد شيكولكوف وهو يلهث مثل حصان تمزقت رئتاه : «انتظر تر» .

انحدر الالمان داخل شعب دون ان يتلفتوا . واختفوا عن الانظار . وعلى الجانب الاخر كانت هناك ارض محروثة ، وعلى هذا الجانب ، نجيل ودغل قليل . واوقف استاخوف حصانه وازاح قبعته الى الوراء ، ومسح بظهر يده حبات العرق . ونظر الى الآخرين ، وبصق وقال :

— ايفانكوف امض انت لترى اين ذهبوا .

فلعق ايفانكوف شفتيه اليابستين في ظمأ ، وقد احمر وجهه وتبلل ظهره بالعرق ، وانطلق .

وتمتم كروتشكوف وهو يطرد ذباب الخيل بسوطه :

— لهفي على سيكارة .

اندفع ايفانكوف الى الشِعب مباشرة وقد انتصب على ركابيه يشخص ببصره عبر قرار الشِعب . وفجأة رأى رؤوس الرماح المتموجة ، ثم ظهر الالمان ، كانوا قد اداروا خيلهم وعادوا يجرون صُعُدا على المرتقى يبتغون الهجوم . وكان الضابط في المقدمة ، وقد رفع سيفه بشكل غير طبيعي . وفي خلال الثواني التي قضاها ايفانكوف وهو يدير حصانه ، انطبعت في ذاكرته صورة الوجه الكئيب الحليق لذلك الضابط وجلسته البديعة على السرج . واعتصر قلبه رعد حوافر الخيل الالمانية . وتحسس في ظهره قشعريرة الموت القارصة بألم يكاد ان

يكون حقيقيا . ومن غير ان يصرخ ، ادار حصانه وانطلق باتجاه الاخرين .

لم يتسن لاستاخوف ان يطوى كيس تبغه وحشره فأخطأ جيبه . حين رأى كروتشكوف الالمان يطاردون ايفانكوف ، انطلق قبل الاخرين مبتعدا . وكان خيالة الجناح الايمن يجرون ليقطعوا الطريق على ايفانكوف ، وهم يقتربون منه بسرعة مذهلة . وكان ايفانكوف يلهب حصانه بالسوط ، وقشعريرات شائهة تجتاح وجهه ، وعيناه جاحظتان . فى المقدمة كان استاخوف يجرى ، منحنيا على قربوس السرج . ودوّم غبار بني على اثار الخيل .

«سيلحقون بي ، في اية لحظة الآن !» سيطرت هذه الفكرة المخدرة على ذهن ايفانكوف ، ولم يخطر بباله ان يظهر شيئا من المقاومة . وكوم جسمه الضخم حتى صار كالكرة ، ورأسه يلامس عرف الحصان .

لحق به الماني ضخم احمر الشعر وغرز رمحه في ظهره . فاصاب رأسه نطاق ايفانكوف الجلدى ونفذ مائلا في جسمه لعمق يكاد يبلغ نصف فيرشوك* .

فصرخ بجنون ، وهو يمتشق سيفه : «ايها الاخوان ، ارجعوا !» وتفادى طعنة اخرى مصوبة الى جنبه . وضرب بسيفه على ظهر الماني سعى اليه من اليسار . وما هي الا لحظة ، حتى وجد نفسه مطوقا . واصطدم حصان الماني ضخم بخاصرة حصانه حتى كاد يطرحه ارضا ، ورأى ايفانكوف صورة قريبة لوجه عدو ، شوهاء فظيعة .

كان استاخوف اول من بلغ الجمع . ولكنه لم يلبث ان اضطر الى التراجع . فلوح بسيفه وانثنى على سرجه كثعبان الماء ، وقد

---

* مقياس طول روسى قديم يساوى ٤ سنتمترات . الناشر .

كشر عن اسنانه ، وغدا وجهه غريبا يحاكي الموتى . وكان ايفانكوف قد اصابه طرف سيف بجرح عبر رقبته . واطبق عليه خيال من اليسار ، وتلألأ في عينيه بريق الفولاذ المرعب . فدافع بسيفه ، وصلصل الفولاذ بالفولاذ . ومن الخلف ، التصق رمح بسير كتفه ، وانغرز باصرار ، ممزقا السير . وبدا وراء رأس حصانه وجه عرق محموم لالماني كهل انمش ، كان يحاول ان يبلغ صدر ايفانكوف بسيفه . واذ وجد السيف لا يطال ، قذفه ، وانتزع غدارته من بيت السرج الاصفر ، وقد تسمرت عيناه الطارفتان في وجه ايفانكوف . لكنه لم يفلح في انتزاع غدارته ، اذ نال منه كروتشكوف برمح عبر حصانه ، فالقى الالماني بنفسه الى الوراء وهو يمزق بزته الزرقاء الغامضة على صدره متأوها في ذعر وذهول : «ماين غوت !»

واحاط بكروتشكوف ثمانية خيالة محاولين اسره حيا غير انه شب بحصانه وقاتل حتى افلحوا في اسقاط سيفه من يده . فنتش رمحا من الماني ورفعه الى اعلى وكأنه في ساحة استعراض . واذ رُدَّ الالمان الى الوراء ، راحوا يذودون الرمح بسيوفهم . وتجمعوا معا على رقعة صغيرة من ارض طينية محروثة كالحة ، وهم يتدافعون ويترنحون في حومة القتال ، كما لو كانوا يهتزون في مهب الريح .

وراح القوزاق والالمان — وقد مسهم جنون الرعب — يطعنون ويضربون كل ما صادفهم في الطريق : من ظهور ، واذرع ، وخيل واسلحة . وتدافعت الخيل في جنون الخوف من الموت . واذ استرجع ايفانكوف شيئا من سيطرته على نفسه حاول عدة مرات ان يهوى على رأس الماني طويل الوجه ، اشقر الشعر ، كان قد تعقبه باصرار ، لكن سيفه كان يهوى على خوذة الرجل فينزلق عنها .

وشق استاخوف طريقه خلال الحلقة وانطلق من اسارها والدم يسيل منه . وتبعه الضابط الالماني . فانتزع استاخوف بندقيته من

على كتفه واطلق النار عليه ، فأرداه قتيلا على مدى الرمي الافقي تقريبا . فكانت هذه نقطة التحول في القتال . فما ان فقد الالمان آمرهم ، وقد اصيبوا جميعا بجراح ضربات طائشة ، حتى تفرقوا وتراجعوا . ولم يتبعهم القوزاق ، ولا اطلقوا النار عليهم ، بل عادوا مباشرة الى سريتهم في بليكالييه ، فيما انتشل الالمان رفيقا جريحا وهربوا باتجاه الحدود .

وبعد مسيرة نصف فرست تقريبا ترنح ايفانكوف على سرجه :

— انا . . سوف اقع . .

واوقف حصانه . غير ان استاخوف جر زمامه صائحا : «تابع !»

ومسح كروتشكوف الدم من وجهه تاركا عليه آثارا مدماة ، وتحسس صدره . كانت ثمة بقع قرمزية تبدو لزجة على قميصه . وعلى مبعدة من الضيعة حيث كانت النقطة الامامية الثانية معسكرة ، اختلفت آراء الجماعة حول الطريق .

قال استاخوف مشيرا صوب المستنقع وغيضة خضراء لغابة حور رومي : «الى اليمين !»

فاصر كروتشكوف : «كلا ، الى الشمال !»

وافترقوا . ووصل استاخوف وايفانكوف الى مقر الكتيبة بعد كروتشكوف وشيكولكوف ، فوجدوا قوزاق سريتهم ، في انتظارهما عند طرف القرية . والقى ايفانكوف بالعنان ، ووثب من السرج ، ثم ترنح وهوى . ووجدوا مشقة في انتزاع مقبض السيف من اصابعه المتصلبة عليه .

وبعد غضون ساعة من الزمن انطلقت كل السرية تقريبا الى حيث تمدد الضابط الالماني . فجرده القوزاق من جزمته وملابسه واسلحته وتجمهروا حوله لينظروا الى وجه الشاب الصريع العابس الاصفر . وافلح احدهم في الاستيلاء على ساعة الضابط ذات

الغطاء الفضي ، وباعها في الحال الى عريف رعيله . ووجدوا في خرجه بضع اوراق نقدية ، ورسالة ، وخصلة من شعر اشقر في ظرف ، وصورة فتاة ذات فم بسام مزهو .

٩

تحولت هذه الحادثة بعد ذلك الى مأثرة بطولية . وحصل كروتشكوف — وهو الاثير لدى آمر السرية — على وسام القديس جيورجي . اما رفاقه فقد بقوا في الظل . وارسل البطل الى مقر هيئة اركان الفرقة حيث عاش في بحبوحة الى نهاية الحرب ، ونال ثلاثة اوسمة اخرى لان سيدات وضباطا ذوي نفوذ جاءوا اليه من موسكو وبطرسبرغ ليلقوا عليه نظرة . فتأوهت السيدات وتنهدن ، واتحفن قوزاقي الدون بالسيكائر والحلوى الغالية . وكان في البداية ينزل عليهن كل لعنات الشياطين ، لكنه فيما بعد جعل من الامر تجارة مربحة تحت التأثير العطوف للمتملقين الرسميين المتسربلين ببزات الضباط . كان يروي قصة «مأثرته» وهو يبالغ ويكذب دون ان يخزه ضميره ، بينما يستبد بالسيدات الحبور فيحملقن باعجاب في الوجه اللصوصي المجدور للبطل القوزاقي . وكان الجميع مسرورين سعداء .

وزار القيصر مقر القيادة ، فأخذ كروتشكوف اليه ليراه . فتفحصه الامبراطور الوسنان كما لو كان حصانا ، وطرف بجفنيه الغليظين ، وربت على كتف القوزاقي .

وعلق الامبراطور قائلا : «يا للفتى القوزاقي الطيب !» ثم استدار الى حاشيته وطلب ماء معدنيا .

وغدت ناصية كروتشكوف تظهر دائما في الصحف والمجلات .

وظهرت سيكائر تحمل صورة كروتشكوف . واهدى تجار نيجني-نوفغورود له حساما مطليا بالذهب .

اما بزة الضابط الالماني الذى قتله استاخوف فقد علقت على لوح من الخشب المعاكس ووضعها الجنرال فون رننكامف في سيارته وايفانكوف ومساعده يصحبانه لامساكها . ومضى بها امام القطعات المستعرضة التي كانت بصدد الذهاب الى الجبهة ، وهو يلقي الخطب النارية المألوفة برطانته الرسمية .

ترى ، ما الذى حدث بالفعل ؟ كل ما في الامر ان رجالا ، لم يكونوا قد حذقوا فن التقتيل بابناء جنسهم ، نزلوا ساحة الوغي ، وفي موجة الرعب القاتل التي غمرتهم هجموا ، وضربوا ، وافنى بعضهم بعضا كالعميان ، مسببين افدح الضرر ببعضهم وبخيلهم ، ثم عادوا وهربوا ، وقد ارعبتهم طلقة اصابت احدهم . لقد ولوا الادبار وارواحهم مشوهة .

وسمي ذلك مأثرة بطولية .

١٠

لم تكن الجبهة قد غدت — بعد — تلك الحية الضخمة الطويلة التي آلت اليها فيما بعد . الا ان مناوشات الفرسان ومعاركهم قد حميت على امتداد الحدود . وفي الايام التي تلت اعلان الحرب مباشرة اطلقت القيادة الالمانية كشافة على هيئة مفارز قوية من الفرسان صارت تبث الرعب بين صفوف القطعات الروسية بتسللهم عبر نقاط الحدود والتجسس على الترتيبات العسكرية وعدد القوات . وكان الجيش الروسي الثامن متسترا بفرقة الخيالة الثانية عشرة تحت قيادة الجنرال كاليدين . وعلى جناحه الايسر كانت فرقة الخيالة الحادية

عشرة قد تقدمت عبر الحدود النمساوية ، ولكن ما ان احتلت لاشنوف وبرودى حتى اضطرت الى التوقف حينما عززت الوحدات النمساوية بالخيالة المجريين . وقذفت الخيالة المجرية بنفسها على الوحدات الخيالة الروسية واضطرتها الى التراجع صوب برودى .

كان ثمة الم داخلي ممض يعذب غريغورى ميليخوف منذ معركته الاولى . أصبح انحف قواما بشكل جلي ، وغالبا ما كانت تتراءى له ملامح وهيكل ذلك النمساوى الذى صرعه قرب السياج ، سواء كان ماشيا او مستريحا ، نائما او ناعسا . وعاش في نومه تجربة تلك المعركة الاولى ، مرة تلو المرة ، حتى لقد احس باختلاج راعش في يده اليمنى ، حين تقبض على الرمح فكان يستيقظ ويطرد الحلم عنه بقوة ، وهو يظلل بيده عينيه المضيقتين الى حد الالم .

مضت الخيالة تدوس على القمح الناضج وتشوه الحقول بحوافر الخيل ، وبدا وكأن عاصفة صقيعية ماحقة قد اجتاحت غاليسيا . ووطئت جزم الجنود الثقيلة الطرق ، وخربشت سطحها المرصوف بالحصى وخبطت الوحل الخريفي .

وغدا وجه الارض الكئيب مجدورا بفعل القنابل ، وعلا الصدأ شظايا الفولاذ والحديد متشوقة لدم الانسان . وفي الليل كانت ومضات حمر تضيئ الافق ، وتلتهب القرى والمدن مثل برق الصيف . وفي آب — حين تنضج الفواكه وتغدو الحنطة جاهزة للحصاد — كانت السماء رمادية عابسة ، وكانت الايام الصاحية النادرة خانقة شديدة القيظ .

كان شهر اب آفلا الى زوال . واستحال لون الاوراق اصفر في البساتين ، وانتشر لون ارجواني حزين من سيقانها . وكانت الاشجار تبدو من بُعْد ، كما لو اصابتها جراح بليغة وسال منها نزيف قاتل .

وكان غريغوري يتفحص باهتمام التغييرات التي اصابت رفاقه . فقد عاد بروخور زيكوف من المستشفى يحمل اثار نعل الحصان على خده ، والالم والذهول يكمنان في زاويتي شفتيه . وصارت عيناه الشبيهتان بعيون العجل تطرفان اكثر من اى وقت مضى . اما يغور زاركوف فلم يضع فرصة لا يلعن فيها ويسب ، وغدا اكثر مجونا من قبل ، وجعل يثور على كل شيء تحت الشمس . وبدا على يميليان غروشيف انه يحترق ، وهو قوزاقي دؤوب كفء من قرية غريغوري نفسها ، فقد حال لون وجهه داكنا ، وصار يضحك في غم وعصبية . وكان بالمستطاع ملاحظة التغييرات على كل وجه ، وكان كل واحد منهم يدارى ويرعى في داخله بذور الاسى التي زرعتها الحرب .

سحبت الكتيبة من خط القتال لتستريح ثلاثة ايام ، واكمل تعدادها بتعزيزات جلبت من الدون . وكان قوزاق سرية غريغوري على وشك ان يذهبوا ليستحموا في بحيرة قريبة حينما دخلت القرية قوة كبيرة من الخيالة قادمة من المحطة الواقعة على بعد ثلاثة فرسخات تقريبا . وفي الوقت الذى بلغ الرجال سد البحيرة كانت القوة تهبط نازلة التل . حتى صار واضحا ان القادمين هم قوزاق . كان بروخور زيكوف يخلع قميصه حينما رفع بصره وحدق وصاح :

— انهم قوزاق ، قوزاق الدون !

فشخص غريغوري الى الرتل الزاحف الى داخل الضيعة حيث تعسكر الكتيبة .

— احتياط ، على اكثر تقدير .

— يبدو انها تعزيزات .

— هذه هي الوجبة الثانية كما اعتقد .

وصاح غروشيف : «انظروا يا اولاد ، ذلك بالتأكيد ستيبان

استاخوف ! هناك هو ، في الصف الثالث من المقدمة» . واطلق ضحكة صارفة قصيرة .

— وذاك انيكوشكا .

— غريشا ! ميليخوف ! ذاك اخوك . الا تراه ؟

— اراه .

— عليك ان تسقيني بالفودكا لانني اول من رآه .

فحدق غريغوري مخاوصا عينيه ومحاولا ان يتبين الحصان الذى كان يركبه بيوتر . وقال في نفسه وهو يحول نظره الى وجه اخيه : «لا بد انه ابتاع حصانا جديدا !» . وكان وجهه قد لفحته الشمس بشدة ، وشاربه مقصوصا وحاجباه قد حال لونهما بفعل شمس الصيف : لقد اعتراه تغير غريب منذ لقائهما الاخير . مضى غريغوري لملاقاته نازعا قبعته وملوحا بها بصورة آلية . وتدفق وراءه القوزاق دون ان يتموا ارتداء ملابسهم ، وهم يدوسون على الانصال الرقيقة المتكسرة لحشيشة الملائكة وشوك الارقطيون .

انحرفت المفرزة حول البستان داخلة الضيعة ، يقودها نقيب متقدم في السن قوى البنية ، تعلو خطوط فمه الحليق الصارم قساوة متخشبة . وقال غريغوري في دخيلته : «شخص خبيث ابح الصوت !» وهو يبتسم لاخيه ويجول بعينيه في الوقت نفسه في قامة الرئيس المتينة وحصانه معقوف الانف الذى يبدو انه منحدر من صقع شرقى . وامر النقيب السرية بصوت رفيع رنان ان توزع مراتب .

وصاح غريغوري مبتسما واعتراه انفعال مسرور :

— مرحبا ، ايها الاخ !

— المجد لله ! سنكون معا . كيف حالك ؟

— لا بأس

— اذن ما تزال حيا ؟
— الى حد الآن .
— تحيات من العائلة .
— كيف حالهم جميعا ؟
— لا بأس .

واراح بيوتر كفه على حصانه القوى ذى اللون المائل للحمرة ، ودار بكل جسمه على السرج ليتفحص غريغورى مبتسما . ثم مضى واختفى وراء الصفوف المتدفقة من القوزاق الاخرين ، معروفين وغير معروفين .

— مرحبا ، ميليخوف ! تحيات من القرية !

فتبسم غريغورى متبينا ميخائيل كوشيفوى من خصلة شعره الذهبية ، وقال :

— اذن انت تنضم الينا ؟
— صحيح . نحن كالدجاج يجرى وراء الدخن .
— اذا نقرت فسرعان ما تنقر .
— مستحيل !

وقدم يغور زاركوف من البحيرة وقد ارتدى قميصه فقط وهو يظلع على ساق واحدة ويحاول ان يدس الاخرى فى بنطلونه اثناء ركضه .

— مرحبا يا اولاد !
— هي ، هذا زاركوف !
— مرحبا ، ايها الحصان ! هل اضطروا الى حجلك اذن ؟
— كيف حال امى ؟
— لا تزال حية . ارسلت لك حبها . لكننا لم نقبل ان نحمل هداياها لك . فحملنا ثقيل بما فيه الكفاية .

انصت يغور الى الجواب وقد اكتسى وجهه تعبيرا جديا غريبا ، ثم اقتعد الحشيش على عجيزته العارية ، مخفيا وجهه الخائب ومحاولا بلا جدوى ادخال ساقه المرتعشة فى بنطلونه .

وقف القوزاق نصف عراة وراء السياج المطلى بالدهان الازرق ، وفى الجانب الاخر كانت سرية الاحتياط القادمة من الدون تتدفق على امتداد الطريق المحفوف باشجار الكستناء ، داخلة الى الفناء .

— مرحبا يا ابن القرية !
— اهذا انت ، الكساندر ؟
— اجل ، هو انا .
— اندريان ! كيف ، ايها الشيطان ذو الاذن المصلومة ، الا تعرفنى ؟
— زوجتك ترسل حبها اليك ، ايها الجندى !
— ليحفظك المسيح .
— اين بوريس بيلوف ؟
— فى اية سرية كان ؟
— فى الرابعة ، على ما اظن .
— من اى مكان هو ؟
— من ناحية فيشنسكايا ، من زاتون .

وانضم صوت ثالث الى الحديث المتشعب :

— ماذا تريد منه ؟
— لدى رسالة له ، هذا ما اريد .
— قتل قبل بضعة ايام ، فى ريبرودى .
— حقا ؟
— صدقنى . رأيته بام عينى . رصاصة فى الصدر ، تحت ثديه الايسر تماما .

— هل يوجد احد من قرية كوروفيا رتشكا ؟

— لا .

صفت السرية فى الفناء . وعاد القوزاق الاخرون الى استحمامهم ثم انضم اليهم بعد قليل القادمون الجدد . جلس غريغورى الى جانب اخيه . وانبعثت من طين السدة الرطب المفتت رائحة فجة كريهة ، وكان الماء ذا لون اخضر لماع عند الحوافى . قصـــع غريغورى القمل فى ثنايا ومدارز قميصه ، وقال لاخيه :

— بيوتر ، روحى تعبانة . اننى كرجل تكفيه ضربة اخرى ليخر صريعا . كأننى كنت بين شقى رحى ، لقد سحقونى ولفظونى .

كان صوته متكسرا ذبيحا ، وامتدت تجعيدة دكناء منحرفة عبر جبهته (لم يلحظها بيوتر الا الان ، وبشعور قلق) اضفت عليه طابعا عجيبا من التغير والغرابة .

فتساءل بيوتر وهو يخلع قميصه كاشفا عن جسم ابيض يلوح لفح الشمس خطا واضحا على رقبته :

— لماذا ، ما خطبك ؟

فقال غريغورى باستعجال وقد غدا صوته قويا فى مرارته :

— الامر هكذا : لقد جعلونا نحترب ، اسوأ من قطيع من الذئاب . الكراهية فى كل مكان . واحيانا اقول لنفسى اننى لو عضضت شخصا لاصبته بالسعار .

— هل اضطررت ان . . . تقتل احدا ؟

— اجل .

قالها غريغورى فى شبه صياح وهو يعتصر قميصه ويرمى به عند قدميه . ثم يضغط على بلعومه باصابعه كما لوكان يمنع كلمة تختنقه ، واشاح بعينيه .

فاستحثه بيوتر متجنبا عينى اخيه :

— اخبرنى .

— ان ضميرى يزهق روحى . لقد غرزت رمحى فى جسم رجل . . . فى غمرة الهياج . . . ولا يمكن ان يكون الامر غير ذلك . . . ولكن لم قتلت الاخر ؟

— حسنا ؟

— ليس الامر «حسنا» . لقد قتلت رجلا بلا سبب ، فيعذب نفسى ، ذاك الخنزير ! ان هذا النغل لا يبارحنى فى احلامى . هل كنت انا الملوم ؟

— انت لم تألف الامر بعد ، ستتغلب على حالتك هذه .

فتساءل غريغورى فجأة :

— هل ستمكثون مع سريتنا ؟

— لا ، فنحن تابعون للكتيبة السابعة والعشرين .

— حسبت انكم جئتم لمساعدتنا .

— سوف تلحق سريتنا بفرقة مشاة . اننا نسعى للحاق بها . على اننا جئناكم ببعض البدلاء ، شرذمة من الشبان .

— حسنا ، لنستحم .

وخلع غريغورى بنطاله بسرعة ومضى الى حافة السدة ، ملفوح الجسم قوى البنية بالرغم من كتفيه المتهدلتين ، وخطر فى ذهن بيوتر انه شاخ خلال فترة فراقهما . وغطس فى الماء رافعا يديه ، فانعقدت عليه موجة خضراء كبيرة ، ثم انحسرت متموجة عنه . ومضى يسبح صوب جماعة القوزاق المتصايحين فى الوسط ، ويداه تلطمان الماء برفق ، وكتفاه تتحركان بتكاسل .

كان بيوتر بطيئا فى خلع الصليب والتعويذة المخاطة فيه عن رقبته . فدس الخيط تحت كومة ملابسه ، ونزل الى الماء بحذر وتهيب ، وبلل صدره وكتفيه ، ثم اندفع الى الامام متأوها ، ومضى

يسبح للحاق بغريغورى . واتجها صوب الضفة المقابلة ، وكانت رملية يغطيها الدغل . ووطبت الحركة فى الماء غريغورى وهدأته ، فراح يتكلم بهدوء وبدون هياجه السابق . قال :

— لقد استبد بى الضيق حتى تركت القمل يأكلنى ! آه ليتنى الان فى بيتنا ، فقط ! لو ان لى جناحين ، لطرت الى هناك ! لاختلس نظرة خاطفة وحسب ! كيف حالهم جميعا ؟

— ان ناتاليا تعيش معنا .

— كيف حال ابى وامى ؟

— لا بأس . لكن ناتاليا ما فتئت تنتظرك . انها لا تزال تعتقد بانك عائد اليها .

نخر غريغورى وبصق ماء دون ان يجيب . فأدار بيوتر رأسه وحاول ان ينظر فى عينى اخيه .

— حبذا لو ترسل كلمة اليها فى رسائلك . ان هذه المرأة لا تحيا الا من اجلك .

— ماذا ، اما تزال تريد ان تصل ما انقطع ؟

— انها تحيا على الامل . . . انها امرأة طيبة . ومتزمتة كذلك لن تدع احدا يتعابث معها !

— عليها ان تجد زوجا .

— غريب ان يصدر هذا الكلام منك !

— لا غرابة فيه . هذا ما يجب ان تكون عليه الحال .

— حسنا ، هذا شأنك . لن اتدخل . — وكيف حال دونيا؟

— غدت امرأة ، ايها الاخ ! لقد كبرت كثيرا هذا العام حتى انك لا تعرفها .

فقال غريغورى دهشا ومبتهجا بعض الشىء : — حقا !

— وحق الرب ! وعما قريب ستتزوج ، ولن يكون بمستطاعنا

حتى ان تغمس عذارنا فى الفودكا . او قد نصبح فى عداد القتلى ، عليهم اللعنة ! — لا أسهل من ذلك !

واضطجعا على الرمل جنبا الى جنب يتشمسان فى دفء الشمس الرفيق . ومر بهما ميشا كوشيفوى سابحا :

— هيا ، يا غريغورى ، الى الماء .

— كلا ، اريد ان ارتاح .

وتساءل غريغورى وهو يدفن خنفساء فى الرمل :

— كيف حال اكسينيا ؟

— رأيتها فى القرية قبيل اندلاع الحرب .

— ما الذى كانت تفعله هناك ؟

— جاءت لتأخذ من زوجها بعض حوائجها .

فتنحنح غريغورى ودفن الخنفساء ملقيا عليها كومة رمل .

— هل حدثتها ؟

— تبادلنا بالتحية فقط . كانت تبدو فى حال طيبة ، ومبتهجة . يبدو انها تقضى وقتا رضيا فى الضيعة .

— وماذا عن ستيبان ؟

— اعطاها حوائجها بالفعل . كان سلوكه لائقا الى حد كبير . لكن ، عليك ان تفتح عينيك ! بلغنى انه اقسم حينما كان ثملا ان يضع فيك رصاصة فى اول معركة . لن يقدر ان يغفر لك .

— اعرف ذلك .

وادار بيوتر وجهة الحديث : — ابتعت حصانا جديدا لي .

— بعتم الثيران ؟

— بمائة وثمانين . وكلفنا الحصان مائة وخمسين . وما هو بالردئ . — وكيف حال المحصول ؟

— حسن . انتزعونا قبل ان نستطيع خزنه .

ومال الحديث وجهة شؤون منزلية ، وانجاب توتر المشاعر .

وارتوى غريغورى بانباء بيوتر عن البيت . وعاد برهة صغيرة يعيش هناك كما كان ، ذلك الفتى البسيط العنيد .

واقترح بيوتر نافضا الرمل عن بطنه المبلل :

— طيب ، لنغطس غطسة اخرى ، ثم نرتدى ملابسنا .

وكان الشعر على ظهره وذراعيه منفوشا من البرد .

عادا الى الفناء مع جمع من القوزاق . ولحق بهما ستيبان استاخوف عند سياج البستان . وكان اثناء مشيه يمشط شعره الى الخلف تحت ذؤابة قبعته . واذ حاذى غريغورى قال :

— مرحبا ، ايها الصديق !

فرد غريغورى : «مرحبا !» وتوقف وتباطأ فى مشيه واستدار نحوه وقد بدا على وجهه شعور بالحرج والاثم .

— لعلك لم تنسنى ، اليس كذلك ؟

— كدت . — لكننى اتذكرك !

وابتسم ستيبان هازئا ومضى ، واضعا ذراعه حول كتف نائب عريف يمشى امامه .

بعد غروب الشمس جاءت رسالة تلفونية من هيئة اركان الفرقة الى كتيبة غريغورى تأمرها بالعودة الى الجبهة . وتجمعت السرايا خلال خمس عشرة دقيقة ، وانطلقت ، وهى تنشد ، لكى تسد ثغرة فى خط القتال احدثتها خيالة العدو .

وفيما كان غريغورى وبيوتر يتوادعان ، دس بيوتر ورقة مطوية فى يد اخيه . فتساءل غريغورى : — ما هذه ؟

— لقد استنسخت تعويذة لك . خذها . . .

— هل فيها اية فائدة ؟

— لا تسخر ، يا غريغورى !

— لست ساخرا .

— حسنا ، الى اللقاء ايها الاخ . لا تندفع فى مقدمة الاخرين . ان للموت بهرجا لذوى الدماء الحارة . صن نفسك .

— فما جدوى التعويذة اذن ؟

لوح بيوتر يده .

قضت السرايا زمنا ما دون ان تراعى اتخاذ اية احتياطات . ثم اصدر رؤساء العرفاء اوامر بمراعاة اقصى ما يمكن من الهدوء ، وان تطفأ كل السكاير . وتطايرت فوق غابة بعيدة صواريخ الاشارة تزينها ذؤابات من دخان بنفسجى .

١١

دفتر مذكرات جلدى ، بنى اللون ، صغير القطع . تآكلت زواياه وتمزقت ، فلا بد ان زمنا طويلا مضى عليه وهو فى جيب صاحبه . وقد ملأت صفحاته كتابة مائلة مزخرفة نوعا ما . . .

* * *

«. . . مضى علىَّ حين من الزمن وانا احس بهذا الدافع الذى يستحثنى على تناول القلم والشروع بالكتابة . اود ان ابدأ ما يشبه «المذكرات المدرسية» . ابدأ بها ، قبل كل شىء . حدث فى شهر شباط (لا اذكر التاريخ بالضبط) ان تعرفت عليها بواسطة جار لها ، طالب يدعى بويارشكين . صادفتهما خارج دار للسينما . وحينما قدمها بويارشكين ، قال : «ان ليزا من ناحية فيشنسكايا ، كن لطيفا معها يا تيموفى . فهى فتاة رائعة» .

واذكر انني تمتمت بضع كلمات غير مترابطة واخذت يدها الناعمة العرقة بيدى . وهكذا التقيت بيليزافيتا موخوفا . وقد ادركت فى الحال انها بنت ماجنة . ففى عيون اضرابها من النساء ما يكشف الستر عن الكثير . ولي ان اعترف بان الانطباع الذى خلفته لدى لم يكن انطباعا حسنا . ولربما كان السبب هو ذلك الدبق الذى تحسسته فى يدها . اذ اننى لم ار فى حياتى شخصا تعرق يداه بمثل تلك الشدة . ثم كانت هناك عيناها ، جميلتان جدا فى الواقع ويغشيهما لون بندقى رائع ، ومع ذلك فهما لا تسران الناظر فيهما .

فاسيا ، ياصديقى العزيز ، اشعر اننى انمق اسلوبى فى الكتابة عامدا ، حتى اننى اخذت الجأ الى نقل الصور على نحو دقيق ، ذلك لانه حين تصلك هذه «المذكرات» وانت فى سمبيالاتنسك (فانا افكر فى ارسالها اليك بعد ان تؤول هذه القصة التى بدأتها مع يليزفيتا موخوفا الى نهاية) ستجد فيها متعة . اود ان تكون لك فكرة جلية عما حدث . سوف اعمد الى سرد الحوادث حسب تتابعها الزمنى . حسنا ، وكما سبق ان قلت ، تعرفت بها ودلف ثلاثتنا لمشاهدة فلم عاطفى سخيف . ظل بوياريشكين ساكتا طوال الفلم (اذ كان يعانى من الم الاسنان ، او «الم الضرس» ، كما دعاه هو) ووجدت من ناحيتى صعوبة فى خلق موضوع للحديث . واكتشفنا اننا كنا من دبرة واحدة ، اى من قصبتين متجاورتين ، ولكن ما ان تبادلنا بعض الذكريات عن جمال الطبيعة فى السهب وما الى ذلك صمتنا . فخلدت انا الى صمت عفوى ، اذا صح هذا التعبير ، وتقبلت هى نضوب الحديث دون اى مضض . وعلمت منها انها طالبة طب فى السنة الثانية . وانها سليلة عائلة من التجار ، وانها ولوع بالشاى

القوى ونشوق * اسمولوف . ولك ان تتصور كم هى زهيدة هذه المعلومات لامرئ يسعى الى معرفة كنه فتاة ذات عينين بندقيتى اللون . وحينما ودعناها عند موقف الترام طلبت منى ان ازورها . فدونت عنوانها . احسب اننى ساعرج عليها فى الثامن والعشرين من نيسان .

٢٩ نيسان

زرتها اليوم . قدمت لى شايا وحلوى . انها ، فى الواقع ، لا تخلو من شىء . حادة اللسان ، ذكية الى حد ما ، ولكنها متعلقة بنظرية ارتسيباشيف القائلة : «افعل ما يحلو لك» وباستطاعتك ان تشم ذلك من مسافة فرست . عدت فى وقت متأخر ، لففت سكائر وفكرت باشياء لا علاقة لها بها ابدا ، وبالنقود بوجه خاص . ان بدلتى فى حالة يرثى لها ، ولكن ليس لدى أى «رأسمال» . وعلى العموم ، فالامور فى غاية العفونة .

١ أيار

شهدت اليوم حادثا على جانب من الاهمية . فبينما كنا نزجى الوقت فى متنزه سوكولنيكى ببراءة مطلقة ، تورطنا فى مشكلة . كانت الشرطة ومفرزة من القوزاق ، قوامها عشرون قوزاقيا تقريبا ، يفرقون اجتماعا للعمال بمناسبة اول ايار . فهوى سكران بضربة من عصاه على احد خيول القوزاق ، فما كان من القوزاقى الا

---

* النشوق ، او السعوط : دقيق التبغ يدخل فى الانف فيعطس المرء . المترجمون .

ان اعمل فيه ضربا بسوطه . (لست ادرى لماذا يصر بعض الناس على اطلاق كلمة «عسلوج» على السوط ، فى حين ان له هذه التسمية الفخمة — لم لا نستعملها ؟) مضيت اليه وقررت ان اتدخل ، مدفوعا بانبل المشاعر ، صدقنى . قلت للقوزاقى انك فظ ، وانك كذا وكيت . فما كان منه الا ان استعد ليلفحنى بسوطه ، لكننى قلت له مع شىء من رباطة الجأش اننى قوزاقى من قصبة كامنسكايا وبمقدورى ان اشبعه ضربا . ثم تبين ان القوزاقى كان شابا لطيفا لم يكن قد قضى فى الجيش زمنا طويلا يجعله حاد الطباع . فأجاب بانه من ناحية اوست-خوبرسكايا وانه مشهود له بقوة باعه . وافترقنا فى سلام . ولو كان قد شرع بمهاجمتى ، لاحتدم بيننا قتال ، ولأصابنى شىء اسوأ من ذلك . ان تدخلى هذا يجب ان يفسر بواقع وجود ليزافيتا معنا ، وعندما اكون معها اجدنى اندفع برغبة طفولية محض لاتيان «عمل بطولى» . وباستطاعتى بالفعل ان ارى نفسى اغدو ديكا فتيا واحس بعرف احمر غير منظور يطلع تحت قبعتى . . . الى اين ترانى سأنتهى !

٣ أيار

الشىء الوحيد الذى استطيع ان افعله فى حالتى النفسية الراهنة هو السكر . ففوق كل شىء ، انا لا املك شروى نقير . وقد انشق بنطلونى على نحو بائس فى اهم موضع (أى ، بصراحة ، عند ملتقى الفخذين) واصبح مثل بطيخة مشقوقة فى الدون ، والامل ضعيف فى ان يحتمل الرتق . وهل يرجى خير من محاولة رتق بطيخة ؟ لقد زارنى فولودكا سترجنيف . سوف احضر المحاضرات غدا .

٧ أيار

وصلتنى نقود من ابى . رسالته غضبى ، لكننى لا احس بذرة من الخجل ، ماذا لو ان ابى عرف بان قواعد ابنه الاخلاقية تتحلل على هذا النحو . . . لقد اشتريت بدلة . ورباط عنقى الجديد يجذب انتباه حتى سائقى عربات الاجرة . وبعد حلاقة لدى احسن حلاق فى المدنية خرجت منه لامعا اشبه ببائع فى حانوت خردوات . وفى الشارع ابتسم لي شرطى . يا للوغد الماكر ! بينى وبينه شىء مشترك فى هذه الهيئة . . . ومنذ ثلاثة اشهر . . . ولكن ما فات فات . . . لمحت ليزا صدفة خلال نافذة الترام . فلوحت بقفازها وابتسمت . ما رأيك بى ؟

٨ ايار

«امام الحب ، لا تملك كل الاعمار الا ان تكـــون خاضعة . . .» . لازلت استطيع ان ارى فم زوج تاتيانا فاغرا باتجاهى مثل فوهة مدفع . واستبدت بى رغبة ، وانا جالس على مقعدى فى الصالة العليا ، ان ابصق فيه . وكلما اتذكر تلك العبارة ، وعلى الاخص «خاضعة» فى نهايتها ، احس بفكي يستحثنى على التثاؤب . لعلها رجفة عصبية .

ولكن المهم هنا هو اننى ، فى عمرى هذا ، عاشق ، رغم ان كتابة هذه الكلمة تجعل شعر رأسى يقف . . . زرت ليزا . بدأت معها بمقدمة طويلة براقة . فتظاهرت بانها لم تفهم وحاولت ان تغير الموضوع . اترانى تسرعت ؟ فليأخذ الشيطان هذه البدلة الجديدة ، لقد اربكت على الامور . فحينما انظر الى نفسى فى المرآة احس باننى شخص لا يقاوم . ها قد حان الوقت اذن ! وفى اعتقادى ان النصر حليف التفكير الرياضى المباشر .

ان لم افاتحها الان ، فبعد شهرين يكون الاوان قد فات . سيكون بنطلونى قد تخلق ولن يصبح بامكانى مفاتحتها بأى حال من الاحوال . واذ انا اكتب اليك هذا ، احس بفيض من الاعجاب بنفسى يغمرنى . يالي من خليط رائع من اكرم الفضائل لاكرم الناس فى عصرنا . فأمامك الان عاطفة رقيقة ، لكنها نارية فى الوقت نفسه ، «صوت العقل السليم» دونما حاجة لذكر حشد من الصفات المحببة الاخرى .

حسنا ، لم اقطع معها شوطا ابعد من مقدمتى التمهيدية . اذ قاطعتنا صاحبة دارها ، التى استدعتها الى الخارج وسألتها قرضا . الا انها رفضت رغم توفر النقود لديها . كنت متيقنا من ذلك ، وتصورت وجهها وهى ترفض الطلب بنبرة صوتها الصادقة وبذلك الاخلاص المتشرب فى العينين البندقيتين . ولم اشأ ، بعد ذلك ، ان اتحدث عن الحب .

١٣ أيار

اننى عاشق بحق وحقيق . لا مجال لاى شك فى ذلك . كل شىء ينبؤنى به . وسأفاتحها غدا . على اننى لم احضر الكلام المناسب لدورى حتى الآن .

١٤ أيار

حدث الامر على نحو غير متوقع بتاتا . كان ثمة مطر ، زخ خفيف دافىء . كنا نتمشى فى شارع موخوفايا ، والريح تلفح الرصيف بالمطر . كنت اتحدث وهى صامتة ، ورأسها مطأطأ وكأنها تقلب الرأى فى شىء ما . وانداح خط من ماء المطر على حافة قبعتها وانساب على خدها . فبدت رائعة الجمال .

وجرى الحوار بيننا كالاتى :

— يليزافيتا سيرغييفنا ، لقد بحت اليك بما احس ، فالامر متروك اليك الان .

— يخالجنى الشك فى صدق احاسيسك .

فهززت كتفى بحركة بلهاء واجبت ببلادة باننى مستعد لان اقسم لها ، او بشىء من هذا القبيل . فقالت :

— اسمع ، انك تتكلم وكأنك احدى شخصيات تورغينيف* . لا تستطيع ان تجعل الامر بشكل ابسط ؟

— ليس ثمة ما هو ابسط منه . انا احبك .

— وماذا بعد ذلك ؟

— الرأى لك الان .

— اتريدنى ان اقول لك اننى احبك ايضا ؟

— اريدك ان تقولى شيئا ما .

— القضية ، يا تيموفى ايفانوفتش . . . اوه ، كيف عساى ان اعبر عنها ؟ اننى اميل اليك بعض الميل وحسب . . . انت طويل القامة جدا .

فوعدتها قائلا :

— وسيزداد طولى .

— ولكننا لا يعرف احدنا الاخر الا قليلا . اننا . . .

— مع مر الزمن ستتوثق معرفتنا .

فمسحت خديها المبللين بيد وردية وقالت :

— حسنا ، فلنعش سوية . والزمان خير حكم . ولكن

---

* ايفان تورغينيف ، الاديب الروسى المعروف ، مؤلف «الاباء والبنون» و«آسيا» وغيرهما . **المترجمون** .

عليك ان تدعنى افسخ علاقتى السابقة اولا .

فتساءلت :

— مع من ؟

— انت لا تعرفه . طبيب ، اختصاصى بالامراض التناسلية .

— متى ستتحررين منه ؟

— الجمعة ، كما آمل .

— هل سنعيش سوية ؟ اعنى ، فى شقة واحدة ؟

— نعم فانني اعتقد ان هذه الطريقة هى الافضل . عليك انت ان تنتقل الى شقتى .

— لماذا ؟

— لدى غرفة مريحة جدا . نظيفة ، وصاحبة الدار امرأة لطيفة .

لم اثر اى اعتراض وافترقنا عند منعطف شارع تفرسكايا . وتبادلنا قبلة اثارت دهشة كبيرة لدى سيدة عابرة .

ترى ، ماذا يخبئ المستقبل لي ؟

٢٢ ايار

اعيش حياة ملؤها الحلاوة . على ان حياتى «الحلوة» غشيتها اليوم سحابة حينما اخبرتنى ليزا ان علي ان اغير ملابسى الداخلية . لاشك فى ان ملابسى الداخلية فى حال تثير التقزز . ولكن اين النقود ، اين النقود ؟ . . . نحن نصرف من نقودى ، ولم يبق الا القليل . سيتعين علي ايجاد عمل .

٢٤ أيار

قررت اليوم ان ابتاع لي شيئا من الملابس الداخلية ،

على ان ليزا فتحت لي بابا جديدا للصرف . فقد اجتاحتها فجأة رغبة لا تقاوم فى تناول الغداء فى المطعم الجيد وشراء جوارب حريرية لها . تغدينا واشترينا الجوارب ، وانتابنى اليأس . لن تكون لي ملابس داخلية !

٢٧ أيار

انها تمتصنى حتى الجفاف . فجسدى لم يعد اكثر من ساق جرداء لزهرة عباد الشمس . انها ليست بامرأة ، انما نار مدمرة !

٢ حزيران

استيقظنا اليوم فى التاسعة . ان عادتى اللعينة فى تمطية اصابع قدمى ادت الى النتائج التالية . جرت الغطاء فعرضت قدمى لفحص دقيق . ثم لخصت رأيها كالاتي : — «لك قدم مثل حافر حصان . واسوأ ! اما ذلك الشعر على اصابع قدمك — أوف !» وهزت كتفيها بتقزز محموم ، ودفنت رأسها تحت الغطاء واستدارت صوب الحائط .

اصابتنى الحيرة . ودست قدمى عن الانظار ، ولمست كتفها .

— ليزا !

— اتركنى وشأنى !

— ليزا ، هذا لا معنى له . فانا لا استطيع ان اغير شكل قدمى ، فلم اوص عليها ، كما تعلمين . اما من ناحية الانبات فليس لامرىء أن يعرف أين سينبت الشعر فى المرة

القادمة . انه ينبت فى كل مكان . انت طالبة طب ، ويتعين عليك ان تكونى ملمة بقوانين الطبيعة .

استدارت . وكان ثمة وميض خبيث فى عينيها البندقيتين :

— بالله عليك ، اشتر شيئا من المسحوق المعطر . فقدماك تفوحان برائحة كريهة كجثث الموتى .

فأجبت بدافع العدالة بان يديها تعرقان على الدوام . فلاذت بالصمت ، وخيمت على روحى سحابة عتماء ، اذا توخينا استعمال الكلمات الضخمة . الامر ليس متعلقا بالقدم والشعر . . .

٤ حزيران

رحنا اليوم فى نزهة بالقارب فى نهر موسكو . تذكرنا مرابع الدون . ان سلوك ليزا لا يليق بها . فهى لا تنى تصب العبارات الجارحة على رأسى ، وهذه فى بعض الاحيان شديدة القسوة . فلو اننى رددت عليها بالمثل لكان معنى ذلك انفصام علاقتنا ، وهذا ما لا اريده . وعلى الرغم من كل شىء فاننى ازداد تعلقا بها يوما بعد يوم . انها ، ببساطة ، فتاة مدللة . بيد اننى اخشى ان لا يكون تأثيرى عليها من القوة بحيث يؤدى الى أى تغيير جذرى فى طباعها . انها فتاة منقلبة الاطوار . اضف الى ذلك انها فتاة صغيرة خبرت اشياء لم يحدث ان تعرفت عليها انا الا عن طريق السماع . وفى طريق العودة جذبتنى الى صيدلية وابتاعت ، وعلى وجهها ابتسامة ما ، مسحوقا معطرا وترهات اخرى . «أن هذا سيخفف من فوح الرائحة الكريهة» .

انحنيت لها باحترام وشكرتها .

شىء سخيف ، ولكن ما الحيلة ؟

٧ حزيران

ليس لها ، فى الواقع سوى ذكاء ضئيل جدا ، ولكنها خبيرة بجميع القضايا الاخرى .

وفى كل ليلة ، وقبل الذهاب الى الفراش ، صرت اغسل قدمى بالماء الحار ، وأصب عليهما شيئا من ماء الكولونيا ، وارشهما بمادة مقززة اخرى .

١٦ حزيران

انها تغدو مستحيلة الاحتمال يوما بعد يوم . انتابتها امس نوبة من الهستيريا . انه لشىء بالغ الصعوبة ان يعيش المرء مع امرأة كهذه .

١٨ حزيران

ليس ثمة تشابه فى طباعنا وميولنا قط ! حتى اللغة التى نتحدث بها لم تعد واحدة . الشىء الذى يربطنا هو السرير وحياة تافهة .

حدث هذا الصباح ان مضت الى جيبى لتأخذ نقودا قبل الذهاب الى الخباز فعثرت على دفتر المذكرات الصغير هذا . نظرت اليه ، وقالت :

— ما هذا الذى تحمله فى جيبك ؟

فشعرت بالحمى تسرى فى اوصالى . هبها القت نظرة فى داخله ؟ وانتابتنى الدهشة حين وجدت نفسى اجيب بصوت طبيعى : «مجرد دفتر ملاحظات للحساب» .

قذسته فى جيبى ثانية بلا ادنى اكتراث ، وخرجت . علي ان اكون اكثر حذرا . ان انطباعات مباشرة كهذه ليست

بذات قيمة الا حينما يكون الشخص الاخر جاهلا بها كل الجهل . انها ستكون مصدر تسلية لصديقى فاسيا .

٢١ حزيران

ان ليزا تذهلنى . هى فى الحادية والعشرين . فمتى تسنى لها ان تغدو متحللة الى هذا الحد ؟ أى نمط من العوائل عائلتها ، من كانت له يد فى تنشئتها ؟ ان هذه الاسئلة تثير فىَّ اقصى الاهتمام ، انها جميلة بشكل مربع . وهى فخورة بقوامها الكامل . انها تعبد نفسها ، وليس فى العالم شىء يهمها غير ذلك ، لقد حاولت مرارا ان ابدأ معها حديثا جديا ، ولكن . . . ان تقنع «مؤمنا قديما» بعدم وجود الله اسهل من تعيد تربية ليزا .

لقد غدا العيش سوية امرا مستحيلا وسخيفا . ومع ذلك فاننى اشعر بالتردد ازاء فصم العلاقة . ولا بد لي من الاقرار باننى غدوت كلفا بها رغم كل شىء . لقد غدت جزءا منى .

٢٤ حزيران

تبين ان غيظها له اسباب بسيطة . تبادلنا حديثا مكشوفا اليوم واخبرتنى باننى لم استطع ان اشبع جسدها . لم يتم الانفصام بعد . لعل ذلك فى غضون بضعة ايام .

٢٦ حزيران

ان ما تحتاج اليه هو جواد فحل ! فحل بمعنى الكلمة !

٢٨ حزيران

يشق علىَّ كثيرا أن اتخلى عنها . انى التصق بها التصاق

القدم بالوحل . خرجنا اليوم الى تلال فورويبوفى . جلست بجانب نافذة الفندق وترشحت الشمس من تحت السقف المزخرف على جعدات شعرها . ان لشعرها لون الذهب الخالص . ها انا قد غدوت انظم شعرا !

٤ تموز

تركت عملى ، اذ تركتنى ليزا . شربت اليوم جعة مع سترزنيف . بالامس شربنا الفودكا . افترقنا ، انا وليزا ، كما يفترض فى الناس المهذبين ان يفترقوا ، وبطريقة لائقة بلا منغصات . واليوم رأيتها فى شارع دميتروفكا بصحبة شاب يرتدى جزمة راكبى خيل السباق . استجابت لتحيتى بتحفظ . لعل الوقت قد حان لان اتوقف عن كتابة هذه المذكرات — فقد نضب معينها .

٣٠ تموز

اننى ملزم على ما كنت اتوقع تماما بتناول القلم من جديد . هى الحرب . حماس بهيمى متفجر . كل اصحاب القبعات العالية يفوحون بالوطنية كالكلاب الميتة . الاخرون ساخطون ، غير اننى اشعر بالرضا . لقد اضنانى الحنين الى . . . «فردوسى المفقود» . طاف بى ليلة امس حلم هادئ صغير عن ليزا . لقد خلفت فىَّ اثرا عميقا من التشوق . ليته يتجلى .

١ آب

لقد سئمت من كل هذا الضجيج والاضطراب . عاودنى الحنين القديم . انا امصه كما يمص طفل مصاصة .

٣ آب

مخرج من الازمة ! سوف امضى الى الحرب . حماقة ؟ تماما . شيء مخجل ؟

ولكن ما عسانى افعل غير ذلك ؟ واه على اى شيء له طعم مغاير ! ومع ذلك ، فقبل عامين لم يكن لدى اى شعور بالتخمة كهذا . ام ترى ان الهرم بدأ يدب فى ؟

٧ آب

ها انا اكتب فى القطار . لقد تركنا فورونيج لتونا . وفى الغد ساكون بين اهلى . لقد اتخذت قرارى . سوف احارب من اجل «الدين والقيصر ، وارض الاجداد» .

١٢ آب

يا للتوديع الحافل الذى شيعونى به . كرع الاتمان قدحا او قدحين ثم القى خطبة جياشة . واخبرته همسا ، بعد ذلك ، انه احمق . فصعق ، حتى ان خديه اخضر لونهما مهانة . ثم فح صوته بحقد : «انا ايضا افهم فى الامر . عسى الا تكون واحدا من اولئك الذين اذقناهم لفح السوط عام ١٩٠٥ ، اليس كذلك ؟» فاجبت بانني ، مع الاسف الشديد ، لست «واحدا من اولئك» . بكى ابى وحاول ان يقبلنى وقطرة سائلة تتدلى من ارنبة انفه . يالابى العزيز المسكين ! كان عليه ان يكون فى مكانى . واقترحت عليه هازلا ان عليه ان يأتى معى ، فهتف مذهولا : «ولكن ماذا عن شئون الضيعة ؟» . غدا ، ساغادرهم ميمما شطر المحطة .

١٣ آب

هنا وهناك ، حقول قمح غير محصود . سناجب ارضية على الاكمات . ان لها شبها عجيبا بالالمان الذين نراهم فى الصور الرخيصة وقد انغرز فيهم رمح كوزما كروتشكوف . كان ياما كان ، ويوم كنت تلميذا ادرس الرياضيات والعلوم الدقيقة الاخرى ، لم يمر فى خاطرى قط اننى سأعيش الى اليوم الذى اجد فيه نفسى «داعية وطنيا» . ما ان التحق باحدى الكتائب حتى اتوجه بخطبة الى القوزاق .

٢٢ آب

فى احدى المحطات الواقعة على الخط الحديدى رأيت اول جماعة من الاسرى . كان ضابط نمساوى وسيم رياضى البنية يساق تحت الحراسة صوب بناية المحطة . وكان ثمة فتاتان تتمشيان على الرصيف ، فابتسمتا له . واستطاع ان يدبر لهما انحناءة انيقة جدا دون أن يتوقف ، واطار قبلة فى الهواء صوبهما .

كان ، حتى فى اسره ، حليق الذقن ، مهذبا ، وجزمته البنية ملمعة . لبثت اراقبه وهو يمضى مبتعدا . شاب وسيم ، وجه لطيف ودود . لو صادفته فى معركة ، لما ارتفعت ذراعك لضربه .

٢٤ آب

لاجئون ، لاجئون ، لاجئون . . . ان كافة الخطوط الحديدية مزدحمة بقطر من اللاجئين والوحدات العسكرية .

مر أول قطار طبّى توا . وحينما توقف قفز منه جندى فتى . وجهه معصوب . تحادثنا . كان قد جرح بقذيفة عنقودية .

كان فرحا الى حد كبير لان من المحتمل ان يعفى من اية خدمة عسكرية اخرى . كانت عينه تالفة . على انه كان يضحك فى الواقع .

٢٧ آب

انا الان فى كتيبتى . وآمر الكتيبة شيخ لطيف جدا . قوزاقى من الدون الاسفل . ان بمقدور المرء ان يشم رائحة الدم هنا . والشائعات تسرى باننا سنكون فى الخط الامامى بعد غد . انا فى الرعيل الثالث من السرية الثالثة — قوزاق من ناحيـة قسطنطينوفسكايا . رهط تعس . ليس بينهم سوى ماجن ومغن واحد .

٢٨ آب

نحن فى الطريق . واليوم ، ينبعث من هناك الكثير من الجلبة . اصوات كالرعد تقصف من بعيد . حتى اننى تشممت الهواء بحثا عن المطر . بيد ان السماء كانت كالحرير الازرق .

امس ، صار حصانى اعرج ، فقد سحج ساقه فى عجلة مطبخ الميدان . كل شىء جديد وغريب . لست ادرى بم ابدأ وعم اكتب .

٣٠ آب

امس لم يكن لدى وقت للكتابة . وها انا الان اكتب على السرج . ان الارتجاج يجعل قلمى يخط غرائـب وعجائب . نحن ثلاثة ماضون على خيلنا مع عجلة علف لجلب العشب .

ها هم الاولاد يقومون بحزم الحمولة ، وانا متمدد على بطنى ادون تسجيلا متأخرا لما حدث امس . امس ، العريف تولوكونيكوف (الذى يناديني باحتقار «ايها التلميذ» — «اسمع يا انت ، ايها التلميذ ، الا تستطيع ان ترى ان حدوة حصانك قد انخلعت ؟») — هذا العريف ارسل ستة منا للاستطلاع . مضينا عبر قرية التهمتها النار عن اخرها . كان الجو شديد الحر . كانت الخيل تتصبب عرقا ، وكذلك نحن . لايجوز الزام القوزاق بارتداء السراويل الجوخ فى الصيف . فى حفرة خارج القرية رأيت أول جثة المانى . ملقى على ظهره وساقاه فى الحفرة . التوت احدى ذراعيه تحته . بينما اطبقت الثانية على حافظة بندقية . لا بندقية فى أى مكان على مقربة منه . منظر مميت . قشعريرة باردة تسرى الان فى عمودى الفقرى وانا افكر به . . . بدا وكأنه قد قعد وساقاه فى الحفرة ، ثم تمدد على ظهـره للاستراحة . بزة وخوذة رماديتان . باستطاعتك ان ترى البطانة الجلدية . لقد اصابنى ذهول فى هذه التجربـة الاولى حتى صار من المستحيل علىَّ الان تذكر وجهه . لا شىء سوى النمل الكبير الاصفر يتزاحف فوق جبينه الاصفر وعينيه الجامدتين نصف المغمضتين . اما القوزاق فقد رسموا اشارة الصليب عليهم وهم يمرون بجانبه . نظرت الى بقعة الدم الصغيرة على الجانب الايمن من بزته . لقد اصابته الرصاصة فى جانبه الايمن واخترقته . وبينما كنت امر به لاحظت ان فى الجانب الايسر حيث خرجت الرصاصة من جسمه كانت البقعة الحمراء على بزته وكتلة الدم على الارض اكبر بكثير ، والبزة ممزقة اربا اربا .

تركته والقشعريرة تخضنى . اذن ، هكذا يحدث الامر . . .

العريف الاقدم ، المكنى «بالمزعج» ، حاول ان يستنهض

مرحنا بان راح يقص علينا حكاية بذيئة ، بيد ان شفتيه كانتا ترتعشان .

وبعد مسيرة نصف فرست تقريبا من القرية ، صادفنا معملا مبقور البطن ، لم يبق منه سوى حيطان من الطابوق سودها الدخان عند القمة . خشينا ان نمضى باستقامة الطريق لانه كان يمتد بمحاذاة هذا التل من الرماد ، فقررنا ان ندور حوله من الجانب الاخر . وما ان خرجنا عن الطريق حتى شرع احدهم باطلاق الرصاص علينا من جهة المعمل . لقد كاد صوت تلك الطلقة الاولى ان يقلبنى من على سرجى ، وان كنت اشعر بالخجل من الاقرار بذلك . قبضت على رمانة السرج ، وبحركة غريزية انحنيت وشددت على العنان . انطلقنا عائدين هذبا الى القرية مارين بالحفرة التى رقد فيها الالمانى القتيل ، ولم نستعد صوابنا الا بعد ان خلفنا القرية وراءنا . ثم استدرنا وترجلنا . تركنا الخيل مع رجلين ، وشق اربعتنا الطريق عائدين الى تلك الحفرة . جثونا لنمضى خلالها . ومن بعيد وقع بصرى على ساقى الالمانى القتيل فى جزمتهما الصفراء القصيرة ، مدلاتين فوق الحافة . وحينما مررت به قطعت نفسى ، كما لو كان نائما اخشى ايقاظه . كان العشب تحته نديا اخضر .

تمددنا فى الحفرة ، وما ان مرت بضع دقائق حتى انطلق تسعة المان من حاملى الحراب راكبين من وراء خرائب المعمل المهدوم . كان بمقدورى ان اشخص فيهم حاملى حراب من بزاتهم . صاح احدهم ، ضابط حتما ، بصوت غليظ ، فانطلقت المفرزة برمتها باتجاهنا .

ها هم الاولاد ينادون علي الان لاذهب لمساعدتهم فى تحميل العشب . يجب ان امضى .

٣٠ آب

اريد ان اتم وصف كيف اطلقت الرصاص على رجل لاول مرة فى حياتى . هجم حاملو الحراب الالمان علينا ، ولا ازال استطيع ان ارى تلكم البزات الخضر بلون السحالي وخوذهم المتلألئة التى تشبه الاجراس شكلا ، ورماحهم والاعلام ترفرف فى رؤوسها .

كانوا يمتطون خيلا كمتا غامقة اللون . ولسبب ما سرحت بنظرى على حافة الحفرة ولاحظت خنفساء صغيرة زمردية . راح جرمها يكبر حتى بدت هائلة الحجم . وجعلت تشق طريقها ، وهى تهز اوراق الحشيش كالعملاق ، متجهة صوب مرفقى الذى كنت قد ركزته على فتات الطين الجاف للحافة . تسلقت كم قمصلتى وزحفت مسرعة نحو البندقية ، ومنها الى الحمالة . كنت لا ازال اراقب رحلتها حينما تناهى الىَّ صوت «المزعج» زاعقا : «اطلق النار ، ماذا دهاك ؟ !»

ركزت مرفقى بثبات اكثر ، وضيقت عينى اليسرى وشعرت بقلبى يتضخم حتى غدا هائلا كتلك الخنفساء . وارتعشت موجهات بندقيتى ازاء بزة رمادية مخضوضرة . ضغطت على الزناد واستمعت الى نواح الرصاصة الطائر . والى جانبى اطلق «المزعج» ناره ، لابد ان موجهاتى كانت خفيضة اكثر مما يجب ، ذلك لان الرصاصة ارتدت عن الارض فاطارت قرمة من العشب وخلفت مثارا من الغبار . تلك اول طلقة سددتها على رجل فى حياتى . ثم افرغت مخزن العتاد دونما تصويب ، ودون ان أرى شيئا امامى . ولم الق نظرة باتجاه الالمان الا حالما سحبت الزناد فلم الق استجابة . كانوا يسرعون عائدين على نفس النمط الاول ،

والضابط فى المؤخرة . كانوا تسعة كما من قبل . واستطعت ان ارى الكفل الاسمر الغامق لحصان الضابط والصفحة المعدنية فى قمة خوذته ، خوذة حاملى الحراب .

٢ ايلول

فى «الحرب والسلم» فقرة يتحدث فيها تولستوى عن الخط الفاصل بين الجيشين المتقاتلين ، خط المجهول الذى يبدو انه يفصل بين الاموات والاحياء . تمضى السرية التى يخدم فيها نيكولاى روستوف الى القتال ، ويرى روستوف ذلك الخط بعين بصيرته . اننى اتذكر تلك الفقرة على وجه التخصيص بشكل حي هذا اليوم ، لاننا فى فجر اليوم قمنا بهجوم على وحدة من الخيالة الالمانية الخفيفة . فمنذ غبشة الصباح كانت قواتهم ، تساندها المدفعية الممتازة ، تشيع القلق فى صفوف مشاتنا . رأيت بعض رجالنا — كتيبتى المشاة ٢٤١ و٢٧٣ ، على ما اظن — يلوذون بالفرار وقد استبد بهم الرعب . لقد انهارت معنوياتهم تماما بعد ان دفعوا الى الهجوم من غير ما مدفعية تساندهم . وكانت نار العدو قد حصدت ثلث عددهم تقريبا ، وكانت الخيالة الالمانية تطاردهم . ثم قذف بكتيبتنا فى المعركة ، وكانت تقف فى فسحة داخل احدى الغابات . هذا هو الحدث كما اتذكره .

غادرنا قرية تيشفيتشى بين الثانية والثالث صباحا . كان الفجر على وشك ان يطل ، والظلام دامسا . وكان الهواء مفعما برائحة الشوفان وابر الصنوبر . تقدمت الكتيبة على شكل سرايا . انحرفنا عن الطريق وصرنا نضرب عبر الحقول . وراحت الخيل تنخر وهى تنفض الندى الثقيل عن الشوفان بحوافرها .

كان البرد لاسعا رغم معاطفنا . جعلوا الكتيبة تسير عبر

الحقول وقتا طويلا ، ومرت ساعة قبل ان يقدم ضابط على حصانه ويسلم امرا الى آمر الكتيبة . وتلا شيخنا الأمر علينا بنبرة برمة ، فاستدارت الكتيبة يمينا صوب الغابة . وانحشرت ارتالنا فى الممر الضيق . كان القتال يدور فى موضع ما الى اليسار . وادركت من الاصوات ، ان عددا كبيرا من البطاريات الالمانية تطلق النيران . وكان صوت الرمى يتذبذب فى الهواء ، فخامرنى شعور بان كل الصنوبر الشذى فوق رؤوسنا تلتهمه النيران . ولم نكن لنفعل شيئا غير الانصات ، حتى مشرق الشمس . انطلق هتاف «هورا» ، هتاف مبتور مهلهل ، ثم خيم السكون يصحبه الطرق الصافى للمدافع الرشاشة . وفى تلك اللحظة كانت افكارى تدور فى دوامة ، كان الشيء الوحيد الذى استطيع تذكره — واضحا كل الوضوح والى حد الالم — هو وجوه مشاتنا وهم يتقدمون .

كنت استطيع ان ارى بعين بصيرتى تلك الهياكل الرمادية الخرقاء ، بقبعاتهم العسكرية المسطحة ، وجزمهم القصيرة الغليظة وهى تضرب على الارض الخريفية ، وكنت استطيع ان استمع الى ثرثرة المدافع الرشاشة الالمانية ، الحادة المبحوحة ، وقد شرعت تحيل هذه الاجسام البشرية العرقة الحية الى جثث . كانت الكتيبتان قد حصد منهما الكثير ، فهرب الباقون تاركين اسلحتهم وراءهم . ثم اغارت كتيبة من الخيالة الالمانية الخفيفة عليهم . فخرجنا اليهم من جانبهم على مبعدة قليلة . وصدر امر الينا . فتشكلنا فى الحال . ثم سمعت أمرا باردا مقتضبا : «الى الامام !» . وبدا وكأنه يمنعنا عن التقدم ، كما تفعل الشكيمة بالحصان ، ثم انطلقنا الى الامام . كانت اذنا حصانى ملتصقتين تماما على رأسه بحيث لم يكن ان ترفع باصابع اليد . القيت نظرة حولي — كان ورائى آمر الكتيبة وضابطان . اجل ،

هو ذاك ، هو ذاك الخط الفاصل بين الاحياء والموتى . تلك هى ، لحظة الجنون الكبرى !

تخبط الخيالة الالمان واستداروا امام عينى ، قام آمر سريتنا تشيرنتسوف بقتل فارس المانى . ورأيت قوزاقيا من السرية السادسة يلحق بالمانى ويعمل سيفه بجنون بكفل حصانه . وانثالت شرائط من الجلد عن السيف فيما كان يعلو ويهبط . كان شيئا لا يصدق ! لا اسم له ! وفى طريق العودة رأيت الى وجه تشيرنتسوف ، راسخا مرحا — وكأنه جالس الى طاولة قمار ، لا على سرجه ، وقد قتل رجل لتوه . سيصعد آمر السرية تشيرنتسوف فى مدارج الرقى . انه رجل كفوء !

٤ ايلول

نحن فى فترة استراحة . يجرى الآن استقدام الفرقة الرابعة للجيش الثانى الى الجبهة . نحن معسكرون فى بلدة كوبيلينو الصغيرة . مرت هذا الصباح مسرعة عبر البلدة وحدات من فرقة الخيالة الحادية عشرة وقوزاق الاورال . مازال القتال مستمرا فى الجبهة الغربية . هدير لا ينقطع . ذهبت بعد الغداء الى مستشفى الميدان . كانت عربات الجرحى قد وصلت لتوها . وكان حملة النقالات يفرغون عربة كبيرة ويتضاحكون . مضيت اليهم . كان جندى مديد القامة ذو وجه مجدور قد هبط لتوه بمساعدة نفر وهو يتأوه ويبتسم . قال ، موجها كلامه الي : «ما رأيك بهذا ايها القوزاقى . لقد افرغوا حملا من الحمص فى عجيزتى . انها ملأى بشظار قذيفة عنقودية» . فسأله النفر ان كانت القذيفة قد انفجرت خلفه . «اللعنة على خلفى . كنت اتقدم مديرا ظهرى الى الامام» . خرجت ممرضة من احد الاكواخ . رنوت

اليها فشعرت بضعف بالغ حتى اننى اضطررت الى الاتكاء على عربة . كان لها شبه خارق بليزا . العينان نفسهما ، الوجه البيضوى نفسه ، الانف ، الشعر . حتى صوتها كان مشابها . ام ترانى كنت اتخيل الاشياء ؟ احسب اننى ، الان ، سأجد شبها لها فى كل امرأة اصادفها .

٥ ايلول

نعمت الخيل بيوم كامل من الطعام فى المعالف ، وها نحن بصدد المضى الى الجبهة من جديد . انا حطام من الناحية البدنية . وها هو البوقى يطلق الايعاز بالركوب . هو ذا رجل بودى ان اضع رصاصة فى رأسه !»

* * *

كان آمر السرية قد ارسل غريغورى ميليخوف يحمل رسالة الى مقر قيادة الكتيبة . وفيما كان سائرا على حصانه عبر المنطقة التى وقع فيها القتال الاخير لاحظ قوزاقيا ميتا ممددا على قارعة الطريق العام . كان مستلقيا برأسه الاجعد الاشقر قريبا من الطريق الذى حفرته السنابك . فترجل غريغورى وامسك انفه (فقد كان الميت يفوح بجيفة التفسخ) ، وفتشه . فوجد دفتر المذكرات هذا فى جيب سرواله ، وبقية قلم لا يمحى اثره ومحفظة نقود . ازاح سير العتاد ونظر الى الوجه البليل الشاحب الذى جعل يتفسخ . كان لون الصدغين وجسر الانف يحول الى سواد وعلى جبينه اخدود مائل معفر بالتراب وقد جمد هناك جمود الاموات .

غطى غريغورى الوجه بمنديل رقيق القماش وجده فى جيب الميت ثم مضى على حصانه الى المقر ، كان يلقى بين الفينة

والفينة نظرة الى الوراء . . . وسلم دفتر المذكرات الى كتاب المقر الذين تجمعوا ليقرأوه ويضحكوا من حياة هذا الرجل الوجيزة ورغباته الدنيوية .

١٢

خلال بداية شهر آب ، راحت فرقة الفرسان الحادية عشرة تستولى خطفا على المدن ، واحدة اثر اخرى ، وفى اواسط الشهر كانوا منتشرين حول بلدة كامينكا–سترومیلوفو . وكان الجيش ، يأتى خلفهم ، ووحدات المشاة تتكتل فى قطاعات ستراتيجية مهمة ، ووحدات القيادات وقطر الامتعة تتجمع عند مفارق خطوط السكك الحديدية . وامتدت الجبهة من البلطيق كلفحة سوط مميتة . وفى مقر هيئة الاركان كان العمل يجرى لاعداد هجوم كبير . كان الجنرالات يحدقون فى خرائطهم ، والسعاة الفرسان يمرقون جيئة وذهابا حاملين اوامر المعركة ، وكان مئات الالاف من الجنود يغذون السير نحو حتفهم .

افادت دوريات الاستطلاع ان قوات كبيرة من خيالة العدو كانت تقترب من البلدة . وفى الغابات الواقعة على امتداد الطرق حدثت مناوشات بين مفارز القوزاق والحرس الامامى للعدو .

منذ ان رأى غريغورى ميليخوف اخاه وهو يسعى لوضع حد لافكاره المؤلمة ، ولاستعادة هدوئه الذهنى السابق . بيد ان ذلك كان عبثا . وفى التعزيزات الاخيرة التى جيء بها من وجبة الاحتياط الثالثة ، كان ثمة قوزاقى يدعى اليكسى اوريوبين قد جند فى رعيل غريغورى . كان اوريوبين طويل القامة ، ظهره متقوس ، وفكه الاسفل عدائى المظهر ، وعذاراه كالميكيان متهدلان . كانت عيناه الجذلتان الجريئتان دائمتى الابتسام ،

وكان اصلع الرأس خلا شعرات مفرقة حمر حول حوافى جمجمته حادة التقاطيع . وقد اطلقت عليه كنية «الاشعث» منذ اليوم الاول لوصوله .

بعد ان انتهى القتال حول بلدة برودى اعطيت الكتيبة يوما للراحة . كان غريغورى واوريوبين ينزلان كوخا واحدا ، وسرعان ما ضمهما حديث :

— اتعلم ، يا ميليخوف ، لا بد انك مهلوس .

فتساءل غريغورى متجهما :

— ماذا تعنى : مهلوس ؟

فشرح له اوريوبين :

— انت خامل ، كأنك مريض .

كانا يطعمان حصانيهما وقد توقفا يدخنان وظهراهما الى سياج متداع نما عليه الطحلب . كان ثمة فرسان يسيرون فى الطريق فى تشكيلة رباعية ، وجثث الموتى مبعثرة هنا وهناك حذاء الاسيجة ، فقد نشب القتال فى الشوارع اثناء انسحاب النمساويين ، وكانت رائحة اشياء محروقة تنبعث من خرائب معبد يهودى مبقور البطن . وفى زحمة الالوان الثرة للمساء المبكر بدت البلدة صورة هائلة واحدة للخراب والفراغ الموحش .

— انا بخير — وبصق غريغورى دون ان ينظر الى الاخر .

— انت تكذب ! لي عينان ارى بهما !

— حسنا ، وما الذى باستطاعتك ان تراه ؟

— انت خائف ! تخاف الموت ؟

— انك احمق ! — قال ذلك غريغورى بازدراء ، وهو يحدق فى اظافره بعينين ضيقتين .

فأستانف اوريوبين استجوابه محدقا فى وجه غريغورى :

— قل لي ، هل قتلت احدا ؟
— نعم ، وماذا فى ذلك ؟
— هل يثقل ذلك على قلبك ؟
— يثقل على قلبى ؟
وابتسم غريغورى بمرارة .
فاستل اوريوبين حسامه من غمده ، وقال :
— اتريدنى ان اطوح برأسك ؟
— وماذا بعد ذلك ؟
— سأقتلك بلا انة ندم . لا رحمة عندى .
كانت عينا اوريوبين تبتسمان ، ولكن غريغورى ادرك من صوته واختلاجة منخريه الوحشية انه يعنى ما يقول .
فقال غريغورى ، وهو يتفحص وجه اوريوبين عن كثب :
— انت غريب الاطوار ، انت متوحش .
— ياه ، ان قلبك مصنوع من ماء . اتعرف هذه الضربة ؟ انتبه !
وانتقى اوريوبين شجرة بتولا عجوزا فى السياج ، ويمم صوبها مباشرة ، وهو يقيس المسافة بنظرة . وتدلت دونما حراك ذراعاه الطويلتان القويتان برسغيهما العريضين بشكل خارق .
— انتبه !
ورفع حسامه ببطء ، وفجأة هوى به مائلا بقوة فظيعة . فقطع الشجرة كليا على علو اربعة ارشينات * من الارض ، فهوت ، واغصانها تخبط على النافدة وتخمش حيطان الكوخ .
— أرايت ذلك ؟ تعلمه . كان هناك اتمان يدعى باكلانوف ،

---

* مقياس طول روسى قديم يساوى ٠,٧١ متر . الناشر .

أسمعت به ؟ كانت شفرة حسامه مسقية بالفضة . فكان رفعه ثقيلا ولكنه كان يستطيع ان يشطر حصانا به . هكذا !
استغرق غريغورى وقتا طويلا ليتعلم تكنيك هذه الضربة الجديدة .
— انت قوى ، ولكنك بليد فى استعمال سيفك . هذه هى الطريقة !
ومضى اوريوبين يعلمه ، هاويا بحسامه على نحو مائل وبقوة هائلة . — اقتل الناس بقوة قلب ! فالانسان رخو كالعجين — وسرت ابتسامة الى عينيه — لا تفكر بالاسباب والنتائج . انت قوزاقى ، مهمتك ان تقتل دون اسئلة . ان قتلك عدوا فى معركة واجب مقدس . وكل رجل تقتله تكفر لك عن خطيئة عند الرب وكذلك عند قتلك لافعى ولكن لا تقتل حيوانا الا عند الضرورة ، عجلا او غيره ولكن امحق الانسان ! انه كافر ، نجس . يسمم الاراضى ، وهو يعيش مثل نبات الفطر !
واذا اعترض غريغورى على كلامه ، قطب وجهه وخلد الى صمت عنيد .
لاحظ غريغورى مندهشا ان جميع الخيول كانت تخاف اوريوبين فاذا ما اقترب منها نصبت آذانها وتجمعت معا وكأن المتقدم منها حيوان لا انسان . وحدث ذات مرة ان كان على السرية ان تشن هجوما على الاقدام فى منطقة تغطيها الغابات والمستنقعات . فاقتيدت الخيول الى وهدة جانبية . وكان اوريوبين من بين الذين انتدبوا لهذا العمل ، الا انه رفض ذلك رفضا باتا . فهاجمه عريف الرعيل : «اوريوبين لماذا بحق الشيطان لا تقود خيلك ؟»
أجاب اوريوبين والتلألؤ المعهود يومض فى عينيه : «انها

تخافنى ، والله ، انها تخافنى !»

لم يكن ليأخذ دوره فى سوس الخيل قط . سوى انه كان يعامل حصانه بلطف ، بيد ان غريغورى لاحظ انه كلما اقترب من الحيوان مسبل اليدين كالعادة سرت رجفة فى ظهر الحصان وراح يتململ قلقا .

وسأله غريغورى ذات مرة : «قل لي ، لمَ تخافك الخيل ؟» فاجاب ، هازا كتفيه : «لا ادرى . فانا شفيق بها» .

— انها تعرف السكير فتخشاه ، ولكنك لا تسكر قط .

— عندى قلب قاس ، ويبدو انها تحس بذلك .

— ان لك قلب ذئب . او لعل الذى لديك حجر وليس قلبا البتة .

— جائز ! — رد بذلك اوريوبين موافقا .

أرسل الرعيل الثالث فى مهمة استطلاعية . اذ كان تشيكى هارب من الجيش النمساوى قد اخبر القائد الروسى فى المساء السابق عن تحول فى موقف قوات العدو وعن نيته بشن هجوم مضاد ، فاستجدت الحاجة الى بث مراقبة دائمة على الطريق الذى يتعين على الكتائب المعادية ان تجتازه . ترك ضابط الرعيل اربعة قوزاق بصحبة العريف فى طرف احدى الغابات ، واتجه هو بالباقين صوب بلدة تقع خلف المرتفع الاخر . وكان الذين تركوا مع العريف هم غريغورى ، واريوبين ، وميشا كوشيفوى ، وقوزاقى اخر . اتخذوا موقعا لهم بالقرب من مصلى قديم .

اصدر العريف لهم امرا بالترحيل وطلب من كوشيفوى ان يقود الخيل الى ما وراء اجمة كثيفة من اشجار الصنوبر ويعنى بها .

استلقى القوزاق يدخنون بجانب صنوبرة ساقطة ، فيما

راح العريف يراقب المدى خلل منظارته . ولبثوا هناك نصف ساعة يتبادلون جملا كسلى . وكان يتناهى من مكان ما الى اليمين هدير رمى متواصل . وكان ثمة حقل من الجويدار غير المحصود على مبعدة بضع خطوات ، لم تعد سنابله تحمل حبوبا ، يتماوج فى مهب الريح . فزحف غريغورى الى داخل الجويدار ، وانتقى بضع سنابل لم تزل محملة ، فقشرها ومضى يمضغ الحبوب .

قال العريف بصوت خفيض :

— لا بد انهم نمساويون .

انتفض سيلانتييف : — اين ؟

— انظر الى اليمين .

خرجت ثلة من الفرسان من غابة بعيدة وتوقفت لتتفحص المنطقة المكشوفة ، ثم استأنفت عدوها باتجاه القوزاق .

صاح العريف : — ميليخوف !

زحف غريغورى الى شجر الصنوبر .

همس العريف بنبرة محمومة :

— لندعهم يقتربون ثم نصليهم بنارنا استعدوا ببنادقكم ، يا اولاد .

مضى الفرسان من غير عجلة متجهين الى اليمين . اما القوزاق الاربعة فكانوا منبطحين تحت الصنوبر صامتين وانفاسهم محبوسة . تناهى الى مسامعهم صوت جهير يتكلم بالالمانية .

رفع غريغورى رأسه . كانوا ستة من الخيالة المجريين بقمصلاتهم الانيقة المزركشة بالضفائر والشرائط البيض . وكان قائدهم يمتطى حصانا ادهم ضخما ويمسك بغدارته بين يديه ، وهو يضحك بهدوء .

وانطلق أمر العريف : «ارم !» فاندفعت رشقة الرصاص

تتصادى خلل الاشجار .

وجاءت صيحة مذعورة من كوشيفوى من وراء اشجار الصنوبر : «ماذا حدث ؟ هوه ، ايها الشيطان ! اهدأ فى مكانك !» . وبدا صوته عاليا جدا . وهرع الخيالة هذبا الى داخل حقل الجويدار فى تشكيلة احادية . واطلق احدهم ، وهو القائد ، طلقة فى الهواء واقعى اخرهم ، وهو يتشبث برقبة الحصان ويمسك قبعته بيده اليسرى .

كان اوريوبين اول من وثب على قدميه . واسرع متعثرا خلل الجويدار وهو يرفع بندقيته مستعدا لاطلاق النار . وعلى مبعدة مائة خطوة تقريبا ، وجد حصانا منطرحا على الارض يرفس وينافح ، وخيالا مجريا واقفا الى جانبه يفرك ركبته التى اصيبت عند السقوط . هتف بشىء لاوريوبين ورفع يديه علامة الاستسلام وهو يحدق فى رفاقه المتراجعين .

حدث كل هذا بسرعة كبيرة بحيث لم يتسن لغريغورى ان يستوعب ما كان يجرى حينما عاد اوريوبين بالاسير .

صرخ اوريوبين بالمجرى : «جرده !» وهو يجرده بفظاظة من سيفه .

فابتسم الاسير مذعورا ، واسرع يتلمس نطاقا سعيا لتسليم السيف باسرع ما يمكن . لكن يديه ارتعشتا ، ولم يستطع ان يفلح فى حل المشبك . فعاونه غريغورى بحذر ، فشكره الخيال بابتسامة وايماءة من رأسه ، وكان فتى منتفخ الخدين تعلو زاوية شفتيه العليا شامة صغيرة . وبدا سعيدا بتجريده من السلاح ، ثم نقب فى جيبه باضطراب واخرج كيسا جلديا ، وغمغم بشىء وقدم تبغا للقوزاق .

— انه يعزمنا ! — وابتسم العريف ومد يده باحثا عن

اوراق سكائره . وقهقه سيلانتييف قائلا : «لندخن على حساب الغير» .

ولف القوزاق سكائر من تبغ الخيال ودخنوا . وسرعان ما صعد التبغ الاسود القوى الى رؤوسهم .

وتساءل العريف وهو يسحب نفسا شرها من سيكارته : «اين بندقيته ؟» .

فقال اوريوبين : «هى ذى» ، وكشف من وراء ظهره عن الحمالة الصفراء المخاطة . قال العريف :

— من الافضل ان نأخذه الى السرية . فسوف يرغبون فى سماع ما لديه . من منكم سيأخذه ، يا اولاد ؟ — ونحنح ومر عينيه على القوزاق .

فاسرع اوريوبين مجيبا : «انا» .

— حسنا ، هيا !

وبدا على الاسير انه ادرك ما كان ينتظره ، اذ انه ابتسم ابتسامة شوهاء ، وافرغ جيوبه ، وقدم للقوزاق شيئا من الشيكولاته الطرية المكسرة . وراح يتأتئ ، وهو يلوح بارتباك ، ويده ممدودة بالشكولاته : «روسين ابش . . . روسين . . . ناين اوستريش . . .» *

فسأله العريف : «هل من اسلحة لديك ؟ لا تقعقع هكذا ، فنحن لا نقدر ان نفهمك هل لديك مسدس ؟ طاق — طاق ؟» وسحب العريف زنادا خياليا . فهز الاسير رأسه نفيا .

وعرض عليهم ان يفتشوه عن طيب خاطر ، وخداه المنتفخان يرتعشان . والدم يسيل من خدشة على ركبته فمسحها بالمنديل

---

* بالالمانية ما معناه : انا مع روسيا . . . مع روسيا . . . لا مع النمسا . المترجمون .

وتمطق بالشفتين ودمدم بلا انقطاع . وكان قد ترك قبعته بجانب حصانه الميت ، فسأل ان يسمح له بجلبها مع بطانيته ودفتر ملاحظاته حيث كان يحتفظ بتصاوير عائلته . وبذل العريف جهدا فى محاولة فهمه غير انه لوح بيده فى النهاية يائسا وقال :

— هيا امض به !

فامتطى اوريوبين حصانه ، ثم اشار الى الاسير ، وهو يصلح من وضع بندقيته على ظهره . واذ استشعر المجرى التشجيع من ابتسامة اوريوبين ، ابتسم هو الاخر وسار بجانب الحصان . وحاول ان يشيع الالفة بينهما فربت على ركبة اوريوبين ، غير ان القوزاقى اطاح بيده عن ركبته بفظاظة وشد العنان على حصانه .

— هيا امض . لا تجرب ايا من حيلك معى !

فابتعد الاسير عن الحصان كمن اقترف ذنبا ، وسار مكتئب الوجه ، وهو لا ينى ينظر الى الوراء نحو القوزاق الاخرين ، وقد انتصب شعره الاشقر متألقا على تاج رأسه . هكذا انطبعت صورته فى ذاكرة غريغورى : بقمصلته الملقاة على كتفه ، وشعره الاشقر المنفوش ، ومشيته المتزنة الوثوق .

اصدر العريف امرا : «ميليخوف ، اذهب وحل السرج عن الحصان !» وقذف من فمه آسفا عقب سيكارته التى كان قد دخنها حتى احرقت اصابعه . فسار غريغورى الى الحيوان الطريح ، وازاح عنه السرج ، ولسبب مبهم التقط القبعة المطروحة على مسافة قريبة . فتشمم بطانتها واحس برائحة الصابون الرخيص والعرق . وعاد يحمل عدة الحصان الى اجمة الاشجار وهو يمسك باعتناء بقبعة الخيال فى يده اليسرى . فقرفص القوزاق على مؤخراتهم وراحوا ينقبون فى خرجى السرج متأملين الشكل الغريب للسرج .

— كان تبغه جيدا . كان علينا ان نطلب منه المزيد .

— نعم تبغه جيد .

وتأوه العريف وهو يستعيد طعم السيكارة وبلع ريقه .

لم تكد تمضى بضع دقائق حتى ظهر رأس حصان من بين اشجار الصنوبر ، ثم جاء اوريوبين على حصانه . فهتف العريف وهو ينتفض مذهولا :

— ماذا ، اين النمساوى ؟ لعلك لم تدعه يهرب ؟

فاقترب اوريوبين وهو يلوح بسوطه ، ثم ترجل ومط كتفيه . فتساءل العريف من جديد وهو يمضى اليه : «ما الذى صنعت بالنمساوى ؟»

فرد اوريوبين مزمجرا : «لقد حاول ان يهرب .»

— وتركته يهرب ؟

— بلغنا ممرا مكشوفا ، واراد . . . ولهذا قتلته .

فصرخ غريغورى :

— انت كذاب ! انك قتلته بدون اى سبب .

— علام تصرخ ؟ ما علاقتك بذلك ؟ — وسمر اوريوبين عينيه فى وجه غريغورى .

— ماذا ؟

وكان غريغورى ينهض ببطء ، ويده المرتعشة تتلمس الارض . فاجاب الاخر بصرامة :

— لا تتدخل بما لا يجوز لك ! أفهمت ؟

فنتش غريغورى بندقيته ورفعها . وراح اصبعه يرتعش وهو يتلمس طريقه الى الزناد ، ووجهه المكفهر يعتمل غضبا .

فهتف العريف متوعدا وهو يهرع اليه : «على مهلك !» ، ولوح بالبندقية قبل ان تنطلق ، فاطارت الرصاصة غصنا من احدى الاشجار وابتعدت تئز .

فشهق كوشيفوى صائحا : «ما الامر ؟»

وتهدل فك سيلانتييف فقعد فاغر الفم .

دفع العريف غريغورى فى صدره وانتزع البندقية من يديه ، فيما وقف اوريوبين دون ان يغير موضعه ، وقد باعد بين ساقيه ، وبده اليسرى على نطاقه .

— هيا ، اطلق النار من جديد !

— لسوف اقتلك ! — واندفع غريغورى صوبه .

فصاح العريف :

— مهلا ، علام كل هذا ؟ اتريد ان تحاكم امام محكمة عسكرية وتعدم ؟

ودفع غريغورى الى الوراء ، ثم وضع نفسه بين الرجلين وقد بسط ذراعيه .

— انت تكذب ، لن تقتلنى ! — وابتسم اوريوبين .

وبينما كانوا فى طريق عودتهم ، كان غريغورى اول من رأى جثة الخيال ملقاة فى الممر . فسار امام الاخرين ، ثم كبح جماح حصانه الخائف وجعل يحدق الى اسفل . كان الرجل ممددا وذراعاه منشوران فوق الطحلب المخملى ، ووجهه الى اسفل ، وراحتاه الصفراوان كاوراق الخريف ، مبسوطتان الى اعلى . كانت ضربة فظيعة من الخلف قد شطرته نصفين من الكتف الى النطاق .

— شطره شطرين . . . — غمغم العريف بذلك فيما كان يمر ناظرا بذعر الى شعر القتيل الاشقر المنفوش ، وقد مال جانبا عن الرأس الملتوى .

مر القوزاق على خيلهم صامتين الى مقر قيادة السرية . كانت ظلال المساء قد ادلهمت ، وثمة نسيم يصعد غيمة سوداء

رقيقة من الغرب . ومن مستنقع قريب انبعثت رائحة ثقيلة من اعشاب المستنقعات ومن الرطوبة الدبقة والعفونة . وهدر طائر الانيس . ولم يكن يقطع الصمت الوسنان سوى جلجلة عدة الخيل ، وصليل السيوف على الركائب بين الحين والحين ، او خشخشة مخاريط الصنوبر حين تهرسها حوافر الخيل . وكان الالق المخضب المدلهم للشمس الراحلة ينساب فوق جذوع الصنوبر خلال الممر . ظل اوريوبين يدخن بلا انقطاع ، وكان الشرر المتطاير من سيكارته يضيء اصابعه الغليظة باظفارها المسودة ، وهى تعتصر السيكارة عصرا .

طافت الغيمة فوق الغابة ، فادلهمت الالوان الذاوية لظلال المساء وعمقت اساها الذى يعز عن الوصف .

١٣

بدأ فى الصباح التالى هجوم على البلدة . كان المفروض ان يتقدم المشاة من ناحية الغابة عند الفجر ، يعززهم الفرسان من الجانبين ، فيما تقف وحدات اخرى من الفرسان احتياطا . ولكن خطأ ارتكب فى موضع ما ومن جهة ما ، فلم تصل كتيبتا المشاة فى الوقت المحدد . فصدر امر لكتيبة البنادق رقم ٢١١ بالعبور صوب الجناح الايسر ، وفى اثناء حركة الالتفاف التى بدأتها كتيبة اخرى ، تعرضت الاولى لنيران صبتها عليها البطارية التابعة لها . فحصل اضطراب وبلبلة مهلكة قلبت الخطط ، وبات مصير الهجوم يتهدده الفشل ، ان لم يكن كارثة . وبينما كان المشاة ينقلون هنا وهناك والمدفعية تجرجر مدافعها من احد المستنقعات حيث ارسلت بناء على اوامر صدرت من جهة ما ،

هبط امر بالتقدم على فرقة الفرسان الحادية عشرة . بيد ان الارض التى اوقفوا فيها على اهبة الاستعداد كانت ارض غابات ومستنقعات ، فلم يكن بمستطاعهم ، والحالة هذه ، ان يشنوا هجوما جبهويا واسعا ، وصار على القوزاق فى بعض الاحيان ان يتقدموا رعائل . وكانت السريتان الرابعة والخامسة التابعتان للكتيبة الثانية عشرة قد وضعتا احتياطا فى الغابة ، فلم ينقض ربع ساعة على بدء التقدم العام حتى تناهت الى اسماعهم ضوضاء المعركة الهادرة القاصفة .

انطلق هتاف راعش مديد . ومن حين لاخر ، كان قوزاقى يتكلم .

— هذه منا .

— لقد بدأوا .

— اى صخب يبعثه ذلك المدفع الرشاش .

— يحصد اصحابنا ، على ما يبدو .

— صمتوا ، ها ؟

— لا ، ليس هناك بعد .

— يعنى سندخل المعمعان بعد قليل .

سيقت السريتان الى ممر فى الغابة . فاحاطت بهما جذوع الصنوبر القوية وحجبتهما عن تتبع سير المعركة . مرت بهم سرية من المشاة تكاد تركض خببا . وتوقف ضابط صف ، انيق المظهر خفيف الحركة ، وصاح بصوت اجش فى الصفوف الخلفية :

— نظام ، ايتها الصفوف !

ومضت السرية وعدتها تجلجل ، ثم اختفت فى اجمة من اشجار الحور الرومى .

ومن بعيد ، تناهى ذلك الهتاف الراعش ، خافتا خلال الاشجار ، ثم انقطع على حين غرة . وخيم صمت عميق .

— لقد وصلوا هناك الان .

— اى ، هم الآن فى المعمعان . . . يقتتلون .

اصاخ القوزاق السمع ، غير انهم لم يستطيعوا ان يسمعوا اكثر من ذلك . فمن الجناح الايمن ، كانت المدفعية النمساوية تقصف بقذائفها صوب القوات المهاجمة ، وكان القصف تتخلله لعلعة المدافع الرشاشة .

القى غريغورى نظرة على رعيله . كان القوزاق يتململون بعصبية ، والخيل لا يقر لها قرار وكأن ذبابا يضايقها . وكان اوريوبين قد علق قبعته على قربوس سرجه وراح يمسح رأسه الاصلع ، فيما كان ميشا كوشيفوى الى جانب غريغورى ينفث بقوة دخان تبغه المحلى . كانت كل الاشياء من حوله متميزة وحقيقية اكثر مما هى فى الواقع ، تماما كما تبدو غب ليلة مؤرقة .

ابقيت السريتان فى الاحتياط ثلاث ساعات . كان الرمى يتلاشى حينا ، ويرتفع حينا . وهدرت طائرة من عل . وبعد بضع دورات على ارتفاع شاهق ، يممت صوب الشرق موغلة فى الارتفاع . وانتشرت على صفحة السماء الزرقاء نفثات بلون اللبن لقذائف متفجرة اطلقتها المدافع المضادة للطائرات .

نفدت كل عدة التبغ ، كان الرجال يتحرقون الى نتيجة ما حينما قدم قبيل الظهر مراسل يحمل تعليمات ، وهو يعدو هذبا على جواده . فقاد امر السرية الرابعة رجاله فى الحال الى احد الجوانب . وبدا لغريغورى انهم لا يتقدمون ، بل يتراجعون . اما سريته هو فقد سارت خلال الغابة زهاء عشرين دقيقة ، وضوضاء المعركة تقترب منهم قليلا قليلا . وعلى مسافة غير بعيدة خلفهم كانت بطارية تطلق نيرانها سريعة ، فتشق القذائف طريقها خلال السماء المنيعة بهدير زاعق . وقد أدت ممرات الغابة الضيقة الى

تشتيت نظام السرية ، فخرجت الى العراء بلا نظام وعلى مبعدة نصف فرست تقريبا كان فرسان مجريون يعملون السيوف برجال بطارية روسية .

فصاح الامر :

— سرية ، انتظم !

ولم يكن القوزاق قد نفذوا الى فحوى الامر تماما حتى انطلق الامر الثانى :

— سرية ، استلوا السيوف . هجوما ، الى الامام !

فومض بريق خاطف ازرق من السيوف . وانطلق القوزاق من الخبب الخفيف الى هذب سريع .

كان ستة فرسان مجريين منشغلين بخيل مدفع الميدان فى الطرف الايمن للبطارية . وكان احدهم يجرجر شكائم خيل البطارية الهائجة ، واخر يضربها ببطن سيفه ، فيما كان الباقون المترجلون يدورون ويسحبون قضبان عجلات العربة . وكان ضابط يصدر اوامره من على فرس بنية قصيرة الذيل . واذ لمح الفرسان القوزاق ، قفزوا الى خيلهم .

— «اسرع ، فاسرع» ومضى غريغورى يستحث ايقاع حصانه المنطلق . وبينا هو فى انطلاقه ، انزلقت احدى قدميه لحظة من ركابها ، فاحس بالقلق فوق سرجه وخالجه ذعر داخلى ، فانحنى وتلمس برأس قدمه الركاب السائب . وحينما استرجع موضع قدمه ، صعد نظره فوجد نفسه امام الجياد الستة لمدفع الميدان . كان الحارس المتقدم ممددا فوق رقبة الحيـــوان ، محتضنها ، وقد تناثر الدم والمخ على قميصه . فوطأ حصان غريغورى جثة المدفعى القتيل بحافره محدثا خشخشة فظيعة . وكان اثنان اخران ممددين بجانب حافظة قذائف مقلوبة . وكان

رابع قد هوى على عربة المدفع ، ووجهه الى اسفل . كان سيلانتيف امام غريغورى مباشرة . واطلق الضابط المجرى النار ، برمية تكاد تكون افقية ، فهوى القوزاقى ، ويداه تمسكان بالهواء وتحتضنانه . جر غريغورى عنان حصانه ، وحاول ان يغير على الضابط من جهة اليسار ، حيث يستطيع ان يستعمل سيفه بشكل افضل ، بيد ان الضابط ادرك مناورته فاطلق عليه النار من تحت ذراعه . واذ وجد ان عتاد مسدسه قد نفد ، استل سيفه . وافلح فى تجنب ثلاث ضربات قاصمة بمهارة المبارز الخبير . فصر غريغورى على اسنانه ، وانقض عليه بضربة رابعة وهو منتصب على ركابه . حصاناهما يعدوان الان جنبا الى جنب تقريبا ، فاستطاع ان يلمح خد الضابط الحليق الداكن ورقم كتيبته المطرز على ياقته . وبحركة خادعة افلح غريغورى فى حرف انتباه الضابط ، ثم غير اتجاه ضربته وغرز نصل سيفه بين لوحى كتف المجرى . ثم سدد ضربة ثانية على رقبته ، فى اعلى العمود الفقرى تماما . فاسقط الضابط سيفه والعنان من يديه ، وقوس ظهره كمن اصابته لسعة ، ثم انكفأ على قربوس سرجه . واذ استشعر غريغورى راحة فظيعة لفحه بضربة على رأسه ، فرأى سيفه ينفذ الى العظم فوق اذنه .

ثم نزلت على غريغورى ضربة فظيعة من الخلف افقدته وعيه . واحس مذاق الدم المالح المحروق فى حلقه ، فادرك انه يهوى ، ورأى الارض الجرداء تتقدم نحوه من الجانب مدومة ، محومة فى الجو . وحينما طاح على الارض ، اعاده صوت السقوط العنيف الى وعيه لحظة . ففتح عينيه ، فتدفق الدم فيهما . ومرت باذنيه قعقعة . وانفاس خيل مجهدة . ثم فتح عينيه للمرة الاخيرة ورأى منخرى حصان وردين مفتوحين ، وقدم انسان ما

فى ركاب . «النهاية !» انسلت الخاطرة المريحة خلل ذهنه ، كالافعى . وضج هدير ما ، ثم خيم فراغ مظلم .

١٤

فى بداية آب قرر يفغينى ليستنتسكى ان يقدم طلبا بنقله من كتيبة حرس الاتمان الخاص * الى احدى الكتائب القوزاقية الاعتيادية . فحرر طلبه الرسمى ، وبعد ثلاثة أسابيع جاءه امر النقل المطلوب . وقبل ان يغادر بتروغراد كتب الى ابيه يقول :

«والدى . لقد قدمت طلبا بنقلى من كتيبة الاتمان الى الجيش النظامى . ولقد استلمت اليوم امر نقلى ، وانا راحل الى الجبهة للمثول امام آمر الفيلق الثانى . لعلك ستندهش لقرارى هذا ، غير اننى اود ان اشرح دوافعى اليه . لقد سئمت ما يحيط بى هنا . استعراضات ، حراسة ، واجبات خفارة — ان خدمتى فى القصر توتر اعصابى . وانا برم بها . اننى اريد عملا حيا او — كما تشاء — اعمالا بطولية . احسب انه دم آل ليستنتسكى الذى بدأ يفصح عن نفسه عندى ، ذلك الدم الطاهر لاولئك الذين ضاعفوا ، منذ حرب ١٨١٢ ، اكاليل الغار على مجد السلاح الروسى . اننى ذاهب الى الجبهة . ارجو ان تمنحنى بركتك . رأيت الامبراطور فى الاسبوع الماضى قبل ان يغادر مقره . اننى اعبد هذا الرجل . كنت اقف للحراسة داخل القصر . وحينما مرّ بى ابتسم وقال بالانكليزية لرودزيانكو الذى كان بصحبته : «حرسى المجيد . سأضرب على يد فيلهلم **

---

* المقصود الحرس الامبراطورى الخاص . **المترجمون** .

** امبراطور النمسا آنئذ . **المترجمون** .

به» . اننى اعبده ، كما تفعل صبية صغيرة . ولست خجلا من الاعتراف بذلك ، رغم أننى قد تعديت الثامنة والعشرين من عمرى . ان القيل والقال الذى يدور فى القصر يسبب لي افظع القلق ، فهو يلوث الاسم المجيد للامبراطور . اننى لا اصدقه . لا اقدر ان اصدقه . لقد كدت ان اطلق الرصاص على النقيب كروموف قبل مدة لانه تفوه امامى بكلمات مستخفة عن حضرة جلالتها الامبراطورية . كان ذلك شيئا دنيئا ، وقلت له ان لا احد يستطيع ان يهبط الى مثل ذلك الدرك القذر الا من تجرى فى عروقه دماء العبيد . حدثت الواقعة امام عدد اخر من الضباط . كنت عصبيا ، فسحبت مسدسى واوشكت ان اغرز رصاصة فى ذلك الوضيع ، الا ان رفاقى انتزعوا المسدس من يدى . ان حياتى يزداد بؤسها مع كل يوم اقضيه فى هذه البالوعة . وانك لن تجد اى وطنية صميمة فى صفوف كتائب الحرس ، وعلى الاخص بين الضباط ، ولا تحس — وان كان النطق بذلك يرعبنى — انهم يشعرون بأى حب للعائلة المالكة . فما هؤلاء بالنبلاء ، انهم رعاع . وهذا هو السبب الحقيقى الذى دعانى لترك الكتيبة ، فليس بمستطاعى ان اعمل مع اناس لا احترمهم . وبعد ، فهذا هو كل ما لدى تقريبا . ارجوك ان تغفر لي تشتت افكارى ، فانا فى عجالة ، وعلىَّ ان احزم حوائجى وارحل الى القومندان . حافظ على صحتك ، يا بابا . ساكتب لك مطولا من الجبهة .

ولدك يفغينى»

كان القطار القاصد وارشو يترك بتروغراد فى الثامنة مساء . فاستأجر ليستنتسكى عربة ومضى بها الى المحطة . وامتدت خلفه بتروغراد فى الق من الضياء ازرق بلون الحمام . كانت المحطة شديدة

الضوضاء مزدحمة بالناس ولا سيما العسكريين . جلب الحمال حقيبة ليستنتسكى ، واذ نفحه هذا شيئا من النقود تمنى له سفرة طيبة . نزع ليستنتسكى نطاق سيفه ومعطفه ، ثم نشر على المقعد لحافا قفقاسيا حريريا مزركشا . وكان يجلس الى جانب النافذة قس له وجه الزهاد الناحل ، وقد نشر زاده على طاولة صغيرة . ومد يده بفطيرة الى فتاة سمراء البشرة ناحلة ترتدى بزة مدرسية وتجلس فى المقعد المقابل له ، وهو ينفض النثار من لحيته الشبيهة بالقنب .

— كلي شيئا ، يا عزيزتى .

— لا ، شكرا لك .

— لا داعى للاستحياء ، ان فتاة على مثل جسمك بحاجة الى غذاء كثير .

— لا ، شكرا لك .

— تذوقى شيئا من هذه الفطيرة اذن . عسى ان تأخذ شيئا من هذا ، يا سيدى ؟

مال ليستنتسكى رأسه الى اسفل لينظر اليه ، وتساءل :

— اتراك توجه الحديث الي ؟

— اى ، نعم — انبعثت من عينى القس الدكناوين نظرة نفاذة ، ولم تفتر سوى شفتيه الرفيعتين عن ابتسامة تحت شاربه الرفيع المتهدل .

— لا ، شكرا لك . فلست اشتهى أى طعام الان .

— خسارة . فما الاكل بخطيئة هل انت فى الجيش ؟

— نعم .

— عسى ان يعينك الله .

وبينما كان النوم يغشى ليستنتسكى ، تناهى الى مسمعه

صوت القس الرخو وكأنه قادم من مسافة بعيدة ، وخيل اليه انه يتسمع الى صوت النقيب كروموف الشاكى يقول :

— انت تعلم اى دخل بائس هذا الذى تحصل عليه عائلتى . ولهذا فاننى ماض لاعمل قسا عسكريا للقطعات . فليس باستطاعة الشعب الروسى ان يحارب بلا ايمان . وكما لا يخفى عليك ، فالايمان فى تزايد ، عاما بعد عام . ولا شك ، ان هناك من ينحرف عن الطريق القويم ، ولكن اولئك من بين المثقفين فقط ، اما الفلاحون فانهم معتصمون بحبل الله .

لم يستطع صوت القس الخفيض ان ينفذ الى ابعد من ذلك فى مدارك يفغينى واخر ما يحسه فى اليقظة هو رائحة ذكية للدهن الذى كان يطلى به السقف الخشبى وما يسمعه هو صيحة فيما وراء النافذة : «هذا من شأن قسم الامتعة ، ليس من شأنى !» ففكر للحظة الخاطفة : «اى قسم للامتعة ؟» ثم انقطع خيط ادراكه . فقد غمره نعاس لذيذ ، غب ليلتين مسهدتين . ولم يستيقظ الا بعد ان ابتعد القطار زهاء اربعين فرستا عن بتروغراد . كانت العجلات تقعقع بايقاع رتيب ، والعربة تترنح وتتمايل ، وكان ثمة من يغنى فى مقصورة مجاورة ، والمصباح يلقى ظلالا ليلكية مائلة .

كانت الكتيبة التى نسب اليها ليستنتسكى قد اصيبت باضرار فادحة فى المعارك الاخيرة ، وقد سحبت من الجبهة لتستكمل خيلها وتسد الخسائر البشرية . كان مقر هيئة اركان الكتيبة فى قرية بيريزنياكى ، وهى مركز تجارى كبير . فغادر ليستنتسكى القطار عند موقف لا اسم له . وفى نفس المحطة انزل من القطار مستشفى ميدان . فاستفسر من الطبيب المسؤول عن وجهة المستشفى ، وعلم ان المستشفى كان قد نقل من الجبهة الجنوبية–الغربية

الى القطاع الذى تعمل فيه كتيبته . وتحدث الطبيب الضخم ذو الوجه الاحمر عن رؤسائه بلهجة لاذعة ، وشتم ضباط اركان الفرقة ، وراح ينفس عن غضبه المحموم فى اذنى هذا الشخص الذى تعرف عليه صدفة ، وهو يشد على لحيته طوال الوقت وعيناه تومضان من وراء نظارتيه المعلقتين على انفه .

فقاطعه ليستتسكى متسائلا :

— هل تستطيع ان تأخذنى الى بيريزنياكى ؟

— اجل ، اصعد الى العربة ، ايها الملازم — وجعل يدور الزر فى معطف ليستتسكى بلا كلفة ، واستأنف يقعقع بشكاواه من جديد : — حسبك ان تتصور فقط ، ايها الملازم . اننا قطعنا مائتى فرست داخل شاحنات للماشية لا لشىء الا لنتسكع هنا بلا عمل ، فى حين ان معركة دموية تجرى منذ يومين فى القطاع الذى نقل منه مستشفانا . كان هناك المئات من الجرحى ممن هم فى امس الحاجة الى مساعدتنا !

وكرر الطبيب كلمتى «معركة دموية» بنبرة ملؤها الغيظ .

فتساءل الملازم مجاملا : — كيف تفسر مهزلة كهذه ؟

— كيف ؟ — ورفع الطبيب حاجبيه فوق نظارتيه متهكما وانطلق هادرا : — فوضى ، هرجلة ، غباء هيئة اركان القيادة — ذاك هو السبب . اوغاد يحتلون المناصب العليا ويلوصون بكل شىء . عجزة ، يفتقرون حتى الى التفكير السليم . هل تتذكر مذكرات فرسايف عن الحرب الروسية–اليابانية ؟ حسنا ، فالحال مثل تلك الحال ، سوى ان سوءها قد تضاعف .

حياه ليستتسكى ثم مضى الى العربات ، فيما كان الطبيب لا يزال ينعب من ورائه :

— لسوف نخسر الحرب ، ايها الملازم . لقد خسرنا

واحدة مع اليابانيين ، الا اننا لم نزدد عقلا ابدا . فكل ما نستطيع فعله هو التباهى ، ولا شىء غيره .

ومضى يسير على امتداد السكك ، متجنبا الوقوع فى برك صغيرة يغشيها غطاء من الزيت ثر الالوان ، وهو يهز رأسه فى يأس .

كان الغسق ينشر اذياله حينما اقترب مستشفى الميدان من بيريزنياكى . وكانت الريح تعبث بجذامة الزرع الصفراء ، والسحب تتكاثف فى الغرب ، فكانت كتلة بنفسجية دكناء فى الاعالى ، لبلكية مضببة خفيفة الظلال فى الاسافل . اما فى الاواسط ، فقد انداحت جانبا كتلة السحب الشوهاء ، وتكومت مثلما تتكوم طافيات الجليد ازاء سد فى النهر . ومن خلال فرجة بين الغيوم ، سال فيض برتقالى من اشعة الشمس ، لينشر نثارا من الضوء ، ولينسج تحته طيفا باخوسيا من الالوان .

كان ثمة حصان ميت ملقى فى حفرة ممتدة على جانب الطريق . وكان النعل يلتمع فى احد حوافره ، التى طرحت الى اعلى بشكل عجيب . واذ كانت العربة تمر بالجثة مقعقعة ، القى ليستتسكى نظرة عليها . اما الجندى الذى كان راكبا بصحبة ليستتسكى فقد بصق على بطن الحصان الضخم وقال موضحا : «لا بد انه كان ينهب الحبوب . . .» ثم صحح قوله بعد ان نظر الى الملازم : «يأكل اكثر مما يجب من الحبوب . . .» واوشك ان يبصق ثانية ، الا انه ابتلع البصقة ، تأدبا ، ومسح فمه بكمه . «يرقد هناك ، ولا احد تكلف نفسه عناء دفنه . اما الالمان فانهم يختلفون عنا» .

فصاح يفغينى بغضب هائج لا سبب له : «وما الذى تعرفه انت ؟» وكانت كراهيته لوجه الجندى البليد الموحى بالكبرياء

والاستخفاف قد فاضت فى تلك اللحظة وكان الرجل فى الواقع ذابلا كليلا مثل حقل اجرد فى شهر ايلول . ولم يكن ليختلف قط عن الاف الجنود الفلاحين الذين كان يفغينى قد صادفهم فى طريقه الى الجبهة . فقد بدا الذبول والتهدل على الجميع ، والكلال يطل من اعينهم جميعا ، شهباء ، زرقاء ، خضراء ، او اى لون كانت ، وكانوا يذكرونه بشكل لجوج بقطع نقود نحاسية قديمة دارسة .

اجاب الجندى متمهلا : «لقد عشت فى المانيا ثلاث سنين قبل الحرب» . وكان صوته ينم عن نفس الكبرياء والاستخفاف البادبين على وجهه . واستأنف الجندى كلامه متكاسلا ، وهو يلفح الحصان بالعنان المعقود : «اشتغلت فى مصنع للسكاير فى كونيكسبرغ» .

فهتف ليستنتسكى آمرا بصرامة : «امسك لسانك !» والتفت ليحدق فى رأس الحصان وشعر ناصيته المتناثر فوق عينيه وصف اسنانه المكشوفة المصفرة بفعل الشمس .

كانت احدى سيقانه قائمة ثم محنية على شكل قوس ، وكان الحافر مشقوقا شقا صغيرا ، الا انه كان ينبعث من الفجوة بصيص رمادى صقيل ، وكان بمقدور الملازم ان يدرك من ساق الحصان ورسغه البديع انه كان حصانا فتيا واصيلا .

ساروا على الطريق الوعر . الالوان فى الغرب قد ذوت ، وهبت ريح ففرقت شمل الغيوم . وازاءها كان ساق الحصان الميت قائما مثل صليب مكسور على جانب الطريق . وحينما التفت يفغينى الى الوراء ورنا اليه ، سقطت على الحصان حزمة من الاشعة فجأة ، فازهر الساق بشعره الاشقر تحت ضيائها البرتقالى ، على غير ميعاد ، كما يزهر فرع شجرة اجرد سحرى

فى اسطورة من الاساطير .

وبينا كان مستشفى الميدان يمضى داخلا بيريزنياكى مروا بقافلة من الجنود الجرحى . وكان بيلوروسى كهل ، وهو صاحب العربة الاولى ، يمشى على مقربة من رأس حصانه ، وعنانه القنبى مجموع فى يديه . وكان يرقد فى العربة قوزاقى معصوب الرأس . كان متكئا على مرفقه ، بيد ان عينيه كانتا مغمضتين بكلال فيما راح يمضغ الخبز ثم يبصقه خليطا اسود . والى جانبه مدد جندى ، وقد تغضن فوق ردفيه بنطلونه الممزق ، وتصلب بالدم المتجمد . وكان يقذف سبابا مقذعا دون ان يرفع رأسه . واصاب ليستنتسكى الفزع بينا هو يتسمع لنبرات صوت هذا الجندى ، ذلك لانها بدت كنبرة مؤمن يتمتم صلاته بحماس . وكان فى العربة الثانية خمسة او ستة جنود يرقدون جنبا الى جنب . وكان احدهم يروى حكاية ، وقد استبد به مرح محموم ، وعيناه مشعتان ملتهبتان بصورة غير طبيعية :

— . . . يبدو ان سفيرا من لدن امبراطورهم جاء هنا وقدم عرضا لاعلان السلم . والواقع ان الذى اخبرنى بهذا رجل شريف . كل املى انه لم يكن ينسج لي حكاية ملفقة .

فاشترك فى الحديث احدهم بلهجة شكوك : «احسب كان كاذبا» ، وهو يهز رأسه الحليق الذى تعلوه ندب داء الخنازير الذى اصابه مؤخرا .

وعلق ثالث برطانة اهل الفولغا الرقيقة : «ولكن ، من المحتمل ان يكون قد اتى هنا فعلا» ، كان هذا جالسا وظهره الى الخيل .

وكان فى العربة الخامسة ثلاثة قوزاق فى جلسة مريحة . وحينما مر بهم ليستنتسكى رنوا اليه بصمت دون ان تفصح وجوههم الخشنة المعفرة عن ايما احترام للضابط . فحياهم الملازم :

«طاب يومكم ، ايها القوزاق !»

فرد القوزاقى الوسيم ذو الشارب الفضى والحاجبين الكثيفين والجالس الى جانب السائق ، بلهجة خالية من الاهتمام : «طاب يومك ، يا صاحب السعادة» .

فاستمر ليستنتسكى ، محاولا ان يميز الرقم المنقوش على سير كتف القوزاقى الازرق : «ومن اية كتيبة انتم ؟»

— الثانية عشرة .

— واين هى كتيبتكم الآن ؟

— لا ندرى .

— حسنا ، اين جرحت ؟

— على مقربة من القرية . . . ليس بعيدا من هنا .

وتبادل القوزاق الهمس فيما بينهم ، ثم قفز احدهم من العربة وهو يمسك يده المعصوبة عصبا غير محكم بيده السليمة ، وقال :

— لحظة ، يا صاحب السعادة — وخطا عبر الطريق ، عارى القدمين ، شديد الاعتناء بيده التى مزقها الرصاص وبدأت علائم الالتهاب تظهر على الجرح .

— لعلك من فيشينسكايا ، اليس كذلك ؟ لعلك ليستنتسكى ؟

— اجل ، هو انا .

— ذاك ما حسبناه . هل لديك شىء ندخنه ، يا صاحب السعادة ؟ اعطنا شيئا بحق المسيح ، فنحن نموت شوقا الى نفس واحد من التبغ .

وجعل يسير بمحاذاة العربة ممسكا بجانبها المطلى . فاخرج ليستنتسكى علبة سيكائره . فابتسم القوزاقى متوسلا وقال : «اتستطيع ان تستغنى عن دزينة منها ؟ فنحن ثلاثة ، كما ترى» .

فافرغ ليستنتسكى محتويات علبته فى راحة الرجل السمراء العريضة ، وسأله : «هل جرح الكثير من كتيبتكم ؟»

— ما يزيد على العشرين .

— خسائر فادحة ؟

— قتل الكثير منا . اشعل عود ثقاب لي ، يا صاحب السعادة . اشكرك جزيل الشكر . — واذ اشعل سيكارته ، تباطأ فى السير وصاح : «ثلاثة قوزاق من تتارسكى ، بالقرب من ضيعتكم ، قتلوا ، واجهز على الكثير منا ، نحن القوزاق .

ثم لوح يده ومضى ليلحق بالعربة . وعبثت الريح بقمصلته غير الممنطقة .

كان آمر كتيبة ليستنتسكى الجديدة قد اتخذ مقره فى بيت قس . وعندما بلغوا الساحة ودع ليستنتسكى الطبيب الذى تفضل باعطائه مقعدا فى عربة المستشفى ، ومضى يبحث عن مقر قيادة الكتيبة ، وهو ينفض الغبار عن بزته . ومر به رئيس عرفاء ذو لحية زاهية الاحمرار يقود حرسا ، ليستبدلهم بآخرين . فأدى التحية لليستنتسكى بلباقة ، ورد على استفساره ، بالاشارة الى بيت القس . كان المكان هادئا ومتكاسلا ، شأن كل مقرات هيئات الاركان البعيدة عن خط الجبهة : الكتاب منكبون فوق طاولة ، ونقيب كهل يتضاحك فى لاقطة الصوت لتلفون ميدان ، والذباب يطن حول الشبابيك ، واجراس تلفونات بعيدة تثرثر كالبعوض . اخذ جندى ليستنتسكى الى الغرفة الخاصة بآمر الكتيبة . فالتقيا عند عتبتها بعقيد مديد القامة على ذقنه ندبة ، حياه بفتور وسمع كل ما قاله له يفغينى ودعاه بايماءة للدخول الى الغرفة . واذ اغلق العقيد الباب مر بيده على شعره بحركة تنم عن ارهاق لا يوصف ، وقال بصوت رقيق رتيب :

— اعلمتنى هيئة اركان اللواء امس بأنك فى الطريق الينا ، اجلس .

واستفسر من يفغينى عن خدمته السابقة ، وعن آخر الاخبار من العاصمة ، وتساءل عن الرحلة ، ولكنه ، اثناء كل حديثهما القصير ، لم يحدث قط ان رفع عينيه المرهقتين الى وجه ليستنسكى .

فحدث ليستنسكى نفسه مشفقا وهو ينظر الى جبين الامر العريض الذى يوحى بالذكاء : «لا بد انه قاسى اياما عصيبة فى الجبهة . ان عليه علائم ارهاق مميت» . ولكن العقيد حك جسر انفه بمقبض سيفه وقال ، وكأنه يريد ازالة الوهم الذى خطر ببال ليستنسكى :

— حسنا ، ايها الملازم ، يجب ان تتعرف على اخوانك الضباط . ارجو ان تعذرنى ، فانا لم انم منذ ثلاث ليال متوالية . ففى هذا الجحر الميت ليس لدينا ما نفعله سوى السكر ولعب الورق .

فأدى ليستنسكى التحية ، واستدار نحو الباب ، مخفيا ازدراءه وراء ابتسامة . وخرج وهو يستعيد بامتعاض مقابلته الاولى هذه مع ضابطه الامر ، ويسخر مما اوحى اليه من احترام مظهر العقيد المرهق والندبة فى ذقنه .

١٥

اوكلت الى الفرقة مهمة شق الطريق عبر نهر ستير وضرب العدو فى مؤخرته .

وفى غضون ايام قلائل الف ليستنسكى ضباط كتيبته

وسرعان ما جرفه تيار المعركة فزايله شعور الدعة والرضى الذى كان قد تسلل الى نفسه .

تمت عملية اقتحام النهر على نحو رائع فحطمت الفرقة تجمعات كبيرة من قوى العدو على الجناح الايسر منها ، ونفذت الى مؤخرة قوات العدو . وحاول النمساويون شن هجوم مضاد مستعينين بالخيالة المجريين ، الا ان بطاريات القوزاق اكتسحتهم بالمنثار ، فتقهقرت سرايا المجريين دونما نظام ، تمزقها نيران المدافع الرشاشة التى احاطت بها ، وتتعقبها خيالة القوزاق .

شارك ليستنسكى فى الهجوم المضاد مع كتيبته . وخسر الرعيل الذى كان تحت امرته قوزاقيا واحدا ، واصيب اربعة بجراح . وقد سحق احدهم تحت حصانه الميت ، وكان شابا معقوف الانف . فمر الملازم به ، وهو بادى الهدوء ، جاهدا ان لا يسمع انين القوزاقى الخفيض الابح . كان مصابا فى كتفه ، وظل يتوسل الى القوزاق المارين على خيلهم بقربه :

— لا تتركونى ايها الاخوان . خلصونى من الحصان ، يا اخوان . . .

كان صوته المعذب يحمل نداءاته الخافتة الى اسماع القوزاق ، ولكنه لم يثر فى قلوبهم الهائجة ذرة من الرحمة ، ولو كان عندهم شىء منها لسحقتها ارادتهم المحرمة عليهم ان يترجلوا . وسار الرعيل لخمس دقائق خببا لكى يدعوا الخيل تستعيد انفاسها . وكانت سرايا المجريين المتبعثرة ، على بعد نصف فرست ، فى تقهقر عام ، وتظهر بينهم ، هنا وهناك ، بزات مشاة العدو ذات اللون الازرق الداكن . وانسلت قافلة شحن نمساوية على سفح تل يودعها دخان القنابل المحموم من فوقها . كانت احدى البطاريات تقصف القافلة من جهة اليسار ، فيهدر

دويها الكئيب على الحقول ويتجاوب خلل الغابة .

اصدر المقدم الذى يقود السرايا الثلاث امره بالخبب فانطلقت فى خبب غير سريع . فراحت الخيل تتمايل تحت فرسانها والزبد ينتشر من خواصرها على شكل ازهار وردية مصفرة .

توقفت الكتيبة لتبيت ليلتها فى قرية صغيرة . وانحشر الضباط الاثنا عشر فى كوخ صغير . وكان قد اضناهم الارهاق والجوع فاستسلموا للنوم . ولم يصلهم مطبخ الميدان حتى منتصف الليل تقريبا ، حين جاءهم حامل العلم تشوبوف بقدر من الحساء . وقد ايقظت الضباط الرائحة الطيبة ، وما ان مرت دقائق حتى شرعوا يأكلون بصمت ونهم ، ووجوههم ما تزال منتفخة من النوم ، ليعوضوا عن اليومين اللذين انفقوهما فى القتال . زال شعورهم بالنعاس بعد تلك الوجبة المتأخرة ، وجلسوا فوق عباءاتهم على القش يتجاذبون اطراف الحديث ويدخنون .

لوح النقيب كالميكوف يديه بحدة ، وهو ضابط ربعة ، كان وجهه المدور فضلا عن اسمه ، يحمل آثار اصله المنغولى ، قال موجها كلامه الى الملازم ترسينتسيف :

— هذه الحرب لا تروق لي . لقد ولدت بعد زمانى باربعة قرون . أتدرى ، اننى لن اعيش لارى نهاية هذه الحرب .

فرد عليه الملازم من تحت عباءته بصوت جهير :

— دعك من قراءة الفال !

— انه ليس فالا . بل نهايتى المكتوبة . انا ممن يؤمنون بعودة الانسان الى اصله ، ولا يحتاجنى احد هنا . حين كنا اليوم عرضة للنار ارتجفت بجنون ، انا لا اطيق قتالا لا ارى فيه عدوى وجها لوجه . ان الشعور الفظيع الذى يتملكنى اشبه بالخوف . انهم يطلقون النار عليك من بعد عدة فرسخات ، وانت

على حصانك كطير حبارى يطارد على السهب .

قال الرئيس اتامانتشوف ، وهو يلعق بقايا اللحم المعلب من على شاربيه الاحمرين المشذبين على الطريقة الانكليزية :

— رأيت مدفعا نمساويا فى كوبالكا . هل رأى احدكم مدفعا من هذا النوع ، ايها السادة ؟

فجاءه جواب حماسى من حامل العلم تشوبوف الذى كان انئذ قد افرغ قدرا ثانيا من الحساء :

— صناعة رائعة ! مسدداته ، وماكنته برمتها هى الكمال بعينه .

— لقد رأيته ، ولكن ليس لدى ما اقوله ، انا جاهل كل الجهل فى شؤون المدفعية . انه لم يبد لي سوى مدفع كسائر المدافع له ماسورة كبيرة ، وهذا كل ما فى الامر .

استطرد كالميكوف ، ملتفتا صوب ليستتسكى :

— انى اغبط اولئك الذين حاربوا فى الايام الخوالى ، على الطريقة البدائية . فالكر على العدو فى معركة مشرفة ، وشطره بسيفك شطرين ، ذلك هو النمط من القتال الذى افهمه . اما هذه الحرب فالشيطان وحده يعرف ما هى .

— لن يبقى للخيالة دور فى حروب المستقبل .

— سوف تلغى تماما .

— لا اعتقد .

— ليس ثمة شك فى ذلك .

— ولكن ليس بوسعك ان تستبدل الرجال بالمكائن . انت تبالغ كثيرا .

— انا لا اعنى الرجال ، بل الخيل . ستحل الدراجات البخارية او السيارات محلها .

— لا اكاد اتصور شكل سرية من السيارات !

فقاطعه كالميكوف منفعلا :

— كل هذا هراء ! وهم سخيف ! ستظل الجيوش تستخدم الخيل لوقت طويل . لسنا ندرى كيف ستغدو الحرب بعد قرنين او ثلاثة ، اما اليوم فان الخيالة . . .

— ماذا انت فاعل بالخيالة اذا ما حفرت الخنادق على طول الجبهة ؟ اجبنى !

— نقتحم بها الخنادق ، فنثب عبرها ، ونتعمق الى مؤخرة العدو ، تلك هى مهمة الخيالة .

— هراء .

— الزمن خير حكم .

— اخرسوا ، دعونا نأخذ قسطا من النوم .

وصل النقاش الى نهايته ، وحل الشخير محله . استلقى ليستنتسكى على ظهره ، ورائحة القش اللذيذة ، الذى فرش عباءته عليه ، تنفذ الى انفه . واستلقى كالميكوف بجانب يفغينى ، وهو يرسم علامة الصليب .

— عليك ان تتحدث الى المتطوع بونتشوك . انه فى رعيلك ، وهو رجل يثير الاهتمام .

فسأله ليستنتسكى وهو يدير اليه ظهره :

— كيف ؟

— انه قوزاقى عاش فى روسيا . سكن موسكو . انه عامل اعتيادى . ولكنه مولع بامور المكائن . وهو حامل رشاش من الطراز الاول كذلك .

فاقترح ليستنتسكى قائلا :

— دعنا ننام .

فايده كالميكوف قائلا : «ربما كان علينا ان نفعل ذلك .» وهو يفكر بشىء اخر ، ثم تجهم وقال محرجا : «يجب ان تغفر لي جيفة قدمى ، ايها الملازم . اننى لم اغير جوربى منذ اسبوعين ، انهما متعفنان من العرق تماما . . . رائحة كريهة حقا . علىّ ان احصل على زوج من الجوارب من احد الجنود» .

فغمغم ليستنتسكى وهو يغفو :

— لا عليك .

نسى ليستنتسكى اشارة كالميكوف الى بونتشوك تماما ، ولكن الصدفة ساقته فى اليوم التالى الى التعرف على هذا المتطوع . فقد امره قائد الكتيبة ان يخرج عند الفجر على رأس دورية استطلاع ، وان يجرى اتصالا ، ان امكن ، مع كتيبة المشاة التى استمرت على التقدم فى الجناح الايسر . فذهب فى عتمة الفجر يتعثر فى ارجاء الحوش ، ويقع على اجسام القوزاق النائمين ، فوجد عريف الرعيل وقال له :

— اريد خمسة رجال يذهبون معى فى مهمة استطلاع . دعهم يسرجون حصانى . اسرع !

وفيما كان ينتظر حضور الرجال ، جاء الى باب الكوخ قوزاقى ربعة ، وقال :

— يا صاحب السعادة ، العريف يرفض السماح لي بالذهاب معك بحجة انه ليس دورى . هل تسمح لي ان اذهب ؟

فسأل ليستنتسكى الرجل ، جاهدا ان يتبين وجهه فى الظلام :

— هل ارتكبت شيئا ؟ وتريد ان تبرر خطأك ؟

— لم ارتكب اى شىء .

فقال ليستنتسكى : «لا بأس . بوسعك ان تأتى .» وحين

استدار القوزاقى ليذهب ، صاح فى اثره :

— هاى ! ارجع !

اقترب القوزاقى منه .

— قل للعريف . . .

فقاطعه القوزاقى قائلا :

— اسمى بونتشوك .

— متطوع ؟

— اجل .

وحين تدارك ليستنتسكى ارتباكه ، عدل اسلوب كلامه فقال : «حسنا ، يا بونتشوك ، قل للعريف ان . . . اوه ، لا بأس ، سأقول له ذلك بنفسى .»

خفت عتمة الفجر حين خرج ليستنتسكى من القرية على رأس رجاله عبر الحراس والمراكز الامامية . حين قطعوا بعض المسافة نادى قائلا :

— ايها المتطوع بونتشوك .

— سيدى .

— اقترب بحصانك منى ، من فضلك .

فقرب بونتشوك بمطيته الاعتيادية الى جانب حصان ليستنتسكى الاصيل . فسأله ليستنتسكى وهو يتملى صورته الجانبية :

— من اى قرية انت ؟

— نوفوتشيركاسكايا .

— هل لي ان اعرف السبب الذى دعاك الى التطوع فى الجيش ؟

فاجابه بونتشوك وعلى شفتيه اثر ضئيل من ابتسامة ، وفى عينيه الخضراوين نظرة قاسية نفاذة مسمرة :

— بالتأكيد ! اننى مولع بفن الحرب . اريد اتقانه .

— هناك مدارس حربية اسست لهذا الغرض .

— نعم .

— حسنا ما السبب اذن ؟

— اريد دراسته فى التطبيق اولا . وبوسعى ان احصل على النظرية فيما بعد .

— ماذا كنت قبل اندلاع الحرب ؟

— كنت عاملا .

— اين كنت تشتغل ؟

— فى بطرسبرغ ، وروستوف ، وفى معمل السلاح فى تولا . انا افكر فى طلب الانتقال الى مفرزة الرشاشات .

— هل تعرف اى شىء عن الرشاشات ؟

— بوسعى ان استعمل انواع برتيه ، ومادسن ، وماكسيم ، وهوتشكيس وفيكرس ، ولويس ، وبضعة انواع اخرى .

— او هو ! سأقول لآمر الكتيبة كلمة حول ذلك !

— افعل ذلك من فضلك .

وصوب ليستنتسكى نظرة ثانية الى هيئة بونتشوك الربعة ، فذكرته بشجرة الدردار الفلينى التى تنمو على ضفاف الدون . لم يكن فى الرجل ما يثير الانتباه ، ولا يميزه عمن حوله من جموع الجنود القوزاق سوى فكيه المنطبقين بشدة ونظرته المتحدية المباشرة . كان لا يبتسم الا لماما ، بشيات من شفتيه ، وحتى لو فعل ذلك فلم تكن عيناه تزدادان رقة بل تحتفظان بوميض خافت من اللامبالاة . كان يتحفظه البارد يشبه شجرة الدردار الفلينى ، شجرة الصلابة الحديدية القاسية التى تنمو على التربة الدكناء الرخوة عند ضفاف الدون غير المعطاء .

سارا صامتين بعض الوقت . واسند بونتشوك راحتيه الواسعتين على قربوس سرجه الاخضر المقشر . وانتقى ليستنتسكى سيكارة ، ولما اشعلها من ثقاب بونتشوك شم فى يد الرجل رائحة عرق الخيل الراتنجية الحلوة . كان ظهر يده مكسوا بشعر بنى كثيف ، فانتابت ليستنتسكى رغبة لا ارادية فى ان يمسد عليه .

ثم ابتلع دخان التبغ الحريف ، وقال :

— حين نصل الغابة ، ستذهب انت وقوزاقى اخر فى الطريق المؤدى الى اليسار . هل تراه ؟

— اجل .

— واذا لم تصادف مشاتنا بعد ان تقطع نصف فرست ، عد ادراجك .

— حسنا جدا .

شرعوا يخبون . كان عند منعطف الطريق المؤدى الى داخل الغابة اجمة من اشجار البتولا . وحين يتعداها المرء يرهق عينيه الصفار الكثيب لاشجار الصنوبر القميئة ودق الشجر البرى والشجيرات التى سحقتها قوافل الشحن النمساوية . كانت الارض ، الى يمينهم ، ترتج بالمدافع البعيدة ، ولكن عند اجمة البتولا خيم صمت لا يوصف . كانت الارض تعب الندى الغزير ، والاعشاب ذات الظلال الوردية تطفح بالالوان الخريفية التى كانت تندب موتها الوشيك . توقف ليستنتسكى عند البتولا ، واخرج منظارته وراح يتفحص المرتفع الماثل وراء الغابة ، وقد حطت نحلة على مقبض سيفه العسلى اللون . فعلق بونتشوك قائلا بهدوء وعطف :

— يا للحمقاء !

فاستدار ليستنتسكى اليه ، قائلا :

— من هى ؟

فاومأ بونتشوك الى النحلة بعينيه ، فابتسم ليستنتسكى قائلا :

— سوف يغدو عسلها مرا ، ألا تظن ذلك ؟

لم يأت الجواب من بونتشوك . فقد بدد الصمت صياح عقعق فى ثنايا أكمة بعيدة من أشجار الصنوبر ، ومرقت رشقة من الرصاص خلال اشجار البتولا ، فاهوت غصنا على عنق حصان ليستنتسكى .

فاستداروا وعادوا الى القرية هذبا ، يستحثون خيلهم بالصياح والسياط . وراح الرشاش النمساوى يقذف بقية عتاده وراءهم .

بعد هذا اللقاء تعددت لقاءات ليستنتسكى مع المتطوع بونتشوك . وقد راعه كل مرة ما يومض فى عينى هذا الرجل من عزم لا يلين ، ولم يستطع ان يتوصل الى ما يكمن وراء هذا الغموض المغلق الذى يغشى وجه هذا الانسان غير الملفت النظر كثيرا . كان بونتشوك كلما تحدث اليه تحتبس بين شفتيه القويتين ابتسامة ، وقد خلق لدى ليستنتسكى انطباع من يطبق قواعد محددة ليسلك سبيلا ملتويا . ثم نقل الى مفرزة رشاشات . وبعد أيام ، والكتيبة تنال قسطا من الراحة ، خلف جبهة القتال ، لحق ليستنتسكى به اذ كان سائرا حذاء جدار لمأوى اتت النار عليه .

— آه ، المتطوع بونتشوك !

فادار القوزاقى رأسه وأدى التحية . فسأله ليستنتسكى :

— الى اين انت ذاهب ؟

— الى آمر وحدتى .

— نحن اذن سائران فى نفس الطريق .

— نعم .

سارا بصمت بعض الوقت فى شارع القرية المهدم . كان

الناس يتجولون حول مرافق الابنية القليلة التى ما زالت سالمة ، ومر بهما خيالة ، وكان ثمة مطبخ ميدان يرسل الدخان فى وسط الشارع وقد وقف صف طويل من القوزاق الى جانبه فى انتظار ادوارهم ، وكان فى الهواء رذاذ بارد .

سأل ليستنتسكى وهو يخاوص النظر الى بونتشوك الذى كان متخلفا عنه قليلا :

— حسنا ، هل تتعلم الآن فن الحرب ؟

— اجل ، انى اتعلمه .

فسأل الملازم وهو ينظر الى يدى بونتشوك لامر ما :

— ماذا تنوى ان تفعل بعد الحرب ؟

اجاب بونتشوك مضيقا عينيه :

— البعض يحصد ما يزرع . . . ولكنى سأرى .

— كيف لي ان افسر هذه الملاحظة ؟

— اتعرف المثل القائل «من يزرع الريح يحصد العاصفة ؟» هكذا يكون الامر . — ولكن اذا وضعنا الاحاجى جانبا ؟

— المسألة واضحة كما هى . عفوك ، انى ذاهب من هنا صوب اليسار .

ثم رفع اصابعه الى قمة قبعته ، واستدار من الطريق فهز ليستنتسكى كتفيه ووقف يرسل النظرات وراءه .

ساءل ليستنتسكى نفسه مغتاظا وهو يدلف الى حفيرة * آمر السرية المعتنى بها : «ايحاول صاحبنا ان يبدو شخصا غريب الاطوار ، ام ان فى رأسه نحلة تطن ؟»

---

* الحفيرة — خندق مسقوف لوقاية وايواء الجنود فى ميدان القتال . المترجمون .

استدعيت وجبتا الاحتياط الثانية والثالثة للخدمة سوية . فبدت قرى الدون خاوية وكأن الجميع غادروها للحصد او الحش فى زحمة موسم الحصاد .

الا ان الذى جناه القوزاق على امتداد الحدود عامئذ كان حصادا مريرا ، فقد اقتفت المنية خطى القوزاق ، فناح العديد من زوجاتهم وهن حاسرات الرأس على من رحلوا عنهن : «اواه ، يا حبيبى ، يا عزيزى كيف ساعيش فى هذه الدنيا بدونك ؟» وقد تهاوت رؤوس الاعزاء فى كل مكان ، واريقت دماء القوزاق ، فرقدوا بعيون جامدة هامدين . فيما كانت المدفعية تدوى باللحن الجنائزى ، فى النمسا ، وفى بولندا ، وفى بروسيا . . . فريح الشرق لم تعد تحمل الى مسامعهم نواح زوجاتهم وامهاتهم .

لقد بارحت القرى نخبة القوزاق وهلكت وسط قمل وفظائع سوح القتال .

ذات يوم جميل من ايام ايلول تعلق فوق تتارسكى خيط حليبى من ريق الشمس . وراحت الشمس الشاحبة تبتسم كالثكلى ، وكانت السماء المقطبة ذات الزرقة العذرية صاحية شماء على نحو يثير النفور . وكانت الغابة عبر الدون تكتسى صفرة يرقانية ، فالحور خابى الالق ، والبلوط ينفض بين حين واخر اوراقا ذات اشكال هندسية ، الا الحور الرومى فقد بقى اخضر مزوقا بسر بديمومة خضرته عين العقعق النفاذة .

تلقى بانتلاى بروكوفتش ذلك اليوم رسالة من الجيش المحارب . جاءت دونيا بالرسالة من البريد . وكان مأمور البريد العجوز ، حين ناولها الرسالة ، قد انحنى وهز هامته الصلعاء

ونشر ذراعيه متضرعا :

— اغفروا لي بحب الله . لقد فتحت الرسالة . اخبرى اباك اننى فتحتها . كنت بحاجة ماسة الى معرفة كيف تسير الحرب . . . اغفروا لي ، واخبرى بانتلاى بروكوفتش بما قلت .

كان بادى الاضطراب ، ولم يفطن الى بقعة الحبر على انفه ، فخرج من مكتبه بصحبة دونيا . وهو يتمتم شيئا غير مفهوم . وقد ملأها القلق ، فقفلت راجعة الى البيت . وراحت تفتش عن الرسالة فى صدرها لوقت طويل . فصرخ فيها بانتلاى بروكوفتش وهو يجز لحيته :

— عجلي !

وفيما اخرجت الرسالة قالت لاهثة :

— اعلمنى مأمور البريد انه قرأ الرسالة ، ويرجو ان لا تزعل منه .

— ليأخذه الشيطان ! اهى من غريغورى ؟ — سألها العجوز ذلك ، وهو يتنفس فى وجهها منفعلا ، واضاف : — امن غريغورى ؟ ام من بيوتر ؟

— كلا ، يا ابتى . . . لا اعرف هذا الخط .

فصرخت ايلنتشنا وهى تترنح بثقل نحو المصطبة : «اقرأيها !». كانت ساقاها تسيبان لها فى تلك الايام متاعب جمة . وهرعت ناتاليا من الحوش ووقفت عند الموقد ، مائلة الرأس ، ومرفقاها يشدان على صدرها . واختلجت على شفتيها ابتسامة كشعاع الشمس . كانت ما تزال ترقب من غريغورى رسالة او اقل اشارة اليها فى رسالة جزاء امانتها وولائها اللذين يشبهان امانة الكلب وولائه . وهمست ايلنتشنا :

— اين داريا ؟

فصرخ بانتلاى بروكوفتش : «اخرسى !» واردف مخاطبا دونيا «اقرأيها !»

«ينبغى ان احيطكم علما» هكذا بدأت الرسالة ، وتهاوت دونيا من على المصطبة ، حيث كانت جالسة ، وعاطت :

— ابتاه ! اماه ! . . ويلاه ، ماما . . . عزيزنا غريشا ! . . اواه ، اواه ! . . غريشا . . . قتل .

كان ثمة يعسوب يضطرب بين اوراق الجيرانيوم التى اوشكت على الذبول ، فراح يضرب على النافذة ، ويطن مهتاجا . وفى الفناء كانت دجاجة تقوق رضية ، وتناهى خلال الباب المفتوح ضحك طفولى رنان .

سرت اختلاجة عبر وجه ناتاليا ، رغم ان شفتيها ما زالتا تكتسيان بسمتها الراعشة . قام بانتلاى بروكوفتش على قدميه ، ورأسه يرتعش كالمشلول ، وراح يحملق الى دونيا بحيرة مخبولة . جاء فى الكتاب :

ينبغى ان احيطكم علما ان ولدكم غريغورى بانتليفتش ميليخوف ، من قوزاق كتيبة الدون الثانية عشرة ، قد قتل فى السادس عشر من ايلول قرب مدينة كامينكا-سترومبلوفو . لقد مات ابنكم ميتة الشجعان ، فاتمنى ان يكون ذلك عزاءكم فى خسارتكم هذه التى لا تعوض . ستسلم حاجياته الشخصية الى اخيه ، بيوتر ميليخوف . وسيبقى حصانه فى الكتيبة .

آمر السرية الرابعة النقيب **بولكوفنيكوف** . **جيش الميدان — ١٨ ايلول ، ١٩١٤** .

اعترى بانتلاى بروكوفتش ، بعد تلقى هذه الرسالة ، ذبول مفاجئ ، كانت الشيخوخة تظهر عليه اكثر مع كل يوم حتى اخذت ذاكرته تخونه وفقد صفاء الذهن . كان يتجول هنا وهناك بظهر محنى ، وقد علا وجهه ظل بلون الحديد ، وكان الوميض

المحموم فى عينيه ينم عن اجهاد فى نفسه .

اخفى الرسالة تحت الايقونة . وكان يذهب الى سقيفة الباب مرات عديدة كل يوم ليومئ الى دونيا . وحين تدخل الدار يأمرها ان تأتيه بالرسالة لتقرأها له ، وهو يتطلع بوجل الى باب غرفة امامية حيث تمضى زوجته أيام الحداد . كان يقول لدونيا ، وعينه تطرف بدهاء : «اقرأيها بهدوء ، وكأنك تقرأين لنفسك لكى لا تسمع الوالدة . . . والا . . .» فتختنق دونيا بعبراتها ، وتقرأ الجملة الاولى ، وبانتلاى بروكوفتش جالس القرفصاء ، فيرفع يده السمراء الكبيرة التى تشبه الحافر ليقول :

— كفاية . اعرف البقية . خذى الرسالة واعيديها حيث كانت . هدوءا والا فالوالدة . . . — ثم يغمز بعينه غمزة ناشزة ووجهه ملتو كلحاء شجرة محروق .

بدأ يشيب واخذت شعرات الشيب الساطعة تبقع رأسه وتوخط لحيته بسرعة . وغدا كذلك شرها يزدرد طعامه ازدرادا دون ان يعتنى بالنظافة حين يأكل .

مضت ايام تسعة على قداس الجنازة فدعا ال ميليخوف الاب فيساريون والاقارب الى وليمة فى ذكرى القتيل غريغورى . وتناول بانتلاى بروكوفتش الطعام بعجالة وضراوة فتعلقت الشعرية فى لحيته كالاهلة . وكانت ايلنشنا تراقبه منذ ايام بقلق ، فانفجرت باكية :

— مابك يا اب ؟

— هاه ؟

قال العجوز ذلك جافلا ، وهو يرفع عينيه العمشاوين من على صحنه . فلوحت الينتشنا يدها وادارت وجهها وهى تشد المنديل على عينيها .

فقالت داريا مغضبة وعيناها تتقادحان :

— ابى ، انت تأكل وكأنك صمت ثلاثة ايام .

— انا آكل ؟ . . حسنا ، لن اكل .

هكذا رد بانتلاى بروكوفتش وقد تملكه الحرج . ثم اجال ناظريه حول المائدة ، وضم شفتيه وعقد ما بين حاجبيه وخلد الى الصمت ، دون أن يجيب على اى سؤال . وحاول الاب فيساريون بعد أن فرغوا من الطعام ان يشجعه فقال :

— تشجع ، يا بروكوفتش ! ما جدوى كل هذا الاسى ؟ لقد مات غريغورى ميتة مقدسة ، فلا تغضب الرب ، ياشيخ . لقد فاز ابنك باكليل الشوك من اجل قيصره ووطنه . وها انت ذا . . . انها الخطيئة ، وان الله لن يغفرها لك .

— هكذا بالضبط ، ايها الاب «لقد مات ميتة الشجعان .» ذلك ما كتبه آمر وحدته .

وبعد ان لثم الشيخ يد القسيس ، اتكأ على عمود الباب ، وللمرة الاولى منذ وصول الرسالة ، اجهش فى البكاء ، فراح جسده يختض بعنف .

ومنذ ذلك اليوم استعاد رباطة جأشه ، وابل من مصابه قليلا .

لعق كل منهم الجرح على طريقته : فحين سمعت ناتاليا دونيا تصرخ ان غريغورى قد مات هرعت الى الحوش : «ساقتل نفسى . أنتهى كل شىء بالنسبة لي .» كانت هذه الفكرة تسوقها كالنار . فجعلت تقاوم بين ذراعى داريا ، ثم اغمى عليها ، فاستسلمت بارتياح . لقد اجل الاغماء ، على الاقل ، لحظة عودة الوعى ، حين تقفز الاحداث الى ذاكرتها بعنف . وامضت اسبوعا فى ذهول مطبق . ثم افاقت الى عالم الواقع ، وقد

تغيرت ، فغدت أكثر هدوءا عما كانت عليه ، تنهشها أنياب ضنى قتال . . . كانت جثة غير مرئية تحوم فى ارجاء بيت ميليخوف ، فيعيش الاحياء فى لجة رائحتها العفنة .

١٧

بعد مضى اثنى عشر يوما على نبأ وفاة غريغورى ، تلقى آل ميليخوف من بيوتر رسالتين دفعة واحدة . قرأتهما دونيا فى دائرة البريد ، وجرت مسرعة الى البيت ، كقشة حملتها الرياح ، ثم ترنحت ووقفت متكئة على احد الاسيجة . وقد اثارت فى القرية بلبلة غير قليلة ، واشاعت فى البيت اضطرابا لا يوصف . فقد نشجت واعولت وهى ما تزال على مبعدة :

— غريشا حي ! عزيزنا على قيد الحياة ! بيوتر كتب الرسالة . غريشا جرح ، ولكنه لم يمت وانه حي ، حي !

كتب بيوتر فى رسالته المؤرخة فى العشرين من ايلول :

«تحية ، ياابوى العزيزين ، ينبغى ان اخبركما ان عزيزنا غريشا كاد يلفظ انفاسه ، لكنه الآن ، والحمدلله ، حي معافى ، كما نتمنى لكما الصحة والرفاه ، بجاه الله . فقد اشتبكت كتيبته فى معركة قرب مدينة كامينكا–سترومبلوفو ، ورأى قوزاق رعيله فارسا مجريا يطعنه فهوى غريغورى الى الارض من على حصانه ، ولم يدر احد ما الذى حصل بعد ذلك ، وحين استفسرت منهم لم يستطيعوا ان يفيدونى بشىء . ولكنى علمت من ميشا كوشيفوى بعدئذ — وهو جاء الى كتيبتنا فى مهمة الاتصال — ان غريغورى بقى مطروحا حتى الليل ، ولكنه ثاب الى وعيه اثناء الليل وشرع يزحف . وقد زحف مسترشدا بالنجوم ، وعثر على احد ضباطنا

وقد اصابته شظية فى بطنه وساقه . فالتقطه وجره مسافة ستة فرستات . وقد منح غريغورى جزاء ذلك وسام القديس غيورغى ، ورقى الى رتبة نائب عريف . لم يصب الا بخدش فى رأسه ، ولكنه سقط عن حصانه فاغمى عليه . وقد اخبرنى ميشا انه عاد الى الجبهة ثانية . ارجو الا تعيبوا علىَّ هذا الخط ، فانى اكتب وانا على السرج» .

وفى الرسالة الثانية طلب بيوتر من اهله ان يرسلوا له بعض الكرز المجفف من بستانهم ، واخبرهم الا ينسوه بل ان يكتبوا له اكثر مما يفعلون . وانحى باللائمة على غريغورى فى الرسالة نفسها ، لانه لا يعنى بحصانه العناية اللازمة ، — على حد اقوال القوزاق — وكان بيوتر غاضبا لان الحصان يعود له فى واقع الحال . ورجا اباه ان يكتب الى غريغورى ، وذكر انه ارسل من يقول له ان بيوتر سيلطمه لطمة تدمى انفه ان لم يعن بالحصان ، رغم كونه يحمل وسام القديس غيورغى . واختتم رسالته بقائمة لا نهاية لها من التحيات . ولم يكن عسيرا ان يستشفوا من خلال السطور المغضنة التى بقعها المطر شعورا بالمرارة والاسى . فمن الجلى ان بيوتر ، هو الاخر ، كان يجابه فى الحرب وقتا عصيبا .

كان مرأى بانتلاى بروكوفتش يبعث على الاشفاق . لقد دوخه الفرح ، فامسك بكلتا الرسالتين فى يده وخرج بهما الى القرية ، مستوقفا كل من يستطيع القراءة ليحمله على تلاوة الرسالتين . لم يكن الخيلاء ، بل هو الفرح المتأخر ، الذى دفعه الى الزهو فى شوارع القرية كلها .

كان يرفع يده حين يبلغ القارئ المتعثر تلك الفقرة التى وصف فيها مأثرة غريغورى ، فيقول : «اها ! ما رأيك بولدى

غريشا ؟ انه اول من نال وساما فى القرية .» كان يعلن ذلك بفخر ، ثم يأخذ الرسالتين بكل اهتمام ، فيدسهما فى بطانة قبعته ويمضى فى البحث عن قارئ اخر .

حتى سيرغى موخوف ، الذى رآه من خلال نافذة دكانه ، خرج لملاقاته رافعا قبعته :

— ادخل دقيقة ، يا بروكوفتش !

وحين دخلا ، شد على قبضة الشيخ بيده البيضاء المنتفخة ، وقال :

— حسنا ، انى اهنئك ، فلا بد انك فخور ان يكون لك ولد مثله . كنت اقرأ لتوى عن مأثرته فى الجرائد .

فجفت حنجرة بانتلاى بروكوفتش وشق عليه ابتلاع ريقه .

— هل اخذتها الجرائد ؟

— اجل ، لقد قرأتها لتوى .

وانزل موخوف من على الرف علبة من اجود التبوغ التركية ، وافرغ بعض الحلوى الغالية فى كيس دون ان يكلف نفسه عناء وزنها . ثم قال وهو يناول بانتلاى بروكوفتش التبغ والحلوى :

— حين ترسل رزمة الى غريغورى بانتلاى بروكوفتش ابعث اليه تحية مع هذه من عندى .

غمغم العجوز ، وهو يهبط درجات الدكان : «يا الهى ! اى شرف هذا لغريشا ! القرية برمتها تتحدث عنه . لقد عشت لارى . . .» ثم تمخط ومسح الدموع من على خديه بكمه ، وهو يقول فى نفسه : «ها ان علائم الشيخوخة تظهر علىَّ ، فما اسرع ما تدمع عيناى . آه يا بانتلاى ! ماذا فعلت بك الايام ؟ كنت ذات يوم صلدا كحجر الصوان ، كان بوسعك ان تحمل على ظهرك ثمانية بودات وكأنها ريشة ، وها انت ذا . ان قضية

غريشا قد هدت حيلك بعض الشىء !»

وفيما كان يتظلع على امتداد الشارع ، ضاما كيس الحلوى الى صدره ، عادت افكاره ترفرف حول غريغورى كما يرفرف زقزاق فوق غيضة ، وجالت كلمات بيوتر فى مخيلته . وفى تلك الاثناء كان كورشونوف حمو غريغورى مقبلا فى الطريق ، فنادى على بانتلاى :

— يا بانتلاى توقف دقيقة !

لم يكن الرجلان قد التقيا منذ اعلان الحرب ، فقد فترت وتوترت العلاقة بينهما وغدت اضطرارية مذ غادر غريغورى بيت اهله . وكان ميرون غريغوريتش متكدرا من ناتاليا لانها اذلت نفسها لغريغورى ولانها جعلت والدها يعانى ذلة مماثلة .

كان يلوم ناتاليا امام عائلته قائلا :

— يا للعاهرة المتجولة . لمَ لا تستطيع العيش مع عائلتها بدل الذهاب الى اهل زوجها ؟ لكأنهم يطعمونها خبزا منا . ينبغى لوالدها ، جراء حمقها ، ان يتحمل هذا الخزى فلا يقوى على رفع رأسه فى القرية .

تقدم ميرون غريغوريتش من بانتلاى بروكوفتش ومد اليه يده النمشاء :

— كيف حالك ؟

— الحمد لله . . .

— كنت تتسوق ؟

فهز بانتلاى بروكوفتش رأسه ملوحا بيده اليمنى وقال : «هذه هدايا لبطلنا . لقد قرأ سيرغى بلاتونوفتش عن مأثرته فى الجرائد فاهدى اليه بعض الحلوى والتبغ قال : «سلمه وابعث له هذه الهدايا ننتظر منه المآثر فى المستقبل ايضا» . أتدرى ،

عيناه اغرورقتا بالدموع .» ومضى العجوز يتباهى ، مسمرا نظراته في وجه ميرون غريغوريتش ، محاولا ان يجتلى اثر كلماته .

تجمعت الظلال تحت اهداب ميرون غريغوريتش الشقراء ، مضيفة على محياه بسمة ساخرة ، فقال باقتضاب :

— هكذا !

ثم استدار ليعبر الشارع ، فهرع بانتلاى بروكوفتش وراءه ، فاتحا الكيس وهو يهتز غضبا ، وقال له بنبرة حاقدة :

— هاك ، ذق هذه الشوكولاته ، انها حلوة كالعسل . ذقها ، انا اقدمها باسم ولدى . ليست حياتك حلوة جدا ، فبوسعك ان تأكل واحدة ، وقد ينال ابنك شرفا كهذا في يوم من الايام ، وقد لا ينال شيئا .

— لا تحشر نفسك في حياتي . . . انا ادرى بها .

فانحنى بانتلاى بروكوفتش برقة مبالغ فيها ، وجرى امام ميرون غريغورتيش واصابعه المعروقة تسلخ غلاف الشوكولاته الرقيق ، قائلا :

— ذق واحدة على الاقل ، اعمل لي هذا المعروف .

فدفع ميرون غريغوريتش يده جانبا وقال :

— لسنا متعودين على الحلوى ، فهدايا الغرباء توذى اسناننا . لا يليق بك ان تستجدى الصدقات لولدك . اذا اضطرتك الحاجة يمكن ان تجيء الي . ابننا ناتاليا تأكل خبزكم . كان بوسعنا ان نعطيك شيئا توارى به فقرك .

— لا احد منا استجدى صدقة في عائلتنا . فلا تكذب بلسان خشن ، يا نسيب . انت متباهٍ جدا . اترى ابنتك اتت الينا لكونك ثريا ؟

فقال ميرون غريغوريتش بلهجة متسلطة :

— مهلا ! لا داعي لشجارنا . انا لم استوقفك للشجار . لدى امر اود ان احدثك به .

— ليس هناك امر نتحدث به .

— اجل ، هناك . تعال .

امسك بانتلاى بروكوفتش من كمه وجره الى زقاق فرعي . فسارا خارج القرية نحو السهب .

سأله بانتلاى بروكوفتش بلهجة اكثر هدوءا وودا : «حسنا ، ما الامر ؟» وخاوص بصره الى وجه ميرون غريغوريتش النمش فطوى ميرون غريغوريتش ذيل معطفه الطويل تحته وجلس على حافة حفرة واخرج كيس تبغه العتيق .

— اتدرى ، يا بروكوفتش ، ان الشيطان وحده يعلم سبب هجومك عليّ كالديك المعارك . الحق ان الامر غير لائق ، اليس كذلك ؟

ثم تحولت نبرة صوته فغدت خشنة جافة فيما استطرد :

— اود ان اعلم الى متى يجعل ابنك من ناتاليا اضحوكة . قل لي !

— ينبغي ان تتوجه بالسؤال اليه ، لا الي .

— ليس عندي ما اسأل منه ، انت رب البيت . وانا اتحدث اليك .

اعتصر بانتلاى بروكوفتش الشوكولاته ، التي ما زالت في يده ، فاندلق الخليط اللزق من بين اصابعه . ومسح راحة يده بطين الجرف الاسمر ، ثم شرع يلف سيكارة بصمت ، فاتحا علبة التبغ التركي . وبعد ان اخذ منها نتفة ناولها الى ميرون غريغوريتش . فاخذها ميرون غريغوريتش دونما احجام ولف سيكارة من التبغ الذي اهداه موخوف بكل اريحية . وتعلقت فوق رأسيهما غمامة بيضاء ثرة مزبدة ، وامتد نحوها خيط صاعد

رقيق كان يتماوج فى الريح .

آل النهار الى نهايته ، وتهدهد سكون ايلول بسلام وحلاوة لا توصفان . كانت السماء قد فقدت وهجها الصيفى الكامل ، فامست زرقاء باهتة . وانتثرت فى الحفرة اوراق تفاح ارجوانية زاهية ، الله وحده يدرى من اين جاءت . واختفى الطريق على امتداد حافة التل المتماوجة وراح يومئ بلا طائل صوب الاصقاع المجهولة وراء الافق الزمردى الغامض كالاحلام . وقد لازم الناس اكواخهم وحياتهم اليومية فراحوا يضنون الانفس كدحا ، ويستنزفون قواهم على ساحات درس الحبوب ، فاذا بالطريق درب مهجور ، يستبد به الحنين وينساب عبر الافق صوب المجهول ، وجرت الريح عليه مثيرة الغبار .

قال ميرون غريغوريتش وهو ينفث سحابة من الدخان :

— هذا تبغ ضعيف . كالعشب .

فايده بانتلاى بروكوفتش الى حد ما :

— ضعيف ، ولكنه لطيف .

ثم رجاه ميرون غريغوريتش بنبرة هادئة وهو يطفئ سيكارته :

— اعطنى جوابا ، يا بانتلاى بروكوفتش .

— غريغورى لا يأتى على ذكر الموضوع فى رسائله . انه الآن جريح .

— نعم بلغنى ذلك .

— ماذا وراء ذلك ، لا ادرى . قد يقتل ، ثم ماذا بعد ذلك ؟

فطرف ميرون غريغوريتش بعينيه شارد الفكر تعيسا :

— ولكن كيف يمكن استمرار الحال على هذا المنوال ؟ لا هى فتاة ، ولا هى زوجة ولا ارملة شريفة ، انه لوضع معيب ،

فلو كنت اعلم ان الامور ستنتهى الى هذا المآل لما سمحت للخاطبين ان يتخطوا عتبة دارى . آه ، بانتلاى . . . بانتلاى . . . كل والد يأسى لطفلته . الدم اكثف من الماء . . .

فرد عليه بانتلاى بروكوفتش بغيظ مكظوم :

— ماذا يمكن ان افعل ؟ أتظننى سعيدا بخروج ولدى من البيت ؟ هل جنيت من ذلك أى شىء ؟ يا للناس !

فاملى عليه ميرون غريغوريتش ، والتراب ينهال من تحت يديه الى الحفرة على وقع كلماته :

— اكتب اليه . دعه يقرر بشكل نهائى .

— ان له طفلة من تلك . . .

فصاح كورشونوف ، وقد ازرق لونه : «وسيكون له طفل من هذه ! هل يمكنك ان تعامل انسانا بهذا الشكل ؟ هاه ؟ حاولتْ ان تقتل نفسها فصارت شوهاء بقية عمرها . . . هل تريدون دفعها الى القبر ؟ هاه . . . يا لقلبه ، يا لقلبه . . .» — كان صوت ميرون غريغوريتش كالفحيح ، وهو يمزق صدره بيد ، ويشدّ طرف معطف بانتلاى بروكوفتش باليد الاخرى . — ام له قلب ذئب ؟

فند عن بانتلاى بروكوفتش صوت كالازيز واشاح بوجهه .

— المرأة مخلصة له ، ولا حياة لها بدونه . اهى قن فى خدمتكم ؟

فصاح بانتلاى بروكوفتش وهو ينهض من جرف الحفرة :

— هى اكثر من ابنة بالنسبة لنا ! امسك لسانك !

وافترقا دون وداع ، كل الى حال سبيله .

حين تنحرف الحياة عن مجراها الطبيعى تتشعب جداول متعددة . ومن العسير ان يتنبأ المرء اى جدول منها سيضم مسار حياته الملتوى الغدار . فحيث يترقرق اليوم ، كالنهير على ارض رملية ، تكاد لضحالته ترى قعره ، يجرى فى الغد ثرا طافحا . . .

على حين غرة قررت ناتاليا ان تذهب الى اكسينيا فى ياغودنويه ، وتسألها وتتضرع اليها ، ان تعيد غريغورى اليها . وقد خيل لناتاليا ، لسبب ما ، ان كل شىء يتوقف على اكسينيا ، وان كل ما عليها ان تفعله هو ان ترجوها فيعود اليها غريغورى ، ومعه يعود هناؤها السابق . ولم تترو لتعرف ما اذا كان ذلك ممكنا ، او كيف ستتلقى اكسينيا رجاءها هذا . ساقتها دوافع العقل الباطن ، فعمدت الى تنفيذ قرارها باسرع ما يمكن . وصلت فى نهاية الشهر رسالة من غريغورى . وبعد ان خاطب اباه وامه بعث تحياته واحترامه الى ناتاليا . ومهما يكن السبب الذى دفعه الى ذلك فانه كان بمثابة الحافز الذى كانت ناتاليا تحتاجه ، فتأهبت للذهاب الى ياغودنويه يوم الاحد التالى .

سألتها دونيا فيما كانت تراقبها وهى تتملى ملامحها باهتمام فى كسرة من مرآة :

— الى اين ذاهبة ، يا ناتاليا ؟

— ذاهبة لزيارة اهلى .

كذبت ناتاليا ، فاحمر وجهها اذ ادركت للمرة الاولى انها معرضة نفسها لمهانة عظيمة ، وامتحان اخلاقى مريع . فاقترحت داريا قائلة :

— لم لا تخرجين معى فى احدى الامسيات ؟ تعالى

هذا المساء ، الا تأتين ؟

— لا ادرى ، لا اظن ذلك .

— يا للراهبة ! دورنا يأتى فقط حينما يكون ازواجنا غائبين .

قالت داريا ذلك وغمزت بعينها ، ثم انحنت لتتفحص الحاشية المطرزة لتنورتها الجديدة الزرقاء الفاتحة . لقد تغيرت داريا كثيرا مذ رحل بيوتر ، فبدا نفاد الصبر فى عينيها ، وفى حركاتها ومشيتها . فراحت تزّين نفسها بعناية اشد ايام الاحاد ، ولا تعود الى البيت الا فى ساعة متأخرة فى المساء ، كئيبة العينين سيئة المزاج ، فتبث شكواها الى ناتاليا :

— فظيع ، فظيع حقا ! اخذوا من القرية كل القوزاق اللائقين ، ولم يتركوا فيها سوى الصبيان والشيوخ .

— حسنا ، وما الفرق بالنسبة اليك ؟

— كيف ، لم يعد هناك اى شخص الهو معه مساء . ليتنى استطيع الذهاب يوما الى الطاحونة لوحدى . فليس ثمة مسلاة لنا هنا بوجود حمينا .

ثم سألت ناتاليا بصراحة لوذعية : — كيف يسعك ، يا عزيزتى ، ان تصبرى هذه المدة الطويلة من دون قوزاقى ؟

فاحمر وجه ناتاليا وقالت :

— اخزاك الله ! اليس لديك ضمير ؟

— الا تشعرين بأية شهوة ؟

— واضح انك تشعرين بها .

فاحمر وجه داريا وارتعش قوسا حاجبيها وردت ضاحكة :

— بالطبع اشعر ! لماذا يجب ان اخفى ذلك ؟ انا على استعداد فى هذه اللحظة ان ابعث الحرارة حتى فى شيخ

عجوز واهيجه ! حسبك ان تتصورى ، لقد مضى شهران مذ رحل بيوتر .

— انت تدخرين لنفسك الاحزان ، يا داريا .

— اخرسى ، ايتها العجوز الفاضلة ! نحن نعرفكن ، ايتها الهادئات ! انتن لا تعترفن به .

— ليس لدى ما اعترف به .

فصوبت اليها داريا نظرة جانبية ساخرة ، ثم عضت على شفتيها باسنانها الصغيرة الشرسة وقالت :

— قبل ايام جلس بجانبى تيموفى مانتسيف ، ابن الاتمان . جلس وهو يتصبب عرقا . رأيته يخاف ان يبدأ . ثم دس يده تحت ذراعى بهدوء ، ويده ترتجف . لم افعل شيئا سوى الانتظار ، ولم انبس ببنت شفة ، ولكن الغضب بدأ يتملكنى . ليته كان شابا — لكنه مجرد سافل صغير . كان عمره ستة عشر عاما ولا اكثر من ذلك بيوم واحد . الا ان دمه يفور ايضا . جلست صامتة ، ومضى هو يخمش بيده ويخمش ، ثم همس : «تعالى معى الى سقيفة المواشى فى بيتنا» وحينذاك اتحفته بشىء ! ضحكت بمرح ، وارتعش حاجباها واندلق الضحك من عينيها نصف المغمضتين واردفت :

— اى درس علمته ! قفزت ناهضة : «انت ، يا كذا ويا كيت ! انت ايها الجرو الغبى ! أتحسب نفسك قادرا على مراودتى بهذا الشكل ؟ متى بللت فراشك لآخر مرة ؟» وجهت اليه كلاما جميلا .

تغير موقف داريا من ناتاليا فى الاونة الاخيرة ، وغدت العلاقة بينهما بسيطة ودية . لقد تلاشى النفور الذى استشعرته داريا ازاء المرأة الاصغر منها سنا فأخذت المرأتان ، المتباينتان

فى كل شىء ، تعيشان معا عيشة ود .

فرغت ناتاليا من ارتداء ملابسها وخرجت . وادركتها داريا عند سقيفة الباب . فقالت :

— هل ستفتحين الباب لي هذه الليلة ؟

— اتصور انى ساقضى الليل عند اهلي .

فراحت داريا تحك انفها بمشطها وهى مستغرقة بالتفكير ، ثم هزت رأسها :

— آه ، حسنا ، لم يكن بودى ان اطلب ذلك من دونيا ، ولكن لا ارى بدا من ذلك .

اخبرت ناتاليا ايلنتشنا بانها ذاهبة لزيارة اهلها ، ثم خرجت الى الشارع . كانت العربات تقرقع قادمة من ساحة السوق ، والقرويون عائدين من الكنيسة . انعطفت فى زقاق جانبى وتسلقت التل على عجل . والتفتت عند القمة فنظرت خلفها . كانت القرية سابحة فى نور الشمس ، والبيوت الصغيرة المطلية بالكلس تبهر العين ببياضها ، والشمس تنعكس على سقف الطاحونة المائل ، جاعلة صفائح الحديد تتوهج كذوب المعدن الخام .

١٩

كانت ياغودنويه قد خلت ايضا من رجالها بسبب الحرب . ذهب فنيامين وتيخون ، فغدا المكان اكثر قفرا ، ومللا ، وانعزالا . وتولت اكسينيا خدمة الجنرال بدل فنيامين ، وتولت لوكيريا ذات العجيزة مهام المطبخ واطعام الدواجن . وكان ساشكا العجوز يعنى بالخيل والبستان . ولم يكن هناك سوى وجه جديد واحد ، هو قوزاقى عجوز يدعى نيكيتيتش استخدم حوذيا .

بذر ليستنتسكى العجوز عامئذ بذرا اقل ، وزود الجيش بحوالى عشرين حصان ركائب عسكرية ، فلم يبق للضيعة سوى جياد اصيلة وثلاثة جياد لجر العربة . وكان يمضى وقته فى صيد الحبارى والقنص بكلاب الصيد .

لم تتلق اكسينيا من غريغورى الا رسائل قليلة مقتضبة ، يخبرها انه ما زال بخير وهو يعانى مرارة التجربة . كان قد اشتد عوده ، والا فانه لا يريد ان يخبرها بضعفه ، فقد عمد الا تفلت منه اية شكوى من حياة الجندية التى الفاها شاقة كئيبة . كانت ثمة نبرة فاترة فى رسائله ، وكأنه كتبها شعورا منه بالواجب . ولم يقل الا فى رسالة اخيرة : «كل وقتى فى جبهات القتال ، لقد مللت الحرب وانا احمل الموت على ظهرى .» وكان فى كل رسائله يسأل عن ابنته ، ويطلب من اكسينيا ان تكتب له عنها : «اكتبى كيف حال ابنتى وما هو مظهرها الان ؟ رأيتها منذ ايام فى منامى مرتدية فستانا احمر ومتكبرة .»

بدا على اكسينيا وكأنها تتحمل الفرقة بشجاعة . وقد اغدقت كل حبها على طفلتها ، سيما بعد ان اقتنعت بأنها طفلته حقا . لقد زودتها الحياة ببراهين لا تدحض : فتبدل شعرها الكستنائى واستحال اسود مجعدا ، وغدت عيناها سوداوين مستطيلتين وحتى ابتسامتها اصبحت تشابه ابتسامة غريغورى . ويزداد شبهها بأبيها يوما بعد يوم . وبات بوسع اكسينيا ان ترى صورته فى الطفلة بما لا يقبل الشك ، فازدادت عاطفتها نحوها عمقا . ولم تعد تشيح عن المهد رأسها ، كما فعلت بعض الاحيان فى السابق ، لانها كانت تستشف فى وجه الطفلة الغافى بعض ملامح ستيبان المقيتة .

على ان الايام مضت متثاقلة ، وفى نهاية كل يوم تجثم

على صدر اكسينيا مرارة كاوية . كان القلق على حياة محبوبها ينفذ فى ذهنها كأبرة حادة ، فلا يبارحها نهارا . كل ما اعتصر نفسها وحاولت ان تكبحه بارادتها يعود فيقوض كل السدود اثناء الليل ، فتتضور وتتقلب ، باكية دونما صوت ، وهى تعض على يدها ، كى لا توقظ الطفلة بنشيجها ، وقد بذلت وسعها لاغراق عذاب روحها بعذاب جسدها . وكانت تفرغ بقية دموعها على قماط طفلتها ، فتحدث نفسها بسذاجتها الطفولية : «انها طفلة غريشا ، لا بد ان يحس فى صميمه كم احن اليه .»

كانت اكسينيا تنهض صباحا بعد ليال مثل هذه وكأن احدا قد اشبعها ضربا لا رحمة فيه . كان الالم يبرّح كل جوارحها ، وتدق فى عروقها مطارق فضية صغيرة لا تنقطع ، ويلوح الحزن فى طرفى شفتيها . واضفت هذه الليالى الشيخوخة عليها .

ذات يوم احد قدمت الفطور الى سيدها ، ثم خرجت الى الفناء واذ كانت واقفة على عتبة الباب رأت امرأة تدنو من البوابة . كانت العينان تبدوان من تحت العصابة البيضاء مألوفتين بشكل غريب . فتحت المرأة البوابة وولجت الفناء . وشحب وجه اكسينيا اذ عرفت ناتاليا ، فمضت اليها متمهلة . كانت طبقة كثيفة من الغبار قد استقرت على حذاء ناتاليا . توقفت وقد تدلت على جانبيها يلا حياة يداها الكبيرتان ، الخشنتان من الكدح ، وكانت تسحب انفاسها بمشقة ، وهى تحاول عبثا ان تقيم رقبتها الشوهاء . فبدت وكأنها تنظر جانبا . قالت ، وهى تمرر لسانها الجاف فوق شفتيها : «جئت لاراك ، يا اكسينيا» .

القت اكسينيا نظرة خاطفة على نوافذ البيت وقادت ناتاليا بصمت الى داخل غرفتها فتبعتها ناتاليا . وبدا لاذنى ناتاليا المصيختين بأن حفيف تنورة اكسينيا كان عاليا بشكل غير طبيعى :

«اذناى ليستا على ما يرام . لا بد ان ذلك بفعل الحرارة .»
راحت هذه الفكرة المضطربة تعتمل فى رأسها مع جملة من افكار اخرى .

اغلقت اكسينيا الباب ، ثم وقفت فى وسط الغرفة ويداها تحت وزرتها واخذت زمام المبادرة .

سألت اكسينيا بصوت واطئ اقرب الى الهمس :

— علام جئت ؟

فاجابت ناتاليا وهى تجول بعينيها فى ارجاء الغرفة ببطء :

— اريد ان اشرب ماء .

انتظرت اكسينيا ، فشرعت ناتاليا فى الكلام ، رافعة صوتها بمشقة :

— لقد اخذت زوجى منى . . . اعيدى لى غريغورى العزيز . حطمت حياتى . الا ترين كيف . . .

فصرت اكسينيا باسنانها ، وتساقطت الكلمات من فمها متلاحقة كما تتساقط قطرات المطر المتباطئة على الحجر :

— أعيد زوجك ؟ أعيده ؟ ممن تطلبين ؟ لماذا جئت ؟ طلبك بعد فوات الاوان . بعد فوات الاوان !

دنت اكسينيا من ناتاليا وهى ترسل ضحكات كاوية تهز بدنها برمته . وراحت تهزأ بها وهى تصوب النظرات الى غريمتها . ها هى واقفة ، تلك الزوجة الشرعية المهجورة ، ذليلة ، سحقتها التعاسة . هى ذى المرأة التى حلت بين اكسينيا وغريغورى ففرقت بينهما ، وادمت قلب اكسينيا ألما . ويوم كانت تضنى نفسها بالشوق القتال كانت الاخرى ، ناتاليا هذه ، تداعب غريغورى وتضحك منها دونما ريب ، تضحك منها هى ، العشيقة المهجورة .

لهثت اكسينيا قائلة :

— وجئت تطلبين منى ان اتخلى عنه ؟ ايتها الافعى الزاحفة ، انت التى اغتصبت غريشا منى اول الامر ! كنت تعرفين اننى اعاشره . لماذا تزوجته ؟ انا استعدت ما يخصنى . انه ملكى ولي منه طفلة ، اما انت . . .

وراحت تحدق فى عينى ناتاليا بمقت عاصف ، وفيما كانت تلوح ذراعيها بجنون ، طفقت تصب حمما جارفة من كلماتها :

— غريشا لي ، ولن اتخلى عنه لاحد ! انه لي ، لي ! اتسمعين ؟ . . لي ! اخرجى ايتها العاهرة الفاحشة ، انت لست زوجته . أتريدين أن تسرقى من الطفلة اباها ؟ ولماذا لم تأتى قبل هذا ؟ ها ، لماذا لم تأتى ؟

مشت ناتاليا جانبا وجلست على المسطبة ، مسبلة رأسها مغطية وجهها بيديها :

— انت تركت زوجك . لا تصرخى هكذا .

— لا زوج لي سوى غريشا . ليس لي فى الدنيا احد .

احست اكسينيا بغيظ يلتهب فى داخلها ولا يجد له منفذا ، وراحت تحدق فى خصلة الشعر الاسود التى انسلت من تحت عصابة ناتاليا ، وسألتها غاضبة :

— اهو بحاجة اليك ؟ انظرى الى رقبتك الملتوية ! اتحسينه يحن اليك ؟ لقد هجرك وانت سليمة ، فهل يمكن ان ينظر اليك وانت شوهاء ؟ لن اتخلى عن غريشا ! ذلك كل ما عندى من قول . اخرجى !

تنمرت اكسينيا فى الذود عن عشها ، وفى الثأر لكل ما عانته فى الماضى . كان بوسعها ان تلاحظ ان ناتاليا ما زالت تبدو مليحة رغم عنقها المعوج قليلا . كان خدا وشفتا ناتاليا

نضيرتين ، لم تمتد اليهما يد الزمن ، اما هى فقد احاطت الغضون عينيها ، وكل ذلك بسبب ناتاليا .

رفعت ناتاليا عينيها ، وقد دوخها الالم :

— اتظنين اننى كنت امل ان استعيده بالرجاء ؟

فلهثت اكسينيا قائلة :

— اذن لم اتيت ؟

— دفعنى الشوق .

استيقظت طفلة اكسينيا على الاصوات فتململت فى فراشها وشرعت تبكى . فرفعت الام ابنتها ، وجلست ووجهها صوب النافذة . وحملقت ناتاليا بالطفلة واوصالها ترتعش . واحتبست غصّة يابسة فى حنجرتها . كانت عينا غريغورى تطلان عليها من وجه الطفلة بفضول .

خرجت ناتاليا الى سقيفة الباب وهى تبكى وتترنح ، ولم تنهض اكسينيا لتودعها . وبعد دقيقة او دقيقتين دخل عليها ساشكا الغرفة . وسألها ، ولا بد انه قد حزر :

— من تلك المرأة ؟

— واحدة من قريتنا .

قطعت ناتاليا فى طريق عودتها مسافة ثلاثة فرسخات تقريبا ، ثم رقدت تحت شجيرة شوك برية . كان الحنين قد هدّ حيلها فاستلقت ورأسها خلو من اية فكرة . ولم تغب عن مخيلتها صورة عينى غريغورى الكئيبتين وهما تطلان عليها من وجه الطفلة .

٢٠

انطبعت الليلة التى اعقبت المعركة فى ذاكرة غريغورى انطباعا عميقا لا يمحوه الدهر . فغدا وكأنه الم يعمى الابصار .

ثاب الى رشده قبيل الفجر ، فتململت يداه على جذامات الزرع الواخزة ، وعلا انينه من الالم الذى ملأ رأسه . ورفع يده بمشقة ، فجرها الى جبينه ، وتلمس شعره المتلبد بدمه . وحين لامس اصبعه الجرح احس وكأن جمرة حمراء قد وضعت عليه . ثم صرّ باسنانه وانقلب على ظهره . كانت اوراق شجرة اذواها الزمهرير تحفّ فوق رأسه بجرس بلورى اسيان . وبدت الاغصان السوداء واضحة المعالم على صفحة السماء ذات الزرقة العميقة ، وكانت ثمة نجوم تومض من خلالها . شخص غريغورى اليها بعين لا تطرف ، فبدت له النجوم اشبه بثمار غريبة صفر مزرقة تتدلى من الاغصان .

ادرك ما حل به ، فانتابه هلع لا مفر منه ، وشرع يزحف على اطرافه الاربعة وهو يصر باسنانه . اشتدت عليه وطأة الالم فجعلته يهوى ووجهه الى الاسفل . خيل اليه انه زاحف ابد الدهر ، فحمل نفسه على التطلع الى وراء ، فاذا الشجرة التى كان يرقد تحتها فاقد الوعى ماثلة بسوادها على بعد خمسين خطوة تقريبا . وزحف مرة عبر جثة هامدة ، فاسند مرفقيه على بطن الرجل الميت الغائرة الصلدة . كان خائر القوى من كثرة ما فقد من دم ، فجعل يبكى كالرضيع ، وراح يمضغ العشب الندى لكى لا يفقد وعيه . واستطاع ان ينهض على قدميه مستعينا بصندوق مقلوب من صناديق القنابل ، فوقف يترنح وقتا طويلا ، ثم شرع يسير . وبدأت قواه تعاوده ، فمشى بخطى اشد ثباتا ، واستطاع ان يسترشد بالدب الاكبر ، فيمم وجهه صوب الشرق .

وعند طرف الغابة اوقفته صرخة منذرة مباغتة :

— قف ، والا اطلقت النار !

سمع طلقة مسدس ، فنظر باتجاه الصوت . كان ثمة رجل

يتكىء على شجرة صنوبر .

— من انت ؟

قالها غريغورى ، منصتا لصوته وكأنه صوت رجل اخر .

— روسى ؟ يا آلهى ! تعال هنا !

وتهاوى الرجل الماثل قرب الصنوبر الى الارض ، فتقدم غريغورى نحوه :

— انحن !

— لا اقدر .

— لم لا ؟

— سأقع فلا استطيع النهوض ثانية . انا مصاب بجرح فى رأسى .

— من اى كتيبة انت ؟

— من كتيبة قوزاق الدون الثانية عشرة .

— ساعدنى ، ايها القوزاقى !

فأجابه غريغورى ، وقد عرف من سيرى كتفه انه ضابط :

— سأقع ، يا صاحب السعادة .

— اعطنى يدك على الاقل .

اعان غريغورى الضابط على النهوض ، ومضيا سوية ولكن الضابط اشتد تعلقه بذراع غريغورى خطوة بعد اخرى . وفيما كانا يصعدان من وهدة ، امسك الضابط غريغورى من كمه وقال مصرا باسنانه :

— اتركنى ، يا قوزاقى . اصبت بجرح . . . فى معدتى تماما .

كانت عيناه خابيتين وراء نظارته المعلقة على انفه ، وجعل فمه الفاغر يلهث بانفاس مبحوحة . ثم اغمى عليه ، بيد ان

غريغورى جره معه ، وراح يهوى وينهض مرة بعد اخرى . وقد القى حمله مرتين وتركه ، ولكنه فى كل مرة كان يعود فيرفعه ويمضى كالسائر فى نومه .

وعند الساعة الحادية عشرة التقطتهما دورية وذهبت بهما الى مركز للتضميد .

انسل غريغورى من المركز فى اليوم التالى مباشرة . وما ان بلغ الطريق حتى انتزع الضماد من على رأسه ، وصار يلوح ضماده المضمخ بالدم فى يده وهو يتنفس الصعداء .

وحين ذهب الى مقر قيادة الكتيبة سأله آمر سريته بدهشة :

— من اين اتيت ؟

— عدت الى الواجب ، يا صاحب السعادة .

وحين غادر امر السرية التقى بعريف فصيله .

— حصانى . . . الكميت ، اين هو ؟

— انه بخير ، يا فتى . امسكنا به حالما فرغنا من النمساويين . ولكن ماذا حل بك ؟ لقد صلينا من اجلك ، كى تذهب الى الجنة .

فقال غريغورى ، وهو يبتسم ابتسامة كالحة :

— كنتم على عجل .

وجاء فى الامر الصادر عن كتيبته ما يلى :

بالنظر لانقاذ حياة امر كتيبة الفرسان التاسعة ، المقدم كوستاف كروزبرك ، على يد القوزاقى التابع لكتيبة قوزاق الدون الثانية عشرة ، غريغورى ميليخوف ، تقرر ترفيعه الى رتبة نائب عريف ، والايصاء بمنحه وسام القديس غيورغى ، من الدرجة الرابعة .

كانت كتيبة غريغورى قد توقفت فى كامينكا سترومیلوفو مدة يومين ، وكانوا حينذاك على اهبة التقدم ثانية . وعثر غريغورى

على البيت الذى اوى اليه قوزاق رعيله ، ثم ذهب ليرى حصانه . وافتقد منشفته وبعض ملابسه الداخلية من خرج سرجه . فاعترف ميشا كوشيفوى اعتراف المذنب قائلا :

— سرقت امام عينى ، يا غريغورى . نزل هنا حشد من المشاة ، وسرقوها .

— حسنا ، يمكن ان يحتفظوا بها ، عليهم اللعنة ! اريد فقط ان اعصب رأسى .

— بوسعك ان تأخذ منشفتى .

دخل اوريوبين السقيفة ، حيث كانا واقفين ، فمد لغريغورى يده وكأن شجارا لم يحدث بينهما قط .

— مرحبا ، ميليخوف ! اذن ما زلت حيا !

— تقريبا .

— الدم ينزف من رأسك . امسح جبينك .

— سوف افعل ذلك فى اوانه .

— دعنا نرى ما فعلوا بك .

ثم حمل غريغورى على ان يميل برأسه الى وراء ، وزنخر قائلا :

— لماذا سمحت لهم بقص شعرك ؟ يا لمنظرك ! الاطباء لا ينفعونك دعنى اداويك .

دون ان ينتظر موافقة غريغورى ، اخرج خرطوشة من حافظته ، ثم افرغ البارود الاسود فى راحة يده .

— ميشا ، آتنى بنسيج عنكبوت .

كشط كوشيفوى برأس سيفه نسيج عنكبوت من احد اعمدة السقف وناوله الى اوريوبين . ثم حفر اوريوبين بالسيف نفسه بعض التراب ، وبعد ان مزجه بنسيج العنكبوت والبارود مضغه

بين اسنانه . ثم لبخ المزيج اللزج على الجرح النازف وابتسم اذ أعلن :

— سيكون الآن على ما يرام فى غضون ايام ثلاثة . ولكن ها انذا اعتنى بك ، بينما كنت ستقتلنى .

— شكرا لعنايتك بى ، ولكنى لو قتلتك لقل خطيئة واحدة عدد ما يثقل ضميرى من خطايا .

— يا لك من ساذج ، ايها الفتى .

— ربما . كيف يبدو رأسى ؟

— هناك جرح لا بأس به . انه شىء يذكرك بهم .

— سوف لا انساهم .

— لن تستطيع ان تنساهم حتى لو شئت ، فالنمساويون لا يشحذون سيوفهم كما ينبغى ، لذلك ستبقى لديك ندبة بقية حياتك .

قال كوشيفوى باسما :

— من حسن حظك ، يا غريغورى ، ان الضربة انحرفت ، والا كنت ستوارى بتربة اجنبية .

ولوى غريغورى قبعته الممزقة الملطخة دما بين يديه بحيرة ، اذ قال :

— ماذا عسانى فاعلا بقبعتى ؟

— ارمها . ستأكلها الكلاب .

وتناهت اليهم من باب الدار صيحة قائل :

— وصل الطعام ، اولاد . هلموا لاستلامه !

ترك القوزاق السقيفة ، وصهل وراءهم حصان غريغورى الكميت ، وهو يقلب بياض عينيه .

فاومأ كوشيفوى الى الحصان وقال :

— كان يحن اليك ، ياغريغورى . لقد استغربت ذلك ، كان يصد عن الطعام ويصهل طوال الوقت .

فقال غريغورى بصوت متهدج وقد اشاح بوجهه :

— حين كنت ازحف بقيت اناديه . كنت على ثقة انه لن يتركنى ، وكنت اعلم انه لن يكون من السهل على غريب ان يمسكه .

— هذا صحيح . لم نستطع الامساك به الا بالانشوطة .

— انه حصان طيب . حصان اخى بيوتر .

والتفت غريغورى ليخفى عينيه الدامعتين .

دخلوا الدار . كان يغور زاركوف نائما فى الغرفة الامامية على فراش ذى نوابض . كان ثمة اضطراب لا يوصف يشهد بصمت على عجالة اهل البيت عندما رحلوا عنه . فثمة كسرات واوان ، واوراق ممزقة ، وكتب ، وسقط متاع ولعب اطفال ، وجزم عتيقة ، وطحين منثور ، كلها ممرغة على الارض باضطراب .

كان يميليان كروشيف وبروخور زيكوف قد نظفا فسحة فى وسط الغرفة ، وجلسا يتناولان غداءهما ، ولدى رؤية غريغورى ، كادت عينا بروخور الشبيهتان بعينى العجل تطفران من محجريه :

— غريشا ! من اين نبعت ؟

— من الآخرة .

فصاح اوريوبين :

— اهرع واجلب له شيئا من الطعام . لا تحملق به هكذا !

— لن يستغرق ذلك دقيقة . المطبخ عند المنعطف .

وهرول بروخور الى الباب ، يمضغ اثناء عدوه . وجلس غريغورى فى مكانه بوهن . ثم قال : «لست اتذكر متى اكلت اخر مرة .» ثم ابتسم ابتسامة ذاوية وكأنه يحس بالذنب .

كانت وحدات من الجيش الثالث تتحرك خلال المدينة ، فغصت شوارعها الضيقة بالمشاة ، وعربات الشحن ، والخيالة ، وكانت مفارق الطرق مزدحمة ، والضوضاء تلج البيوت حتى وهى مغلقة الابواب . وعاد بروخور على عجل باناء من الحساء ومقلاة من الحنطة السوداء .

— اين اصب الطعام ؟

فالتقط كروشيف مبولة ، دون ان يعرف ما هى ، وقال : «اليك اناء ذا عروة .» فقال بروخور عابسا :

— ان اناءك هذا كريه الرائحة .

— لا بأس عليك . افرغه وسنتقاسمه فيما بعد .

قلب زيكوف الاناء فى الصحن فاندلقت العصيدة الدسمة الثخينة كتلة واحدة ، يحيط بها سوار من دهن عمبرى . فراحوا يأكلون ويثرثرون . حكى لهم بروخور ، وهو يمسح باللعاب بقعة من على شريط سرواله :

— هناك بطارية تابعة لفوج جبلى من المدفعية الخيالة فى جوارنا . انهم يطعمون الآن خيلهم . وقد قرأ نائب ضابطهم فى الجريدة ان حلفاء الالمان يتبعثرون .

غمغم اوريوبين من فمه المملوء بالعصيدة :

— ليتك كنت هنا يا ميليخوف هذا الصباح . آمر الفرقة شكرنا بنفسه . استعرضنا ثم شكرنا على سحق الخيالة المجرية وانقاذ البطارية . قال : «ايها القوزاق ان القيصر والوطن لن ينسياكم».

وفيما هو يتحدث ارتفع فى الخارج صوت اطلاقة ثم اخرى . وطفق مدفع رشاش يلعلع . تناهى الى مسامعهم صوت يأمر : «اخرجوا !» فرمى القوزاق ملاعقهم وهرولوا الى الخارج . كانت ثمة طائرة تحوم واطئة فوق الرؤوس بهدير يحمل النذير .

فصاح اوريوبين :

— انبطحوا تحت السياج . سيقذفون قنبلة بعد لحظة فهناك بطارية تأوى بجوارنا .

— ليذهب واحد ويوقظ يغور . سوف يقتل على فراشه الوثير !

— اخرجوا البنادق .

سدد اوريوبين مرماه بدقة من على الدرجات واطلق النار .

وتراكض فى الشارع جند وقد خفضوا رؤوسهم لسبب ما . وتناهى من الحوش المجاور صهيل الخيل وامر مقتضب . القى غريغورى نظرة عبر الحاجز فرأى المدفعيين يدخلون مدفعا الى السقيفة على عجل . وخاوص عينيه من زرقة السماء الواخزة وشخص الى الطائر الهادر المنقض . وفى تلك اللحظة سقط منه شىء توهج فى نور الشمس بشدة . وهز دوى ماحق الدار والقوزاق المنبطحين قرب الدرج ، وصهل فى الحوش المجاور حصان فى احتضاره . وهبت عبر السياج موجة من دخان البارود الحريف .

صاح اوريوبين وهو يهرع هابطا الدرج : «انبطح !» فقفز غريغورى وراءه ، والقيا بنفسيهما قرب السياج . وتوهج احد جناحى الطائرة فيما استدارت . وبلغهما صوت اطلاقات متقطعة فى الشارع . كان غريغورى قد دس لتوه مشطا جديدا من الخراطيش فى مخزن بندقيته حين قذف به دوى ساحق مسافة بضع خطوات عن السياج . ولطمته لبدة من التراب على رأسه بقوة ، فملأت عينيه غبارا . . .

انهضه اوريوبين على قدميه . وقد حال الم حاد فى العين اليسرى بين غريغورى والرؤية . ثم رفع جفنه الايمن بمشقة فرأى ان نصف الدار قد تهدم . وتصاعد فوق حطام الاجر دخان

وردى . زحف يغور زازكوف من تحت الدرجات . كان وجهه يصرخ برمته ، وعيناه تذرفان دمعا داميا وقد اندلقتا من محجريهما . دفن رأسه بين كتفيه ، ويصرخ دون ان يفتح شفتيه المزرقتين .

انجرت وراءه احدى ساقيه ، مقطوعة عند الفخذ ، متعلقة بخيط من الجلد وشريط من سرواله المحروق ، اما الساق الاخرى فقد زالت تماما . كان يزحف على يديه ببطء ، ومن شفتيه ينبعث صراخ رفيع يكاد يشبه صراخ الاطفال . ثم انقطع الصراخ ، وسقط على جنبه ، شادا بوجهه على الارض الصلدة القاسية التى تبعثر فوقها الطابوق والروث . ولم يحاول احد ان يذهب اليه .

صاح غريغورى ويده ما تزال تضغط على عينه اليسرى :

— التقطوه !

تراكض رجال من المشاة داخل الحوش ، وتوقفت عند البوابة عربة ذات عجلتين يصحبها جنود التلفونات . وصاح بهم ضابط وهو يتعداهم هذبا على حصانه :

— استمروا فى الحركة ! لا تقفوا هناك يا شياطين !

وتقدمت امرأتان ورجل عجوز يرتدى معطفا طويلا اسود . وسرعان ما حف بزازكوف حشد صغير . واندفع غريغورى بينهم فرآه ما يزال يتنفس وينشج بعنف ويرتعش رعشة شديدة . حبات كبيرة من العرق تبدت على جبينه الاصفر الموات .

— احملوه ! هل انتم ، رجال ام شياطين ؟

فزجر رجل من المشاة قائلا :

— فيم عواؤك ؟ احملوه ، احملوه ! ولكن الى اين يمكن ان نذهب به ؟ الا تراه يحتضر ؟

— ذهبت ساقاه كلتاهما !

— انظروا الى الدم ! ما اكثره !

— اين هم حملة الناقلات ؟

— ما جدواهم !

— وما يزال على وعيه .

لمس اوريوبين غريغورى كتفه من الخلف ، وهمس قائلا :

— لا تحركه ، تعال الى الجهة الاخرى وانظر .

ثم سحب غريغورى من كمه ، ودفع الحشد جانبا . القى غريغورى نظرة واحدة ، فاحنى منكبيه واشاح بوجهه صوب البوابة . فتحت بطن زاركوف كانت الامعاء الوردية والزرقاء يتصاعد منها البخار . كانت الكومة المتشابكة ملقاة على الرمل والروث ، وتنتفخ ، والى جانبها يد الرجل المحتضر تهرش الارض .

اقترح احدهم قائلا :

— غطوا وجهه .

وفجأة رفع زاركوف نفسه على يديه ، وامال رأسه الى الخلف حتى تدلى من بين عظمى اللوح ، وصاح بصوت مبحوح لا يشبه صوت البشر :

— اخوانى ، اقتلونى . . . اقتلونى ! . . لماذا تقفـون متفرجين ؟ . . اواه . . . اواه اخوانى ، اقتلونى !

٢١

تمايلت عربة القطار برفق وكانت ضربات عجلاتها تبعث فى النفس نعاسا مهدهدا . وانسابت من الفانوس حزمة صفراء من النور . ما احلى ان يتمدد المرء بطوله ، وقد خلع جزمتيه ، لتحظى قدماه براحتهما ، فيخلى المسؤولية جانبا ، ويدرك الا خطر يتهدد حياته ، وان الموت بعيد عنه . وثمة متعة خاصة

ان ينصت الى ثرثرة العجلات المتغيرة ، فمع كل دورة ، ومع كل جرة من جرات القاطرة ، تتناءى جبهة القتال عنه . ورقد غريغورى يصغى ويلوى اصابع قدميه العاريتين ، فينعم كل بدنه بالملابس الجديدة النظيفة . واستولى عليه شعور من نزع عن نفسه جلدا قذرا وانطلق يلج الى عالم جديد وهو نظيف تمام النظافة .

ولم يكن يقطع عليه هناءه الرائق الهادئ سوى الم فى عينه اليسرى . كان يتلاشى بين اونة واخرى ، ليعود فجأة ، فيضرم عينه ويحمل الدمع على الانسياب من تحت ضمادته . كان طبيب يهودى شاب قد فحص عينه فى مستشفى الميدان وكتب شيئا على قصاصة ورق وقال له :

— ينبغى لك ان ترحل من هنا . ان حالة عينك سيئة للغاية .

— هل سافقدها ، يا دكتور ؟

فابتسم الطبيب وقد احس بالرعب البادى فى صوت غريغورى ، وقال له مبتسما برقة : «ما الذى يدعوك الى هذا الظن ؟ ولكن يجب ان تعالجها ، وربما دعت الضرورة الى اجراء عملية . سنرسلك الى بتروغراد او موسكو .

— شكرا جزيلا .

— لا تخف ، ستكون عينك على ما يرام .

وربت على كتف غريغورى وقاده الى الممر بلطف . وحين استدار ، شمر عن ساعديه تأهبا لاجراء عملية .

وبعد انتظار طويل ، الفى غريغورى نفسه فى قطار خاص بالمرضى . واستلقى طيلة ايام ، يهنأ بنعمة الطمأنينة . وقد بذلت القاطرة العتيقة كل قواها لجر الصف الطويل من العربات . دنوا من موسكو ، فبلغوها ليلا . ونقل ذوو الحالات الخطرة على

الناقلات ، اما الذين يستطيعون السير فقد جمعوا على الرصيف . ونادى الطبيب المرافق للقطار باسم غريغورى وسلمه الى احدى الممرضات واخبرها اين يجب ان يذهب .

— أمعك امتعة ؟

— اية امتعة تحسبين القوزاقى يملك ؟ معطف وحقيبة ميدان ، وهذا كل شىء .

— اتبعنى .

قادته الممرضة الى خارج المحطة ، ولباسها يحف وهى تعدل شعرها تحت عصابتها . وراح غريغورى يسير بخطى غير واثقة وراءها . ثم اكتريا عربة . لقد خلف هدير المدينة الكبيرة ، وصخب اجراس الترام ، والوهج الازرق المنبعث من المصابيح الكهربائية ، شعورا بالانسحاق لديه . فاتكأ على مسند العربة وراح ينظر بفضول الى الشوارع المزدحمة رغم ان الليلة قد حلت ، وكان غريبا لديه ان يشعر بالدفء المثير لجسد امرأة تجلس الى جانبه . كان الخريف قد حل فى موسكو . وكانت اوراق الاشجار على جانبى الشوارع تومض وميضا اصفر فى ضوء المصابيح ، وانفاس الليل تحمل رطوبة باردة ، والارصفة تتوهج ، والنجوم من فوقه واضحة المعالم باردة كعهدها فى الخريف . وانحرفا من وسط المدينة الى شارع فرعى مهجور . وراحت حوافر الخيل تصفق احجار الشارع ، وتمايل الحوذى على مقعده المرتفع بسترته الطويلة الزرقاء وهو يلوح لفرسه بطرف العنان . وتناهى اليه صفير قاطرات بعيدة . فقال غريغورى فى نفسه وقد وخزه الحنين : «ربما تحرك قطار لتوه صوب الدون .»

سألته الممرضة قائلة :

— اتشعر بالنعاس ؟

— كلا .

— سنصل عما قريب .

استدار الحوذى : — ماذا تريدين ؟

— اسرع !

التمع ماء بركة من وراء قضبان حديدية التماع الزيت ، ولمح غريغورى مرسى تسوره القضبان وقد ربط اليه قارب . وكان الهواء مفعما برائحة الرطوبة .

قال غريغورى فى نفسه شارد الذهن : «انهم هنا يحبسون حتى الماء وراء القضبان ، ليس الامر كالدون . . .» وخشخشت اوراق الشجر تحت دواليب العربة المطاطية .

توقفا خارج منزل ذى ثلاثة طوابق ، فقفز غريغورى نازلا . وقالت الممرضة وهى تنحنى صوبه :

— اعطنى يدك .

فامسك يدها الغضة بيده ، واعانها على النزول . فقالت وهى تدق الجرس وتضحك بهدوء :

— ان فيك رائحة عرق الجندية .

فرد عليها غريغورى بغضب مكبوت :

— ينبغى ان تعيشى هناك بعض الوقت ، يا ممرضة ، وحينئذ سينبعث منك نتن اخر .

فتح الباب حاجب ، فارتقيا سلما ذا سوار ذهبى الطلاء الى الطابق الثانى فدقت الممرضة الجرس ففتحت لهما الباب امرأة برداء ابيض . فجلس غريغورى ازاء طاولة مستديرة فيما همست الممرضة شيئا الى امرأة فسجلت كلماتها .

وظهرت من ابواب الغرف الممتدة على جانبى الممر الضيق وجوه عليها عوينات من شتى الالوان .

طلبت امرأة ان ينزع غريغورى معطفه فأخذه منه خادم يرتدى ملابس بيضاء هو الاخر وقاده الى الحمام .

— اخلع ملابسك .

— علام ؟

— ينبغى ان تستحم .

وفيما كان غريغورى يخلع ملابسه ، ويجيل نظرات الدهشة فى الحمام ، بنوافذه ذوات الزجاج المغبش ، ملأ الخادم الحوض بالماء ، وقاس الحرارة ، ثم طلب اليه النزول فيه . فغمغم غريغورى فى حيرة وهو يرفع ساقه السمراء لينزلها فى الحوض :

— هذا الحوض لا يجدينى .

ساعده الخادم على غسل بدنه كله ، ثم اعطاه منشفة ، وقمصانا ، وخفا منزليا ، ومعطفا رمادى اللون ذا حزام . فسأله غريغورى مستغربا :

— ماذا عن ملابسى ؟

— سترتدى هذه ما دمت هنا . وستعاد ملابسك حين تغادر المستشفى .

وحين مر غريغورى بمرآة جدارية لم يعرف نفسه . فقد بدا ممشوق القامة ، داكن المحيا ، على خديه بقع قرمزية وبعض الشعر على شاربيه وذقنه ، وقد ارتدى معطفا منزليا ، وخصلات شعره تتدلى من تحت عصابة الضماد ، ولم يبق الا شبه طفيف بينه وبين غريغورى ميليخوف السابق . فابتسم أبتسامة ضامرة وهو يقول فى نفسه : «لقد غدوت أصغر سنا .»

قال الخادم :

— الردهة السادسة ، الباب الثالث الى اليمين .

وفيما دخل غريغورى الردهة الواسعة البيضاء كاد قسيس

يرتدى قميص المستشفى ونظارات داكنة ، ان ينهض . وقال مجاملا ، وهو يقدم الى غريغورى كرسيا :

— آه ، جار لي ؟ يسعدنى لقاؤك ، سيؤنس أحدنا الاخر . أنا من زارايسك .

وبعد دقائق قليلة فتحت الباب ممرضة بدينة لها وجه كبير لا جمال فيه .

ثم قالت بصوت خفيض كأنه ينبعث من صدرها :

— ميليخوف ، نريد أن نلقى نظرة على عينك .

ثم وقفت جانبا لتفسح له الطريق .

٢٢

قررت قيادة الجيش ان تشن بالفرسان هجوما واسع النطاق على الجبهة الجنوبية الغربية بغية اقتحام خطوط العدو وتخريب خطوط مواصلاته ، واشاعة البلبلة فى قواته بهجمات مباغتة على مؤخرته . وكانت القيادة تعلق على هذه الخطة آمالا كبارا ، فحشدت قوى كبيرة من الفرسان فى المنطقة ، وكانت من بينها كتيبة يفغينى ليستنتسكى . وقد حدد الثامن والعشرون من آب موعدا للهجوم ، غير ان عاصفة من المطر ادت الى تأجيله الى اليوم التالى .

وفى الصباح الباكر انتشرت الفرقة على رقعة واسعة تأهبا للهجوم .

وشن المشاة هجوما مصطنعا على بعد ثمانية فرسخات بغية اجتذاب نيران العدو . وارسل كذلك جانب من احدى فرق الخيالة باتجاه آخر للتضليل .

لم يبد امام كتيبة ليستنتسكى اى اثر للعدو . وكان بوسع يفغينى ان يرى على بعد فرست تقريبا صفوف خنادق العدو المهجورة ، ومن ورائها حقول الجويدار تتماوج فى ضباب الصباح الباكر الماثل الى الزرقة تتلاعب به الريح . لا بد ان العدو لمس بوادر الهجوم ، وتراجع خلال الليل نحو ستة فرستات ولم يترك وراءه سوى مكامن الرشاشات لمضايقة المشاة .

بزغت الشمس من وراء سحب مدلهمة ، واكتنف الوادى برمته ضباب اصفر حليبى . وصدرت الاوامر للبدء فى الهجوم ، فزحفت الكتائب . وقد بعثت الوف الحوافر دويا هادرا بدا وكأنه صادر عن جوف الارض . وجر ليستنتسكى عنان جواده كى يحول بينه والهذب . قطعوا فرستا فاقتربت طلائع القوات المهاجمة من الحقول . كان الجويدار يعلو الى خصر الرجل بطوله وقد تشابك باعشاب ونباتات متسلقة مما جعل تقدم الخيالة غاية فى المشقة . ومن امامهم كانت ذوآبات الجويدار الصفر ما تزال تتماوج . ومن خلفهم انطرحت على الارض مهروسة بحوافر الخيل . وبعد اربعة فرستات من هذه المسيرة بدأت الخيل تتعثر وتتصبب عرقا ، ولكنهم لم يقعوا للعدو على اثر . والقى ليستنتسكى الى آمر سريته نظرة فألفى وجه النقيب فى سيماء القنوط التام .

استنزفت ستة فرستات من هذه المسيرة قوى الخيل ، فتهاوى بعضها تحت فرسانها ، وتعثر اشدها قوة وهى تبذل كل ما فى طاقتها لتواصل التقدم . وعند ذاك بدأت رشاشات النمساويين عملها ، فامطرتها وابلا من الرصاص . واصلتهم البنادق رشقات من نارها . وكانت كتيبة من حملة الرماح اول من تخاذل وتراجع ، ثم تمزق شمل كتيبة قوزاقية . فقد لفح رجالها وابل من رصاص الرشاشات والمدافع واشاع فيهم الذعر وحملهم على الهزيمة .

وانتهى ذلك الهجوم الواسع النطاق الى هزيمة تامة ، جراء الاهمال الاجرامى الذى ابدته القيادة العليا . وقد فقدت بعض الكتائب نصف تعدادها من الرجال والخيل . ووقع ما بين قتيل وجريح اربعمائة قوزاقى وستة عشر ضابطا فى كتيبة ليستنتسكى وحدها .

وكان حصان ليستنتسكى قد صرع من تحته ، واصيب هو بجراح فى رأسه وساقه . فقفز رئيس عرفاء من على حصانه والتقطه والقاه على قربوس سرجه وعاد يهذب به .

التقط رئيس اركان الفرقة العقيد الركن كولفاتشيف بضع صور فوتوغرافية للمعركة ، وعرضها بعدئذ على بعض الضباط فكان تشيرفاكوف وهو ملازم جريح اول من هوى بقبضة يده على وجهه وانفجر باكيا . ثم جاء بعض القوزاق ومزقوا كولفاتشيف اربا ، ومثلوا بجثته ، ثم القوا بها آخر الامر فى حفرة على قارعة الطريق . وهكذا انتهى ذلك الهجوم المشين .

ومن احدى مستشفيات وارشو اخبر يفغينى اباه انه منح اجازة ، وانه قادم الى ياغودنويه . فاوصد العجوز عليه باب حجرته ولم يخرج ثانية الا فى اليوم التالى ووجهه عابس متجهم . فامر نيكيتيتش الحوذى ان يشد الحصان الخباب الى عربة خفيفة ، ثم تناول طعام الفطور ، وذهب الى فيشنسكايا . ومن هناك حول لابنه اربعمائة روبل برقيا ، وارسل اليه رسالة مقتضبة :

«يسعدنى جدا ، ياولدى العزيز ، انك تعمدت * فى النار . فسوح القتال هى المكان اللائق بالنبلاء لا القصور . انك لاشرف واذكى من ان تحتمل التذلل براحة ضمير ، ولم يفعل

---

* من التعميد : اول اسرار الدين المسيحى وباب النصرانية . وهى غسل الصبى وغيره بالماء باسم الاب والابن والروح القدس . **المترجمون** .

ذلك اى فرد من عائلتنا قط . من جراء ذلك فقد جدك حظوته ومات فى ياغودنويه غير آمل او منتظر فضل الامبراطور . اعتن بنفسك ، يايفغينى واستعد صحتك ، تذكر انك كل ما عندى فى هذه الدنيا . عمتك تبلغك حبها . انها بصحة جيدة . اما انا ، فليس ثمة ما اخبرك به ، فانت تعلم كيف اعيش . ترى كيف يمكن ان تؤول الامور فى الجبهة الى هذه الحال ؟ امن المعقول ان تخلو بلادنا من اناس ذوى فطنة ؟ لست اصدق اخبار الصحف . انها اكاذيب برمتها ، كمهدى بها فى السنين الخوالى . اثمة احتمال ان نخسر هذه الحملة يايفغينى ؟ اننى انتظرك فى البيت بفارغ الصبر» .

والحق ، لم يكن فى حياة ليستنتسكى الشيخ ما يكتب عنه ، فقد مضت متثاقلة كالسابق دون ان يطرأ عليها تغيير ، الا ان تكاليف اليد العاملة قد تصاعدت ، وشحت الكحول . كان رب البيت يشرب اكثر من عادته ، فازداد طبعه حدة ومشاكسة . وذات يوم استدعى اكسينيا وتبرم قائلا :

— انك لا تولين واجباتك عناية . لماذا كان فطور الامس باردا ؟ ولماذا لم تنظفى الاقداح كما ينبغى ؟ اذا حدث ذلك مرة ثانية سأستغنى عن خدمتك ، فاهمة ؟ انا لا اطيق الاهمال . أتسمعين ؟

ولوح بيده فى تهيج .

زمت اكسينيا شفتيها ثم انفجرت باكية :

— نيكولاى اليكسيفتش ! طفلتى مريضة . دعنى اعتنى بها بعض الوقت . انا لا استطيع تركها .

— ما بال الطفلة ؟

— يبدو عليها الاختناق .

— ماذا ؟ الحمى القرمزية ؟ لماذا لم تنطقى من قبل ، ايتها الحمقاء ؟ اسرعى واخبرى نيكيتيتش ان يذهب بالعربة الى فيشنسكايا لاحضار الطبيب . اسرعى !

فهرعت اكسينيا خارجة ، والعجوز يزمجر وراءها بصوته الجهورى العميق :

— انت ياحمقاء النساء ، ياحمقاء !

جاء نيكيتيتش بالطبيب صباح اليوم التالى ففحص الطفلة المغشية المحمومة ، وذهب الى السيد مباشرة دون ان يلتفت الى ضراعة اكسينيا ، فاستقبله الشيخ فى غرفة الانتظار دون ان يصافحه . وسأل الطبيب ، وهو يرد على تحيته بايماءة لا تنم عن اهتمام :

— حسنا ، مابال الطفلة ؟

— الحمى القرمزية ، ياصاحب السعادة !

— هل ستشفى ، اهناك امل ؟

— الامل ضئيل جدا . انها تحتضر . انها صغيرة السن .

فقال الشيخ وقد احمر وجهه : «انت ايها الاحمق ! علام درست الطب ؟ اشفها !» ثم صفق الباب بوجه الطبيب وراح يقطع الصالة جيئة وروحا .

طرقت اكسينيا الباب ودخلت :

— يريد الطبيب خيلا تقله الى فيشنسكايا .

فاستدار الشيخ على عقبيه وصاح ، وهو يهز قبضته العظمية :

— قولى له انك بليد العقل ! اخبريه انه لن يبارح هذا المكان حتى تتعافى الطفلة . اعطيه حجرة واطعميه واسقيه ما شاء . ولكنه لن يذهب .

وخطا الى النافذة ، ونقر عليها باصابعه ، ثم التفت الى

صورة لابنه وهو طفل بين ذراعى مربيته ، فخطا الى الوراء خطوتين وراح يتفرس فى الصورة ، وكأنه لا يستطيع معرفة الطفل .

حين انتاب طفلة اكسينيا المرض تملكها الاعتقاد بان الله يعاقبها لاساءتها الى ناتاليا . وفقدت توازنها تحت وطأة الاشفاق على حياة الطفلة ، فراحت تجول على غير هدى ، ولم تستطع القيام بعمل . «يقينا ان الله لن يأخذها الى جواره» كانت هذه الخاطرة المحمومة لا تنى تطرق رأسها ، فلم تسلّم ، وحاولت بكل جوارحها الا تسلم ، بان الطفلة ستموت ، فراحت تتضرع الى الله بجنون ، تسأله رحمة اخيرة ليحفظ حياة الطفلة .

لكن الحمى اخذت بخناق الروح الصغيرة ، فرقدت البنت على ظهرها ، وانبعثت الانفاس من حنجرتها الوارمة بشهقات قصيرة مبحوحة . ظل الطبيب يفحصها اربع مرات كل يوم ، وكل مساء كان يقف طويلا يدخن على عتبة جناح الخدم وهو شاخص بنظره الى النثار البارد لنجوم الخريف .

ومكثت اكسينيا طوال الليل جاثية الى جانب السرير . كانت حشرجة الطفلة المقرقرة تعتصر قلبها .

همست الشفتان الصغيرتان اليابستان :

— ماما . . .

فأنت الام :

— صغيرتى . بنيتى الصغيرة ، زهرتى ، لا تذهبى ، يا تانيا . انظرى ، يا حلوتى ، افتحى عينيك الصغيرتين ، عودى . ياحبيبتى ياسوداء العينين ! لماذا ، رباه ؟ . .

ومن حين لاخر كانت الطفلة تفتح اجفانها الملتهبة فتند من عينيها المحمرتين ومضة حيرى ، فتتشبث الام بالنظرة بنهم ، فتبدو البنت كالمنطوية على نفسها . وقد انتابها الحنين والاذعان .

ماتت البنت بين ذراعى امها ، فقد انفغر فمها الصغير للمرة الاخيرة واختلج جسدها . وانكفأ الرأس الصغير على ذراع الام ، وراحت العينان الميليخوفيتان الصغيرتان تحدقان بنظرة مأخوذة اسيانة .

حفر ساشكا العجوز قبرا صغيرا تحت شجرة حور شائخة على ضفة البحيرة ، وحمل التابوت الى القبر وواراه بعجالة غير مألوفة ، ثم انتظر فى صبر ريثما تنهض اكسينيا من الربوة الطينية . وحين عيل صبره ، تمخط بعنف ومضى الى الاسطبل . واخرج من المعلف قنينة من ماء الكولونيا وابريقا من الكحول المعدوم . فمزج الشرابين فى قنينة ، وتمتم وهو يرفع المزيج الى الضوء :

— فى ذكراها ! لتفتح مملكة السماء للصغيرة ابوابها ! لقد مات الملاك .

وعبّ من الشراب ثم هز رأسه بعنف وهو يغرز اسنانه فى الطماطة المخللة ، ثم حدق فى القنينة برقة ، وقال :

— لا تنسينى ، يا عزيزتى ، اما انا فلن انساك قط !

ثم اجهش باكيا . بعد ثلاثة اسابيع بعث يفغينى ليستتسكى برقية يقول فيها انه قادم الى اهله ، فارسلت عربة تجرها ثلاثة خيول لكى تلقاه فى المحطة ، وكان كل من فى الضيعة على احر من الجمر فى انتظاره . وقد ذبحت الديكة الرومية والاوز ، ونحر ساشكا العجوز خروفا . كانت الاستعدادات قمينة بحفلة راقصة ضخمة . وصل السيد الشاب ليلا . كان ثمة مطر بارد يساقط ، وفوانيس الفناء تلقى على البرك اشعة عابرة صغيرة . توقفت الخيل عند درجات الباب واجراسها تجلجل . فالقى يفغينى المبتسم عباءته الوثيرة الى ساشكا وخطا وهو يظلع قليلا صعد الدرج بانفعال . وهرع ابوه يلقاه ، مطيحا بالكراسى فى طريقه .

اعدت اكسينيا مائدة العشاء فى غرفة الطعام ، ثم ذهبت تدعوهما الى العشاء . وحين تطلعت خلال ثقب المفتاح رأت الشيخ يعانق ابنه ويقبله على كتفيه ، واللحم المترهل يرتعش على رقبته . انتظرت بضع دقائق ، ثم نظرت ثانية . كان يفغينى هذه المرة يركع على ركبتيه امام خارطة كبيرة منشورة على الارض ، والشيخ يدق على مسند الكرسى بعُقل اصابعه ، وينفث من غليونه سحبا من الدخان ، ويهدر ساخطا :

— الكسييف ؟ لا يمكن ذلك ! لا اصدق ذلك .

كان يفغينى يرد عليه بهدوء وهو يمرر اصابعه على الخارطة ليقنعه .

فاجاب الشيخ بصوت رصين عميق : «ان القائد العام ، والحالة هذه ، على خطأ . افتقار كلى للبصيرة . اسمع ، يفغينى ، سأورد لك مثلا مشابها من الحرب الروسية اليابانية . دعنى ! دعنى !»

طرقت اكسينيا الباب ، وتردد صوت الشيخ :

— ماذا ؟ العشاء جاهز ؟ نذهب حالا .

فخرج الشيخ منتعشا مرحا ، تشع عيناه بوميض الشباب . وشرب مع ابنه قنينة شراب معتق منذ عام ١٨٧٩ . وقد اشتد باكسينيا الشعور بالوحدة فيما كانت تخدمهما فترى البشر فى محياهما . . . كان يعذبها حنين لم تبلله الدموع . فقد ارادت ان تبكى بعد موت طفلتها ، بيد ان الدموع لم تواتها . كانت الغصة تتصاعد الى حلقها غير ان عينيها بقيتا جافتين ، فتضاعفت وطأة الحزن الخانق عليها . امست كثيرة النوم ، تنشد العزاء فى سباتها ، الا ان نداء الطفلة كان يتناهى اليها حتى فى نومها . فيخيل اليها ان الطفلة نائمة الى جوارها ، فتنقلب يدها تتحسس

على الفراش وهمسة «ماما ماما» ترن فى اذنيها . فتجيب بشفتين مثلجتين :

«أى حبيبتى .» وكانت حتى فى ضوء النهار المزعج تتصور ان الطفلة ازاء ركبتيها ، فتضيق على نفسها ويدها ممتدة لتداعب شعرها الأجعد .

جلس يفغينى بعد عودته بايام ثلاثة يسامر ساشكا العجوز فى الاسطبل ، الى وقت متأخر من المساء ، منصتا الى حكاياته الساذجة عن الحياة الطليقة التى عاشها القوزاق فى الايام الخوالى ، ثم بارحه فى بداية الساعة التاسعة . وكانت ثمة ريح شديدة تهب عبر الحوش ، والوحل يخشخش تحت قدميه . ومضى هلال اصفر العذارين يتواثب خلال السحب ، فنظر يفغينى على ضوئه الى الساعة ، ثم عرج الى جناح الخدم . توقف عند الدرج فاشعل سيكارة ولبث يفكر برهة ، ثم هز كتفيه وارتقى السلم بعزم . ورفع المزلاج حاذرا ، ثم فتح الباب ومضى الى غرفة اكسينيا واشعل عود ثقاب .

تساءلت وهى تجر الغطاء حولها :

— من هناك ؟

— انا ، لا غير .

— سأرتدى ملابسى فى الحال .

— لا تزعجى نفسك . لن ابقى الا لحظة او لحظتين .

القى معطفه وجلس على حافة السرير .

— اذن ، فقد ماتت ابنتك الصغيرة .

فهتفت اكسينيا مرددة :

— اجل ، ماتت . . .

— يبدو عليك تغير ملحوظ . بوسعى ان اخمن ما يعنيه

فقدان الطفلة عندك . ولكنى احسبك تعذبين نفسك دونما طائل ، فليس بامكانك ان تعيديها . مازلت شابة تستطيعين انجاب الاطفال . شدى حيلك ، اصبرى ثم انك على اية حال ، لم تفقدى كل شىء ، ما زالت الحياة برمتها امامك .

شد على يدها ، راح يربت عليها ملاطفا متسلطا فى آن واحد ، وهو يلعب باوتار صوته الواطئة . ثم خفض صوته فغدا همسا ، وحين سمع بكاء اكسينيا الكظيم ، شرع يلثم خديها وعينيها الخضلتين .

ما اسرع ما يستجيب قلب المرأة للرقة والعطف . كان اليأس قد اثقل عليها ، فلم تدرك ما هى فاعلة حين استسلمت له بكل عواطفها الجياشة التى طال عليها الرقاد . ولكنها ثابت الى رشدها حين همدت موجة النشوة العارمة الساحقة ، فصرخت بحدة ، وفقدت كل معانى الصواب أو الحياء فاندفعت راكضة الى سقيفة الباب وهى شبه عارية ، لا يسترها سوى قميصها . وهرع يفغينى يخرج فى اثرها ، تاركا الباب مفتوحا ، يرتدى معطفه اثناء سيره . وفيما كان يرتقى السلم الى شرفة المنزل تبسم راضيا مسرورا . شمله الشعور بالمرح . وحين آوى الى فراشه ، راح يدلك صدره اللدن المكتنز ، وهو يقول فى نفسه : «ان ما اتيته معيب يناقض الاخلاق ، من وجهة نظر الرجل الشريف . غريغورى . . . لقد سلبت جارى ، وعلى كل حال ، فقد عرضت حياتى للخطر فى جبهة القتال . فلو ان الرصاصة مالت الى اليمين قليلا لاخترقت رأسى ، وترتب على أن أكون الآن طعاما للديدان . على المرء ان يحيا هذه الايام بعواطفه كيفما اتفق . ان يوسعى ان افعل أى شىء .» وقد راعه برهة ما يدور فى افكاره ، بيد ان الخيال عاد به ثانية الى لحظة الهجوم ، وكيف انه رفع

نفسه من على حصانه الميت ليهوى ثانية ، وقد اصابه الرصاص . وفيما كان يغفو قرر أن «غدا نفكر فى هذا ، اما الآن فالى النوم» .

وصباح اليوم التالى ، حين وجد نفسه منفردا واكسينيا فى غرفة الطعام ، دنا منها ، وعلى محياه ابتسامة مذنبة . ولكنها التصقت بالجدار ، ومدت ذراعيها ، فالهبته بهمسها الحانق :

— ابتعد عنى ، ايها الشيطان !

ولكن الحياة تملى على الانسان شرائعها التى لم يسنها مخلوق . فما ان مضت ثلاثة ايام ، حتى ذهب يفغينى ثانية الى اكسينيا ليلا ، فلم تصده .

٢٣

كانت ثمة حديقة صغيرة ملحقة بمستشفى العيون . وفى ضواحى موسكو عديد من هذه الحدائق المشذبة غير الجذابة حيث لا تجد العين ما يزيح عنها وطأة المدينة الحجرية الثقيلة ، وحين يتطلع المرء الى هذه الحدائق تعود ذاكرته بألم اشد الى طلاقة الغابات الفطرية . وقد خيم الخريف على حديقة المستشفى فعلت ممراتها اوراق برتقالية وبرونزية ، وسحق زمهرير الصبح الازهار واغرق رقع الحشيش بأخضر مائى . كان المرضى فى الايام الصاحية يجوبون الممرات ، فينصتون الى اجراس كنائس موسكو الورعة . وحين يسوء الطقس (وكانت اغلب الايام عامئذ كذلك) فانهم يتجولون من ردهة الى اخرى او يستلقون على سررهم صامتين ، يبعثون السأم فى نفوسهم ونفوس الاخرين .

وكان المرضى المدنيون يشكلون غالبية نزلاء المستشفى ،

وقد افردت ردهة واحدة للجنود الجرحى ، وكانوا خمسة : يان فاريكيس ، وهو لاتيفى مديد القامة ، أزرق العينين ، له لحية عريضة ، وايفان فروبلفسكى ، وهو فارس وسيم من مقاطعة فلاديمير ، وحامل بندقية من سيبريا يدعى كوسيخ ، وجندى قمىء اصفر لا يقر له قرار ، يدعى بوردين ، وغريغورى . وفى اواخر ايلول اضيف اليهم رجل اخر .

كانوا يتناولون شاى المساء حين سمعوا رنين جرس متواصل . فاطل غريغورى الى الممر . كان ثلاثة اشخاص قد دخلوا الصالة : ممرضة ، ورجل يرتدى معطفا قفقاسيا طويلا يمسك بثالث من تحت ابطيه . ودلت قمصلة الجندى الوسخة ، وقد علت صدرها لطخ سود من الدم ، على انه جاء من المحطة لتوه . وقد اجريت له عملية فى المساء ذاته . وبعد ان ادخلوه صالة العمليات بيضع دقائق ، سمع المرضى الاخرون صوت غناء مكتوم . كان يغنى ويرسل شتائم مبهمة وهو واقع تحت تأثير الكلوروفورم فيما كان الجراح يزيل بقايا احدى عينيه التى مزقتها شظية قذيفة . وجىء به اثر العملية الى الردهة . وحين زال عنه اثر الكلوروفورم ، اخبر الاخرين انه جرح فى الجبهة الالمانية ، وان اسمه كارانجا ، وانه حامل رشاشة اوكرانى من مقاطعة تشرنيكوف . وقد اقام مع غريغورى ، الذى يجاوره السرير ، صداقة خاصة ، فكانا بعد التفتيش كل مساء يتسامران وقتا طويلا بصوت خفيض .

افتتح حديثه الاول قائلا :

— حسنا ، ايها القوزاقى ، كيف تجرى الامور ؟

— عفنة .

— هل ستفقد عينك ؟

— انا اتلقى حقنات الابر .

— كم تلقيت منها ؟

— ثمانى عشرة ، حتى الان .

— هل توجعك ؟

— كلا ، انا اجدها ممتعة .

— التمس منهم ان يقلعوا لك عينك .

— علام ؟ لا يجوز ان يكون الجميع عورا .

— صحيح .

كان جار غريغورى المغلّ الحاقد لا يرضيه شـــــىء . كان يشتم الحكومة ، والحرب ، وحظه ، وطعام المستشفى ، والطباخ والاطباء ، وكل ما يأتى على لسانه .

— علام حاربنا ، انا وانت ؟ هذا ما اريد ان اعرف .

— لنفس السبب الذى حارب لاجله كل الاخرين .

— هاه ! انت احمق ! على ان اجتر الامر ثانية من اوله الى آخره ! اننا نحارب من اجل البرجوازية ، الا ترى ذلك ؟ ومن هم البرجوازيون ؟ انهم طيور على الفاكهة .

وراح يفسر لغريغورى تلك الكلمات الصعبة ذارا على أقواله فلفلا من الشتائم . وكان غريغورى يقاطعه قائلا : «لا تسرع فى كلامك هذا . لا استطيع ان افهم رطانتك الاوكرانية . تكلم ببطء اكثر .»

— لست سريع الكلام هكذا يابنى . اتحسب انك تقاتل من اجل القيصر ؟ ولكن ما القيصر ؟ انه نهاب ، والقيصرة عاهرة ، وكلاهما عبء على كواهلنا . الا تفهم ؟ ان صاحب المعمل يشرب الفودكا ، اما الجندى فيقصع القمل . ان صاحب المعمل يجنى الارباح ، اما العامل فيعيش عريانا . هذا هو

النظام الذى لدينا . واصل خدمتك ، ايها القوزاقى ، واصل . ستنال وساما آخر ، وساما جيدا ، مصنوعا من خشب البلوط .

كان يتحدث بالاوكرانية ، ولكنه ، فى مناسبات نادرة ، حين ينفعل ، كان يتحول الى الروسية الصافية ويغدق عليها سبابا جما .

راح يكشف لغريغورى ، يوما بعد يوم ، حقائق كان يجهلها ، موضحا له الاسباب الحقيقية للحرب ، ساخرا مرّ السخرية من الحكومة الاوتوقراطية . وقد حاول غريغورى ان يعترض عليه ، بيد ان كارانجا كان يسكته باسئلة بسيطة ، قاتلة فى بساطتها ، فلا يجد بدا من الموافقة .

وافظع ما فى الامر ، ان غريغورى اخذ يعتقد ان كارانجا على حق ، وانه عاجز عن معارضته لانه لا يملك ما يعترض عليه به . وادرك بشعور من الرعب ان الاوكرانى الذكى الحانق يقوض ببطء وعزم كل ارائه السابقة عن القيصر ، والوطن ، وواجبه العسكرى كقوزاقى .

وخلال الشهر الذى اعقب مجيء الاوكرانى ، أمسى البناء الذى كانت ترتكز عليه افكار غريغورى حطاما ينبعث منه الدخان ، وكانت العفونة قد شاعت فيه قبل ذلك ، حيث تأكلته قروح الشعور بعبث الحرب ووحشيتها ، ولم يكن يعوزه الا رجة واحدة كى يتقوض ذلك البنيان . وقد أتت الرجة ، فاستيقظ ذهن غريغورى الساذج الطيب . كان يتخبط بحثا عن مخرج له ، عن حل لعقدته ، وقد سره ان يعثر على ذلك فى اجوبة كارانجا .

نهض غريغورى فى هزيع متأخر لاحدى الليالى وايقظ كارانجا . وجلس على حافة سرير الاوكرانى . كان ينساب خلال النافذة ضوء مخضوضر من قمر ايلول . وبدا خدا كارانجا داكنين

من كثرة الغضون ، وكان محجرا عينيه الاسودان يومضان . ثم تثاءب ودثر ساقيه بالبطانية .

— لماذا لم تنم ؟

فاجاب غريغورى :

— لا استطيع النوم . اوضح لى هذا الامر فحسب . الحرب تفيد البعض وتضر الاخرين ، اليس كذلك ؟

فتثاءب الاوكرانى قائلا :

— حسنا ؟

فهمس غريغورى وهو يتأجج غضبا : «مهلا ! انت تقول انك تساق الى حتفك لمصلحة الاغنياء . ولكن مابال افراد الشعب ؟ اليس ثمة من يوقظهم ، من يستطيع الذهاب اليهم ليقول : اخوانى ، من اجل هذا تموتون ؟»

— من يستطيع ذلك ؟ قل لى ؟ لنفرض انك قمت بذلك . ها نحن اولاء نتهامس كالاوز بين القصب ، ولكن ما ان ترفع عقيرتك بالصياح ، حتى يهيئوا لك رصاصة . ان الشعب غارق فى جهله . وستوقظه الحرب . فالرعد تتبعه العواصف .

— ولكن ماذا عسانا فاعلين بشأنها ؟ قل لى ، يا افعى ! لقد ايقظت قلبى .

— وماذا يقول لك قلبك ؟

فاعترف غريغورى قائلا :

— لا استطيع ان افهم ما يقول .

— ان من يدفعنى الى شفا الهاوية سوف يقع هو فيها . يجب الا نخشى ان ندير بنادقنا الى صدورهم . علينا ان نقتل الذين يسوقون الشعب الى الجحيم . — ثم رفع كارانجا جسمه قليلا على فراشه ، ومد يديه ، وهو يصر باسنانه : — ستطغى

موجة عارمة تودى بهم جميعا .

— انت تعتقد اذن ان كل شيء ينبغى ان يقلب رأسا على عقب ، اليس كذلك ؟

— اجلْ ، يجب ان نرمى الحكومة جانبا مثل خرقة بالية . ينبغى ان نجتز صوف الاسياد ، فقد طال عهدهم بتقتيل الناس .

— وماذا تراك فاعلا بالحرب حين تحصل على الحكومة الجديدة ؟ سنمضى فى الاحتراب ، وان لم نفعل ذلك نحن ، فان اطفالنا سوف يفعلون ذلك . انى لك اجتثاث الحروب ، وما فتئ الناس يقتتلون منذ عصور ؟

— هذا صحيح ، لقد استمرت الحرب منذ الازل ، وستستمر حتى نكنس الحكم الفاسد . ولكن حين تصبح كل الحكومات بيد العمال فانها ستكف عن الاحتراب . هذا ما ينبغى ان نفعله . وسوف يتحقق لنا ذلك ، وليوارهم الشيطان جميعا ! سوف يكون ذلك . فحين يقيم الالمان ، والفرنسيون ، والاخرون كلهم ، حكومات العمال والفلاحين ، علام نتحارب حينذاك ؟ لتزل الحدود ، ليزل الغضب ! حياة حلوة واحدة فى ارجاء الدنيا بأسرها . آه ! . .

وتنهد كارانجا ، ثم ابتسم حالما وهو يفتل طرفى عذاريه ، وعينه الوحيدة تومض :

— غريشا ، انى على استعداد لان اريق دمى قطرة اثر قطرة كى ترى عينى ذلك اليوم . قلبى يلتهب .

وامتد بهما الحديث حتى مطلع الفجر . وحين لاحت الظلال الرمادية استسلم غريغورى الى رقاد مضطرب .

ايقظه فى الصباح صوت كلام ونحيب . كان ايفان فروبلفسكى

مستلقيا على وجهه يبكى فى فراشه . وقد وقفت من حوله الممرضة ويان فاركيس وكوسيخ . فزمجر بوردين ، مخرجا رأسه من تحت اغطية الفراش :

— علام يعول ؟

فاجابه كوسيخ بنبرة فيها من الضغينة اكثر مما فيها من شفقة .

— كسر عينه . اخرجها لتوه من القدح فسقطت على الارض .

كان المانى متجنس بالجنسية الروسية ، يبيع العيون الصناعية ، قد دفعه شعوره الوطنى الى تزويد الجيش بمنتجاته مجانا . وفى اليوم السابق كانوا قد ركبوا لفروبلفسكى عينا زجاجية صنعت بمهارة جعلتها تبدو بزرقة عينه الحقيقية تماما . كانت صناعتها من الكمال بحيث يعجز الفاحص المتمعن ان يميز العين الحقيقية من المقلدة ، فظل فروبلفسكى بسببها ضاحكا جذلا كالطفل .

وقد قال بلهجة اهل الفولغا المتراخية :

— سأرجع الى اهلى ، واحصل على اية فتاة أريد . سأتزوج ، وبعدئذ ساعترف بأن عينى زجاجية .

فقهقه بوردين قائلا :

— يا للشيطان ! سيفعل ذلك .

واذا بالحادث يقع ، وها هو الفتى الوسيم سيرجع الى قريته اعور العين اشوه . فواساه غريغورى قائلا :

— سيعطونك عينا جديدة ، لا تنعب .

فرفع فروبلفسكى وجهه المبتل بالدمع من على الوسادة ، كاشفا عن محجره الخاوى :

— كلا ، لن يعطونى . لقد كلفت تلك العين ثلاثمئة روبل . لن يعطونى عينا جديدة قط .

فقال كوسيخ باعجاب وحماس :

— يالها من عين ! كم كانت دقيقة الصنع !

وبعد الفطور ذهب فروبلفسكى الى حانوت الالمانى بصحبة الممرضة ، فاعطاه عينا جديدة . وهتف فروبلفسكى ، وقد جن فرحا :

— عجبا ، الالمان افضل من الروس ! ان تاجرا روسيا لن ينفحك كوبيكا ، ولكن هذا اعطانى عينا جديدة دون ان ينبس بشىء .

انقضى شهر ايلول . ومضت الايام متثاقلة لا نهاية لها ، يملؤها سأم مميت . ففى الساعة التاسعة صباح كل يوم يقدم الشاى للمرضى مع شريحتين شفافتين بائستين من الخبز ، وفص من الزبدة بحجم ظفر الاصبع . وكان الجوع لا يفارقهم حتى بعد تناول الغداء . ثم يشربون الشاى فى المساء ثانية ، فيرتشفون معه الماء البارد لمجرد التنويع . وقد تغير مرضى الردهة العسكرية (هكذا اصبح المرضى يسمون ردهة الجنود الجرحى) . فرحل السيبيرى اولا ، ثم اعقبه اللاتيفى . ثم صرف غريغورى فى أواخر تشرين الاول .

فحص جراح المستشفى عينيه وقرر أن بصرهما بحالة مرضية . ولكنه نقل الى مستشفى اخر نظرا لان جرح رأسه انفتح على غير انتظار وأخذ يتقيح قليلا . وقال غريغورى وهو يودع كارانجا :

— اترانا نلتقى ثانية ؟

— الجبلان لا يلتقيان ، ولكن . . .

— حسنا يا جار ، اشكرك لتبصرتى . وبوسعى الان ان ارى . واصبحت حاقدا .

— حين تعود الى كتيبتك أنقل للقوزاق الاخرين ما قلته لك .

— سأفعل ذلك .

— واذا صادف أن جئت الى منطقة تشيرنيكوف فى قرية كوروخوفكا اسأل عن الحداد اندريه كارانجا ، وساكون مسرورا لرؤيتك . الى اللقاء ، يا فتى .

تعانقا . ولبثت فى ذاكرة غريغورى طويلا صورة الاوكرانى بعينه العوراء ، والخطوط اللطيفة تمتد من فمه عبر خديه المصفرين .

امضى غريغورى فى المستشفى الثانى عشرة أيام . وقد راحت تراود ذهنه قرارات لما تتخذ شكلها النهائى بعد . كانت تعاليم كارانجا الثورية تعتمل فى دخيلته . فلم يتحدث الى جيرانه فى الردهة الا لماما ، واتسمت كل حركاته بشىء من الاضطراب والحذر .

واعتبره رئيس الاطباء «رجلا قلقا» حين القى الى وجهه غير الروسى نظرة عاجلة اثناء الفحص الاول .

وقد انتابت غريغورى الحمى فى الايام القليلة الاولى ، فلزم فراشه ولبث ينصت الى طنين يدوى فى اذنيه .

ثم طرأ حادث .

قدم شخص مرموق ، من افراد العائلة الامبراطورية ، لزيارة المستشفى . وقد ابلغ الاطباء والممرضات بالنبأ صباحا ، فراحوا يتراكضون هنا وهناك كالفئران فى مخزن تلتهمه النيران . فغيروا ملابس الجرحى وبدلوا اغطية الاسرة قبل اوانها . وقد بلغ الامر باحد الاطباء ان حاول تلقين المرضى كيف يجيبون

على اسئلة شخصية مرموقة ، وكيفية التحدث اليها . وسرت عدوى القلق الى المرضى كذلك ، فشرع بعضهم يتحادث همسا قبل حلول موعد الزيارة بوقت طويل . وارتفع عند الظهر صوت بوق سيارة ، فمر الشخص المرموق عبر بوابة المستشفى يرافقه العدد المألوف من الموظفين والضباط . وقد أكد احد المرضى لزملائه بعد ذلك ، وكان رجلا مرحا مضحكا ، ان علم الصليب الاحمر المعلق خارج المستشفى اخذ يرفرف خافقا على حين غرة لحظة دخول الزوار المرموقين رغم صفاء الطقس وركود الهواء على غير عادته ، كما ان الرجل الانيق بخصلات شعره الجميلة المرسوم على رقعة حلاق فى الجانب الاخر من الشارع قد انحنى مطأطئا بالفعل . طاف الوجيه المرموق بالردهات ، موجها الاسئلة السخيفة المعهودة التى تناسب مركزه ومقامه . فأجابه المرضى ، وعيونهم تحملق اكثر من اللازم ، وفق تعليمات الطبيب المساعد : «تماما ، يا صاحب السمو الامبراطورى» و«لا ، ابدا ، يا صاحب السمو الامبراطورى» وكان رئيس المستشفى يعقب على اجوبتهم وهو يتلوى كحية العشب حين تخزقها المذراة ، كان منظره يثير الاشفاق حتى لدى من ينظر اليه من بعيد . وقد وزع الامير ايقونات صغيرة على الجنود . ثم اندفع حشد البزات المتألقة وموج العطور الفواحة الثمينة نحو غريغورى . كان واقفا بجانب سريره ، طويل اللحية ، هزيل البدن ، محموم العينين . وقد فضحت انفعاله تلك الاختلاجة الطفيفة البادية على البشرة السمراء التى تعلو عظمى وجنتيه .

كان يقول فى سريرة أفكاره : «ها هم اولاء ! ها هم الذين يتلهون بسوقنا من قرانا ودفعنا الى الهلاك . آه ! يا للخنازير ! عليهم اللعنة ! ها هو القمل العالق بظهورنا . أمن اجلهم وطئنا

قمح الاخرين بخيلنا ، وقتلنا الغرباء ؟ أمن أجلهم زحفت فوق جذامات القمح باكيا ؟ والذعر الذى حل بنا ؟ لقد انتزعونا من عوائلنا وسامونا الجوع فى الثكنات . اثقلت تلك الافكار اللاهبة رأسه وارتعشت شفتاه حنقا : «انظر الى وجوههم السمينة اللماعة ! لو كان الامر بيدى لارسلتكم الى هناك ، عليكم اللعنة ، لاضعنكم على الخيل ، والبنادق على ظهوركم ، واحملكم بالقمل ، واطعمكم خبزا متعفنا ولحما مدودا !»

راحت عينا غريغورى الضجرتان تنخران ضباط الحاشية ذوى الوجوه الناعمة ، ثم استقرتا على خدى الامير المتهدلين .

تكلف رئيس المستشفى بالابتسام وهو يشير الى غريغورى ويقول : «من قوزاق الدون ، انه يحمل وسام القديس غيورغى .» وقد اوحت نبرات صوته وكأنه هو الذى نال الوسام . فسأل الامير ، وقد تأهب لاعطاء الايقونة :

— من اى منطقة ؟

— من فيشنسكايا ، يا صاحب السمو الامبراطورى .

— كيف نلت الوسام ؟

لاح السأم والتخمة فى عينى الامير الصافيتين الخاويتين . وقد تكلف رفع حاجبه الايسر لكى يضفى على وجهه المزيد من سيماء العظمة . احس غريغورى بالبرد لحظة واعتمل فى داخله احساس ممزق . كان يستشعر احساسا كهذا وهو ينطلق صوب المعركة . فالتوت شفتاه واختلجتا دون ارادته :

— عفوك . . . اننى بحاجة ماسة الى أن — يا صاحب السمو — انها حاجة صغيرة فحسب .

ثم ترنح غريغورى ، وكان ظهره قد قصم ، واشار الى تحت السرير .

ازداد حاجب الامير الايسر ارتفاعا ، والتفت ، وقد انفرجت شفتاه دهشة ، صوب جنرال اشيب ، يقف بجانبه فسأله شيئا بالانكليزية ، واعترى افراد الحاشية حرج لا تكاد العين تلمسه . فقد مس ضابط طويل القامة ، يحمل شارات كتف مقصبة ، عينه بيده ذات القفاز الأبيض ، وطأطأ ثان رأسه ، والتفت ثالث الى جاره بنظرة مستفهمة . وتبسم الجنرال الاشيب باحترام ، ورد على صاحب السمو الامبراطورى بالانكليزية ، وقد سر صاحب السمو ان يدس الايقونة فى يد غريغورى ، وينعم عليه بشرف لا يدانى حين لمسه من الكتف .

ولما بارح الضيوف هوى غريغورى على سريره ، فدفن رأسه فى وسادته ، ورقد بضع دقائق ، وكتفاه يهتزان . ولم يكن بالوسع ان يتبين المرء ما اذا كان يبكى ام يضحك . ثم نهض جاف العينين . وقد استدعى الى غرفة رئيس المستشفى فى الحال .

بادره الطبيب وهو يدعك باصابعه لحيته التى تحاكى بلونها الفأر :

— ايها الجلف الفظ !

فرد غريغورى ، وهو يخطو نحو الطبيب : «لست جلفا ، يا خنزير ! اني لم ارك فى الجبهة .» ثم استعاد زمام نفسه ، فقال بهدوء : «ارسلنى الى اهلى .»

تقهقر الطبيب خلف مكتبه وهو يقول بلطف : «سنرسلك ! بوسعك ان تذهب الى الشيطان !»

خرج غريغورى وشفتاه تختلجان ابتساما ، وعيناه تشعان

بريقا . وقد حرم من طعامه ثلاثة ايام لسلوكه الفظيع ، الذى لا يغتفر ، فى حضرة الامير . ولكن رفاقه فى الردهة مدوه بالطعام ، فضلا عن الطباخ ذى القلب الرقيق الذى كان مصابا بالفتق .

٢٤

فى مساء الرابع من تشرين الثانى بلغ غريغورى أول قرية من قرى منطقته وهو فى طريقه من المحطة . لم تكن ياغودنويه لتبعد عن تلك القرية الا بضعة فرسخات . وبينا هو سائر فى الشارع كان الفتيان ينشدون اغنية قوزاقية قديمة تحت ظلال الصفصاف على الشاطئ :

ينطلق القوزاق على الخيل بسيوف وهاجة . . .

اعترت الرجفة قلبه ، وتحجرت عيناه اذ راح يصغى الى تلك الكلمات المألوفة وظلت الاغنية تلاحقه وهو سائر عبر القرية يتنسم بنهم رائحة الدخان المتصاعدة من المداخن .

«وانا الاخر كنت انشد هذه الاغنية ، ولكن صوتى قد ذهب الآن ، وحالت الحياة دون ان اتم اغنيتى . ها انا ماض للعيش مع زوجة رجل اخر ، لا ركن لي ، لا بيت لى ، كأننى ذئب» هذا ما دار فى خلده ، وهو سائر بخطى متواصلة كليلة ، يبتسم بمرارة من حياته التى كانت ملتوية على نحو غريب . وارتقى التل خارجا من القرية ، ثم التفت من على قمته لينظر خلفه . كان الضوء الاصفر ينبعث خلال النافذة من فانوس معلق

فى اخر منزل وابصر فى الضوء امرأة كهلة تجلس الى دولاب غزل .

مضى سائرا خلال العشب الرطب المتجمد على حافة الطريق . وبات ليلته فى قرية صغيرة ، ثم استأنف رحلته حالما اطل الصباح . بلغ ياغودنويه عند المساء ، فقفز عبر السياج ومر قرب الاسطبل ، فاستوقفه سعال ساشكا ، فصاح :

— هل انت نائم ، ايها الجد ساشكا ؟

— مهلا ؟ انا اعرف الصوت . من هذا ؟

خرج ساشكا ، وهو يلقى معطفه العتيق حـــــول كتفيه :

— يا اباءنا القديسين . . . غريشا ! من اين اتيت بحق الشيطان ؟

وتعانقا . ثم قال ساشكا وهو يصعد الى وجه غريغورى :

— ادخل ودخن سيكارة .

— كلا ، ليس الآن . سآتى غدا . انا . . .

— قلت لك ، ادخل .

فدخل غريغورى وراءه على مضض ، وجلس على المقعد الخشبى ريثما ينتهى العجوز من نوبة سعاله .

— حسنا ، ايها الجد ، انت ماتزال حيا ، اذن . ماتزال تدب على الارض ؟

— آه انا كحجر الصوان لا يبلينى شىء .

— وكيف حال اكسينيا ؟

— اكسينيا ؟ الحمد لله ، انها على مايرام .

وسعل العجوز بعنف فعرف غريغورى انه يصطنع السعال لاخفاء حرجه .

— اين دفنتم تانيا ؟

— فى البستان تحت شجرة حور .

— حسنا ، حدثنى بكل ما عندك من اخبار .

— ان سعالى يسبب لى متاعب جمة ياغريشا .

— حسنا ؟

— اننا جميعا على قيد الحياة وبصحة جيدة . وان السيد يفرط فى الشراب بجنون ، باللاحمق .

— كيف حال اكسينيا ؟

— انها وصيفة البيت الآن . هلا دخنت . جرب تبغى من الدرجة الاولى .

— لا اريد ان ادخن . تكلم ، والا ذهبت ! اشعر . . . — واستدار غريغورى بقوة فصر المقعد من تحته . — اشعر انك تخفى عنى شيئا ، كحجر تحت معطفك . ارم به !

— وسأرمى به ! لا اقدر على السكوت ، ياغريشا ، سيكون معيبا .

فقال غريغورى «قل لى ، اذن .» والقى يده على كتف العجوز برقة . وانتظر حانيا ظهره .

فصاح ساشكا على حين غرة بصوت فظ حاد :

— كنت تربى حية . كنت تطعم ثعبانا . انها تعبث مع يفغينى .

وانساب خيط من اللعاب اللزج حدر ذقن العجوز الذى تعلوه الندبة ، فمسحه وجفف يده على سرواله .

— أحقا ما تقول ؟

— لقد رأيته بأم عينى . انه يذهب اليها كل ليلة . اظنه معها الآن .

— هكذا الامر اذن !

طقطق غريغورى عقل اصابعه ، وجلس مدة طويلة محدودب الظهر وعضلات وجهه تختلج .

وكان فى اذنيه طنين هائل رنان .

قال ساشكا :

— المرأة كالقطة تتودد الى كل من يداعبها . لا تثق بهن ، ولا توليهن ثقتك .

لف ساشكا سيكارة ودسها فى يد غريغورى قائلا : «دخن !»

جر غريغورى نفسين أو ثلاثة من السيكارة ثم اطفأها بين اصابعه وخرج دونما كلمة . توقف عند نافذة جناح الخدم ، وهو يلهث بشدة ، وقد رفع يده عدة مرات ليطرق بها ، ولكنها كانت تنكفىء فى كل مرة ، وكأنها قد نحيت بضربة . وحين طرق النافذة اخر الامر ربت عليها باصابعه فى البداية ، الا ان صبره نفد فاهوى بثقله على الحائط وراح يضرب النافذة بجمع يده ، فجعل الاطار يرن مع الضربات ، ونور الليل الازرق يتلامع مع الزجاج .

فظهر وجه اكسينيا المرتعب فى النافذة هنيهة ، ثم فتحت الباب فندت عنها صرخة خافتة . احتضنها وهو يرى الى عينيها .

— طرقت بشدة فارعبتنى . كنت نائمة . لم أكن اتوقع مجيئك ، ياعزيزى .

— انا متجمد الاوصال .

احست اكسينيا جسمه الهائل يرتجف بعنف رغم ان يديه ساختتان كالملتهبتين .

واحدثت جلبة لا داعى لها ، فاشعلت المصباح ، وتراكضت فى ارجاء الغرفة وعلى كتفيها الابيضين المكتنزين شال ازغب واخيرا اشعلت النار فى الموقد .

— لم اتوقع مجيئك . لم تكتب لى منذ زمن طويل . حسبت انك لن تعود . هل تسلمت اخر رسائلى ؟ كنت سارسل لك رزمة ، ولكننى آليت التريث علنى اتسلم منك رسالة . . .

كانت تخاوص النظر الى غريغورى وقد تجمدت ابتسامة على شفتيها الحمراوين .

جلس غريغورى على المصطبة دون ان يخلع معطفه . كان خداه غير الحليقين يضطرمان ، وقد انحجبت عيناه المسبلتان بياقة معطفه . ثم شرع يفك ازرار الياقة ، ولكنه تململ فجأة ليتحسس كيس تبغه . وراح يبحث فى جيوبه عن ورقة . ومر بعينيه على وجه اكسينيا بشوق لا حد له .

لقد ازدادت حسنا شيطانيا اثناء غيبته . كان رأسها الجميل شامخا بمهابة لا عهد له بها ، ولم يبق على سابق حاله سوى عينيها وجعدات شعرها الوبرى الكبيرة . لكن هذا الجمال العارم الساحق لم يعد ملك يده . كيف له ان يستحوذ عليه ، وهى خليلة ابن صاحب الضيعة ؟

— انك فى مظهرك اشبه بوصيفة بيت منك بخادمة .

فالقت اليه نظرة وجلة ثم تضاحكت غصبا .

جر غريغورى صرته وراءه ، ومضى نحو الباب .

— الى اين انت ذاهب ؟

— لكى ادخن .

— قليت لك بعض البيض .

— لن أتأخر .

فتح غريغورى الصرة على الدرج واخرج من باطنها عصابة رأس منقوشة باليد وقد لفت بعناية فى قميص نظيف . كان قد ابتاعها من تاجر يهودى فى جيتومير لقاء روبلين ، وقد حافظ

عليها كما يحافظ على حدقة عينيه ، كان يخرجها احيانا ويمتع ناظريه بوفرة الوانها القزحية ، ويستبق مذاق الفرحة التى ستغمر اكسينيا وهى تنشر العصابة امامها . يا لها من هدية تعيسة ! أبوسعه ان ينافس بهدايا ابن ملاك ثرى ؟ ومزق العصابة اربا ثم دسها تحت الدرج وهو يكبح نوبة من البكاء الجاف . ثم القى الصرة على المصطبة فى المجاز وعاد الى الغرفة .

— اجلس ، وسانزع عنك جزمتك ، ياغريشا .

وراحت تشد حذاء غريغورى العسكرى الثقيل بيدين بيضاوين طلقتا العمل الشاق منذ حين . ثم جثت عند ركبتيه تبكى بصمت لوقت طويل . فتركها غريغورى تبكى ما شاءت ثم سألها قائلا :

— ما خطبك ؟ الا تسرك رؤيتى ؟

وحين هجع الى فراشه استسلم للنوم بسرعة . وخرجت اكسينيا الى الدرج وليس عليها سوى قميصها . وقفت فى مهب الريح الباردة النفاذة ، وذراعاها يعانقان العمود الرطب ، وراحت تصغى الى مرثاة الجنائز ترتلها ريح الشمال العاصفة ، ولبثت على حالها تلك حتى مطلع الفجر .

وفى الصباح ، القى غريغورى معطفه على كتفه ومضى نحو الدار . كان الشيخ واقفا على الدرجات وقد ارتدى سترة من الفرو وقبعة استراخانية صفراء .

— عجبا ! هو ذا حامل وسام القديس غيورغى ! ولكنك غدوت رجلا ، يا صاحبى !

ثم حيا غريغورى ومد له يده .

— هل ستبقى طويلا ؟

— اسبوعين ، ياصاحب السعادة .

— لقد دفنا ابنتك ، واسفاه . واسفاه . . .

لبث غريغورى صامتا . ثم خرج يفغينى وهو يلبس قفازه .

— ماذا ، هذا غريغورى ، من اين قدمت ؟

اسودت الدنيا فى عينى غريغورى ولكنه تبسم قائلا :

— عدت من موسكو ، باجازة .

— لقد جرحت عينك ، اليس كذلك ؟ سمعت بهذا . لقد غدا فتى رائعا اليس كذلك يا بابا ؟

وأومأ الى غريغورى ثم استدار نحو الاسطبل مناديا الحوذى :

— الحصان ، يانيكيتيتش !

فاتم نيكيتيتش الرزين شد الحصان بالعربة الخفيفة ، ثم قاد الحصان الاشهب الخباب الى الدرجات ، وهو يحدج غريغورى بنظرة عدائية . وخشخشت الارض المتجمدة تحت عجلات العربة . فالتفت غريغورى صوب يفغينى بابتسامة متوددة وقال بلهجة فيها رجاء :

— ياصاحب السعادة ، دعنى اسوق مركبتك بحق الايام الخوالى .

فقال يفغينى فى نفسه ، «ياللفتى المسكين ، انه لايدرى .» وابتسم راضيا ، والتمعت عيناه من وراء نظارتيه المعلقتين على انفه . ثم قال :

— لا بأس ، اصعد .

فقال ليستنتسكى الشيخ ، وهو يبتسم متلطفا :

— ماذا ، لم تكد تصل ، وها انت ذا ستترك زوجتك الشابة . الم تفتقدها ؟

ضحك غريغورى قائلا :

— ليست الزوجة دبا . انها لن تهرب الى الغابة .

اعتلى مقعد السائق ودس السوط تحته ثم لم الاعنة فى يده .

— آه ، سأمتعك بسياقة ، يايفغيني نيكولايفتش !

— سق جيدا ، وسانفحك بقشيش .

— الم انل ما فيه الكفاية لكى اشعر بالامتنان . . . اننى ممتن لك لاطعامك . . . اكسينيا . . . لاعطائها كسرة . . .

انقطع صوت غريغورى فجأة ، فاشاع شك غامض مزعج اضطرابا فى نفس الملازم : «أمن المؤكد انه لا يعـــرف طبعا لا ! كيف يسعه ؟» ثم اتكأ فى مقعده واشعـــل سيكارة .

ونادى ليستتسكى الشيخ وراءهما قائلا :

— لا تتأخرا .

وتطاير مثار الثلج من تحت العجلات كالابر .

جر غريغورى على فم الحصان بالعنان واستحثه الى اقصى سرعته . ولم تمض خمس عشرة دقيقة حتى اجتازا الربوة ، وما ان بلغا اول وهدة ، حتى قفز غريغورى الى الارض ، وسحب السوط من تحت المقعد .

فقال الملازم عابسا :

— ما الامر ؟

— سأريك !

لوح غريغورى سوطه وانزله بقوة مريعة على وجه الملازم . ثم امسك بالسوط من مجلدته ، وراح يضرب الضابط بمقبضه على وجهه وذراعيه دون ان يتيح له وقتا للنهوض . وقد اصابت ليستتسكى شظية من زجاج عويناته فوق حاجبيه ، فانساب الى عينه خيط من الدم . وقد غطى أول الامر ، وجهه بيديه ، غير ان الضربات تعاقبت عليه بسرعة متزايدة ، فوثب على قدميه ، وقد شوه الدم والهياج وجهه ، فحاول ان يذود عن نفسه ،

بيد ان غريغورى تراجع وشل ذراع الضابط بضربة على معصمه .

— هذه من اجل اكسينيا ! وهذه من اجلى ! من اجل اكسينيا ! واخرى من اجل اكسينيا ! من اجلى .

راح السوط يصفر والضربات تتعاقب بصوت طامس واخيرا طرح غريغورى يفغينى على نتوءات الطريق الوعرة ، وراح يدحرجه على الارض ، وهو يركله بوحشية بكعب حذائه المغطى بالحديد . وحين لم تعد فيه قوة تساعد على المضى ، اعتلى مقعد العربة وعاد ينهب الارض نهبا وهو يكاد ينهك قوى الحصان . وترك العربة عند البوابة وامسك بالسوط ، واندفع الى جناح الخدم متعثرا بأذيال معطفه المفتوح .

وحين اصطفق الباب وانفتح تلفتت اكسينيا حولها .

— يا افعى ! ياعاهرة !

وصفر السوط فالتف حول وجهها .

اندفع غريغورى الى الحوش وهو يلهث ناشدا الهواء ، ثم غادر الضيعة دون ان يلتفت الى تساؤلات ساشكا . وحين قطع مسافة بضعة فرسخات ادركته اكسينيا . فمضت تسير الى جانبه صامتة . وهى تلهث بشدة ، وتجركمه بين حين واخر . وعند مفترق الطريق ، وقرب المصلى البنى المثبت على جانبه ، قالت له بصوت غريب ناء :

— غريشا ، اغفر لى !

فكشر عن اسنانه ، واحنى كتفيه ، وهو يرفع ياقة معطفه وترك اكسينيا واقفة عند المصلى ، ولم يلتفت مرة ، ولم ير يدها ممدودة اليه .

وحين بلغ قمة التل المطل على تنارسكى وجد انه ما يزال ممسكا بالسوط ، فالقى به جانبا ، وانحدر الى القرية . والتصقت

وجوه الناس بزجاج النوافذ وقد اخذتهم الدهشة لرؤيته ، وانحنت النسوة تحية له وهو يمر بهن .

وعند بوابة حوش بيته ، هرعت حسناء ، ضامرة القد ، سوداء العينين ، لتلقاه ، فالقت ذراعيها حول عنقه ودفنت رأسها فى صدره . فضم غريغورى خديها بين يديه ورفع رأسها فوجد انها دونيا .

وظلع بانتلاى بروكوفتش هابطا درجات الباب ، وسمع امه تشرع فى البكاء داخل الدار . واحتضن اباه بيده اليسرى ، وكانت دونيا تقبل يمناه .

تناهى الى سمعه صرير الدرجات الذى كان مألوفا لديه الى حد الايلام ، ثم وجد نفسه فى سقيفة الباب . وجرت امه العجوز اليه بخطوات سريعة كالفتاة ، فبللت ياقة معطفه بدموعها ، واحتضنت ابنها وشدته اليها ، وهى تتمتم باشياء لا رابطة بينها بلغة الامومة التى لا يسع المرء ان يعبر عنها بالكلمات ، وكانت ناتاليا واقفة عند الباب ، متشبثة به مخافة السقوط ، وقد ارتسمت على وجهها الشاحب ابتسامة معذبة . واذ اصابتها نظرة غريغورى الخاطفة الشاردة ، كادت تهوى الى الارض . . .

* * *

وحين اوى بانتلاى بروكوفتش وزوجته الى فراشهما تلك الليلة لكز زوجته فى ضلوعها وهمس :

— اذهبى بهدوء وانظرى ان كانا مضطجعين معا أم لا ؟

— لقد اعددت فراشهما على السرير .

— ولكن اذهبى ، وانظرى ، انظرى !

نهضت ايلنتشنا واسترقت النظر خلال شق الباب المؤدى الى غرفة .

— انهما سوية .

فنشج الشيخ وهو ينهض على مرفقيه ويرسم على نفسه اشارة الصليب :

— الحمد لله ! الحمد لله !